جامعة اليرموك
كلية الآداب
قسم التاريخ

القلاع في شمال فلسطين في فترة الصراع الفرنجي الإسلامي (٤٩٢-٦٩١هـ/١٠٩٩-١٢٩١م) "دراسة تاريخية استراتيجية"

إعداد

[illegible]بد الفتاح الصوافي

إشـراف

الأستاذ الدكتور محمد عيسى صالحية

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي
بكلية الآداب، قسم التاريخ بجامعة اليرموك

١٩٩٧م

القلاع في شمال فلسطين في فترة الصراع الفرنجي الإسلامي (٤٩٢-٦٩١هـ/١٠٩٩-١٢٩١م)

دراسة تاريخية استراتيجية

إعداد

طالب عبد الفتاح الصوافي

بكالوريوس تاريخ-جامعة بيرزيت-١٩٩٢م

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي بكلية الآداب قسم التاريخ بجامعة اليرموك

لجنة المناقشة

أ.د محمد عيسى صالحية **مشرفاً ورئيساً**

أ.د مصطفى الحياري **عضواً**

د. منى حمّاد **عضواً**

١٩٩٧م

الإهداء

NASSER CENTER

إلى رمز المحبة والعطاء ... والديّ الأعزاء

إلى من قدم لي بسخاء ... أخوتي الفضلاء

إلى من علمني وشجعني على مواصلة العلم

إلى أطهر وأقدس بلاد الأرض ... فلسطين

أهدي ثمرة هذا الجهد المتواضع

طالب

شكر وتقدير

أرى لزاماً عليّ بعد أن وفقني الله على إخراج هذا البحث إلى حيز الوجود أن أعترف بالشكر والتقدير لك من سهّل عليّ مهمتي. وعليه أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الإمتنان لأستاذي الفاضل الدكتور محمد عيسى صالحية على ما حفاني به من طيب المعاملة، والتوجيه السليم طوال فترة إعداد البحث، حيث أعطاني من وقته الثمين الكثير وأمدني بنصحه وإرشاده، فكان مثال الأب الحاني على ابنه، فله مني كل الشكر والتقدير، وأسئل الله أن يبقيه ذخراً وسنداً ومساعداً لطلبة العلم.

وأقدم شكري وامتناني إلى الأستاذ الدكتور مصطفى الحياري والدكتورة منى جمعة حمّاد لتفضلهما بمناقشة الرسالة. ولا يسعني أيضاً إلا أن أقدم الشكر إلى الأساتذة الكرام في قسم التاريخ في جامعة اليرموك. وأخص بالذكر الدكتور يوسف غوانمة الذي شجعني على إختيار الموضوع ولم يبخل علي بتوجيهاته طوال فترة الدراسة. والدكتور سليمان خرابشة الذي زودني بالعديد من المصادر الأولية حول الموضوع. وإلى الدكتور نعمان جبران لما قدمه لي من نصح وإرشاد منذ قبولي في الجامعة وحتى إعداد هذه الرسالة. فلهم مني جميعاً كل الشكر والتقدير.

وشكري الخاص إلى الدكتور سعيد البيشاوي على كل ما تفضل به من تزويدي بالعديد من المصادر والدراسات الأولية الأجنبية التي أفادت هذه الداسة. كما وأشكر الأساتذة الكرام في قسم التاريخ في جامعة بيرزيت وأخص بالذكر الدكتور المربي الفاضل كمال عبد الفتاح رئيس القسم لما قدموه لي من تشجيع ومتابعة طوال فترة الدراسة.

ولا يسعني أيضاً إلا أن أتقدم بجزيل الشكر إلى جامعة اليرموك وخاصة أسرة

مكتبتها لتسهيلهم لمهمتي أثناء فترة الدراسة. وكذلك إلى أسرة مكتبة الجامعة الأردنية.

وفي النهاية أرى من واجبي أن اشكر والدي وأخوتي وأخواتي وأعمامي الذين كانوا عوناً مادياً ومعنوياً لي طيلة فترة الدراسة وخاصة عزمي ويوسف وعبد اللطيف.

وكل الشكر والتقدير للأخوة الزملاء : عصام جبران ومحمد جبران وجمال فرج الله، وعكرمة شهاب، ومحمد ثوابتة، ويوسف الجلاد، ومحمود الطل، وكمال قدورة، وسيما حسن، الذين تفضلوا بترجمة بعض النصوص الأجنبية وإلى محمد الحروب وسعيد صافي اللذان زوداني ببعض النصوص الأجنبية المترجمة. وإحسان عبد اللطيف وفؤاد دويكات الذين دققوا الرسالة لغوياً.

وكذلك لا أنسى فضل العاملين في مركز ناصر للخدمات الجامعية/اربد، وخاصة السيد سائد أبو ناصر على حسن معاملتهم أثناء طباعة هذه الرسالة.

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
- حاجة الفرنجة إلى الدفاع عن وجودهم........................	٤٦-٤٧
- المرحلة الأولى من التحصين (٤٩٣-٥٢٤هـ/١١٠٠-١١٣١م)...	٤٧-٥٣
- المرحلة الثانية من التحصين (٥٢٤-٥٨٣هـ/١١٣١-١١٨٧م)...	٥٣-٦٣
ثالثاً: دور جماعات الفرسان في بناء وتحصين القلاع...........	٦٤-٧٥
- أسباب ظهورها والخدمات التي قدموها..................	٦٤-٦٧
- دورهم في بناء وتحصين القلاع...........................	٦٧-٧٤
الفصل الثالث: القلاع الصليبية في شمال فلسطين:	
طبيعتها ودورها "التأثر والتأثير والدور"	٧٧-١١٩
- مفهوم القلاع وتطورها..	٧٧-٨٢
- أسباب وأهداف بناء القلاع الفرنجية........................	٨٧-٩٠
- التأثيرات البيزنطية والإسلامية على العمارة العسكرية الفرنجية.	٩١-٩٦
- الاتصال بين القلاع..	٩٦-٩٩
- ادارة القلاع..	٩٩-١٠٣
- أنواع القلاع..	١٠٣-١١٠
- الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية داخل القلاع..	١١٠-١١٩
الفصل الرابع: دراسة تاريخية وعسكرية لأهم القلاع	
في شمال فلسطين	١٢١-١٩٨
أولاً: القلاع الاستراتيجية..	١٢٢-١٦١
- قلعة كوكب الهوا...	١٢٢-١٢٧
- قلعة صفد..	١٢٨-١٣٦
- قلعة القرين...	١٣٦-١٤٢
- قلعة الطور..	١٤٢-١٥٠
- حصن بيت الأحزان	١٥٠-١٥٧

الموضوع	رقم الصفحة

قائمة المختصرات العربية

ت	:	توفي
ج	:	جزء
د.ت	:	دون تاريخ نشر
د.م	:	دون مكان نشر
د.ن	:	دون ناشر
ص	:	صفحة
ط	:	طبعة
ع	:	العدد بالنسبة للدوريات العربية
ق	:	قسم بالنسبة للمصادر المحتوية على عدة أقسام
ق.م	:	قبل الميلاد
كم	:	كيلو متر
مج	:	مجلد
م	:	ميلادي
هـ	:	هجري
م	:	متر

قائمة المختصرات الاجنبية

E.d	Editor
Enc	Encyclopedia
Op.cit	In the same place + different page
Ibid	In the same place
P	Page
T.r	Translated
Vol	Volume
P.P.T.S	Palestine Pilgrims Text Society
Setton	Setton, K. M., A History of the Crusades
Z.D.P.V	Zeitschrift Des Deutschen Palestina Verins
P.E.F	Palestine Exploration Fund
E.I	Encyclopedia of Islam
I.E.J	Israel Exploration Journal
B.S.O.A.S	Bulletin of the School of Oriental and African Studies
Q.D.A.P	The Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine
P.E.Q	Palestine Exploration Quarterly

المقدمة

أهمية الدراسة ومنهج البحث

تحتل فلسطين أهمية خاصة ومتميزة في تاريخ الصراع الفرنجي الإسلامي، وتنبع هذه الأهمية من المكانة السياسية والدينية التي تتمتع بها فلسطين، وكذلك لموقعها الاستراتيجي باعتبارها الواجهة الشامية البحرية المقابلة لأوروبا من جهة، ولأنها حلقة الوصل البرية بين شقي الوطن العربي وقلب العالم الإسلامي من الجهة الأخرى.

وقد حاول الفرنج أثناء سيطرتهم على فلسطين استغلال هذه الأهمية لتثبيت أقدامهم فيها وإحداث تغييرات ديمغرافية عن طريق بناء القلاع والحصون، وقد لعبت القلاع الفرنجية في فلسطين دوراً مزدوجا، فهي وسيلة لترسيخ سيطرتهم ومن ثم توسيع مناطق نفوذهم لتعبر عن نمط سياسي وديموغرافي جديد باعتبارها الوحدات السياسية التي أقامها الفرنج، وعبروا من خلالها عن طبيعة نظامهم الاقتصادي والاجتماعي الذي كان صورة مصغرة عن النظام في أوروبا.

ان دراسة هذه القلاع تقودنا بطريقة ما لدراسة التاريخ الصليبي في فلسطين لأن تطور هذه القلاع، وتغير طرق بنائها، عبر بصورة أساسية عن تطور الوجود الفرنجي وتطور حاجات الدفاع والهجوم للقوات المتحاربة التي كانت تقيم في القلاع من حيث توزيعها وعددها. ومن جهة ثانية فقد ارتبط بناء هذه القلاع بأهداف عسكرية واستراتيجية لتلبية الحاجات العسكرية لمواجهة المد الإسلامي.

لقد مارست القلاع والحصون وظائف عديدة تنسجم مع الأهداف التي رسمت لها من حيث دورها السياسي والعسكري. وعبرت عن قيام مجتمع أوروبي في فلسطين، ثم سعت لجعل دورها يمتد لكل أنحاء

فلسطين، مما يسهم في تثبيت سيطرتها وتوسيعها لحدودها حول فلسطين، بحيث تكون في مرحلة لاحقة خطوط إسناد خلفية، ومجموعات عسكرية واقتصادية، ومحطات للمواصلات تسهم في خدمة الغرض الفرنجي في فلسطين وباقي بلاد الشام.

وقد جاء اختياري لهذا الموضوع لطبيعة الدور العسكري والاستراتيجي الذي قامت به القلاع في فترة الصراع الاسلامي - الفرنجي في بلاد الشام فضلاً عن أنها لم تحظ بالكتابات الواسعة، وخاصة مرحلة تحصينها تحريرها. حيث ركزت معظم الدراسات وخاصة الأجنبية منها على عملية انشائها، حيث نُسب بنائها الى الفرنج، وركزت على تدمير المسلمين للقلاع دون ابداء الأسباب التي حدت بهم للقيام بذلك، فحاول الباحث خلال هذه الدراسة توضيح هذه المسألة قدر المستطاع.

منهج البحث

تناولت هذه الدراسة الموضوع من زاويتين هما: الزاوية التاريخية والزاوية الاستراتيجية العسكرية، ولم يتطرق الباحث الى الجانب المعماري لعدة أسباب منها : أنها تحتاج الى بحث آخر يمكن أن يكون موضوع رسالة أخرى، كما أن معظم هذه القلاع وخاصة الساحلية منها لم تعد قائمة كما كانت، بل هي شبه مدمرة في الوقت الحاضر، ولايوجد منها سوى آثار بسيطة والسبب الأهم هو عدم مقدرة الباحث من الوصول الى تلك القلاع الموجودة في داخل فلسطين بسبب الأوضاع السياسية، هذا فضلاً على أن معظم القلاع الموجودة في شمال فلسطين التي سلمت من التدمير تشكل نقاطاً عسكرية للكيان الاسرائيلي وبالتالي لا يمكن الوصول إليها.

فمن الناحية التاريخية فقد حاول الباحث القاء الضوء على الدور الذي لعبته تلك القلاع في الفترة الفرنجية ومدى مساهمتها في الحفاظ على الأمن في المملكة اللاتينية مروراً بعمليات بنائها وملكيتها والتحسينات والتحصينات التي جرت

عليها ومرت بها حتى تحريرها في الفترة الأولى بعد حطين، والثانية بعد معركة عين جالوت زمن السلاطين المماليك.

أما من الناحية الاستراتيجية فقد حاول الباحث بيان ما تشتمل عليه تلك القلاع وخاصة الشمالية المحاذية للحدود الأردنية واللبنانية والسورية من خصائص جغرافية ومزايا استراتيجية عديدة أدت الى قيام الفرنج ببناء العديد منها، واكسبتها حصانة ومناعة في وجه إمارة دمشق، وبالتالي أصبحت خط الدفاع الأول للمملكة من الشمال والشرق وخاصة قلاع كوكب الهوا وصفد وهونين وبيت الأحزان. كما أنها في الوقت نفسه حالت دون الإتصال بين قطبي اعداء المملكة دمشق والقاهرة، وضمنت سيطرة على الطرق التجارية والعسكرية التي تَعْبُر تلك المنطقة التي تمر بمحاذاتها.

وقد أفرد الباحث في هذا البحث دراسة كل قلعة على حِدَة من حيث بنائها ودورها التاريخي والعسكري ثم مرحلة تحريرها، وأبرز درجة التفاوت في الأهمية والدور لتلك القلاع.

كما تركزت منهجية البحث أيضاً في هذه الدراسة على قراءة ما اجتمع للباحث منه المصادر الأولية وجمعت هذه المعلومات وصنفت وفق خطة البحث ثم درست وحللت ونقدت، وتم أخذ ما اتفق عليه من معظم المصادر، وما كان مناسباً لسياق الأحداث. وقد إقتبس الباحث ما كان يراه مناسباً لتدعيم الآراء أو ما يمكن أن تقل قيمته بشرحه ووضع بين معقوفتين، أما المعلومات الأخرى المتعلقة بالقلاع ولم توجد في المصادر فقد استعين بالمراجع والدوريات وخاصة الأجنبية لاكمال الدراسة.

كما حرص الباحث على تعريف وتفسير ما يحتاج الى ذلك وخاصة المواقع والمصطلحات والشخصيات التي وردت في البحث.

ومما يجدر ذكره ان المجال الجغرافي لهذه الدراسة لايشمل المنطقة الشمالية لمملكة بيت المقدس لأنها كانت تضم لبنان وبعض مناطق سوريا، وانما تتناول منطقة

شمال فلسطين الحالية بحدودها التي انبثقت بعد الحرب العالمية الأولى. وتشمل منطقة الدراسة شمال خط العرض الواصل بين قيسارية على الساحل وحتى بيسان شرقاً.

ورغبة من الباحث في توضيح الدور العسكري والتاريخي للقلاع في شمال فلسطين فقد قسم البحث الى خمسة فصول، تناول الفصل الأول وهو «الاحتلال الفرنجي لفلسطين» لمحة عامة عن الأوضاع السياسية، في بلاد الشام ومصر قبيل وصول الفرنج، حيث كان الصراع السياسي والديني على أشده بين المسلمين وخاصة بين السلاجقة في العراق وبلاد الشام وبين الفاطميين في مصر. وأدت تلك الصراعات الى تفرق المسلمين الى دويلات متنافسة ومتصارعة فيما بينها، الأمر الذي أدى في النهاية الى سهولة سيطرة الفرنج على أجزاء من بلاد الشام ثم تحدث الباحث عن سير الحملة الأولى إلى بلاد الشام بصورة سريعة مع التركيز على منطقة الدراسة -فلسطين- حتي وصولها الى بيت المقدس واحتلالها. وقيام مملكة بيت المقدس وتوسيعها على حساب الأراضي العربية الإسلامية المجاورة لفلسطين.

أما الفصل الثاني فجاء بعنوان « سياسة ملوك بيت المقدس وفرسانها في حماية المملكة اللاتينية». ويشتمل على السياسة الاستيطانية التي اتبعها ملوك بيت المقدس اتجاه السكان المحليين التي تمثلت في طردهم وقتلهم، وانشاء المستوطنات الجديدة ولإستقدام المستوطنين من أوروبا وغيرها ليحلوا مكانهم، وتطلبت هذه السياسة الى الاستيلاء على أراضي السكان أيضاً. كما تحدث الباحث عن عناصر السكان الذين تواجدوا في فلسطين في الفترة الفرنجية وعلاقاتهم مع الحكام الفرنج. وضمن الباحث هذا الفصل جهود ملوك بيت المقدس في بناء العديد من القلاع واعادة تحصين بعضها الآخر، وتحول ملكية معظم القلاع الى منظمات الفرسان الاسبتارية والداوية. واستعرض الباحث طبيعة المنطقة التي أقيمت فوقها القلاع التي تميزت بالموقع الاستراتيجي لتناسب الهدف الذي أقيمت من أجله، بحيث انتشرت فوق قمم الجبال والهضاب وعلى مخاضات الأنهار.

وفيما يتعلق بالفصل الثالث الذي جاء بعنوان (القلاع الصليبية في شمال فلسطين طبيعتها ودورها «التأثر والتأثير والدور») فقد بدأه الباحث بتعريف القلعة وتطور بنائها في الفترات السابقة لفترة الدراسة، وبيّن الأهداف التي أرادها الفرنج من بناء قلاعهم وهي حماية أنفسهم بشتى الوسائل والطرق من الاعتداءات الخارجية. كما أشار الباحث الى خصائص القلاع الفرنجية ومميزاتها وأوجه التشابه والاختلاف بينها وبين القلاع البيزنطية والإسلامية، حيث تأثرت بهذه الأنماط وطبقها الفرنج على قلاعهم، ولم يفت الباحث من التعرض لوسائل الاتصال التي انتشرت بين القلاع، كما ذكر أهم الوظائف القلعة عند المسلمين والفرنج، وتضمن هذا الفصل أيضاً أنواع القلاع التي قسمت حسب الهدف الذي أقيمت من أجله وحسب موقعها الجغرافي. وبعد ذلك أفرد الباحث حديثاً عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية داخل القلعة الفرنجية نظراً للدور الهام الذي لعبته القلعة الفرنجية على كافة المستويات، حيث احتوت على كل ما تحتاج إليه من وسائل وموارد لاستمرار الحياة وإستكمال الدور الذي وجدت من أجله.

وفي الفصل الرابع الذي جاء عنوانه « دراسة تاريخية وعسكرية لأهم القلاع في شمال فلسطين». فقد تطرق فيه الباحث الى ذكر القلاع الموجودة في شمال فلسطين ومواقعها وأهمية ذلك الموقع وتأثيره، وأسماء القلعة المختلفة العربية والأجنبية، كما استعرض تاريخ بنائها وظروف اقامتها، والجهة التي قامت ببنائها سواء كانوا من الملوك أو من منظمات الفرسان الاسبتارية والداوية والتيوتون. ودور هؤلاء أيضاً في اعادة بناء وتحصين تلك القلاع بعد تدميرها.

كما تعرض الباحث الى الحملات التي تعرضت لها القلاع قبيل معركة حطين وبعدها، ودور تلك القلاع في الجهود الحربية ضد المسلمين، والظروف والأسباب التي ساعدت الفرنج على اعادة السيطرة عليها بعد أن حررها صلاح الدين.

أما الفصل الخامس وهو آخر فصول البحث فقد جعله الباحث تحت عنوان «مرحلة تحرير القلاع» التي مرَّت بمرحلتين هامتين، الأولى : على يد

السلطان صلاح الدين، حيث استعرض الباحث الجهود التي قام بها لتوحيد مصر والشام والمصاعب التي واجهته. ثم الحملات التي قام بها ضد القلاع في فلسطين قبل معركة حطين وأثرها. كما تناول الباحث معركة حطين مستعرضاً استراتيجية صلاح الدين قبيل المعركة وخلالها، والعوامل التي ساعدته على تحقيق النصر على الفرنج. ثم أفرد الباحث حديثاً مفصلاً عن تحرير القلاع كل قلعة على حده.

أما المرحلة الثانية فقد أبرز الباحث دور السلطان الظاهر بيبرس وخلفاؤه في تحرير القلاع الشمالية لفلسطين، متناولاً في البداية الأحوال التي كان يمر بها العالم الإسلامي وخاصة بلاد الشام ومصر قبل وصول الظاهر بيبرس الى الحكم على أثر انتصار المماليك على المغول في معركة عين جالوت.

وأفرد الجزء الأكبر من تلك المرحلة في الحديث عن استراتيجية الظاهر بيبرس في تعامله مع القلاع. والحملات التي قام بها على فلسطين وأهدافها، وكيف استطاع بحنكته السياسية والعسكرية من استغلال الظروف لصالحه، ويستطيع في النهاية من تحرير معظم قلاع شمال فلسطين، ومواصلة خلفاؤه من بعد المشوار واتمام تحرير تلك القلاع التي كان آخرها عكا في العام ٦٩٠هـ/١٢٩١م.

ولأتمام الفائدة العلمية فقد تضمنت الرسالة خاتمة بالنتائج التي توصل اليها الباحث مع بعض الملاحق التي تتضمن صوراً لبعض القلاع وأسماء ملوك بيت المقدس والفرسان الاسبتارية والداوية والتيوتون بالإضافة الى بعض الخرائط التي توضح مواقع القلاع.

وبعد فاني أرجو ان يكون الباحث فقد وفق في غايته من البحث، واضاف للمكتبة العربية ثمرة جهود متواضعة، كما أرجو من الله أن يوفق غيري في اتمام ما عجزت عنه والحمد الله رب العالمين.

تحليل أهم المصادر والمراجع في الدراسة

اعتمد الباحث على مجموعة متنوعة من المصادر الأساسية والمراجع الثانوية التي تناولت موضوع الدراسة، وسوف يقصر الباحث حديثه على بعضٍ منها والتي كان لها أهمية في استيفاء مادة البحث. وحتى يسهل دراستها يمكن تصنيفها كالآتي

أولا : المصادر اللاتينية :

١- تاريخ الحملة الى القدس The History of Expedition to Jerusalen لمؤلفه فوشيه الشارتري Fulcherde chartres وهوالذي عاصر الحملة الفرنجية الأولى وكان شاهد عيان لمعظم الأحداث التي دونها في كتابه، بالإضافة الى المعلومات التي استقاها من شهود العيان وسجلها بإعتباره قسيس ومستشارللملك بلدوين الأول إضافة إلى مرافقته له في أسفاره معه، الأمر الذي جعله على دراية بمركز إتخاذ القرار.

وقد إعتمد في كتابته أسلوب الموضوعات في تناوله الأحداث، وأبدى وعياً للموضوعات التي تناولها معتمداً على الثقافة الدينية التي تعلمها واعتمد عليها من الكتاب المقدس.

إلا أنه رغم ذلك لم يكن محايداً في طرح الموضوعات والأحداث المتعلقة بالمسلمين إذ أنه تحيز لبني جنسه ووصفهم بأنهم حجاجاً ومستضعفين وليسوا عدائيين، أما المسلمون فقد وصفهم بأنهم أعداء المسيح وكَفَرَه. كما أنه اشاد بقوة الفرنج وانتصاراتهم في المعارك على المسلمين بمساعدة الرب، ولكن هزيمتهم فقد أرجعها الى أسباب الاسراف واللهو وليس الى قوة المسلمين.

وقد استفاد الباحث من رواياته عن احتلال المدن الفلسطينية الواحدة بعد الأخرى، وصمودهم أمام الحصار بالرغم من امكانياتهم المتواضعة، مما يؤكد أن السكان المحليين أصحاب البلاد قاوموا الاحتلال الفرنجي منذ دخوله وتعرض فوشيه إلى المذابح التي جرت للسكان، وطردهم من أماكن إقامتهم واحلال

«المستوطنين» الاوروبيين مكانهم، كما وَقَعَ مع سكان أرسوف الذن طردوا منها إلى عسقلان.

كما أشار الى دور ملوك بيت المقدس الأوائل في الدفاع عن المملكة وتوسيع مناطق نفوذها في شرق الأردن وشمال فلسطين وجنوبها. فذكر الحملات التي قام بها بلدوين الأول وبلدوين الثاني على تلك المناطق. مما يؤكد على سياستهم التوسعية في المناطق الإسلامية المحيطة بهم علاوة على ما احتلّوه من مناطق في بداية الحملة الأولى.

٢- تارخ الحروب الصليبية المسمى «تاريخ الأعمال المنجزة في ما وراء البحار» (Historia Rerum in Parlibus Trans Marinis Gestarum) لمؤلفه وليم الصوري ويعد هذا المصدر موسوعة في تاريخ الحروب الصليبية، فإليه يعود الفضل في ايراد الكثير من الحقائق التي رسمت صورة الفرنج في المشرق وعلاقتهم السياسية بالمسلمين ومع بعضهم البعض. وهو من أكثر المصادر دقة وشمول. وقد غطى كتابه معظم فترات الفرنج منذ الحملة الأولى عام (٤٨٨هـ/١٠٩٥م) وحتى قبيل معركة حطين بسنوات قليلة (٥٨٠هـ/١١٨٤م). وقد دوّن كتابه زمن الملك عموري الأول (١١٦٣-١١٧٤م) ليكون سجلاً لأعمال الفرنج وانجازاتهم خلال قرن من الزمان. ونتيجة قربه من السلطة الحاكمة فقد حاز على ثقة البلاط الفرنجي وجعله يشارك في الأحداث السياسية، ولهذا تميز مؤلّفه بوفرة الأحداث السياسية والتاريخية ودقتها. إلا أنه في معظم الأحيان كان يتحيز لبني جنسه وخاصة في نتائج المعارك.

وقد ساعدت معلوماته في الوقوف على أحوال الفرنج المتأرجحة بين القوة والضعف، وتنبه الى قوة المسلمين خاصة في فترة صلاح الدين بعد فتحه لحلب حيث اعتبر ذلك كارثة حلت بالفرنج، كما استفاد الباحث منه في الحديث عن دور الفرسان الاسبتارية والداوية والتيوتون في حصولهم على القلاع بعد شرائهم لها من الملوك والأمراء الفرنج بسبب زيادة أعبائها. وقبل ذلك أشار الى تأسيس تلك

المنظمات والخدمات التي قدموها الى السكان الفرنج والحجاج الوافدين الى الأراضي المقدسة قبل تحولهم الى مؤسسة عسكرية هدفها محاربة المسلمين وخدمة الأغراض العسكرية الفرنجية.

وتطرق المؤلف الى جهود ملوك بيت المقدس وخاصة فولك الانجوي في بناء العديد من القلاع في شمال فلسطين ووسطها في سبيل إحتلال المزيد من الأراضي والمدن ومنها مثلاً القلاع التي أقيمت حول عسقلان حتى يسهل احتلالها.

كما اعترف الصوري بالأسباب التي هدف الفرنج من ورائها بناء القلاع وهي ليست فقط لصد الهجمات الإسلامية كما ادعى معظم المؤرخين، وانما لتكون مراكز مراقبة وهجوم على السكان المحليين والأملاك الإسلامية المحاذية لحدود مملكة بيت المقدس.

وقد استفاد الباحث من المعلومات التي أوردها الصورى عن المذابح البشعة التي ارتكبت بحق السكان في فلسطين في بيان الأهداف الكامنة وراء ذلك وهي اجبار السكان في المناطق الأخرى على هجر أراضيهم واملاكهم. أما القوانين التي أصدرها الفرنج بعد احتلال بيت المقدس فقد تميزت بالقسوة والعنف لأنها وضعت لصالح الفرنجة.

٣- كتاب تاريخ القدس (History of Jerusalem) لجاك دي فتري (Jacques devitry) وهو من المصادر الأساسية لدراسة التاريخ الفرنجي في فلسطين وقد عاش المؤلف معظم حياته في فلسطين حيث كان اسقفاً في مدينة عكا من العام (١٢١٦-١٢٢٨م) وهذ الفترة جعلته يضطلع على أحوال الفرنج والمسلمين في فلسطين ويتعرف على خفايا الأمور بحكم موقع عمله.

وقد استفاد الباحث من معلوماته التي جاء بها حول التحصينات التي أقامها الفرنج في عكا من أبراج وحصون بحكم إقامته فيها، كما أنه تحدث عن نمط الحياة والعلاقات بين السكان المحليين وبين السكان الفرنج ومدى التعاون بين الطرفين. وتطرق الى دور الفرسان الداوية والاسبتاريه والتيوتون في بناء الحصون والقلاع

وخاصة المحيطة بمنطقة عكا ودورها في حمايتها من الهجمات من الجهة الشمالية والشرقية.

ويكاد يكون جاك دي فتري المؤرخ الوحيد الذي اعطى تفصيلات واضحة عن العناصر السكانية للمملكة وخاصة في بيت المقدس وعكا وعلاقتهم مع بعضهم البعض وأصولهم وخاصة الفئات المسيحية من كافة الطوائف، إلا أنه يؤخذ عليه عدم تطرقه وتجاهله الحديث عن العناصر السكانية الإسلامية التي انتشرت بكثرة في معظم مناطق المملكة وخاصة في الشمال والجنوب من فلسطين.

٤- كتاب وصف الأرض المقدسة (Description of the Hollyland) للراهب الألماني بورشارد (Burchard of Mount Zion) وهو راهب ألماني توجه الى الشرق عام ٦٣٠هـ/١٢٣١م وانتسب الى دير جبل صهيون في بيت المقدس، وبقى فيه حتى نهاية حياته. والكتاب عبارة عن موسوعة جغرافية تصف فلسطين. من نواحيها الجغرافية والطبيعية وبعض النواحي الإقتصادية فقد وصف سهولها وأنهارها وجبالها وقلاعها وبحيراتها وزراعاتها كما وصف بعض صناعاتها والحيوانات فيها، وبالتالي فهو مهم لدراسات الباحثين من هذه النواحي في القرن الثالث عشر الميلادي في ظل نقص المصادر العربية.

وقد استفاد الباحث من هذا الكتاب معلومات حول الكثير من القلاع من حيث مواقعها وارتفاعاتها والمسافات بينها وأهميتها العسكرية والاستراتيجية بشكل متفاوت حسب أهمية وموقع القلعة. ولم يترك بورشارد مدينه أو قرية أو قلعة إلا وقد اعطى وصفاً لها. وكانت معلوماته صحيحة في معظمها وخاصة الوصفية للمواقع وذلك بعد مقارنتها مع ما كتب عنها في الوقت الحالي. وقد ركز بورشارد في وصفه للقلاع على القلاع الكبيرة والمهمة مثل كوكب الهوا وصفد وهونين والقرين. فذكر اسمائها المختلفة القديمة ومواقعها. كما استفاد الباحث من وصف بورشارد لشمال فلسطين في التعرف على فئات السكان والموارد في تلك الفترة.

ثانيا: المصادر الإسلامية :

المصادر التاريخية وأهمها :

١- كتاب ذيل تاريخ دمشق لأبي يعلى بن حمزه التميمي (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م) ويعد هذا المصدر مهماً لأنه تحدث عن قدوم الفرنج الى بلاد الشام في تلك الفترة. فقد عاصر المؤلف تلك الأحداث، وكان شاهد عيان على كثير منها وخاصة الصراع بين مملكة الفرنج منذ تأسيسها مع أتابك دمشق في النصف الأول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. فاستفاد الباحث من تلك المعلومات التي وردت فيه.

كما استفاد الباحث من تطرق المؤلف الى السياسة الدفاعية التي اتبعها ملوك بيت المقدس الأوائل عن طريق بناؤهم لبعض القلاع في شمال وشرق المملكة وخاصة قلاع علعال والبردويل وتبنين. ثم قيام اتابك دمشق بالرد على تلك الأعمال بمهاجمة تلك القلاع وتدميره لبعضها.

٢- الفتح القسي/ والبرق الشامي لعماد الدين أبو عبدالله الاصفهاني (ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م) وتكمن أهمية هذين المصدرين كون صاحبهما كان من الرجال المقربين للسلطان صلاح الدين الأيوبي، وشارك في معظم حملاته على القلاع الفرنجية في شمال فلسطين حتى تم تحريرها بعد معركة حطين.

فكتاب "البرق الشامي" الذي حقق منه جزآن هما الثالث والخامس (٥٧٠-٥٧٣هـ/١١٧٠-١١٨٠م) (٥٧٨-٥٨٠هـ/١١٨٢-١١٨٤م). أمدنا بمعلومات وافية وشاملة عن الحملات التي شنها السلطان صلاح الدين ضد القلاع الفرنجية في فلسطين قبيل معركة حطين وخاصة قلاع بيسان والطور وعكا وصفورية وطبرية في الأعوام ٥٧٨هـ/١١٨٢م، ٥٧٩هـ/١١٨٣م وكذلك ضد التجمعات الفرنجية الأخرى في شمال فلسطين، وما نتج عن تلك الحملات من خسائر بشرية ومادية كبيرة في الجانب الفرنجي مما كان له الأثر في تحقيق النصر في معركة حطين.

أما كتابة "الفتح القسي في الفتح القدسي" والذي استهله بوصف الاستعدادات

لمعركة حطين وانتهى فيه الى وفاة السلطان صلاح الدين، فيعد سجلاً عسكرياً لمعارك صلاح الدين وفتوحاته. فقد استفاد منه الباحث في مسألة تحرير القلاع والحصون في شمال فلسطين والتي شملتها الدراسة. فقد افرد جزءاً كبيراً من كتابه في الحديث عن الحملات التي أرسلت اليها وأعدادها ومقدمي تلك الحملات. كما تضمن وصفاً لطبيعة تلك القلاع التي فتحت من حيث تحصينها وموقعها وأهميتها العسكرية. كما ذكر لأي من جماعات الفرسان تتبع تلك القلاع. ولم ينس الحديث عن الغنائم التي تم الاستيلاء عليها بعد فتح القلعة. فمثلاً انفرد الاصفهاني بالحديث عن قلعة الفولة من حيث حجمها وحاميتها وأهميتها بالنسبة للداوية.

كما تضمن الكتاب الخطط العسكرية لصلاح الدين وطبيعتها خلال عملية حصارها وتحريرها.

٣- "الكامل في التاريخ" لعز الدين أبو الحسن من محمد الجزري الشيباني (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٣م) ومما أفاده الباحث منه هو تفصيله للحملات والجهود التي قام بها أتابك دمشق ظهير الدين طغتكين لهدم قلعة (العال) الاستراتيجية والتي شكلت مصدراً خطراً على امارة دمشق. كما استفاد الباحث من حديث المؤلف عن معارك الرمله التي خاضها الفاطميون ضد الفرنج على أثر احتلالهم بيت المقدس عام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م والأسباب التي أدت الى فشل تلك الحملات. حيث كان من نتائجها توسع الفرنج في معظم أنحاء فلسطين.

وأشار الكتاب أيضاً الى حملات صلاح الدين على قلاع جنوب فلسطين وشرقي الأردن قبل معركة حطين وتصدي الاسطول الإسلامي لحملة ارناط على بلاد الحجاز. هذا فضلاً عن تفاصيل فتح صلاح الدين للقلاع في شمال فلسطين بعد معركة حطين وخاصة قلاع كوكب الهواء وصفد وهونين.

٤- "الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة" لعز الدين محمد بن علي الحلبي الملقب بابن شداد (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م) ويتميز هذا الكتاب بالشمولية المختصرة في تسلسله للأحداث التاريخية التي سبقته بفترة طويلة حتى الفترة

التي عاش فيها. وهو من المصادر النادرة التي تتحدث عن القلاع في انحاء بلاد الشام بما فيها قلاع شمال فلسطين. فهو موسوعة في تاريخ المدن ولكن بشكل مختصر.

وقد استفاد الباحث من هذا المصدر حول تاريخ بناء القلاع مثل صفد وطبرية وكوكب الهوا وطبرية والطور وصفورية وعكا وغيرها. ولايكتفي بذلك بل يواصل حديثه على انتقال ملكيتها الى منظمات الفرسان الداوية والاسبتارية في المراحل المتقدمة وكذلك عن تحرير صلاح الدين لها. ويواصل حديثه عن احوالها في فترة خلفاء صلاح الدين حينما أعاد الفرنج سيطرتهم عليها بموجب اتفاقية بين حاكم دمشق والفرنجة، كما أنه يشير الى فترة تحريرها الثانية زمن السلطان ظاهر بيرس، وخلال حديثه عنها فإنه يشير الى التجديدات التي جرت عليها والى بعض ولاتها، مما أفاد الباحث كثيراً من هذه المعلومات وخاصة في الفصل الرابع والخامس بالرغم من أنها متقضبه. وذلك لعدم تبيان ذلك في مصادر أخرى.

٥- "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر" لمحيي الدين أبو الفضل بن عبدالله بن عبدالظاهر (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٣م) الذي كان أحد المقربين والمرافقين للسلطان الظاهربيبرس، ولهذا فقد أسهب في الحديث عن الحملات التي قام بها السلطان علي القلاع والحصون الفرنجية في شمال فلسطين، وقد استفاد الباحث من المؤلف من تلك التفاصيل عن أعدادها وأوقات خروجها الدقيقة وتجهيزاتها العسكرية وقوادها وكذلك معسكراتها الدائمة وأثر ذلك في انتصار المسلمين، كما استفاد الباحث في التعرف على أسلوب الظاهر بيبرس وخططه العسكرية ضمن استراتيجية في التعامل مع القلاع وخاصة أسلوب الكر والفر (الغارات السريعة) ونتائجها. كما أشار الى أساليب الهجوم التي اتبعها الجيش الإسلامي في حصار القلاع وتقدم القوات نحوها، والأسلحة التي اشتركت في الهجمات وأثرها على انتصار المسلمين.

وقد انفرد هذا المؤرخ في الحديث عن حاميات بعض القلاع وخاصة صفد التي

تميزت بالقوة والبسالة باعتراف السلطان نفسه. ونتيجة لهذه التفاصيل الدقيقة فقد كان لها الأثر البالغ في اخراج هذا البحث -وخاصة مرحلة تحرير القلاع زمن الظاهر بيبرس- الى هذه الشمولية قدر الامكان.

المصادر الجغرافية :

١- "معجم البلدان" لياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) وهو معجم جغرافي شامل مرتب على الحروف الأبجدية وقد عاصر مؤلفه فترة الوجود الفرنجي في بلاد الشام. واستفاد منه الباحث خلال حديثه عن بعض الجوانب المتعلقة بالقلاع في فلسطين، وخاصة تاريخ بنائها والأسماء التي اطلقت عليها. ومع أن معلوماته مقتضبه ويشوبها بعض التشويش إلا أنها جاءت شامله عن معظم القلاع حتى الصغيرة منها من هذه الناحية والتي انفرد بها مع قلة من المؤرخين والجغرافيين المعاصرين لتلك الفترة.

٢- "نخبة الدهر في عجائب البر والبحر" لشيخ الربوة، شمس الدين أبي عبدالله الأنصاري (ت ٧٢٧هـ/١٣٢٧م). وهو عبارة عن موسوعة جغرافية تحدث فيها عن الأقاليم التي يتكون منها العالم، وافرد فيه جزءاً منه للحديث عن بلاد الشام من حيث مواقعها والجبال والأنهار فيها. وقد استفاد الباحث منه من الأوصاف الدقيقة لمواقع بعض القلاع من الناحية الطبيعية، ومميزاتها العسكرية والاستراتيجية من خلال مسح تلك المنطقة بالأوصاف الدقيقة من جبال وأنهار وأراض زراعية، فاستفاد منها الباحث في تفسير اختيار الفرنج لتلك المواقع لبناء قلاعهم فيها.

كما أنه أشار الى ملكية تلك القلاع ويكاد يكون شيخ الربوة الرحالة الوحيد الذي انفرد بالحديث عن قلعتي معليا والملك التابعتين للفرسان التيوتون.

٣- رحلة بن جبير المسماه «اعتبار الناسك في ذكر الآثار كريمة المناسك» لأبو الحسن محمد بن أحمد المعروف بابن جبير (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م). وتعتبر رحلته مصدراً هاماً لايمكن لأي باحث الاستغناء عنها عند الحديث عن أحوال فلسطين الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر

الميلادي. ذلك ان رحلته تضمنت الكثير من المعلومات حول هذه الجوانب الهامة من حياة المجتمع الفرنجي والإسلامي، في شمال فلسطين.

فمن الناحية العسكرية استفاد الباحث من وصفه لبعض الاقلاع الشمالية لفلسطين وخاصة قلاع بانياس وهونين وتبنين، وكيف ان هذه القلاع تشرف وتتحكم في المسالك والممرات العسكرية والطرق التجارية الواصلة بين امارة دمشق وشمال فلسطين، وكذلك الطرق الواصلة بين القلاع بعضها ببعض، وكيف أن القلاع تتحكم فيها. ولهذا فإن تلك السياسة حَمَتْ المملكة من الهجمات الشمالية.

كما أنه انفرد بالحديث عن حصن الزيب الصغير الواقع الى الشمال من عكا الذي شكل حماية لها مع بعض القلاع الأخرى، كما استفاد الباحث من المعلومات التي أوردها خلال حديث عن تحصينات عكا أثناء زيارة ابن جبير لها.

أما المعلومات الاقتصادية التي أوردها فتتعلق بأشهر الزراعات المنتشرة في المنطقة. والضرائب المفروضة على السكان المسلمين. وكذلك انتشار الغابات الواسعة التي تغطى أجزاء من شمال فلسطين. وقد ساعدت هذه المعلومات الباحث في التعرف على العلاقة بين المسلمين والفرنج، وفي التعرف على بعض جوانب الحياة الاقتصادية في القلعة الفرنجية التي انتشرت بكثرة في تلك المنطقة.

واستفاد الباحث من معلوماته الاجتماعية خاصة ذكره بأن السكان في شمال فلسطين كانوا يشكلون أغلبية. وخاصة في الريف والقرى بسبب عدم هجرة الكثير منهم، أو أنهم عادوا بعد فترة وجيزة الى قراهم وأراضيهم. أما الفرنج فقد انتشروا فقط في القلاع والمدن.

ثالثاً : المراجع الأجنبية :

١- ميرون بنفنسي (Meron Benvensiti) مؤلف كتاب «الصليبيون في الأرض المقدسة» (The Crusades in the Hollyland) وهو كتاب يتحدث فيه المؤلف عن حياة الفرنج وانظمتهم وقوانينهم ومستوطناتهم وقلاعهم في فلسطين.

وقد أورد فصلاً عن نظام التحصين في المملكة اللاتينية تحدث فيه عن معظم القلاع في فلسطين. كما تحدث في فصل آخر عن نظام الحياة عند الفرنج وأكد فيه على مدى تأثرهم بأنماط الحياة التي كانت سائدة في المشرق الاسلامي، كما استفاد الباحث من هذا الكتاب حول الاستيطان الفرنجي في فلسطين وقيام الملوك الفرنج الأوائل ببناء العديد من المستوطنات وتشجيع الأوروبين على المجيء للسكن فيها بعد أن تم طرد سكان البلاد الأصليين أو أجبروا على المغادرة، وارغام الباقي على العمل في الزراعة ودفع الضرائب. وقد ذكر المؤلف ان هذه المستوطنات اقيمت بالقرب من القلاع ويعود السبب في ذلك كما يعتقد الباحث حتى يكون لها حماية ناجحة وحتى تزود القلاع بما تحتاج اليه من الرجال والموارد الاقتصادية لاستمرار الحياة فيها.

كما استفاد الباحث من هذا الكتاب في توضيح الطرق التجارية والعسكرية التي كانت تصل بين دمشق وفلسطين حيث أن أحد أسباب بناء القلاع كان للتحكم في هذه الطرق. كما أشار المؤلف الى بعض المرافق التي تتكون منها القلعة كالمخازن والمطابخ والورش وغيرها مما ساعد ذلك الباحث على اعطاء صورة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية في القلعة.

٢- ر.سي. سميل (R.C. Smail) مؤلف كتاب «الصليبيون في سوريا والأراضي المقدسة» (The Crusades in Syria and Hollyland) وهو كتاب يتحدث عن الامارات الفرنجية في بلاد الشام وعلاقاتها مع المسلمين. وأفرد فصلاً للحديث عن القلاع الفرنجية فيها ومنها قلاع فلسطين وقد استفاد الباحث من هذا الكتاب من الأوصاف التي ذكرها المؤلف للقلاع ومميزاتها وتاريخ بنائها وأحجامها والتحسينات والتحصينات التي جرت عليها. وسيطرة المسلمين عليها، كما استفاد الباحث من أوصاف القلاع الشمالية من الناحية الاستراتيجية والعسكرية ومن المخططات والأشكال الموجودة داخل الكتاب للكثير من القلاع في فلسطين التي بناها الفرنج.

٣- جوشوا براور (J. Prawer) الذي ألف عدة كتب ومقالات تتحدث عن أحوال مملكة بيت المقدس من كافة النواحي (انظر القائمة في نهاية الرسالة) وقد استفاد الباحث منها عن أحوال المملكة السكانية وأسباب بناء الفرنج للمستوطنات وأماكن وجودها واعداد وأعداد سكانها. حيث قدر عدد سكان المملكة في نهاية القرن الثاني عشر ما بين ١٢٠-١٥٠ ألف نسمه. واستفاد الباحث من أيضاً بعض المعلومات حول النواحي الادارية والعسكرية في القلعة.

رابعاً : الموسوعات :

١- "صبح الأعشي في صناعة الانشا" لاحمد بن علي القلقشندي (ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م). ويعد هذا الكتاب موسوعة ضخمة تحتوى مختلف المواضيع السياسية والاجتماعية والادارية والاقتصادية بالإضافة الى المعلومات التاريخية. وقد استفاد الباحث من هذه الموسوعة عن بعض النواحي الادارية المتعلقة بالقلعة وخاصة الوظائف مثل النائب والوالي وعمل كل واحد منهم بالإضافة الى بعض الموظفين والعمال الآخرين المتواجدين في القلعة حيث ذكرهم وبين وظائفهم، وخاصة في القلاع الكبيرة.

٢- أما مجموعة سيتون (Setton) فهي موسوعة شاملة تتحدث عن النواحي السياسية والعسكرية والادارية والاجتماعية للدويلات الفرنجية في بلاد الشام. وقد استفاد الباحث من المقالات المتعلقة بتأسيس مملكة بيت المقدس ونموها ودور ملوكها الأوائل في ذلك وفي سياسة البناء والتحصين في المملكة اللاتينية التي اتبعها هؤلاء الملوك.

كما استفاد الباحث من المقالات المتعلقة بالناحية السكانية ونمط حياتهم وعلاقتهم مع السكان المحليين، والصراع بين الفئات السكانية في المملكة، وأثر ذلك على قوة وضعف المملكة. كما أشارت المقالات الأخرى الى العمارة العسكرية في المملكة ومميزاتها وتاريخ بنائها ودورها في الصراع الإسلامي الفرنجي.

الفصل الأول

الإحتلال الفرنجي لفلسطين

أولاً: لمحة عامة عن الأوضاع السياسية في بلاد الشام ومصر قبيل الغزو الفرنجي.

ثانياً: خضوع فلسطين للفرنجة وقيام مملكة بيت المقدس فيها وتوسعها.

أولاً: لمحة عامة عن أوضاع بلاد الشام ومصر قبيل الغزو الفرنجي :

أدى ضعف الخلافة العباسية إلى تجزئة العالم الإسلامي وتفكيك أوصاله، وقامت على أنقاض الخلافة المتداعية عدة دويلات وإمارات منفصلة. ونجم عن ذلك الوضع أن تطرق الوهن والضعف إلى أجزاء العالم الإسلامي، ولم يكد ينقضي القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي حتى صارت ديار الإسلام مطمعاً للغزاة. وبقى هذا الوضع مستمراً في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، يقابله حركة مدّ فرنجية واسعة النطاق اجتاحت مناطق واسعة كانت أجزاءاً من ديار الإسلام وخاصة الأندلس وصقلية.

وقد رافق هذا الضعف السياسي – الذي كان أحد الأسباب في قدوم الفرنج– استفحال الصراع الديني بين الخلافتين الإسلاميتين وهما : الخلافة العباسية والتي مقرها بغداد وتؤمن بالمذهب السني، والأخرى الخلافة الفاطمية والتي مقرها القاهرة وتؤمن بالمذهب الشيعي، حيث ادعى كل طرف منهما بانه الممثل الشرعي للمسلمين، وكانت هاتان الخلافتان تعانيان من الوهن، والضعف، والانحلال، وشيوع الفرقة والانقسام. وقد شغلتهما هذه الخلافات السياسية والمذهبية عن رصد هذا الزحف الفرنجي الغاشم والوقوف في وجهه والتصدي له.

وكان انحلال وضعف دولة الفاطميين –التي قامت في المغرب في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي – مظهراً من مظاهر الصراع القديم الجديد بين السنة والشيعة، فقد ظل الشيعة –حسب رأيهم– يعتقدون أنهم الأحق بزعامة المسلمين، وتمسكوا بهذا الأمر، وراحوا يعملون في سبيل استعادة تلك الزعامة، ويبثون دعاتهم وأعوانهم بالسيف تارة، وبالدعوة والوسائل تارة أخرى، حتى تكللت تلك الجهود بنجاحهم في اقامة دولة لهم في المغرب، والتي أخذت تنافس الخلافة العباسية في المشرق[1].

---

(١) للمزيد من التفاصيل حول قيام الدولة الفاطمية في المغرب. انظر : المقريزي، أحمد بن علي بن محمد بن إبراهيم (ت٨٤٥هـ/١٤٤٢م). اتعاظ الحنفا في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفا،تحقيق : =

واستطاعوا خلال الفترة الأولى من حكمهم مدّ سلطانهم حتى شمل بلاد الشام واليمن والحجاز والموصل وشمال أفريقية في وقت من الأوقات[1]. إلا أنه ومع بداية النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ما لبثت الخلافة الفاطمية أن دبّ إليها الضعف، حيث أخذت تمزقها المنازعات الداخلية بين الطوائف المختلفة، والمجاعات والأوبئة تنهش في أحشائها مما أدى إلى تضعضع سلطانها واضمحلال قوتها[2].

ولعل أبرز عوامل ذلك الضعف هو استبداد وزرائهم - ذلك أن الخلفاء الفاطميين في بداية حكمهم اعتمدوا على أنفسهم في تصريف أمور الدولة، ولكنهم منذ عهد العزيز الفاطمي[3] (٣٦٥-٣٨٦هـ/٩٧٦-٩٩٦م). اتخذوا الوزراء واعتمدوا عليهم[4]. وكان من نتيجة هذه السياسة استفراد الوزراء في تصريف الأمور حسب أهوائهم السياسية والشخصية مما أفقد الخلفاء سلطانهم في كل البلاد[5]. حتى أن

= جمال الدين الشيال. ج١، القاهرة : لجنة أحياء التراث، ١٩٦٧، ص ٣٥-٥٥، وسيشار له فيما بعد : المقريزي، اتعاظ الحنفا.

(١) ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. القاهرة : المؤسسة العامة للترجمة. (د.ت)، ج٥، ص ٤، وسيشار له فيما بعد. ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، المقريزي. اتعاظ الحنفا، ج١، ص ٢٧٤.

(٢) شعبان، محمد عبدالحي، الدولة العباسية «الفاطميون» بيروت : الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٥، ص ٢٣٩. وسيشار له فيما بعد : شعبان : الدولة العباسية، الصاوي، أحمد السيد : مجاعات مصر الفاطمية «أسباب ونتائج»، بيروت : دار التضامن، ط١، ١٩٨٨، ص ٥١-٦٠. وسيشار له فيما بعد : الصاوي : مجاعات مصر.

(٣) الملك العزيز بالله (ت ٣٨٦هـ/٩٩٦م). أحد الخلفاء الفاطميين، وهو أول من اتخذ وزيراً له، اتسعت الدولة في عهده نحو اليمن والحجاز والشام. عرف عنه الشجاعة والتقرب من الناس، حكم لمدة واحد وعشرين عاماً. القرماني، أحمد بن يوسف (ت ١٠١٩هـ/١٦١٠م). أخبار الدول وآثار الأول. دراسة وتحقيق : أحمد حطيط، فهمي سعد، م٢. بيروت : عالم الكتب ط١، ١٩٩٢، ص ٢٣٥. وسيشار له فيما بعد : القرماني : أخبار الدول.

(٤) شبارو، عصام، السلاطين في المشرق العربي «معالم دورهم السياسي والحضاري»، السلاجقة الأيوبيون (٤٤٧-٦٤٨هـ/١٠٥٥-١٢٥١م). بيروت : دار التضامن، ١٩٩٤، ص ١٥٦، وسيشار له فيما بعد : شبارو : السلاجقة.

(٥) أبو الفدا. عماد الدين اسماعيل بن علي بن محمد بن شاهنشاه بن أيوب (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م) =

سلطة الوزراء أنفسهم انهارت بسبب ثورات الجند وانتشار المجاعات في مصر، فبلغ عدد الوزراء في مدة سبعة عشر عاماً حوالي تسعة عشر وزيراً[1].

وبعد عهد العزيز أخذت الوزارة طابعاً جديداً. فاستبد الوزراء بتصريف أمور الدولة بعد أن فوّض لهم الخلفاء جميع صلاحياتهم، وصاروا هم الرؤساء الفعليون في تصريف شؤون الدولة. وهم دعاة المؤمنين، أي المشرفين على الدعوة الفاطمية[2].

وليس أدل على اضطراب الأحوال بسبب تسلط الوزراء من تحول مصر إلى مسرح للفتن والمنازعات الداخلية بين الطوائف المختلفة وخاصة بين الأتراك والمغاربة. ذلك أنه ومع تولي الحاكم بالله[3] الحكم في مصر (٣٨٦-٤١١هـ/٩٩٦-١٠٢١م) نجح المغاربة في إقناع الحاكم بتوليهم المناصب العليا في ولايات الأعمال مكان الأتراك. فما كان من الأتراك إلا أن تحالفوا مع المشارقه وتقربوا إلى الوصي على الخليفة -بسبب صغر سنه- للتخلص من نفوذ المغاربة[4].

وقد أعقب ذلك اضطرابات بين طوائف الجند المختلفة، إذ جرى قتال بينهم في الشوارع، ثم أعقبه نهب الأسواق والمرافق التجارية الأخرى، كما دبروا المؤامرات وحاكوا الدسائس لقتل وخلع الخلفاء[5]. ذلك أنه وبعد وفاة العزيز تولى الخلافة الفاطمية ثمانية خلفاء كان من بينهم وقت اعتلاء العرش ثلاثة "مراهقين"

= المختصر في أخبار البشر، القاهرة : المطبعة الحسينية، د.ت. ج٢، ص ١٨٦، وسيشار له فيما بعد : أبو الفدا، المختصر، الصاوي، مجاعات مصر، ص ٩١-٩٢.

(١) ماجد، عبدالمنعم. الناصر صلاح الدين الأيوبي، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٥، ص ٣٣. وسيشار له فيما بعد : ماجد، الناصر صلاح الدين. الصاوي، مجاعات مصر، ص ٨٧.

(٢) ماجد، الناصر صلاح الدين، ص ٣٤.

(٣) الحاكم بأمر الله (ت ٤١١هـ/١٠٢١م). أحد الخلفاء المشهورين في الدولة الفاطمية، تميزت خلافته بالأمور المتضادة. فقد تميز بالشجاعة والإقدام، ومحبة العلماء والميل الى الاصلاح. إلا أنه في المقابل قتل الكثير من السكان وخاصة من العلماء وغيرهم، منع الكثير من الأمور الحياتية المتعلقة بحياة الناس، القرماني، أخبار الدول، ج٢، ص ٢٣٦-٢٤٠.

(٤) سيد، أيمن فواد. الدولة الفاطمية في مصر «تفسير جديد». القاهرة : الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٩٩٢، ص ٩٨. وسيشار له فيما بعد: سيد. الدولة الفاطمية.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة. ج٥، ص ١٨، ٧٤. الصاوي. مجاعات مصر، ص ٣٢.

وخمسة أطفال مما جعلهم لايتحكمون بمقاليد الحكم[1].

ولم تقتصر هذه الفتن والثورات والكوارث الاقتصادية في فترة الخلفاء الفاطميين في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، بل استمرت تنهش في جسم الدولة الفاطمية طوال القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي. إذ تعرضت مصر لعدة أزمات إقتصادية في الأعوام ٤١٥هـ/١٠٢٤م، ٤٤٤هـ/١٠٥٥م، ٤٥٧هـ/١٠٦٥م، ٤٦٤هـ/١٠٧١م[2]. ولم تخل تلك الفترة من الصراع بين الطوائف المختلفة وخاصة الأتراك والسودان والمغاربة نتيجة ضعف الخليفة والوزراء.

وصفوة القول إن الاستبداد الوزاري وما تبعه من الفتن الداخلية وسوء الحالة الاقتصادية التي انعكست على شكل أوبئة ومجاعات وغلاء في الأسعار وانتشار قطاع الطرق من جهة والصراعات الخارجية مع السلاجقة والعباسيين من الجهة الأخرى، ساعدت على اضعاف الخلافة الفاطمية. وهذا ما ساعد الفرنج الذين واتتهم ظروف المسلمين من ضعف وانحلال، وتمكنوا في غرة ذلك من التسلل الى قلب العالم الإسلامي وتكوين دويلات في أجزاء منه.

وحتى بعد استرداد الخلافة الفاطمية أنفاسها بتولى الوزارة الأفضل بن بدر الجمالي[3]، -الذي أعاد للدولة هيبتها واستقرارها - فإنه لم يقم بواجبه في التصدي للفرنج، ولم يعط لمقاومتهم جل اهتمامه وعنايته، بل فضل مهادنتهم حتى

---

(١) سيد : الدولة الفاطمية، ص ٩٧.

(٢) المرجع نفسه، الصفحات ١٢٠، ١٣٤، ١٣٩.

(٣) الأفضل بن بدر الجمالي (٤٥٩-٥١٦هـ/١٠٦٦-١١٢٢م). اسمه شاهنشاه بن بدر الجمالي الأرمني استلم الوزارة بعد أبيه في العام ٤٨٠هـ/١٠٨٧م. وقد تآمر علي الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ومن بعده أكثر من مرة. قتل في أحد أسواق القاهرة في العام ٥١٦هـ/١١٢٢م. سبط بن الجوزي، شمس الدين ابي المظفر يوسف بن قزاوغلي التركي (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان «الحوادث الخاصة بالسنوات (٤٩٥-٥٨٩هـ/١١٠١-١١٩٣م)، ق١، ج٨. حيدر أباد : مطبعة دائرة المعارف العثمانية. ط١، ١٩٥١م. ص ١٠٤-١٠٥، وسيشار له فيما بعد : سبط بن الجوزي، مرآة الزمان.

تمكنوا من الاستيلاء على سواحل البلاد الشامية[1]. ذلك أنه لم يدرك حقيقة الأخطار المحدقة بمصر والأراضي الإسلامية الأخرى في بلاد الشام، ولا حقيقة أهداف الغزو الفرنجي حتى أنه ظن أن باستطاعته التحالف مع الفرنجة ضد أعدائه السلاجقة.

ولاشك أن هذه السياسة كانت من أهم العوامل في انتصار الجيوش الفرنجية ووصولها الى بلاد الشام واحتلالها لبيت المقدس في العام(٤٩٢هـ/١٠٩٩م)[2]. ففي الوقت الذي كانت فيه جموع الفرنج تجتاح بلاد الشام وآسيا الصغرى وتحرز انتصارات مهمة، كان الأفضل يحاصر بقواته بيت المقدس لانتزاعها من أيدي السلاجقه في العام ٤٩١هـ/١٠٩٨م[3].

كما انسحب هذا الضعف على السلاجقة أيضاً، إذ آلت الخلافة الإسلامية، في بغداد في أوائل القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي الى حالة من الضعف والهزال لاتحسد عليها، فقد أصبح بنوبويه[4]-الشيعة - الذين انقذوا

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص ١٤٧، ١٥٢. ماجد، الناصر صلاح الدين، ص ٤٢.

(٢) للمزيد من التفاصيل حول موقف الأفضل من الحملة الفرنجية الأولى. انظر غوانمه، يوسف : دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين. عمان : دار الفكر، ١٩٨٣، ص ١١٥-١٣٠. وسيشار له فيما بعد. غوانمه : دراسات.

(٣) ابن القلانسي، أبويعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي (ت٥٥٥/١١٦٠م). ذيل تاريخ دمشق، تحقيق : سهيل زكار. دمشق. دار حسان، ط١، ١٩٨٣، ص ٢٢١. وسيشار له فيما بعد : ابن القلانسي : الذيل، أبو الفدا المختصر، ج٢، ص ٢٠٩. ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد بن محمد الحضرمي الأشبيلي (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م). تاريخ ابن خلدون المسمى «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر». بيروت : دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٢، م٤،ص ٢٥، وسيشار له فيما بعد : ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون.

(٤) بنويويه : أسره فارسيه أسسها أبو شجاع بويه، كانوا يعيشون في الأصل في بلاد الديلم، وعظم شانها في عهد أبناء ابي شجاع علي وحسين وأحمد. وقد ارتبطوا بالمذهب الشيعي. وبدؤا بحركة توسع نحو الشرق الإسلامي. فاستولوا على اصفهان وأرجان وشيراز وبلاد الجبل وكرمان من الأعوام ٣٢١-٣٢٤هـ/٩٣٣-٩٣٦م. وفي العام ٣٣٤هـ/٩٤٥م دخلوا بغداد واستولوا عليها وقد أنعم الخليفة العباسي على الأمير أحمد أميراً للأمراء. أنظر: باور ولويس وأخرون، دائرة المعارف الإسلامية، تحرير : ابراهيم خورشيد وآخرون، م٨، القاهرة : دار الشعب. (د.ت)، ص ٤٥٩، وسيشار له فيما بعد: باور وآخرون : دائرة المعارف.

الخلافة العباسية من عبء الأتراك، أكثر استبداداً على الخلفاء، وبدخولهم بغداد عام (٣٣٤هـ/٩٤٥م) زادت الأمور سوءاً، واستحكم العداء بينهم وبين الخليفة وعامة الناس أصحاب المذهب السني، فكانت الثورات والفتن تملأ البلاد، وشاع السلب والنهب وعمت الفوضى وانعدم الاستقرار.

في هذا الجو المشحون بالاضطراب والفوضى دخل السلاجقة(١) بغداد في العام ٤٤٧هـ/١٠٥٥م وملكوا زمام الحكم واستتب لهم الأمر، وأقاموا دولة قوية في الشرق الإسلامي، ووسعوا فتوحاتهم حتى شملت سيطرتهم أجزاء واسعة من فارس والعراق وأرمينيا(٢). ثم قاموا بالتوسع غرباً في آسيا الصغرى، وخلال ذلك اصطدموا مع البيزنطيين واشتبكوا معهم في معركة حامية الوطيس هي معركة ملاذكرد(٣) في العام ٤٦٣هـ/١٠٧١م بقيادة السلطان ألب ارسلان(٤). ومن أهم نتائج تلك المعركة أن

---

(١) السلاجقة : ينسبون الى زعيمهم الأول سلجوق بن دقاق، وهم احدى القبائل التركية . واطلق عليهم عدة اسماء مثل التركمان والأتراك والغز. إلا أن لقب السلاجقة هو الذي غلب عليهم. هاجروا من بلاد ما وراء النهر الى بخارى وخراسان في القرن ٤هـ/١٠م واعتنقوا الإسلام. يوسف، ارشيد. سلاجقة الشام والجزيرة (٤٣٥-٥٧٠هـ/١٠٥٣-١١٧٤م). عمان : د.ن، ١٩٨٨م. ص ١٥، وسيشار له: يوسف، سلاجقة الشام.

(٢) البنداري، قوام الدين الفتح بن علي بن محمد (ت٦٤٣هـ/١٢٤٥م) تاريخ دولة آل سلجوق، بيروت. دار الآفاق الجديدة، ط٢، ١٩٧٨، ص ٧١، وسيشار له فيما بعد: البنداري، تاريخ؛ عاشور، سعيد عبدالفتاح، الحركة الصليبية «صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى». القاهرة : مكتبة الأنجلو مصرية، ط٣، ج١، ١٩٧٨. ص ٧٦، وسيشار له فيما بعد: عاشور: الحركة الصليبية، يوسف. سلاجقة الشام، ص ٢٤-٢٥.

(٣) وقد اعتبرت هذه المعركة بانها المبرر على ما حدث عام ٤٨٨هـ/١٠٩٥م. من دعوات للحرب الصليبية في الغرب الأوروبي على أساس ان هذه الدعوة جادت كرد فعل للكارثة التي حلت بالدولة البيزنطية في هذه المعركة.

(٤) ألب أرسلان بن داوود بن ميكائيل ابن سلجوق : ويلقب بأبي شجاع. تولى حكم السلاجقة في العام ٤٥٢هـ/١٠٦٠م. كان ملكاً رحيماً متصدقاً على الفقراء. قام بتعيين نظام الملك وزيراً له. حارب الروم في أكثر من مرة وخاصة في معركة ملاذكرد وهزمهم. قتل في احدى حملاته في الشرق عام ٤٦٥هـ/١١٧٣م، وكانت مدة ملكه عشر سنين. الحسيني، صدر الدين أبو الحسن علي بن ناصر (ت٦٢٢هـ/١٢٢٥م). زبده التواريخ، "أخبار الأمراء والملوك السلجوقية"، تحقيق : محمد =

أصبحت أرمينيا وأغلب بلاد الأناضول تحت النفوذ السلجوقي[1].

واستمر السلاجقة في توسعهم واتجهوا غرباً إلى بلاد الشام فاستولى اتسز ابن اوق الخوارزمي[2]. أحد أمراء السلاجقة على فلسطين في العام ٤٦٥هـ/١٠٧٢م. وأقام بها الدعوة العباسية وأبطل الدعوة الفاطمية[3]، كما قام السلاجقة بالاستيلاء على دمشق في العام ٤٦٨هـ/١٠٧٥م وقطعوا الخطبة أيضاً عن الفاطميين لصالح العباسيين[4]. وحتى يتخلص السلاجقة من نفوذ الفاطميين قام استز في العام ٥٦٩هـ/١٠٧٦م. بشن هجوم على مصر نفسها معقل الخلافة الفاطمية إلا أنه فشل في السيطرة عليها[5].

= نور الدين. بيروت : دار اقرأ، ط٢، ١٩٨٦. ص ٧٧، ١١٩. وسيشار له فيما بعد: الحسيني: زبده التواريخ.

(١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان «الحوادث الخاصة بتاريخ السلاجقة بين السنوات (٤٤٨-٤٨٠هـ/ ١٠٥٦-١٠٨٦م) نشر ومراجعة: علي سويم. أنقره : مطبعة الجمعية التركية، ١٩٦٨، ص ١٤٣، ١٤٥، ١٤٧. الحريري، أحمد بن علي بن أحمد (ت ٩٢٦هـ/١٥١٩م). الاعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين. تحقيق : سهيل زكار، دمشق : مكتبة دار الملاح، ١٩٨١، ص ٢٧-٢٨. وسيشار له فما بعد : الحريري، الاعلام. حبشي، حسن. الحملة الصليبية الأولى، القاهرة : الدار القومية، ١٩٥٨م. ص ٣٦. وسيشار له فيما بعد : حبشي: الحملة الأولى.

(٢) اتسز بن أوق الخوارزمي (ت ٤٧١هـ-١٠٧٨م) أحد مقدمي الأتراك. كان أمير دمشق وقطع بها دعوة الفاطميين. قام بالاستيلاء على فلسطين ودمشق من العام (٤٦٥-٤٦٨هـ/١٠٧١-١١٧٤م). ثم هاجم مصر في العام(٤٦٩هـ/١٠٧٦م). إلا أن بدر الجمالي هزمه وعاد الى الشام. قتل في العام ٤٧١هـ/١٠٧٨م. زكار، سهيل. مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية. دمشق : دار الفكر، ط٣، ١٩٧٥. ص ٢٦٥-٢٦٨. وسيشار له فيما بعد: زكار. مدخل.

(٣) ابن القلانسي، الذيل، ص ١٦٦-١٦٧. ابن الأثير. عزالدين أبي الحسن علي بن محمد بن عبدالكريم الشيباني. (ت. ٦٣٠هـ-١٢٣٣م). الكامل في التاريخ. بيروت : دار صادر، ١٩٦٦، مج١٠، ص ٦٨، وسيشار له فيما بعد: ابن الأثير. الكامل.

(٤) أبو الفدا، المختصر، ج٢، ص ١٩٢. ابن كثير، اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م). البداية والنهاية. تحقيق : أحمد أبو ملحم وآخرون. بيروت : دار الكتب العلمية، ط٣، ١٩٨٣، ج١٢، مج٦، ص ١٢٠، وسيشار له. ابن كثير. البداية والنهاية.

(٥) ابن القلانسي، الذيل، ص ١٧٧-١٨٠. ابن الأثير، الكامل. مج١٠، ص ١٠٣. سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ق١، من ج٨، ص ١٨١-١٨٤.

فقام الفاطميون بالرد على تلك الأعمال بأن هاجموا في العام ٤٧١هـ/١٠٧٨م فلسطين وسيطروا على بعض أجزائها وخاصة بيت المقدس والرملة، إلا أنهم فشلوا في إعادة سيطرتهم على دمشق. وبقيت تحت سيطرة السلاجقة الذين قاموا بالتوسع في شمال الشام وسيطروا على حلب والمناطق المجاورة لها[١].

وبوفاة السلطان ملكشاه [٢] عام ٤٨٥هـ/١٠٩٢م دب النزاع في الدولة وتطرقت اليها عوامل التفكك والتجزئة نتيجة الخلافات التي نشبت بين أفراد البيت السلجوقي حول الزعامة والسلطة. وكان من نتائج تلك الخلافات أيضاً انقسام دولة السلاجقة الى خمس ممالك متنافسة هي: سلطنة فارس ومملكة خراسان وما وراء النهر ومملكة حلب ومملكة دمشق وسلطنة سلاجقة الروم[٣].

استمر الصراع داخل البيت السلجوقي وخاصة بين مملكة دمشق التي تزعمها دقاق بن تتش (٤٨٨-٥٠٦هـ/١٠٩٥-١١١٣م). ومملكة حلب التي تزعمها رضوان بن تتش (٤٨٨-٥٠٧هـ/١٠٩٥-١١١٤م). ونتج عن هذا الخلاف الذي تمثل في انشغالهما في حروب مع بعضهما البعض، أن سهلت مهمة الفرنج في السيطرة على الشام وفلسطين[٤]. وبذلك فقد أخذت السيطرة السلجوقية تنحسر تدريجياً. وقد صورّ لنا المؤرخ ابن واصل طبيعة الصراع داخل البيت السلجوقي بأنه إذا ظفر الواحد منهم

---

(١) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث عام (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص ٢٠٠.

(٢) ملكشاه ابن ألب أرسلان (ت ٤٨٥هـ/١٠٩٢م). أحد الملوك السلاجقة العظام. ملك الكثير من البلاد ما لم تجتمع لأحد من الملوك غيره قبله ولابعده. حارب الروم أكثر من مرة، حكم الشام، وحاصر القسطنطينية وفتح مدينة قيصرية كما سيطر على معظم أقاليم الشرق وما وراء النهر. ومن صفاته العدل والسخاء. الحسيني: زبده التواريخ، ص ١٤٧-١٥١.

(٣) عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص ١١٠. زكار، مدخل، ص ٢٢١-٢٢٢. الكيلاني، ماجد، هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس. جده : الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨٥م. ص ٦١. وسيشار له فيما بعد. الكيلاني، صلاح الدين.

(٤) ابن الأثير، الكامل، مج١٠، ص ٢٦٩. ابن العديم، كمال الدين ابن القاسم عمر بن أحمد بن هبه الله (ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م). زبده الحلب في تاريخ حلب. تحقيق : سامي الدهان، دمشق : المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٥٤، ج٢، ص ١٢٤-١٢٥. وسيشار له فيما بعد: ابن العديم. زبدة الحلب. أبو الفداء، المختصر. ج٢، ص ٢٠٩-٢١٠.

بالسلطة لايتمنع من أن يقتل أخاه، وفي أحسن الأحوال كان يعتقله حتى يموت[1].

ولعل قيام عدد من الأتابكيات -التي هي عبارة عن وحدات صغيرة جداً لايتجاوز نفوذها قلعة أو سور مدينة ولاتجمعها إلا رابطة الانتماء للبيت السلجوقي- يمثل أوضح مظاهر الانحلال في الدولة السلجوقية، والتي كان أشهرها أتابكية دمشق والموصل[2].

وقد ناوئ الفاطميون السلاجقة في حكم الشام. فكانت دمشق تتبع أحياناً للسلاجقة وأحياناً أخرى للفاطميين[3]، ومما زاد في حالتها سوءاً نشوب الخلاف داخل أسرة تتش بين رضوان وأخيه دقاق ووقوف بعض الأتابكة والنواب الى جانب كل من الأخوين. إذ وقف صاحب أنطاكية الى جانب دقاق بينما وقف صاحب سروج الى جانب رضوان[4].

ولما كان رضوان موالياً للشيعة، فقد أرسل الخليفة الفاطمي وزيره الأفضل يدعوه الى إقامة الدعوة له، مقابل تقديم المساعدة له ضد خصومه، فاستجاب رضوان لذلك وبقي نحواً من شهرين يدعو للخليفة الفاطمي في الشام، لكنه ما لبث أن عاد الى الدعوة للخليفة العباسي[5] وذلك تبعاً لمصالحه الشخصية.

كما أن النصف الثاني من القرن الخامس / الحادي عشر الميلادي عكس آثاره السلبية على الدولة الفاطمية أيضاً، فعجزت عن صون ممتلكاتها في الشام فسقطت بيت المقدس في أيدي السلاجقة عام ٤٦٣هـ/١٠٧١م. وظلت تحت حكمهم حتى اضطروا للإنسحاب منها تحت حصار الفاطميين عام ٤٩١هـ/١٠٩٨م. وذلك حين اغتنموا فرصة انشغال السلاجقة بمواجهة الفرنج. ولكنهم ما كادوا يسترجعونها

---

(١) ابن واصل، جمال الدين أبو عبدالله محمد بن سالم بن نصر الله (ت٦٩٧هـ-١٢٩٧م). مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق : جمال الدين الشيال. القاهرة : مطبعة الأميرية، ١٩٥٧. ج٣، ص ٢١٩. وسيشار له: ابن واصل، مفرج الكروب.

(٢) عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص ١١٢-١١٣.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، مج٦، ص١٢٠.

(٤) ابن القلانسي، الذيل، ص ٢١٧.

(٥) ابن القلانسي، الذيل، ص ٢١٧، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص ١٥٨.

حتى سقطت في العام التالي في يد غرباء لم يكونوا في حسبان الفاطميين أو السلاجقة ألا وهم الفرنج. أضف الى ذلك أن المنازعات المحلية والتحاسد والتباغض بين الحكام ولو كانوا أخوة، قد ولّدت حالة مَرَضيّة مزمنة من الفوضى حتى يكاد تاريخ الشام في تلك الفترة يكون سجلاً حافلاً لعدوان الأمراء على بعضهم البعض في معظم المناطق سعياً وراء كسب مادي أو رغبة في توسيع رقعة حكمهم وضم أراضٍ جديدة لنفوذهم. كما أن أجزاء من بلاد الشام كانت تحت سيطرة زعماء محليين من العرب مثل طرابلس التي كانت تحت حكم بني عمار ذوي الميول الشيعية وشيزر[1] تحت حكم بني منقذ منذ العام ٤٧٤هـ/١٠٨١م وصور تحت حكم آل عقيل[2].

كل هذه الأمور ساعدت في ظهور الانقسامات وفي تفكيك الجبهة الداخلية في بلاد الشام في الوقت الذي شرعت فيه جحافل الفرنج تشق طريقها نحوها لتثبيت أقدامها على ترابنا المقدس.

وقد صاحبت حالة التشرذم السياسي تلك، وأسهمت في تأجيجها في جسم الأمة الإسلامية حالة أخرى من التشتت والاختلاف بين المذاهب والطوائف الإسلامية وخاصة بين السنة والشيعة طوال قرنين من الزمان (الرابع والخامس الهجريين/العاشر والحادي عشر الميلاديين). مما ترك آثاراً واسعة وخطيرة على قوة المسلمين ووجودهم، ظهرت نتائجها أثناء قيام الحروب الفرنجية[3].

كانت فئات السكان في الشام ومصر والعراق في القرن الخامس الهجري

(١) شيزر : قلعة تشمل على كوره بالشام قرب المعره. فتحت في العام ١٧هـ/٦٣٩م واليها ينسب جماعة من الأمراء من بني منقذ. وفي وسطها يمر نهر العاصي القادم من لبنان، الحموي، شهاب الدين ابي عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي البغدادي. (ت٦٢٧هـ/١٢٢٩مم) معجم البلدان، تحقيق. فريد الجندي، بيروت : دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٠، ج٣، ص ٤٣٤. وسيشار له الحموي، معجم البلدان.

(٢) الحريري، الإعلام، ص ٣٢؛ جب، هاملتون، صلاح الدين الأيوبي، «دراسات في التاريخ الإسلامي». حررها : يوسف أبيش. بيروت : المؤسسة العربية للدراسات، ١٩٧٣. ص ٤٨-٤٩. وسيشار له فيما بعد: جب، صلاح الدين.

(٣) الحريري، الاعلام، ص ٢٩، عاشور. الحركة الصليبية، ج١، ص ٦١.

الحادي عشر الميلادي غير متوافقة مذهبياً، فالعراق يدين معظمه للخلافة العباسية السنية بخلاف مصر التي يدين معظم سكانها للمذهب الشيعي الفاطمي في حين أن بلاد الشام كانت متذبذبه بين السنة والشيعة. إلا أن معظمها كان شيعياً. أما منطقة الحجاز فقد تأرجحت بين المذهبين السني والشيعي[1]. وقد انتشرت فيها مذاهب متعددة أخرى وخاصة المذهب الاسماعيلي في شمالها وجنوبها. أما الدروز فقد انتشروا في حلب وأجزاء من لبنان وفلسطين. والعلويون في جبال النصيرية. أما السنة فقد انتشروا في المدن الكبرى كدمشق والقدس وحلب وغيرها[2].

وبالإضافة للسنة والشيعة فقد وجدت طوائف أخرى مثل اليهود في بعض أحياء دمشق وحلب. أما النصارى فقد انتشروا وتواجدوا في معظم مدن الشام ومصر.

وكان من نتائج الصراع السياسي في الشام بين السلاجقة أنفسهم أن أدى الى ظهور العديد من الدويلات والأتابكيات المتصارعة فيما بينها حول السلطة، كما أن الصراع المرير مع الدولة الفاطمية ساعد على إنهاك واستنفاذ طاقاتها المادية والبشرية. ولهذا فقد استطاعت الدولة الفاطمية منذ القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ان تستغل الصراع لتوطيد نفوذها، في مصر واليمن وجنوب الشام.

ومضت في سياستها الرامية الى تقويض الخلافة العباسية السنية، واجتثاث الفكر الإسلامي السني واستبداله بالفكر الشيعي[3] وفي سبيل ذلك راح دعاتها في شرق العالم الإسلامي وغربه يدعون الى اسقاط الخلافة السنية في بغداد والدخول في طاعة الخليفة الفاطمي. وقد استطاعوا تحقيق بعض النتائج، اذ قام أحد القواد الذين والوا الفاطميين ويدعى البساسيري[4] بشن هجوم على مركز الخلافة العباسية السنية في بغداد. وهناك دعا للخليفة الفاطمي بعد أن أسقط الخليفة

(١) سيد، الدولة الفاطمية، ص١٢١.

(٢) زكار، مدخل، ص ٧٩.

(٣) الكيلاني، صلاح الدين، ص ٦٣، سيد، الدولة الفاطمية، ص ١٢١.

(٤) البساسيري : هو أبو الحادث أرسلان التركي، أصله من بلدة بُسا بفارس. بدأ حياته كعبد في خدمة الحكام البويهيين، وتدرجت به المناصب حتى أصبح في عام ٤٢٥هـ/١٠٣٣م الحاكم العسكري الغربي بغداد. ثم قوى نفوذه في مناطق أخرى، كان ذا ميول شيعيه. زكار. مدخل، ص٩٧.

العباسي في العام ٤٥٠هـ/١٠٥٨م. واستمر يحكم بغداد حوالي السنة حتى قام السلاجقة بقتله[١].

واستمر الصراع الديني مصحوباً بالصراع السياسي واشتدت الفتن المذهبية والصراعات الدينية بين السنة والشيعة في معظم أجزاء العالم الإسلامي وخاصة بلاد الشام. وقد جاء في بعض الأحيان مصحوباً بالقتل والفوضى وتحولت بلاد الشام الى ساحة للصدام بين الخلافتين العباسية والفاطمية[٢].

وازدادت حدة الصراع الديني في النصف الثاني من القرن الخامس / الحادي عشر الميلادي وحفل العالم الإسلامي بمختلف الفرق والجماعات التي انحرفت عن جادة الإسلام وأخذت تناصب المسلمين العداء وتشن حرباً ضدهم.

وكان أخطر تلك الفرق وأشدها عداءاً للسنة الحركة الباطنية الاسماعيلية التي استغل الفاطميون صراعهم مع السلاجقة وتحالفوا مع هذه الفرقة الشيعية لاثارة الفتن والاضطرابات عن طريق تنفيذ الاغتيالات السياسية ضد الزعماء والحكام السنيين[٣]. وكانت أول فتكه مشهورة لهم أن اغتالوا الوزير نظام الملك[٤] وزير السلطان السلجوقي ملكشاه في رمضان عام ٤٨٥هـ/١٠٩٢م[٥].

كما استغلت هذه الجماعة حالة الانقسام في البيت السلجوقي لتقوية نفوذهم ونشر دعوتهم فاستولوا في العام ٤٨٨هـ/١٠٩٤م على بعض القلاع في مناطق النفوذ السلجوقي التي أصبحت مركزاً لانطلاق عمليات الاغتيال والتخريب في العالم الإسلامي.

---

(١) أبو الفدا، المختصر ج٢، ص ١٧٧-١٧٩. وللمزيد من التفاصيل حول حركة البساسيري. انظر : ابن كثير، البداية والنهاية ج١٢، مج٦، ص ٦٣-٨٦.

(٢) شبارو، السلاطين «السلاجقة» ص ٥٤. زكار، مدخل، ص ٧٩.

(٣) الكيلاني، صلاح الدين، ص ٦٤.

(٤) نظام المُلك : الحسن بن علي بن اسحق الطوسي (ت٤٨٥هـ-١٠٩٢م) اعظم وزراء الدولة السلجوقية في زمن السلطان ملكشاه. كان وزيراً عادلاً فاضلاً عالما، وقف عدة مدارس لطلبة العلم في عدة مناطق من البلاد الإسلامية، في الشرق. زكار. مدخل، ص ٢٥٠-٢٥٣.

(٥) ابن القلانسي، الذيل، ص ٢٠٠، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص ١٣٦.

وقد حاول السلطان ملكشاه القضاء عليهم إلا أنه لم يفلح لإستماتتهم في الدفاع عن أنفسهم، ولمناعة مراكزهم[1]، وبسبب سياستهم تلك خافهم السلاطين والخلفاء والقواد واستغاث بهم بعض الحكام للتخلص من مناوئيهم السياسيين، كما استغلهم الفرنج فيما بعد، لاغتيال الزعماء المسلمين المعادين لهم ومنهم صلاح الدين الأيوبي. وظلت هذه الفرقة تثير الرعب وتنشر الفزع في أنحاء العالم الإسلامي حتى قُضي عليهم في بداية العصر المملوكي.

واستمر هذا الصراع العقائدي بين السنة والشيعة. وفي الوقت الذي وصل فيه الفرنج إلى مشارف الشام كان المشرق العربي الإسلامي يعيش حالة من الفوضى السياسية والعقائدية لانظير لها[2].

(١) ابن الأثير، الكامل، مج.١، ص ٤٣٠-٤٣١.

(٢) الحريري، الاعلام، ص ٢٩.

ثانياً: خضوع فلسطين للفرنجة وقيام مملكة بيت المقدس فيها وتوسعها:

- قدوم الحملة إلى بلاد الشام واحتلال القدس

انطلقت من أوروبا إلى بلاد الشام جموع صليبية ضخمة عبرت مضيق البسفور إلى الشاطئ الآسيوي في عام ٤٨٩هـ/١٠٩٦م[١]. وجرت بينهم وبين السلاجقة معارك ضارية كانت خسارة الطرفين فيها كبيرة. ثم واصلت القوات الفرنجية تقدمها نحو القسطنطينية حتى وصلت إليها في مطلع العام ٤٩٠هـ/١٠٩٧م وعاثت فيها الفساد. وواصلت قواتهم التقدم حتى وصلت إلى عاصمة السلاجقة نيقيّة[٢] وسقطت بأيديهم في منتصف العام نفسه.

وقد حاول السلاجقة المسلمون تجميع قواهم والتصدي للفرنج إلا أنهم هزموا في معركة ضوروليوم[٣]، أواخر العام ٤٩٠هـ/١٠٩٧م. وكانت نتيجة هذه المعركة إنفتاح الطريق أمام الفرنجة للتقدم إلى شمال الشام بحيث تقدموا إلى مدينة الرُّها[٤] واحتلوها، وأسسوا فيها أول إمارة فرنجية في المشرق في العام ٤٩١هـ/١٠٩٨م[٥].

---

(١) الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة إلى القدس (١٠٩٥-١١٢٧م). ترجمة: زياد العسلي، عمان، دار الشروق، ط١، ١٩٩٠، ص٤١، وسيشار له: الشارتري: تاريخ الحملة؛
Henry Trace: The Crusades . Bodley Head Litd, London, 1962, P. 106.

(٢) نيقية: مدينة قديمة تقع على بحيرة فان وتحيط بها الجبال العالية، وهي من المدن الجليلة والكبيرة، الإدريسي، محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني. (ت ٥٦٠هـ/١١٦٤م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بيروت، عالم الكتب، ط١، ١٩٨٩. م٢، ص٨٠٥. وسيشار له: الإدريسي، نزهة المشتاق.

(٣) ضوروليوم (دوروليوم): مدينة تقع في شمال غرب تركيا حالياً. كانت مركزاً تجارياً في العهد الروماني، ثم سيطر عليها السلاجقة بعد المعركة المعروفة باسمها. مع البيزنطيين. الموسوعة العربية الميسرة. إشراف، محمد شفيق غربال، القاهرة، دار الشعب، ١٩٦٥م. ص ٨٢٦. وسيشار له: الموسوعة العربية.

(٤) الرّها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام وهي اليوم بتركيا وتعرف باسم أورفة، العسلي، فن الحرب، مج٤، ص٢٩٩.

(٥) الشارتري، تاريخ الحملة، ص٥١-٥٢؛ الصوري، وليم، تاريخ الحروب الصليبية.ترجمة وتعليق: حسن حبشي، القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٢، ج١. ص٢٦٣-٢٦٤. وسيشار له: الصوري، تاريخ الحروب،

وبعد استراحة قصيرة تابعت جيوش الفرنج طريقها باتجاه أنطاكيّة[1] وحاصرتها ثمانية أشهر، ثم اقتحمتها وقتلت أعداداً كبيرة من سكانها المسلمين[2] .

واستمر مسير القوات الفرنجية فخرجت من أنطاكية عبر طريقين: الأول على طول نهر العاصي[3]، والثاني عبر الطريق الساحلي المحاذي للبحر المتوسط، حيث التقت عند مدينة عِرْقَة[4]، وتم حصارها واحتلالها. وتابعت الحملة تقدمها جنوباً عن طريق الساحل بحيث مرت من أطرابلس[5] وحاصرتها ثلاثة أشهر، إلا أنها عجزت عن احتلالها[6]، فواصلت مسيرها إلى بيروت[7]، وعسكرت فيها للتزود بالمؤن، ومنها

---

(١) أنطاكية: مدينة تقع على طريق نهر العاصي. كانت مسورة ومحصنة بالأبراج قبل وصول الفرنج إليها. وتحيط بها الجبال العظيمة احتلها الفرنج عام ٤٩١هـ/١٠٩٨م؛ مجهول. أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس. ترجمة: حسن حبشي. القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٥٨، ص:١٠٣. وسيشار له فيما بعد: مجهول:أعمال الفرنجة.

(٢) ابن القلانسي، الذيل، ص٢٢٠؛ ابن الأثير، الكامل، مج١٠، ص٢٧٤-٢٧٥، ص١٠٣. مجهول. أعمال الفرنجة،ص٩٧-١٠١.

(٣) نهر العاصي: هو اسم نهر حماة وحمص ينبع من بحيرة قَدَسْ بالقرب من حمص، ويتجه شمالاً ويصب في البحر المتوسط قرب أنطاكية، الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٧٦.

(٤) عرقة: بلدة تقع شرقي طرابلس، بينهما أربعة فراسخ وهي آخر عمل دمشق، وتطل على البحر المتوسط وفيها قلعة حصينة. الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص١٢٢.

(٥) أطرابلس: مدينة حصينة على ساحل البحر المتوسط. ولها سور حصين ولها رساتيق وضياع جليلة وتزرع بها أشجار الزيتون والكروم وأنواع الفواكه، وهي معقل من معاقل الشام. وقد بنى حولها ريموند الصنجيلي حصن ساعده في فتح المدينة. وقد سقطت المدينة بيد الفرنج عام ٤٩٧هـ/١١٠٤م. واستعادها المسلمون عام ٦٨٩هـ/١٢٨٩م. المقدسي، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن عبد الله البشاري (ت ٣٩٠/٩٩٩م)؛ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط٣، ١٩٩١، ص١٦٠. وسيشار له: المقدسي، أحسن التقاسيم؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، م١، ص٣٧٢-٣٧٣؛ لي سترانج. فلسطين في العهد الإسلامي، ترجمة: محمود عمايرة، عمان، وزارة الإعلام، ط١، ١٩٧٠، ص٢٨٨.وسيشار له: سترانج: فلسطين.

(٦) ابن القلانسي، الذيل، ص٢٢٢؛ الصوري، تاريخ الحروب، ج٢، ص٦٣؛ مجهول: أعمال الفرنجة، ص١١١.

(٧) بيروت: مدينة على ساحل البحر المتوسط كبيرة وواسعة عامرة بالأسواق. وتحف بها الأشجار.وهي مدينة حصينة ومسورة. وتعد بيروت من أعمال دمشق. وكانت بأيدي المسلمين حينما حاصرها الملك الفرنجي بلدوين الأول وفتحها عنوة في العام٥٠٢هـ/١١١٠م.حررها صلاح =

غادرت إلى صيدا[1] وصور[2] الساحليتين.

وبعد فترة استراحة سارت جموعهم نحو شمال فلسطين سالكين الطريق الساحلي، حتى وصلت إلى السهول المحيطة بعكا. وغادرتها دون الإستيلاء عليها[3] متجهة جنوباً نحو قيسارية[4] وأرسوف[5]. ومرت عنهما مختاره الطريق الساحلي حتى وصلت إلى سهول يافا[6] ثم إلى

= الدين عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م؛ المقدسي. أحسن التقاسيم، ص.١٦؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، مج١، ص٣٧١؛ الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٦٢٣.

(١) صيدا: مدينة على ساحل البحر المتوسط. وهي مدينة كبيرة وواسعة الأسواق ومحاطة بالبساتين والأشجار، وغزيرة المياه. وهي من أعمال دمشق بينها وبين صور ستة فراسخ. استولى عليها الفرنجة عام ٥٠٤هـ/١١١١م بالأمان وبقيت في أيديهم حتى حررها صلاح الدين عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م؛ الإدريسي: نزهة المتشاق، م١، ص.٣٧؛ الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص٤٩٦-٤٩٧.

(٢) صور: مدينة حصينة على ساحل البحر المتوسط. ولها ميناء واسع حصين ويحيط بها البحرمن ثلاث جهات. وكانت من ثغور المسلمين. فتحت زمن عمر بن الخطاب وبقيت بيد المسلمين حتى العام ٥١٨هـ/١١٢٤م حيث استولى عليها الفرنج وحصنوها وبقيت في أيديهم حتى حررها المماليك في نهاية القرن ٧هـ/١٣م؛ الإدريسي. نزهة المشتاق. مج١، ص٣٦٥؛ الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٢٩٢-٢٩٣.

(٣) الشارتري، تاريخ الحملة، ص٦٩؛ الصوري، تاريخ الحروب، ج٢، ص٦٥؛ مجهول: أعمال الفرنجة، ص١١٤.

(٤) قيسارية: مدينة على ساحل الشام من أعمال فلسطين. وهي محصنة تحف بها الأشجار فتحها المسلمون من الرومان عام ١٩هـ/٦٤١م وبقيت بيدهم حتى احتلها الفرنج عام ٤٩٢هـ/١١٠٠م. وحرّرها صلاح الدين بعد حطين عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م. ثم الظاهر بيبرس عام ٦٦٢هـ/١٢٦٤م، الإدريسي، نزهة المشتاق، م١، ص٣٦٥؛ الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٤٧٨.

(٥) أرسوف: مدينة حصينة على ساحل فلسطين إلى الجنوب من قيسارية والشمال من يافا، بناها العرب الكنعانيون. فتحها العرب في العام ١٥هـ/٦٣٧م. وبنوا فيها قلعة. كانت تحت السيطرة الفاطمية قبل أن يستولي عليها الفرنج في العام ٤٩٤هـ/١١٠١م. حررها صلاح الدين في العام ٥٨٣هـ/١١٨٧م. ثم عاد وحررها الظاهر بيبرس في العام ٦٦٣هـ/١٢٦٥م. ودمرت. الحموي، معجم البلدان، ج١، ص١٨٢.

(٦) يافا: مدينة فلسطينية تقع على ساحل البحر المتوسط إلى الجنوب من مصب نهر العوجا واسمها تحريف لكلمة "يافي" الكنعانية بمعنى جميل، وهي من أقدم موانئ العالم. وقد بناها =

اللد[1]. وبعد فترة استراحة أخرى تحرك الجيش الفرنجي شرقاً حتى وصل إلى الرملة[2] التي فرّ سكانها عندما علموا بوصول الفرنج[3].

وقد عقد الفرنجة في الرملة مجلساً عسكرياً لتدارس الوضع العسكري، واتفقوا على إرسال العيون لفحص الطريق الموصلة إلى بيت المقدس[4] لمهاجمتها، وقد عارض بعضهم الهجوم عليها. ورأى تأجيله، والقيام بالهجوم على مصر لأنها مفتاح القدس[5]. إلا أن رأي الأغلبية كان مع التوجه إلى القدس "لأننا إذا تخلينا عن حصارها فإننا لن ننجح أبداً[6]".

= الكنعانيون. فتحها عمرو بن العاص. ووصفها المقدسي "بانها تقع على ساحل البحر ولكنها بلدة صغيرة. أما أبو الفداء فقد وصفها بانها بلدة جميلة ولها ميناء وهي محصنة جداً وأسواقها مكتظة بالتجار. أما الإدريسي فقد وصفها بانها" نزهة بيت المقدس وتحيط بها الأشجار والكروم وخاصة أشجار البرتقال والليمون. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٧٤؛ الأدريسي، نزهة المشتاق، م١، ٣٦٤؛ شراب، محمد، معجم بلدان فلسطين، بيروت، دمشق: دار المأمون للتراث، ط١، ١٩٨٧، ص٧٢٦. سيشار له فيما بعد: شراب، معجم.

(١) اللد: مدينة فلسطينية تقع إلى الغرب من القدس: وإلى الشرق من يافا في السهل الداخلي تقع بالقرب من الرملة. بناها الفلسطينيون الأوائل. ثم احتلها الرومان وأعادوا بنائها. فتحها المسلمون وكانت عاصمة الأمويين ثم نقلت إلى الرملة. وبقيت في أيد المسلمين حتى احتلها الفرنج. في العام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م. ثم حررها صلاح الدين بعد معركة حطين. الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص١٥؛ شراب: معجم، ص٦٢٧-٦٣٨.

(٢) الرملة: مدينة بفلسطين. مصرها المسلمون زمن الوليد بن عبد الملك، وبناها سليمان بن عبد الملك. وقد لعبت دوراً هاماً في المعارك والحروب بين الدويلات الإسلامية في الشام ومصر. وبقيت عاصمة فلسطين حتى غزاها الفرنج عام ١٠٩٩/٤٩٢م. وتقع إلى الشرق من يافا والغرب من بيت المقدس، وتنتشر حولها البساتين والكروم. ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص٧٩؛ شراب، معجم، ص٤١٨.

(٣) ريموند أجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس. ترجمة: حسين محمد عطية، الإسكندرية: دار المعرفة، الجامعة، ط١، ١٩٩٠، ص٢٢٥ وسيشار له ريموند أجيل: تاريخ الفرنجة؛ الصوري، تاريخ الحروب، ج٢، ص٦٥؛ الشارتري، تاريخ الحملة، ص٦٩.

(٤) الشارتري، تاريخ الحملة، ص٧٠؛ الصوري، تاريخ الحروب، ج٢، ص٦٩.

(٥) ريموندأجيل، تاريخ الفرنجة، ص٢٢٥-٢٢٦.

(٦) المصدر السابق، ص٢٢٦.

ونتيجة لذلك، تقدمت قوات الفرنج باتجاه بيت المقدس وضربت عليها حصاراً من ثلاث جهات هي: الشمالية والجنوبية والغربية بعدد يقدر ببضعة آلاف من الجنود[1]. إلا أن محاولاتهم الأولى فشلت في اقتحامها بسبب تحصيناتها القوية وإجراءات السكان والوالي الفاطمي. وبتكرار المحاولات تمكن الفرنج في النهاية من السيطرة عليها، بعد حصار دام أكثر من أربعين يوماً، حيث سقطت المدينة في أيديهم في ٢٢ شعبان ٤٩٢هـ/ الموافق ١٤ تموز ١٠٩٩م.

وقد أحدث الفرنج مذبحة رهيبة داخل المدينة لم ينج منها سوى الوالي وحاشيته الذين سُمِحَ لهم بالمغادرة مقابل تسليم برج داود لهم[2] وقد أسهب المؤرخون سواء المسلمون أم غيرهم في الحديث عن تلك المذبحة من حيث أعداد الذين قتلوا، فذكر المسلمون أن القتلى كانوا حوالي سبعين ألف مسلم من الرجال والنساء[3]، فيما قدرتها المصادر الفرنجية بعشرة آلاف[4].

والملاحظ أن هذه الأرقام غير دقيقة ومبالغ فيها من الطرفين، فقد حاولت المصادر الإسلامية تضخيم المذبحة لفضح جرائم الفرنجة أمام الرأي العام الإسلامي واستنفارهم لحرب الفرنج ومقاومتهم، فيما حاولت المصادر اللاتينية التقليل من عدد القتلى، للتغطية على حجم الجريمة. مع اعترافهم بفظاعتها[5].

ويرى الباحث أن العدد الذي ذكره المؤرخ المجهول وهو ثلاثون ألفاً مقبولاً[6]،

---

(١) مكسيموس مونروند: تاريخ الحروب المقدسة في المشرق. ترجمة: مكسيموس مظلوم. القدس، دير الرهبان الفرنسيسكان، ١٨٦٥، ج١، ص١٩٢. وسيشار له: مكسيموس، تاريخ الحروب.

(٢) الصوري، تاريخ الحروب، ج٢، ص١٢٤؛ The Cambridge History of Islam Editted by: P.M. Holt and Bernard Lewis Cambridge Universety Press, Cambridge, vol: IA, 1970, P .196.

(٣) ابن الأثير، الكامل، مج١٠، ص٢٨٤؛ ابن الجوزي، أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م). المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٢. ج١٧، ص٤٧٨. وسيشار له: ابن الجوزي، المنتظم.

(٤) الصوري، تاريخ الحروب، ج٢، ص١٢٧؛ الشارتري: تاريخ الحملة، ص٧٥.

(٥) الصوري، تاريخ الحروب، ج٢، ص١٢٧-١٢٨، ريموند أجيل، تاريخ الفرنجة، ص٢٤٧.

(٦) مجهول: أخبار الحملتان الصليبيتان الأولى والثانية، وقع ضمن كتاب "الحروب الصليبية" ترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار حسان للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٤، ج٢، ص٤٦٠. وسيشار له مجهول: أخبار الحملتان.

ذلك لأن مدينة بيت المقدس في ذلك الوقت لم تكن تستوعب ذلك العدد الكبير من السكان بسبب صغر حجمها. كما أن فلسطين تعرضت لعدد من الزلازل خلال السنوات التي سبقت الغزو الفرنجي، وكان أشهرها زلزال عام ٤٦٠هـ/١٠٦٨م. وعام ٤٦٢هـ/١٠٧٠م الذي كان من نتائجهما هلاك الآلاف من السكان وخاصة في الرملة وبيت المقدس[١] بحيث قدر أن عدد سكان القدس قبل غزوها بعدة سنوات ثلاثون ألف ساكن[٢]. كما أن المدينة لو احتوت على هذا العدد الكبير من السكان لما استطاعت القوات الفرنجية السيطرة عليها.

وكان لهذه المذابح الأثر العميق في إدخال الرعب في نفوس السكان في معظم المدن والقرى الفلسطينية المجاورة، فهاجر قسم من سكانها هرباً من بطش الفرنج، مما سهل عليهم فيما بعد السيطرة على بقية أجزاء فلسطين وهذا يشبه تماماً ما قامت به الحركة الصهيونية في العام ١٩٤٨م حينما ارتكبت العديد من المذابح بحق مدن فلسطين وقراها لحمل السكان على الهروب وترك أرضهم ومساكنهم.

- تأسيس مملكة بيت المقدس وتوسعها

عقد الفرنجة اجتماعاً بعد ثمانية أيام من احتلال المدينة المقدسة لاختيار حاكم لها، وانتهت مناقشاتهم بانتخاب غودفري بوابون (Godfrey de Bauillon)[٣] حاكماً سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م.

وعندما تولى غودفري السلطة كانت المملكة في مرحلة الولادة وصغيرة الحجم، حيث كانت تضم يافا الساحلية وبعض المدن الداخلية وهي اللد والرملة

---

(١) السيوطي، جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١/١٥٠٥م). كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة. تحقيق: عبد الرحمن الفريوائي، المدينة المنورة، مكتبة الدار، ط١، ١٩٨٤، ص٦٢-٦٤. وسيشار له: السيوطي، كشف الصلصلة.

(٢) J. Prawer. "Thee Settlement in the Latins in Jorusalem" Speculum, Vol: 27, London, P, 492.

(٣) غودفري دي بوايون (Godfrey de Bauillon) كان دوق اللورين السفلى قبل التحاقه بالحملة الأولى. ولم يكن له دوراً مهماً في الحملة. اختير أميراً على بيت المقدس بسبب قوة شخصيته ومهارته العسكرية، ريموند أجيل، أعمال الفرنجة، ص٢٥٧.

وبيت المقدس[1]. ولهذا فقد حاول الحاكم الجديد توسيع رقعة دولته، إلا أنه اصطدم مع الفاطميين الذين شكلت قواعدهم في الساحل الفلسطيني تهديداً مباشراً ومستمراً للوجود الفرنجي في بلاد الشام[2]. وتمثل ذلك بالحملة التي قادها الأفضل بن بدر الجمالي من مصر إلى عسقلان التي وصلها في رمضان ٤٩٢هـ/١٠٩٩م وعسكر فيها. إلا أن الحملة فشلت وتراجعت إلى مصر. وكان من نتيجة المعركة ارتفاع معنويات الفرنج واستيلائهم على أموال وفيرة من الجيش الفاطمي، «وعادوا مسروين إلى القدس»[3].

ولشعور غودفري بخطورة القواعد الفاطمية المنتشرة على الشاطئ السوري، فقد حاول أن يوسع مملكته على حسابهم فخرج بجيشه وحاصر أرسوف في ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، إلا أنه فشل في السيطرة عليها بسبب مقاومة سكانها وعدم وجود أي قوة بحرية تساعده في ذلك[4].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن قلة القوات الفرنجية في فلسطين إنما يرجع إلى عودة معظم المشاركين في الحملة إلى أوروبا، مما كان له الأثر الكبير في عدم تمكن الفرنج من السيطرة على مدن الساحل في بداية تأسيس المملكة[5].

وفي إطار توسيع المملكة فقد أرسل تانكرد[6] (Tancerd) للسيطرة على إقليم

---

(١) Harolds. Finik. The Foundation of the Latin States (1099-1118), Editor: Kenneth.m. Setton. Wisconsin Press, 1969, Vol: I, P, 375, 3.

(٢) Ibid. P. 365.

(٣) الشارتري، تاريخ الحملة، ص٧٩.

(٤) الصوري، تاريخ الحروب، ج٢، ص١٨١.

(٥) الصوري: تاريخ الحروب، ج١، ص ٤٦١-٤٦٢.

(٦) تانكرد: (Tancerd): أحد قواد الحملة الفرنجية الأولى، ينتمي إلى عائلة نورماندية عريقة، اشترك في احتلال بيت المقدس مع الأمير غودفري. وقد منحه غودفري إمارة على الجليل عام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م. ثم عين وصياً على أنطاكية. وتوفي في العام ١١١٢م. البيشاوي، سعيد، الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية (٤٩٢-٦٩٠هـ/١٠٩٩-١٢٩١م). الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية ١٩٨٩، ص٦٧-٦٨، هامش٧. وسيشار له: البيشاوي، الممتلكات؛ العسلي، فن الحرب، م٤، ص٤٠٢، هامش٢.

الجليل[1]، بينما قام غودفري بتعمير يافا وتسليمها له. وفي العام ٤٩٣هـ/١١٠٠م أغار على عكا وحاصرها إلا أنه قتل بسهم أصابه هناك[2].

واصل بلدوين الأول[3] (Baldwin I) (٤٩٣-٥١٢هـ/١١٠٠-١١١٨م). سياسة سلفه التوسعية إلا أنه واجه وضعاً عسكرياً غير مستقرٍ لنقص القوى البشرية المحاربة معه والموزعين على الحاميات في المملكة[4]، وذلك بسبب رحيل معظم القوات المحاربة بعد احتلال القدس إلى أوروبا[5]. وعلى الرغم من ذلك، فقد قاد حملة نحو جنوب فلسطين واستولى على الخليل[6] ومنطقة جنوب البحر الميت[7] وذلك لأهمية المنطقة بسبب موقعها التجاري بين مصر والجزيرة العربية، ثم عاد إلى القدس

---

(١) إقليم الجليل: يقع في شمال فلسطين ويقسم إلى قسمين أعلى وأسفل. الأعلى حده جبل الشيخ ومرتفع جداً. أما الأسفل فاقل إرتفاعاً ويتخلله سهول البطوف، وعرابه الدباغ، مصطفى مراد، بلادنا فلسطين، بيروت: دار الطليعة، ط٢، ١٩٧٣ ج١، ق١، ص٤٩. وسيشار له فيما بعد: الدباغ: بلادنا فلسطين.

(٢) ابن القلانسي، الذيل، ص٢٢٤؛ الصوري، تاريخ الحروب، ج٢، ص١٨٧.

(٣) بلدوين الأول: (Baldwin de Boulogne). كان دوق اللورين السفلى قبل ان يشارك في الحملة الفرنجية الأول. أقام إمارة للفرنج في الرها عام (٤٩٠هـ/١٠٩٧م). ثم أختير ملكاً على القدس بعد وفاة غودفري عام (٤٩٣هـ/١١٠٠م). العسلي، فن الحروب، م٤، ص٢٩٧.

(٤) Fink, Op. Cit, P, 384.

(٥) رنسيمان، ستيفين. تاريخ الحروب الصليبية. ترجمة: الباز العريني، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٨، ج٢، ص١٦. وسيشار له. رنسيمان، الحروب الصليبية؛
Dana Carleton Munro, The Kingdom of the Crusades. Kennika Press, NewYork, 1966, P 75.

(٦) الخليل: مدينة عربية بناها العرب الكنعانيون. سكن بها ابراهيم وأولاده ودفنوا بها. احتلها الرومان ثم فتحها المسلمون في العام ١٥هـ/ ٦٣٧م. وتقع المدينة إلى الجنوب من بيت المقدس. وتحيط بها الجبال والأشجار وخاصة الزيتون، الإدريسي، نزهة المشتاق، مج١، ص٣٦٣؛ شراب: معجم، ص٣٤٥-٣٤٦؛ سعيد صافي: مدينة الخليل في العصر المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الاداب، جامعة اليرموك، ١٩٩٦.

(٧) البحر الميت: ويسمى بحيرة زغر والبحيرة المنتنة ويقع في الغور بين الأردن وفلسطين وطوله ٦٠كم طولاً و ١٢كم عرضاً. شيخ الربوة. شمس الدين بن عبد الله الانصاري الصوفي الدمشقي (ت ٧٢٧هـ/١٣٢٧م). نخبة الدهر وعجائب البر والبحر، لبزغ أوتو هاردوتش، ١٩٢٣، ص١٢١، وسيشار له فيما بعد: شيخ الربوة، نخبة الدهر.

مع نهاية العام ٤٩٣هـ/١١٠٠م[١].

كما رغب بلدوين الأول في توسيع المملكة من جهة الغرب على الساحل، إذ قام بارسال أمير الجليل تانكرد واستولى على حيفا[٢] بالسيف في العام ٤٩٣هـ/١١٠٠م[٣]. كما هاجم أرسوف واستولى عليها بالأمان[٤] بعد أن هجّر سكانها. وواصل الفرنج مسيرهم من أرسوف باتجاه قيسارية، واستولوا عليها . فقتلوا سكانها ونهبوا ما فيها[٥]، ولم ينج من سكانها إلا بعض النساء والأطفال[٦]، وكان ذلك بمساعدة من الأسطول الجنوي.

ومن الجدير بالذكر أن الأساطيل الإيطالية وخاصة الجنوية والبندقية شاركت ملوك الفرنج وأمراءهم في احتلال المدن الساحلية الشامية. ومقابل تلك الخدمات حصلوا على الكثير من الإمتيازات التجارية[٧].

وعلى الرغم من محاولات الفاطميين في التصدي للمحاولات التوسعية

---

(١) الشارتري. تاريخ الحملة، ص١٠٩، الصوري، تاريخ الحروب، ج٢، ص٢٠٩.

(٢) حيفا: مدينة على ساحل فلسطين الشمالي. بناها الكنعانيون. ثم فتحها المسلمون وبقيت تحت سيطرتهم حتى احتلها الفرنج في العام ٤٩٣/١١٠٠م بمساعدة الأسطول البندقي ثم حررها صلاح الدين عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م. ويشرف على المدينة جبل الكرمل وتبعد عن عكا حوالي ٢٠ ميلاً إلى الجنوب منها. ولها ميناء حسن لرسو السفن. الإدريسي، نزهة المشتاق، م١، ص٣٦٥؛ شراب، معجم،ص٣٠٨-٣٠٩.

(٣) ابن القلانسي، الذيل، ص٢٢٥؛ الشارتري، تاريخ الحملة، ص١١٣؛ ابن الأثير، الكامل، مج١٠، ص٣٢٤.

(٤) ابن القلانسي، الذيل، ص٢٢٥؛ الصوري، تاريخ الحروب، ج٢، ص٢١٩؛ ابن الأثير، الكامل، مج١٠، ص٣٢٤.

(٥) ابن القلانسي، الذيل، ص٢٢٥؛ الشارتري، تاريخ الحملة، ص١١٥.

(٦) الصوري، تاريخ الحروب، ج٢، ص٢٢١؛ رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص١٢١.

(٧) الشارتري: تاريخ الحملة، ص١١٣؛ ف. هايد، تاريخ التجارة في العصور الوسطى، ترجمة: أحمد محمد رضا. القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٥، ج١، ص١٥٧، ١٦٨، وسيشار له: هايد، تاريخ التجارة؛ ريشارد جان "تكوين مملكة القدس اللاتينية" وقع ضمن كتاب "الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين. تحرير: هادية الدجاني: بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط١، ١٩٩٢، ص١٥٠. وسيشار له: ريشارد: تكوين مملكة بيت المقدس.

للمملكة اللاتينية إلا أنهم فشلوا في وقف هذا المد التوسعي بعد هزيمتهم في معركة الرملة في العام ٤٩٥/١١٠٢[١]. وحتى بعد انتصارهم في معركة الرملة الثانية في العام الذي تلاه[٢]، إلا أنهم أيضاً لم يستطيعوا وقف النشاط الفرنجي ذلك أنهم لم يستغلوا هذا النصر في مهاجمة القدس بسرعة، مما أدى إلى قدوم النجدات للفرنج من إمارة الجليل[٣].

وبانتهاء العام ٤٩٥هـ/١١٠٢م. كان الفرنج قد استولوا على يافا والرملة وأرسوف وقيسارية وحيفا وطبرية[٤] ولم يبق من المدن الفلسطينية خارج سيطرة الفرنج سوى عكا وعسقلان[٥]. ولهذا فقد واصل بلدوين الأول استغلاله لكل فرصة تتاح له للسيطرة عليهما، وقد تحقق له ذلك فيما بعد بوصول الأسطول الجنوي، وكان صمود هاتين المدينتين وغيرهما بسبب المقاومة التي أبداها السكان المحليون ضد الغزو الفرنجي منذ وصوله، حيث هاجموا الخطوط الخلفية الفرنجية. خاصة على الطريق من يافا إلى القدس التي وصفها أحد الرحالة الأوروبيين بقوله "وهي طريق وعرة جداً، حيث ينصب المسلمون الفِخَاخ والمصائد للفرنج، وكانوا يراقبون المسافرين ليلاً ونهاراً حتى تسنح لهم الفرصة لمهاجمتهم، ثم يختفون كلية"[٦].

---

(١) ابن القلانسي، الذيل، ص٢٢٧؛ ابن الأثير، الكامل، مج ١٠، ص٣٤٦.

(٢) ابن القلانسي، الذيل، ص٢٢٩؛ ابن الأثير، الكامل، مج ١، ص٦٤؛ Fink, Op. Cit, P, 384.

(٣) الشارتري، تاريخ الحملة، ص١٢٠.

(٤) طبرية: مدينة تقع إلى الشمال من فلسطين على الشاطئ الغربي لبحرتها، بنها هيرود أنتباس علم ٢٦م وسميت بذلك تكريماً للإمبرطور الروماني تبيريوس قيصر الرومان في العام ٢٦م. ثم فتحها شرحبيل بن حسنة في العام ١٣هـ، وأصبحت عاصمة جند الأردن، وقد أعطاها موقعها المتوسط بين دمشق والقدس وعكا إلى مصر مركزاً تجارياً. أحتلها الفرنج عام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، وكانت عاصمة إمارة الجليل في الفترة الصليبية. حررها صلاح الدين بعد معركة حطين عام ٥٨٣/١١٨٧م. وتشتهر المدينة بحماماتها الحارة التي تستعمل في علاج المرضى. الإدريسي. نزهة المشتاق، م١، ص٣٦٣-٣٦٤؛ الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٢٠؛ شراب، معجم، ص ٤٩٨.

(٥) ابن الأثير، الكامل، مج١٠، ص٣٦٥؛ فؤاد دويكات: اقطاعية طبرية ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة اليرموك، ١٩٩٦.

(٦) Sawulf. Pilgrimage to Jerusalem and the Holy Land, Transby: Right. Revd. In : P.P. T.S, Vol: IV, London, 1896, P. 8؛ الشارتري: تاريخ الحملة، ص١٠٨.

وقد شرع بلدوين الأول في حصار عكا للمرة الثانية عام ٤٩٥هـ/١١٠٢م إلا أن مقاومة السكان وحصانة المدينة حالتا دون سقوطها[١]. فعاود الفرنج حصارها مرة أخرى في العام ٤٩٧هـ/١١٠٤م بمساعدة الأسطول الجنوي من البحر. وعلى الرغم من شدة المقاومة التي أبداها السكان إلا أنها سقطت بالسيف وتم قتل سكانها بالرغم من طلبهم الأمان[٢].

وبسقوط عكا حُرم الفاطميين من قاعدة بحرية هامة وميناء عظيم الإتساع كان يستوعب سفناً عديدة. وقد أصبح فيما بعد الميناء الرئيسي للفرنج على البحر المتوسط[٣].

وقد استغل الفرنج هذا النجاح بزيادة الهجمات على التجمعات الإسلامية في شمال فلسطين وجنوب سوريا وخاصة بعد أن أسس تانكرد إمارة الجليل وجعل عاصمتها طبرية ، فهاجموا منطقة السواد [٤] وحوران [٥] ، إلا أن أتابك [٦]

(١) ابن الأثير، الكامل، مج١٠، ص٣٤٥.

(٢) ابن القلانسي: الذيل، ص٢٣٢؛ الشارتري: تاريخ الحملة، ص١٣١؛ ابن الأثير: الكامل، مج١٠، ص٣٦٥.

(٣) الشارتري. تاريخ الحملة، ص١٣١؛ رنسيمان. الحروب الصليبية، ج٢، ص١٤٤.

(٤) إقليم السواد: اختلفت الدراسات في تحديد إقليم السواد. فأغلب الدراسات تحدده بالمنطقة الواقعة جنوب كورة الجولان بين بحيرة طبرية والبثنية وحوران إلى الشمال من نهر اليرموك. وبعض الدرسات حددت المنطقة بالأراضي المستوية الواقعة إلى الشمال والشمال الشرقي لجبال عجلون وجبال جرش والمحصورة شمالاً بوادي اليرموك وشرقاً بوادي الشلالة الصوري، تاريخ الحروب، ج٤، ص٣٠٣؛ الحياري، مصطفى، حصن حبيس جلدك، مجلة دراسات، الجامعة الأردنية، م١٣، ع١٢، ١٩٨٦، ص، ١٤٧. وسيشار له : الحياري، حصن حبيس جلدك؛
E.J. King. The Knight Hospitalers in the HolyLand, Methuen and Co, ltd. London, 1931, P 57.

(٥) حوران: كورة واسعة من أعمال دمشق إلى الجنوب منها وهي ذات قرى ومزارع كبيرة وقصبتها بصرى. كانت مركزاً للفتوحات الإسلامية الأولى، الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٣٦٤.

(٦) أتابك: تتألف هذه الكلمة من مقطعين وهما أتا بمعنى أب وبك ومعناها أمير، أي الأمراء، ثم أصبحت لقباً معروفاً ترافق تاريخاً مع ظهور السلاجقة. وأول من لقب به الوزير السلجوقي نظام الملك. ثم حمله القادة العسكريون الموكول إليهم تربية الفتيان من مختلف العائلة السلجوقية. وأصبح لهم مراكز عسكرية واسعة وكثرت أعدادهم. ابن كنان،محمد بن عيسى بن =

دمشق ظهير الدين[1] تصدى له وأفشل هجماته، وقام بهجوم معاكس على المنطقة العازلة في شمال فلسطين التي أقامها الفرنج خوفاً من الغارات الإسلامية[2].

وبحلول العام ٥٠٠هـ/١١٠٦م أصبح معظم الساحل الشامي بأيدي الفرنج ما عدا مدينتي صور وعسقلان[3] اللتين بقيتا تحت سيطرة القوات البحرية الفاطمية. ولذلك فقد حاول بلدوين الأول جاهداً السيطرة عليهما فهاجم عسقلان في العام ٥٠٤هـ/١١١٠م إلا أنه لم يفلح في احتلالها، فانسحب بعد أن أخذ أتاوة من واليها[4]. كما هاجم صور واضطر للإنسحاب منها أيضاً بسبب شدة مقاومة سكانها[5].

وقد واصل بلدوين الأول سياسته التوسعية في الشرق أيضاً إذ قام بحملة على المناطق الواقعة شرقي نهر الأردن في العام ٥٠٩هـ/١١١٥م، وقام بإعادة بناء قلعة في الشوبك[6] في العام ٥١٠هـ/ ١١١٦م لإحكام سيطرة الفرنج على الطرق التجارية

= محمود بن محمد (ت ١١٥٣هـ/١٧٤٠م). حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين. تحقيق: عباس صباغ، بيروت: دار النفائس، ط١، ١٩٩١، ص١١٣-١١٤. سيشار له ابن كنان. حدائق الياسمين؛ نيكيتا اليسييف، الشرق الإسلامي في العصر الوسيط. ترجمة: منصور أبو الحسن، بيروت: دار الكتاب الحديث، ١٩٨٦، ص٣٦٧. وسيشار له: اليسييف: الشرق الإسلامي.

(١) ظهير الدين بن طغتكين (ت ٢٢٢هـ/١١٢٨م) صاحب دمشق. وهو من مماليك السلطان تتشن بن أرسلان. قامت بينه وبين الفرنج عدة حروب ووقائع ، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ق١، ج٨ص١٢٧-١٢٨.

(٢) ابن القلانسي، الذيل، ص٢٤٣-٢٤٤.

(٣) عسقلان: مدينة من أعمال فلسطين على ساحل البحر المتوسط. ويقال لها عروس الشام. بناها الكنعانيون ثم فتحها العرب المسلمون في العام ٢٣هـ-٦٤٥م، وبقيت عامرة حتى اتخذها الفاطميون قاعدة لهم. وفي العام ٥٤٨هـ/١١٥٣م استولى عليها الفرنج وبقيت حتى حررها صلاح الدين عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م. وقام بتدميرها. الحموي. معجم البلدان، ج٤، ص١٢٧-١٣٨؛ شراب، معجم، ص٥٣٣-٥٣٤.

(٤) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ق١، ج٨، ص٣٤-٣٥.

(٥) ابن القلانسي. الذيل، ص٢٨٤-٢٨٦.

(٦) قلعة الشوبك: تقع هذه القلعة على قمة جبل عال يطل على البحر الميت، وأقيمت بهدف مراقبة المنطقة الشرقية من المملكة وحمايتها في نفس الوقت وسميت هذه القلعة باسم كراك مونتريال (Krak demonterial). الشارتري، تاريخ الحملة، ص١٥٧-١٥٨.

الموجودة في المنطقة ومراقبتها، والوصول إلى منافذ البحر الأحمر[1].

وفي نفس العام ٥١٠هـ/١١١٦م. تحرك بلدوين الأول بقواته إلى جنوب فلسطين فوصل إلى خليج العقبة وأقام هناك قلعة "فرعون" (LeGry) [2] في جزيرة فرعون وشحنها بالرجال والسلاح لمراقبة طريق القوافل بين مصر والشام.

وقد أكمل بلدوين الأول جهوده التوسعية بقيادة حملة على مصر نفسها في العام ٥١٢هـ/١١١٨م بهدف إسكات الحملات الفاطمية ووقفها على جنوب فلسطين حيث وصل إلى مشارف نهر النيل إلا أن الحملة لم تنجح بسبب وفاته هناك[3].

اعتبر عصر بلدوين الأول عصر التوسع وتأسيس المملكة اللاتينية التي امتدت من بيروت شمالاً إلى البحر الأحمر والحدود المصرية جنوباً بالإضافة إلى الجزء الجنوبي من شرقي الأردن، بحيث أنه ترك مملكةً قوية وموحدة[4].

وبعد وفاة بلدوين الأول في العام ٥١٢ هـ / ١١١٨ م انتخب بلدوين الثاني[5] (Balldwin II)(٥١٢-٥٢٦هـ/١١١٨-١١٣١م)، وكان عليه أن يواجه تحالفاً مصرياً – سورياً تشكل بمجرد وصوله إلى الحكم وهدد المملكة من الشمال والجنوب[6]. وقد التقى هذا التحالف مع الفرنج بالقرب من عسقلان إلا أنه لم يجر أي اشتباك

---

(١) غوانمة، دراسات، ص١٤٤؛ Dana, op. cit., P 293؛ Fink. Op.cit, P406.

(٢) قلعة فرعون (LeGray) تقع هذه القلعة على بعد ثمنية أميال جنوب العقبة. وقد استولى عليها السلطان صلاح الدين عام ٥٧٨هـ/١١٨٢م وقام بترميمها. الدباغ، بلادنا فلسطين، ج١، ق١، ص١٧.

(٣) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص١٦١؛ Fink, Op.cit, P 407.

(٤) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص١٦٢؛ جاسر، شفيق: القدس تحت الحكم الصليبي ودور صلاح الدين في تحريرها (٤٩٢-٦٩١هـ/١٠٩٩-١٢٩١م) المدينة المنورة: مكتبة الدار، ط١، ١٩٨٩، ص٥٣؛ Fink. Op.Cit, P 408.

(٥) بلدوين الثاني: Baldwin II de Buragh وهو من مقاطعة Rheims، تولى عرش مملكة القدس من العام ١١١٨-١١٣١م. وهو ابن عم الملكان السابقان له؛ Felix Fabri, The Wanderings of Felixfabri, Transby: Aubry Stewart. M.A. in P.P. T.S.V.X part 11, London, 1896, P315.

(٦) Robert L. Nicholeson. The Growtho of the Latin Stats (1118-1144) in Setten. Vol:1 1969. P 412.

بينهما وانسحب كل طرف إلى بلاده[1]. ولهذا فقد اغتنم بلدوين الثاني تلك الفرصة وهاجم المناطق الجنوبية لأتابكية دمشق التي يقطنها البدو في العام ٥١٢هـ/ ١١١٨م. كما هاجم الجولان[2] ونهبه.

ولم يكتف بذلك، وقام بحملة على شمال الشام لمساعدة أمراء أنطاكية والرها في حروبهم ضد المسلمين إلا أنه أُسر في العام ٥١٦هـ/١١٢٢م. في إحدى المعارك. ومرة أخرى حاول الفاطميون استغلال فترة أسره وغيابه عن المملكة وبالتنسيق مع حاكم دمشق طغتكين لمهاجمة المملكة[3]. إلا أن حملتهم فشلت مرة أخرى بسبب وقوع الخلافات بين الطرفين وانسحاب الجيش الدمشقي من ساحة المعركة[4] وذلك في العام ٥١٧هـ/١١٢٣م.

وبهزيمة الجيش الفاطمي وانسحاب الجيش الدمشقي من فلسطين، استغل الفرنج هذه الأوضاع. وهاجموا مدينة صور الحصينة واستولوا عليها بموجب اتفاقية بينهم وبين طغتكين حاكم دمشق في العام ٥١٨هـ/١١٢٤م[5]. وبسقوط هذه المدينة الحصينة بيد الفرنج أصبحت الخطوط الساحلية برمتها تحت سيطرتهم ما عدا مدينة عسقلان[6].

واستمر الفرنج في شن الغارات من أجل التوسع خاصة بعد إطلاق سراح بلدوين الثاني من الأسر الذي شرع في مهاجمة أملاك دمشق ودمر الكثير من أعمالها[7]. كما قام بهجوم جريء على دمشق نفسها في العام ٥٢٠هـ/١١٢٦م حيث

---

(١) ابن الأثير، الكامل، مج١٠، ص٥٤٣؛ رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٣٣.

(٢) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٤٣، ٢٥٢. والجولان: جبال من نواحي دمشق من أعمال حوران بين دمشق وطبرية، الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٢١٩.

(٣) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٦٤؛ Nicholeson, Op.Cit, P419

(٤) ابن القلانسي، الذيل، ص٣٣٣.

(٥) ابن القلانسي، الذيل، ص٣٢٧-٣٢٩؛ ابن الأثير، الكامل، مج١٠، ص٦٢٢، ٦٢٣؛ Dana. Op. Cit. P:93.

(٦) Cambridge History. Op.Cit. P: 197.

(٧) ابن القلانسي، الذيل، ٣٤٠؛ ابن الأثير، الكامل، مج١٠، ص٦٥٧-٦٥٨.

التقى بجيش دمشق، في مرج الصفر[1] إلا أنه لم يحقق إنتصاراً عليه وعاد أدراجه إلى القدس.

واستمرت هذه السياسة التوسعية التي انتهجها ملوك بيت المقدس في صراعهم مع القوى الإسلامية المحيطة من أجل تثبيت أركان المملكة في فلسطين. وبموت بلدوين الثاني في العام ٥٢٦هـ/١١٣١م كانت مملكة بيت المقدس قد ثبتت أقدامها في فلسطين وسيطرت عليها جميعها ما عدا عسقلان التي بقيت بأيدي الفاطميين صامدة في وجه الغارات الفرنجية. ولهذا فقد اتبع الفرنج سياسة جديدة للتعامل مع عسقلان عن طريق إحاطتها بالعديد من القلاع والحصون حتى تم احتلالها في العام ٥٤٨هـ/١١٥٣م. وهذا ما سنشير له في الصفحات القادمة.

---

(١) مرج الصفر: مرج شهير يقع في غوطة دمشق. كان مسرحاً لكثير من المعارك في العصور الإسلامية، سترانج، فلسطين، ص٤٦٩.

الفصل الثاني

سياسة ملوك بيت المقدس وأمراؤها وفرسانها في حماية المملكة اللاتينية

١- الإستيطان الفرنجي في فلسطين.

٢- سياسة ملوك الفرنجة وأمرائها في إقامة القلاع والحصون.

٣- دور جماعات الفرسان الإسبتارية، الداوية والتيوتون في إقامة القلاع وتحصينها.

٤- اختيار المواقع الإستراتيجية لإقامة القلاع.

أولاً: الإستيطان الفرنجي في فلسطين.

أ- سياسة الفرنجة الإستيطانية تجاه السكان الأصليين (المحليين)

الحركة الصليبية في جوهرها حركة استيطانية أمن بها قوم جاءوا من بلاد الغرب وانتزعوا جزءاً من بلاد الشرق وأقاموا عليها دولة تنعموا بخيراتها واستغلوا من اسْتَبْقَوْا من أهلها. ودأبت دولتهم على القتال والتوسع إلى أن نهضت قوة من الشرق نمت وتعاظمت وكسرت شوكتها واستأصلتها بعد فترة لم تتجاوز مائتي عام.

وقد أيد هذا القول بعض المؤرخين الغربيين أمثال غروسيه (Grousset) الذي اعتبرها أيضاً حركة استيطانية استعمارية قدمت من الغرب إلى الشرق بقوله "إن الحروب الصليبية أدت إلى أول توسع استعماري للغرب المسيحي في الشرق العربي"[1]. بينما عدها المؤرخ برنارد لويس (Bernard Lewis) بأنها حركة استعمارية هدفها التوسع الاستعماري الغربي في الشرق، في حين اعتبرها المؤرخ جمال الدين الشيال. بأنها تمثل المرحلة الأولى من مراحل الإستعمار الأوروبي الحديث لمنطقة الشرق الأدنى العربي، وتحت ستار الدين قامت جحافل الفرنج من أوروبا متجهة نحو المشرق العربي[2].

لقد اتبع الفرنج خلال احتلالهم لبلاد الشام عامة وفلسطين خاصة سياسة تهدف إلى تفريغ البلاد من سكانها الأصليين سواء كان ذلك بالقتل أو التهجير أو الطرد وإحلال المستوطنين القادمين من كافة أنحاء دول أوروبا مكانهم[3].

وبإلقاء نظرة على مصير السكان في المدن الفلسطينية التي احتلت ، نرى أن هذه السياسة طبقت بالفعل. ذلك أن أول مدينة تعرضت للمذابح. كانت بيت المقدس حيث قتل الفرنج عدداً كبيراً من سكانها، كما تعرضت مدن الساحل الأخرى

---

(١) نسيم، جوزيف، الوحدة وحركات اليقظة العربية أبان العدوان الصليبي. بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨١، ص ٩. وسيشار له، نسيم، الوحدة وحركات اليقظة.

(٢) المصدر السابق، ص ٩.

(٣) الشارتري، تاريخ الحملة، ص١٩٤؛ ابن الأثير، الكامل، م ١٠، ص٣٢٥.

إلى عمليات الإبادة الجماعية وخاصة قيسارية التي فعل بها الفرنج ما تقشعر له الأبدان، إذ قاموا بقتل معظم سكانها وإحراق جثثهم وذلك بشهادة المؤرخ فوشيه الشارتري (Fulcher of chartres) الذي شارك في الحملات على المدن الساحلية الفلسطينية[1].

أما حيفا الساحلية فقد تعرضت هي الأخرى إلى عمليات إبادة لسكانها أيضاً[2]، في حين أن عكا التي صمدت كثيراً قبل أن يحتلها الفرنج تعرضت إلى مذبحة كبيرة في شهر رمضان بعد أن أُعطي سكانها الأمان[3].

وقد رافق هذه السياسة -عمليات القتل والإبادة-، الإستيلاء على الممتلكات سواء كانت عينية كالمنازل والمحلات التجارية والأراضي والمواشي، أو مادية؛ كالأموال من ذهب وفضة، ورأينا تطبيقاً لتلك السياسة خلال احتلال قيسارية وأرسوف وعكا وحيفا ويافا وبيت المقدس. وأثّرت تلك الأعمال على بقية السكان في المدن الأخرى، إذ قام بعضهم بعملية هروب جماعية من تلك المدن والقرى التي لم يصل إليها الإحتلال الفرنجي نتيجة للأثر الذي تركته تلك المذابح في إدخال الرعب إلى قلوب قسم من السكان في فلسطين بحيث هجر السكان أماكن إقامتهم خوفاً من بطش الفرنج. ومن أشهر عمليات التهجير التي تعرض لها سكان فلسطين هجرة قسم من سكان نابلس و بيت المقدس ونواحيهما إلى دمشق. حيث سكنوا جبل قاسيون وأسسوا على سفحه مدينة الصالحية وبنوا فيها المدارس والمنازل والمساجد[4]. ويصور لنا المؤرخ فوشيه الشارتري ذلك بقوله "كان المواطنون

---

(١) الشارتري، تاريخ الحملة، ص١١٥؛ ابن القلانسي، الذيل، ص٢٢٥؛ ابن الأثير، الكامل، مج١٠، ص٣٢٤؛ الصوري، تاريخ الحروب، ج٢، ص٢٢١-٢٢٢؛ رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص١٢١.

(٢) ابن القلانسي، الذيل، ص٢٢٥؛ ابن الأثير، الكامل، مج١٠، ص٣٦٥.

(٣) ابن القلانسي، الذيل، ص٢٣٢؛ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ق١ من ج٨، ص٩؛ والشارتري، تاريخ الحملة، ص١٣١.

(٤) خوري، رئيف، "فضل المقدسيين اللاجئين إلى دمشق في إحياء العمران والحضارة في هذه المدينة في العصور الوسطى". وقع ضمن كتاب حروب الفرنج وتأثيرها على فلسطين، منشورات جامعة بيرزيت ١٩٩٤، ص٤٠-٤١.

الشرقيون قد ولوا الأدبار لما سمعوا الشائعات بمقدمنا ولم يبق إلا أولئك الذين فاقوا الهباب سواداً، فتركناهم وعاملناهم باحتقار "[١].

أما المدن الفلسطينية التي لم يتعرض أهلها للمذابح والمجازر كما هو الحال في المدن الأخرى، ولم يهربوا منها فقد جرى إخراجهم منها بالقوة وجرى تهجيرهم قسراً كما حدث مع أهالي أرسوف الذين أرغموا على مغادرتها إلى عسقلان[٢] فهي من المدن الساحلية، وتتمتع بموقع استراتيجي بين يافا وعكا. وميناؤها كان مسرحاً للأنشطة التجارية، كما أن الغابات المنتشرة حولها زادت من أهميتها الإستراتيجية والعسكرية للفرنج لأنها تستخدم كساحة للعمليات العسكرية[٣]. كذلك إتُّبعت نفس السياسة مع بعض قرى نابلس في العام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، حيث تم تهجيرهم وجلب مستوطنين مكانهم، مع أن معظم سكان الجليل بقوا في مدنهم وقراهم ما عدا طبرية[٤].

وكان من نتائج هذه السياسة الإستيطانية أن أدت إلى حدوث خلل في البنية السكانية والإجتماعية والإقتصادية للمجتمع الفلسطيني، فقد جرى سحقه بالقوة بوضع مجتمع أخر مكانه بعاداته وتقاليده المختلفة تماماً عن عادات وتقاليد المجتمع المحلي الذي لم ينسجم أو يتفاعل معه، ضمن سياسة مدروسة وعن سابق إصرار[٥].

وتعتبر فئة الفلاحين من أكثر الفئات تضرراً نتيجة الغزو الفرنجي الإستيطاني لفلسطين، وتعدى ذلك إلى فئات أخرى في المجتمع الفلسطيني وخاصة

---

(١) الشارتري، تاريخ الحملة، ص١٠٩.

(٢) ابن القلانسي، الذيل، ص٢٢٥؛ الصوري، تاريخ الحروب، ج٢، ص٢١٩.

(٣) Meron Benvensity, The Crusaders in the Holyland, Israel University Press, Jerusalem, 1970, P130-131.

(٤) البيشاوي، الممتلكات، ص١٨٤.

(٥) مصطفى، شاكر "فلسطين ما بين العهدين الفاطمي والأيوبي" الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد لثاني. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط١، ١٩٩٠، ص٤٦٠. وسيشار إليه: مصطفى : فلسطين ؛ رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص١٢١.

كبار الملاك الذين خلفوا ورائهم الأراضي الشاسعة التي استولى عليها المستوطنون الجدد[1] أو التي صودرت ممن بقي منهم كذلك فقد أضطر قسم من الحرفيين إلى مغادرة مكان سكناهم. وأما بقية السكان فقد باعهم الفرنج عبيداً[2].

وحتى يعوض الفرنج النقص في القوى البشرية فقد اتبع ملوك بيت المقدس الأوائل سياسة تهدف إلى جلب مستوطنين من الخارج وإحلالهم مكان السكان الأصليين عن طريق إصدار مراسيم تشجع وتسهل هجرة المسيحيين الأوروبيين إلى بيت المقدس والسكن فيها[3]. ويعلل وليم الصوري (Williamal Tyre) ذلك بقلة عدد السكان فيها وبأنهم أصبحوا "لا يشغلون شارعاً واحداً فيها" [4].

وقد وجد بلدوين الأول (٤٩٣-٥١١هـ/١١٠٠-١١١٨م) أن الحل لهذه المشكلة الديموغرافية يكمن في تشجيع الهجرة إلى فلسطين من المناطق المجاورة لها. ولهذا قاموا بتهجير النصارى المحليين من شرق الأردن وسوريا إلى المملكة. وخاصة إلى بيت المقدس، ذلك أن معظم الفرنج الذين قدموا مع الحملة الأولى غادروها عائدين إلى أوروبا بمجرد احتلال بيت المقدس[5].

وهؤلاء المستوطنون الجدد الذين قدموا إلى بيت المقدس بعائلاتهم حققوا للمملكة بعض الأهداف، وخاصة في تثبيت دعائمها والدفاع عنها في وجه التهديد الإسلامي المتواصل لتواجدهم[6].

---

(١) مصطفى، فلسطين، ق٢، م٢، ص٤٦٠.

(٢) زابوروف، ميخائيل. الصليبيون في الشرق، ترجمة: إلياس شاهين، موسكو، دار التقدم، ١٩٨٦م. ص ١٣٤. وسيشار له: زابوروف ، الصليبيون ويتحدث زابوروف، عن هذه الفئة التي أصبحت من العبيد بأنهم تعرضوا إلى أعمال التعذيب والإهانة، أنظر، ص ٢٣٤.

(٣) الصوري، تاريخ الحروب، ج٢، ص١٨٠. ومن ضمن المراسيم التي أصدرها بلدوين الأول بأنه يحق لأي مسيحي أقام بمنزل في القدس أكثر من سنة أن يمتلك هذا البيت بما فيه.

(٤) الصوري،تاريخ الحروب ، ج٢، ص١٨١و ٣١٨. ماير، هانز: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: عماد الدين غانم. طرابلس الغرب، جامعة الفاتح، ١٩٩٠، ص٢٢٧. وسيشار له ماير: الحروب الصليبية.

(٥) الصوري، تاريخ الحروب ، ص ٣١٧-٣١٨؛ غوانمة: دراسات، ١٤٦؛ Fabrie: Op. cit., P. 314.

(٦) قاسم، عبده قاسم "أثر الحروب الصليبية في العالم العربي، سكانياً واجتماعياً وسياسياً" =

وفي الوقت الذي صدرت فيه مراسيم تشجيع المستوطنين الهجرة إلى فلسطين بشكل عام وبيت المقدس بشكل خاص، صدرت مراسيم أخرى تمنع السكان المسلمين من حق العودة إلى مدينتهم الأصلية ما عدا بعض التجار والحجاج الذين حصلوا على أذونات خاصة مقابل دفع ضريبة عن إقامتهم في المدينة[1].

وخلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي تدفق سيل كبير من المستوطنين من جميع الطبقات إلى المملكة اللاتينية بحيث وصل عدد سكانها في العام ١١٨٧م من ١٢٠-١٥٠ ألف نسمة[2].

وهذه السياسة التي انتهجها ملوك الفرنج مع السكان الأصليين أصحاب الحق والمستوطنين الجدد، تتطابق تماماً مع ما تقوم به الحركة الصهيونية في الوقت الحالي. حيث تمنع المواطنين الفلسطينيين من دخول القدس إلا بموجب تصاريح خاصة لا تعطى إلا لفئة قليلة من السكان أصحاب المصالح حتى إنهم يمنعون السكان من التوجه إلى أماكن العبادة في المدينة للصلاة.

وقد استمرت عمليات الهجرة الجماعية إلى فلسطين من كافة الجنسيات الأوروبية والتي تقدر بعشرات الآلاف تضم مقاتلين وتجاراً وحجاجاً وأصحاب مهن للإستقرار في فلسطين[3].

أما نتائج تلك الهجرات فقد فرضت آثارها السلبية على السكان بحيث جرى تفريغ سكاني لبعض المناطق نتيجة النزوح القسري للسكان إلى مناطق أكثر أماناً

= موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، بيروت: المؤسسة العربية للدرسات والنشر، ط١، ١٩٨٧، مج٣، ص١٣٢. وسيشار له: قاسم: أثر الحروب؛ J.Prawer, The Settlement, P496.

(١) الصوري: تاريخ الحروب، ج٢، ص٢١٧-٢١٨؛ J.Prawer Ibid, P 494. وانظر أيضاً: Jacques de vitry: The Hitory of Jerusalem, in P.P.T.S, Vol XI, London 1896, P.P. 55-57.

(٢) سميث، جوناثان، الإسبتارية "فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص" (١٠٥٠-١٣١٠م). ترجمة: صبحي الجابي، دمشق: دار طلاس للدرسات والنشر، ط١، ١٩٨٩، ص٢٣. وسيشار له: سميث، الإسبتارية؛ ماير: الحروب الصليبية، ص٢٣. أما المؤرخ بنفنسيتي فقد قدر عدد سكان المملكة بحوالي ١٤٠ ألف نسمة. انظر: Benvensiti, Op, Cit, P19.

(٣) الشارتري. تاريخ الحملة، ص١٩٤؛ قاسم: أثر الحروب، م٣، ص١٣١.

يسيطر عليها المسلمون. وهو الأمر الذي أدى إلى تغير نسبي في البناء الديموغرافي في كثير من المناطق التي يسيطر عليها الفرنج بحيث تحولت الأقلية إلى أكثرية[1]. وبعد أن كانت فلسطين إسلامية وسكانها مسلمين تحولت إلى مملكة لاتينية الطابع[2] ما عدا بعض المناطق الريفية في شمال فلسطين وجنوبها التي بقي معظم سكانها مسلمين، وهذا ينطبق على العقود الأولى من الاحتلال الفرنجي.

ومن هنا نرى أن هذه السياسة التي اتبعتها الحركة الصليبية تشابهت تماماً مع السياسة التي قامت وتقوم بها الحركة الصهيونية في فلسطين في القرن العشرين وخاصة سياستها في معاملة السكان بالطرد والقتل والتشريد. وكذلك في إصدار القوانين التي تشجع اليهود على الهجرة إلى فلسطين عامة وبيت المقدس خاصة. فقد رأينا أن ملوك بيت المقدس الأوائل أصدروا بعض القوانين التي تشجع هجرة المسيحيين من كافة الأقطار على القدوم إلى فلسطين وإعطائهم البيوت والأملاك دون مقابل وفي المقابل لم تسمح للسكان الأصليين بالعودة إلى بيوتهم ومدنهم بعد أن صادرت جميع ما يملكون.

ب- أهداف الإستيطان الفرنجي في فلسطين.

منذ أن وطأت أقدام الفرنج أرض بلاد الشام كان هدفها الأساسي هو السيطرة على الأرض[3] وهذه السياسة كانت من أولويات الأهداف الخارجية. للحركة الصليبية، فخلال الحملة الأولى استولى الفرنج على مساحات شاسعة من الأراضي في الشام وكان آخرها احتلال فلسطين وتأسيس مملكة بيت المقدس اللاتينية فيها في العام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م[4] .

وكأي حركة "استيطانية" (حسب المصطلحات الحديثة) كانت الحركة الصليبية

---

(١) قاسم، أثر الحروب، م٣، ص١٢٧، ١٣٧.

(٢) المرجع السابق، ص١٢٣.

(٣) ر.سي. سميل. الحروب الصليبية. ترجمة: سامي هاشم، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٨٢، ص٢٧. وسيشار له سميل: الحروب الصليبية.

(٤) المرجع السابق، ص٢٦.

تريد الحصول علي الأرض فارغة من السكان حتي تقيم عليها مستوطناتها وقلاعها ومجتمعها. ثم تعمل على الإفادة من أهل البلاد الأصليين[1] بعد السيطرة على كافة موارد البلاد وأملاكها[2].

ومنذ أن استولى الفرنج على فلسطين قاموا بتوزيع الأراضي على كبار الأمراء والفرسان، وأنشأوا إقطاعات واسعة فيها. وحتى يثبتوا سيطرتهم على تلك الأراضي وجه الملوك والأمراء النداءات للأوروبيين للقدوم إلى المملكة والعمل في الأرض بعد أن رفض السكان الأصليون منذ بداية الإحتلال الفرنجي العمل معهم. وقد أعطي هؤلاء القادمون البيوت مجاناً والأراضي للعمل فيها بالزراعة[3].

كما قاموا في الوقت نفسه بجهود واسعة لحماية تلك الأراضي والسكان بسلسلة من الدفاعات حول المدن والقرى تتضمن إقامة العديد من القلاع والحصون لتشجيع جذب المستوطنين إليها[4]، ذلك أن استغلال الأرض يسير مع المتطلبات الدفاعية للمملكة لأنها تزودهم بما يحتاجون إليه من الموارد الإقتصادية. ولهذا السبب فإن الملك كان يقطعها لأتباعه وخواصه وقواد جيشه مقابل توفير القوة الكافية للحرب ضد الأعداء الخارجين[5]. وفي الوقت نفسه تضمن سيطرتهم على الطرق التجارية التي تربط بين المدن الداخلية والموانئ الساحلية[6].

وكنا قد أشرنا إلى أن الملوك الفرنج استقدموا آلاف المستوطنين إلى المملكة من مختلف المناطق، وحتى يتم استيعاب هذا العدد الكبير كان لا بد من

---

(١) العسلي، فن الحرب، مج٤، ص٣٤١.

(٢) Jonathan Raley Smith "The Survival Latin in Palestine": In the Eastern Mediterranean Lands in the Period of the Crusades Edited by: P.M. Holt. England. Biddles, 1977, P9.

(٣) J. Prawer, The Settlement, P. 496.

(٤) T.S.R. Boase: Kingdoms and Strongholds of the Crasaders. Thamens and Hudson, London, 1971, P 79.

(٥) سميل، الحروب الصليبية، ص٥٨؛ ماير، الحروب الصليبية، ص٢٢٧.

(٦) Regine Pernoud. The Crusaders, Oliver Boyd, London, 1963 , P131؛ انظر عن أعمال التحصين التي قام بها ملوك بيت القدس في المملكة في الصفحات التالية.

بناء تجمعات بشرية (مستوطنات) لهم على حساب السكان المحليين، حيث بدء ببنائها بعد تأسيس المملكة. وقد تركز البناء في مناطق الريف الفلسطيني حتى يتم استغلال الأراضي فيه[1]. وإضافة إلى عمل المستوطنين في ميدان الفلاحة، فقد عملوا في الأشغال الحرفية والتجارية،بحيث أصبحوا مع الوقت من كبار الأغنياء[2].

وانتشرت تلك المستوطنات الفرنجية في معظم أنحاء فلسطين من حدود سيناء[3] جنوباً حتى بانياس شمالاً[4]. ومن أوائل المستوطنات التي بنيت هي البيرة[5] (Magna Mahamoria) الواقعة إلى الشمال من القدس. وقد أنشئت بعد طرد سكانها الأصليين وإحلال المستوطنين الأوروبين مكانهم، وقد عمل سكانها في الزراعة مقابل دفع ضريبة لرجال الدين في كنيسة القيامة[6].

وقد اكتمل بناء هذه المستوطنة في العام ٥٠٩هـ/١١١٥م واستقر بها حوالي ثلاثمائة وخمسين مستوطناً أوروبياً من فرنسا وإسبانيا وإيطاليا، واتسعت مع الزمن وأصبحت من كبار المستوطنات الفرنجية في المملكة. ومن المستوطنات الفرنجية الأخرى مستوطنة القبيبة[7] (المحمرة الكبرى) (Parva Mahamoria) الواقعة إلى الشمال الغربي من مدينة القدس على الطريق بين القدس ويافا.

---

(١) ماير، الحروب الصليبية، ص٢٢٧.

(٢) ريتشارد، تكوين مملكة بيت المقدس، ص١٥٨.

(٣) سيناء: شبه جزيرة مساحتها ٥٦ ألف كم٢ تقع إلى الشرق من مصر وتربط بين أفريقيا وأسيا بها العديد من الواحات وتتصل بفلسطين من الجنوب. وقد لعبت دوراً هاماً في النواحي التاريخية والعسكرية والإستراتيجية على مر العصور منذ أيام الفراعنة حتى الوقت الحاضر. الموسوعة العربية، ص١٠٥٧.

(٤) Benvensiti. Op. Cit, P20.

(٥) البيرة: مدينة كنعانية قديمة. تقع في قضاء مدينة رام الله إلى الشمال من القدس بحوالي ٢٠كم. احتلها الفرنج وأقاموا فيها مستوطنة، وقام صلاح الدين بهدمها بعد أن حررها بعد حطين، لي سترانج، فلسطين، ص٣٤٤؛ شراب، معجم، ص٢١٤.

(٦) عوض، مؤنس، الرحالة الأوروبيين في مملكة بيت المقدس الصليبية، (١٠٩٩-١١٨٧م). القاهرة: مكتبة مدبولي، ط١، ١٩٩٢، ص:١٨٩. وسيشار له: عوض، الرحالة، البيشاوي: الممتلكات، ص٢٨٧.

(٧) القبيبة: قرية تقع في الشمال الغربي من مدينة القدس على بعد سبعة أميال. يحيط بها الأحراج والأشجار. وترتفع حوالي ٨٠٠ م عن سطح البحر. شراب، معجم، ص٥٩٤.

واكتمل بناؤها في العام ٥١٤هـ/١١٢٠م[١].

استمر ملوك وأمراء الفرنج في سياسة بناء المستوطنات لاستيعاب القادمين وتثبيت وجودهم في المنطقة واستغلالها، حيث قام الملك بلدوين الثالث[٢] (Baldwin III) (٥٣٧-٥٥٨هـ/١١٤٢-١١٦٢م) في العام (٥٤٨هـ/١١٥٣م) بإنشاء مستوطنة فرنجية إلى الشمال من عكا على أراضي قرية الزيب (Ezzib) وسميت (Casel Impert) وأنشئ حولها قلعة للدفاع عنها.

كما قام الملك فولك الأنجوي[٣] (Fulk al Anjouy) بإنشاء مستوطنة بشرية في بيت جبريل سكن فيها اثنتان وثلاثون عائلة من الفرنج[٤] وأقيمت مستوطنة أخرى في غزة. وخلال الإحتلال الفرنجي لفلسطين أقيمت العشرات من هذه المستوطنات. وقد أورد بنفنستي (Benvensiti) قائمة بالمستوطنات البشرية التي أقامها الفرنج بعد احتلال فلسطين ذاكراً مساحتها وأعداد السكان فيها حيث بلغ مجموعها حوالي ثمانين مستوطنة[٥].

وقد شارك في بناء هذه المستوطنات إضافة إلى الملوك والأمراء، رجال الكنيسة المحلية في بيت المقدس[٦]. حيث قاموا بإنشاء تلك المستوطنات في بعض الإقطاعات التي حصلوا عليها من ملوك بيت المقدس. ومن الفئات الأخرى التي شاركت في بناء المستوطنات وحراستها، رجال القوى العسكرية من داوية

---

(١) عوض، الرحالة، ص١٩٠؛ ماير، الحروب الصليبية، ص٢٣٠.

(٢) بلدوين الثالث: (١١٤٢-١١٦٢م) حكم حوالي عشرين عاماً بعد بلدوين الثاني. كانت شخصيته قوية قام بتحصين بعض القلاع وخاصة قلعة غزة. تميز عصره بالأحداث الهامة وخاصة احتلال عسقلان وتحرير الرها والحملة الثانية على دمشق Fabri, Op, Cit, P 324.

(٣) فولك الأنجوي: حكم من العام (١١٣١-١١٤٢م) تولى الحكم بعد بلدوين الثاني، وكان قد تزوج من ابنة بلدوين الثاني صيلند، كان كونت انجو في فرنسا، كان رجلاً قوياً ودبلوماسياً نشيطاً. قام بتحصين المملكة وبناء الكثير من القلاع والحصون. Fabri, Op.Cit, P324.

(٤) سميث الإسبتارية، ص٤٢٧، ٤٣٤، ماير، الحروب الصليبية، ص٢٢٩.

(٥) Benvensiti, Op.cit, P19.

(٦) R.C. Smail. Crusaders in Syria and Holy Land, Thames and Hodson, Southampton, 1973, P 80؛ ماير، الحروب الصليبية، ص٢٢٩.

واسبتارية -التي سوف نتعرض إلى دورها بالتفصيل في تحصين المملكة- بتشجيع من البابوية حيث سُمح لهم ببناء القرى الإستيطانية على حدود أراضي المسلمين[1].

وإذا ما تخيلنا مواقع هذه المستوطنات فسنلاحظ أنها تتوزع على معظم أنحاء فلسطين في الشمال والوسط والجنوب. كما أنها تتركز حول مدينة بيت المقدس. وعلى الطريق الممتد من القدس إلى يافا وذلك لإحكام السيطرة عليه الذي كان على الدوام مهدداً من قبل القوى الإسلامية . وكان لهذه السياسة أثرها في توفير الموارد الإقتصادية للمملكة الفرنجية، والأهم من ذلك أنها ساعدت في حماية المملكة من الهجمات الإسلامية في الشمال والجنوب. وقد أخذت الحركة الصهيونية هذه الأساليب وطبقتها في فلسطين في القرن العشرين في سياستها الإستيطانية والأهداف الكامنة من ورائها خاصة وأنها تمثل مراكز عسكرية واستيطانية في آن واحد.

جـ- عناصر السكان الفرنج في فلسطين.

تنوع المجتمع الفرنجي في فلسطين حسب مواطن الفرنج الأصلية وفئاتهم الإجتماعية حيث أقامت في فلسطين جاليات من معظم الدول الأوروبية. وقد شكل الفرنسيون الغالبية العظمى من المستوطنين[2] ولهذا فقد أطلق المؤرخون المسلمون على جموع الصليبيين أسم الفرنج. كما زخرت المدن الساحلية بالجاليات الإيطالية من البندقية[3] وجنوة[4] وبيزا[5] الذين عملوا في التجارة وخاصة في مدن عكا وقيسارية

---

(١) سميث، الأسبتارية، ص٤٣٢؛ ماير، الحروب الصليبية، ص٢٢٩؛ البيشاوي، الممتلكات، ص١٩٧.

(٢) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص٤٧١؛ Benvensiti, Op. Cit. P18.

(٣) البندقية: مدينة إيطالية تقع إلى الشرق من مرتفعات جبال الألب. كانت منذ القدم مركز تجاري. وظهرت أهميتها في القرن العاشر وأصبح لها مكانة مرموقة مع بيزا وجنوة. الموسوعة العربية، ص٤٠٩.

(٤) جنوة: مدينة إيطالية قديمة. وهي ميناء رئيسي إزدهر اسطولها أيام الحروب الصليبية وقد حصلت على ثروة طائلة نتيجة لذلك. كما وحصلت على امتيازات واسعة ، الموسوعة العربية، ص٦٥١.

(٥) بيزا: مدينة إيطالية وعاصمة مقاطعة بيزا أيام الحكم الروماني وظهرت أهميتها التجارية =

وكانت لهذه الجاليات "حكوماتها" المستقلة ولغتها الخاصة بها وقوانينها. إلا أن معظم السكان كانوا يتكلمون اللغة الفرنسية.

أما القدس فقد استقرت بها أغلبية أوروبية من أقطار مختلفة وخاصة من الفرنسيين والنورمان والبروفنساليين والإيطاليين[1]. كما انتشر المستوطنون الفرنج في بعض مناطق الريف الفلسطيني، وذلك بدعم وتشجيع من ملوك بيت المقدس الذين أعفوهم من دفع الضرائب[2].

أما الطبقات المكونة للمجتمع الفرنجي في فلسطين فهي:

أ- الأرستقراطية الحاكمة من النبلاء والفرسان. وكانوا قلة في المملكة بحيث لا يتعدون بضعة الاف. وهم العمود الفقري لممالك الفرنج في بلاد الشام[3].

ب- طبقة عامة المحاربين: وهم من عامة الفرنج الذين شاركوا في الحملات الفرنجية ويؤلفون فرق المشاة في الجيش، والقوة المقاتلة الأساسية في المملكة[4].

ج- طبقة الأجناد (السرجندية)، وهم يشكلون فرقة الرجالة في الجيش الفرنجي بكامل عدتهم الحربية. وقد تزوجوا بنساء من أهل البلاد وشكلوا طبقة تعرف "بالبولاني" (Polani) نتيجة تزاوجهم مع السكان الأصليين من المسيحيين الشرقيين سواء كانوا أرمن أم سريان[5].

= والسياسية في القرن العاشر الميلادي، وأصبح لها مركز مرموق بين المدن التجارية الأخرى. الموسوعة العربية، ص٤٦٥.

(١) Anonymous Pilgrims. Transby: Aubrey Srewart. In P.P.T.S. Vol: VI London, 1894, P. 28' S, Prawer, Settlement, Op.Cit. P500-501.

(٢) ريتشارد، تكوين مملكة القدس، ص١٥٨.

(٣) عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص٤٧٨؛ رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص٤٦٨.

(٤) عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص٤٧٩؛ رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص٤٦٨؛ الحياري، مصطفى، مدينة القدس في زمن الفاطميين والفرنجة، عمان، مكتبة عمان، ١٩٩٤، ص٦١. وسيشار له: الحياري، القدس.

(٥) جوانفيل، جان دي: مذكرات جوانفيل (القديس لويس: حياته وحملاته على مصر والشام)، ترجمة حسن حبشي، مصر، دار المعارف، ط١، ١٩٨٦، ص١٩٥-١٩٦، وسيشار له جوانفيل: مذكرات؛ ماير، الحروب الصليبية، ص٢٣١؛ رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص٤٦٩. =

د- رماة الفرنجة (التركسوبولي)[1] (Torcopoli) وهم جنود أهل البلاد الذي قلدوا الخيالة البيزنطيين بأسلحتهم وتدريباتهم. وهم من النصارى المحليين الذين تحولوا عن مذاهبهم. وقد شكلوا قسماً من الفرسان الداوية والإسبتارية في المملكة.

كما شكل المحليون من المسيحيين نسبة عالية من السكان وهم مسيحيون ينحدرون من أصول عربية، وينتمون إلى الكنيسة الأرثوذكسية مثل اليونان والأقباط واليعاقبة [2].

وقد حاول ملوك بيت المقدس التفريق بين السكان المسيحيين المحليين والمسلمين في المعاملة، بحيث اعتبروهم أكثر ثقة من المسلمين. وأعفوهم من بعض الضرائب في بعض الأحيان، كما عهدوا إليهم ببعض الوظائف الإدارية[3]. ولزيادة التقارب بين المستوطنين الأوروبيين الكاثوليك والسكان المسيحيين المحليين،

= والبولاني أطلقت على مستوطنوا بلاد الشام الساحلية، المنحدرين من تزاوج الفرنج الأوروبيين من مسيحيات من أهل البلاد. انظر. ولر، القلاع، ص٢٦.

(١) التركوبولي: ورد تعريفها في المصادر العربية بأنهم فئة من الجنود الفرنج من الرماة المحاربين. ابن منقذ، مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن مرشد الكناني الشيرزي (ت ٥٨٤هـ/١١٨٨م) الإعتبار. تحرير: فيليب حتي. برنستون، مطبعة جامعة برنستون، ١٩٣٠، ص٥١ وسيشار له: ابن منقذ، الإعتبار؛ الأصفهاني، أبو عبد الله محمد بن صفي الدين أبي الفرج محمد (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م). الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق: محمد محمود صبح. القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر. د.ت، ص٦٢، وسيشار له: الأصفهاني، الفتح القسي. والتركبولي في الأصل لفظة يونانية معناها أبناء أو سلالة الترك وهو مصطلح كان يطلقه البيزنطيون على فرقة من فرق جيشهم ينحدر أفرادها من أب تركي أو عربي وأم يونانية.فهم بذلك أصلهم مسلمون ثم تنصروا. ماير، الحروب الصليبية، ص٢٤٦. وهناك من المؤرخين من أرجع تكوينهم وأصلهم إلى المسيحيين الوطنيين ثم تحولوا عن ديانتهم وتزوجوا من المسيحيات، رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص٤٧٠. أما كلود كاهن فقد زعم بأنهم في الأصل أتراك تحولوا إلى المسيحية اللاتينية وتزوجوا من النساء اليونانيات والفرنجيات (كاهن، كلود، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة، أحمد الشيخ، القاهرة: سينا للنشر، ط١، ١٩٩٥، ص٢٢٢. وسيشار له: كاهن، الشرق والغرب).

(٢) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص٤٧٢؛ Anonymous. Op. Cit. P. 28.

(٣) ريتشارد، تكوين مملكة القدس، ص١٥٩.

فقد شجع ملوك بيت المقدس على التزاوج بين الفئتين، مما كان له الأثر في ظهور جيل جديد في فلسطين تحمل عبء الدفاع عن الوجود الفرنجي بعد أن خفت حدة الهجرة من الغرب إلى فلسطين[١].

أما بالنسبة للسكان المسلمين فرغم قتل وتهجير الكثير منهم خلال الحملة الأولى وتناقص أعدادهم، إلا أن ذلك لم يمنع وجودهم في معظم أنحاء فلسطين وخاصة الأرياف، بحيث شكلوا في بعض المناطق أغلبية سكانية بقيت قائمة، مثل منطقة نابلس وسط فلسطين، ومنطقة الخليل جنوب فلسطين[٢].أما في شمال فلسطين فقد شكل المسلمون الأغلبية العظمى وذلك بعد عودة الكثير منهم. حيث أكد ذلك بعض الرحالة الذين مروا من تلك المنطقة كابن جبير الذي قال: ".. وطريقنا كله على ضياع متصلة، وعمائر منتظمة، سكانها كلها مسلمون .. وكل ما بأيدي الفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبل، ورساتيقهم كلها للمسلمين، وهي القرى والضياع"[٣]. وكان ذلك في العام ٥٧٩هـ/١١٨٣م. كما أن أسامة بن منقذ تحدث عن وجود أغلبية إسلامية في شمال فلسطين وخاصة في الأرياف[٤]. فيروي أن الفرنج الذين كانوا يهربون من عكا كانوا يصلون بسرعة إلى المناطق الإسلامية، مما يعني أن تلك المنطقة كانت ذات أغلبية مسلمة.

أما اليهود فقد كانوا قلة في فلسطين ذلك أنهم تعرضوا للقتل مثل المسلمين في القدس. ورحل بقيتهم إلى مناطق أكثر أمناً خارج فلسطين[٥] ولذلك فقد كانوا قلة. وقد تركزوا في منطقة الجليل وفي صور الساحلية[٦].

(١) عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص٣٢٣؛ The Cambridge History, P 198.

(٢) مصطفى، فلسطين، ق٢، م٢، ص٤٤٩.

(٣) ابن جبير الأندلسي، أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني الأندلسي (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م)، الرحلة. بيروت: دار صادر، د.ت. ص٢٧٤-٢٧٥. وسيشار له: ابن جبير، الرحلة.

(٤) ابن منقذ، الإعتبار، ص٨٢.

(٥) التطيلي: بنيامين بن يونة، رحلة بنيامين، ترجمة عزرا حداد، بغداد، المطبعة الشرقية، ١٩٤٥، ص١٩٧، وسيشار له: التطيلي: الرحلة؛ رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص٤٧٣؛ J.Prawer. Settlement, P494.

(٦) البيشاوي، الممتلكات، ص٣٧٢؛ Fink, Op.Cit, P375.

وعن علاقة المسلمين بالمستوطنين الوافدين وخاصة من أوروبا والذين استمروا لفترة مائتي عام، فقد مرت بعدة متغيرات، *إلا أن الطابع العدائي هو الذي* ساد العلاقات بين الطرفين والذي استمر لعدة أجيال[1]. فقد قام الفرنج خلال احتلالهم لفلسطين بمصادرة أراضي السكان وطردهم من قراهم ومدنهم واضطر المسلمون في كثير من الأحيان إلى العمل في أراضي المستوطنين كأُجَرَاء. كما أنهم كانوا يدفعون الضرائب المرهقة عن أراضيهم، وبالتالي فقد كانت العلاقة بين الطرفين علاقة المُسْتَغِل بالمُسْتَغَل[2]. وتحت طائلة هذا العداء عاش الفرنج حياة مضطربة وغير مستقرة على أرضية الحرب الدائمة مع المسلمين "لأن الحرب كانت الأرضية التي استندت إليها حياة الممالك الفرنجية في بلاد الشام"[3] وكان عليهم أن يعيشوا في حالة مواجهة وترقب وحذر دائمة، مما فرض عليهم توظيف أعداد كبيرة من المقاتلين في خدمة الأغراض العسكرية لهم[4].

ومع أن الفرنج حاولوا أن يظهروا بعض الودّ تجاه السكان عن طريق التأثر بعادات المجتمع المحلي وتقاليده والتعامل التجاري معهم، إلا أن السكان الأصليين ظلوا يعتبرون الفرنج جسماً غريباً عدوانياً لا بد من استئصاله، فأرض المسلمين أسيرة، ولا يمكن تركها ليلدوا عليها فاجراً كفاراً. فمهادنة الكفار المعتدين على ديار الإسلام لا محل لها في الأحكام الشرعية الإسلامية. وتركها بأيدي الكفار إثم كبير على أولي الأمر. مما كان له الأثر في تنمية روح الجهاد بين المسلمين حتى طردهم من فلسطين.

ومن الأمثلة على تلك المقاومة دعوات الجهاد المستمر التي نادى بها قضاة

---

(١) Charles Issawi, The Arab World Legacy. Drowin Press, Princton, 1981, P139
Zoe Oldenbourg. The Crusedes. Randon Hous, N.Y. 1965 , P 285.

(٢) قاسم، "أثر الحروب"، م٣، ص١٦٤.

(٣) البيشاوي، الممتلكات، ص٣٧٢؛ بردج، انتوني، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: أحمد غسان سبانو. نبيل الجيرودي. دمشق: دار قتيبة، ١٩٨٥، ص١١٨. وسيشار له: بردج، الحروب الصليبية.

(٤) قاسم، أثر الحروب، مج٣، ص١٦٤.

وفقهاء وعلماء وشعراء المسلمين طوال فترة الإحتلال الفرنجي. فبعد احتلال بيت المقدس مباشرة عام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م. خرج المستنفرون من دمشق مع قاضيها ووصلوا إلى بغداد وحضروا في الديوان وقطعوا شعورهم واستغاثوا وبكوا وندب القاضي جيش الخلافة يُعرفهم بهذه المصيبة ويدعوهم لقتال الفرنج بدون تردد أو تأخير[1].

(١) الساريسي، عمر، نصوص من أدب الحروب الصليبية. جدة. دار المنارة، ط١، ١٩٨٥، ص٢٣-٢٤. وسيشار له. الساريسي، نصوص.

ثانياً: دور ملوك بيت المقدس في بناء القلاع والحصون.

حاجة الفرنجة إلى الدفاع عن وجودهم:

واجه الفرنجة منذ بداية تأسيس مملكتهم في فلسطين مشكلة تثبيت وجودهم على الأرض، وحماية أنفسهم عليها، والدفاع عن أنفسهم من أي هجوم إسلامي.

ولما كان عدد الفرنج الذين مكثوا في فلسطين قليلاً بسبب رجوع معظمهم إلى أوروبا، فقد ترتب على ذلك البحث عن وسائل أخرى لحماية أنفسهم، وفي الوقت نفسه التوسع في السيطرة على مناطق فلسطين الأخرى والمحيطة بها أيضاً لما لها من أهمية استراتيجية في الدفاع عن وجودهم(١).

وحتى يتم ذلك فلا بد من إقامة شبكة من الدفاعات والتحصينات لحماية الملكة. لأنهم كانوا على الدوام مهددون بسبب النقص في القوى البشرية(٢).

ولهذا قام الفرنج لحظة وصولهم بتحصين دويلاتهم ضد هجمات المسلمين التي لم تنقطع منذ دخولهم إلى الأراضي الإسلامية. ولهذا الغرض أنشأ الفرنج العديد من القلاع والحصون المنيعة التي انتشرت في كافة أنحاء بلاد الشام. وما زالت آثارها باقية حتى هذه الأيام(٣).

"كانت السيادة الفعالة على مقاطعة ما ترتكز على حيازة المدن المسورة والقلاع المحصنة الموجودة فوق أراضيها، ويستطيع الغازي أن يسيطر على منطقة ما طالما أنه احتلها بجيشه، لكن سيطرته تنتهي بانسحاب قواته إذا لم يتخذ لنفسه مكاناً حصيناً، وكان الهدف الأول لكل غاز يرغب في إلحاق أرض بممتلكاته، هو

---

(١) Fink: Op. Cit, P 375, Karleton, Op. Cit, P75, Regine, Op.Cit, P121.

(٢) داهموس، جوزيف. سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى. ترجمة: محمد فتحي الشاعر، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٧، ص١١٦. وسيشار له: داهموس: سبع معارك؛ J.Prawer, The World of the Crusades, Jerusalem, 1972, P121.

(٣) ريتشارد، تكوين مملكة القدس، ص١٥٨؛ شاوندر، البير، صلاح الدين الأيوبي البطل الأنقى في الإسلام. ترجمة سعيد أبو الحسن، دمشق: دار طلاس للنشر والترجمة، ط٢، ١٩٩٣، ص٤٩. وسيشار له: شاوندر، صلاح الدين.

الإستيلاء على نقاطها الحصينة"[1]. وهذا ما فعله الفرنج حينما احتلوا فسطين، إذ اتبعوا خطة تهدف إلى إقامة خطوط دفاعية حول المناطق التي سيطروا عليها، لتعترض المسلمين والتصدي لأي محاولة من جانبهم للهجوم عليهم[2].

وقد مر بناء القلاع الفرنجية في فلسطين بعدة مراحل تبعاً لطبيعة تلك المرحلة وظروفها السياسية والعسكرية. إلا أنه من المتفق عليه أنها بنيت في معظمها في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي مع بعض الإستثناءات القليلة. وأما القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي فكان مرحلة تحصين وإعادة بناء لتلك القلاع، التي هدم معظمها بعد معركة حطين في العام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م.

ويمكن تمييز مرحلتين رئيسيتين في تاريخ القلاع التي بناها ملوك الفرنج، **المرحلة الأولى من العام (٤٩٣-٥٢٤هـ/١١٠٠-١١٣١م).**

لم يبن الفرنج حصونهم وقلاعهم وفقاً لفهم مسبق وخطة ما، ولكن هذه التحصينات كانت قد تطورت واتسعت حتى مجيئهم إلى المنطقة، ذلك أن بنائهم لتلك القلاع كان استجابة للتحديات الطارئة[3].

وكانت فلسطين خلال فترة الإحتلال الفرنجي محصنة في بعض مدنها خاصة الواقعة على الساحل، وبعد احتلالها تم توسيع تلك التحصينات وبناء تحصينات جديدة لجعل المملكة أكثر مناعة.

ومع تأسيس المملكة وانتخاب بلدوين الأول (Baldwin I) (٤٩٣-٥١١هـ/ ١١٠٠-١١١٨م) حاكماً لها كان عليه أن يعمل على تثبيت سيطرته على الأراضي التي تم الإستيلاء عليها، خاصة، وأنه كان من الصعب عليه الإحتفاظ بتلك الأراضي الواسعة لقلة عدد المدافعين عنها. وفي الوقت نفسه كانت الإمارات التي أنشأها الفرنج تقع وسط محيط إسلامي مترامي الأطراف.

---

(١) سميل، الحروب الصليبية، ص٥٥-٥٦.

(٢) J: Prawer. The World, P. 121.

(٣) J.Prawer. Latin Kingdom of Jerusalem. Israel Keter Press, Jerusalem, 1972, P 281.

وأول عمل قام به بلدوين الأول (Baldwin I) (٤٩٣-٥١١هـ/١١٠٠-١١١٨م) في سبيل تحصين وتوسيع المملكة، هو تقوية الجهة الشمالية لفلسطين بعد أن تقلصت الحملات الفاطمية والتي كان آخرها. حملة عام ٤٩٧هـ/١١٠٥م. حيث استطاع السيطرة على معظم مدن الساحل الشامي ما عدا مدينتي صور وعسقلان[1]. وكان الهدف من ذلك هو وقف الحملات الدمشقية على شمال فلسطين وضمان حدودٍ برية حصينة أمام أتابكية دمشق.

ولهذا فقد شرع في بناء حصن يسمى "قصر البردويل (Chateau Baldwin/ Qasr Bradwil) في منطقة السواد شمال شرقي طبرية التي كانت مصدراً للغارات الدمشقية، وذلك في العام ٤٩٩هـ/١١٠٥م. إلا أن هذا الحصن لم يدم طويلاً إذ سرعان ما تحرك ظهير الدين طغتكين (٤٩٧-٥٢٢هـ/ ١١٠٤-١١٢٩م) أتابك دمشق وهاجم الحصن واستولى عليه في نفس العام ودمره[2].

إلا أن المحاولات الفرنجية استمرت في تلك السياسة التوسعية العدوانية وبناء المزيد من القلاع، ولهذا فقد عهد بلدوين إلى حاكم الجليل الجديد هيو دي سانت أومر (٤٩٤-٥٠٠هـ/١١٠١-١١٠٦م) (Hugh de St. Omer)[3] بتشييد حصنين في العام (٤٩٩هـ/١١٠٥م): الأول هو حصن تبنين (تورون Toron) الذي يشرف على الجبال المطلة على صور ويتحكم في طريقين: الأول الطريق بين بانياس ودمشق[4]، والثاني: يربط بين البحر المتوسط في الغرب وجبال لبنان الشرقية. وكان هدف بناء هذا الحصن هو إبقاء المسلمين في صور - التي لم تحتل بعد- تحت المراقبة

---

(١) ابن القلانسي، الذيل، ص٢٤٠.

(٢) ريتشارد، تكوين مملكة القدس، ص١٥٠؛ Jean Richard, The Latin Kingdom of Jerasalem, North Holland Company, Amsterdam, N.Y. Oxford, 1979. Vol. 1, P31.

(٣) هيو دي سانت أومر: إمير طبرية من العام ١١٠٤. قام ببناء قلعة تورون في جنوب لبنان. كما شارك في الغارات على صور. وقتل أثناء إحدى غاراته على المدينة عام ١١٠٧م؛ الصوري. تاريخ الحروب، ج٢، ص٢٦٨-٢٦٩.

(٤) الصوري، تاريخ الحروب، ج٢، ص٦٢٨؛ Jacques de vitry: Op.cit., P18؛ رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص١٥٥.

والضغط[1].

ثم قام هيو دي سانت أومر (Hugh de St. Omer) ببناء حصن علعال في المنطقة الواقعة بين السواد والبثنية[2] ضمن خطة الفرنج لمهاجمة سواد طبرية والتوسع في الجولان. واعتبر هذا الحصن من أقوى وأمنع الحصون[3]. وعندما بلغ ذلك ظهير الدين طغتكين أتابك دمشق خشي أن يشكل هذا الحصن خطراً على دمشق لا يمكن تداركه، ولهذا فقد تحرك على الفور وقاد جيشه وهاجم الحصن ليلاً وقتل وأسر من فيه، واستولى عليه بما فيه من العتاد والميرة، وعاد إلى دمشق بالأسرى والغنائم في جمادى الآخرة عام ٤٩٩هـ/١١٠٥م[4].

ومن الملاحظ أن رنسيمان وعاشور والعسلي وغيرهم أخطئوا في تحديد موقع الحصن إذ ذكروا بأنه يقع إلى الجنوب الغربي من بحيرة طبرية مع أنه يقع في شرق منطقة الجولان وشمال شرق طبرية.

وفي الوقت نفسه قام الملك بلدوين الأول (Daldwin I) بعدة محاولات للسيطرة على قلعة بانياس المطلة على نهر الأردن الشمالي ومنطقة الحدود مع إمارة دمشق ومملكة بيت المقدس، إلا أن ظهير الدين طغتكين (٤٩٧-٥٢٣هـ/ ١١٠٤-١١٢٩م) تمكن من رده أكثر من مرة. وأصبحت بانياس تمثل أقصى نقطة للتقدم الفرنجي في شمال فلسطين باتجاه دمشق[5].

---

(١) Roben Fedden, Jhone Thombson, Crusader, Castles, Jhone Mary Bublishers, London, 1957, P 24.

(٢) البثنية: هي المنطقة التي تقع بين الجولان وحوران في جنوب غرب سوريا ومن أخصب مواقعها كان يسكنها قبائل من ربيعة الذي شاركوا في الحرب مع صلاح الدين . الحياري، مصطفى، صلاح الدين "القائد وعصره" ، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٤، ص٢٦٨. وسيشار له: الحياري، صلاح الدين.

(٣) ابن القلانسي، الذيل، ص٢٤١؛ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان ، ق١، ج٨، ص١٦؛ رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص١٥٥.

(٤) ابن القلانسي، الذيل، ص٢٤١؛ سبط ابن الجوزي، ق١، من ج٨، ص١٦؛ J.Richard. Op.Cit, Vol:1, P31.

(٥) ريتشارد، تكوين مملكة القدس، ص.١٥.

ومن القلاع الأخرى التي أقامها بلدوين الأول لتضييق الخناق على صور، قلعة سكانديليون (Scandilion) في العام ٥١٠هـ/١١١٦م جنوبي مدينة صور بخمسة أميال على ساحل البحر المتوسط. وقد هدف من بنائها إلى زيادة الغارات على المدينة بغية السيطرة عليها[١] ولحماية الطريق الساحلي على طول الشاطئ[٢] الشامي.

أما في الجنوب والجنوب الشرقي لفلسطين فقد أدرك الفرنج الأهمية الإستراتيجية لهذه المنطقة باعتبارها حلقة الوصل بين مصر والشام. وكان أكثر ما يخشاه الفرنج قيام اتحاد سياسي وارتباط في الأهداف بين دمشق والقاهرة[٣] ولذلك فقد استمرت محاولات بلدوين الأول (Baldwin I) خلال العقد الثاني من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي لتحصين المملكة من تلك الجهة لتأمين الحدود من جهة مصر[٤]، ومنع الإتصال بالشام، وإفساح المجال للفرنج للإتصال بالبحر الأحمر للسيطرة على طرق القوافل التجارية. لا سيما الطريق الممتد من دمشق إلى مصر عبر البحر الأحمر[٥] والهدف الثالث من وراء ذلك هو أهمية المنطقة من الناحية الإقتصادية إذ أنها تشتهر بانتاج الحنطة والنبيذ والزيت[٦].

ولذلك توجه بلدوين الأول (Baldwin I) (٤٩٣-٥١١هـ/١١٠٠-١١١٨م) في حملة

---

(١) الشارتري، تاريخ الحملة، ص١٦١؛ الصوري، تاريخ الحروب، ج٢، ص٣٢٨؛ بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ترجمة وتعليق: سعيد البيشاوي، عمان: دار الشروق، ١٩٩٥، ص٤١. وسيشار إليه: بورشارد: وصف الأرض المقدسة.

(٢) Karleton, Op.Cit, P86.

(٣) غوانمة، يوسف. إمارة الكرك الأيوبية، عمان: دار الفكر، ط٢، ١٩٨٢، ص٦٢. وسيشار له: غوانمة، إمارة الكرك.

(٤) ماير، الحروب الصليبية، ص١١٦؛ غوانمة، دراسات، ص١٤٤.

(٥) غوانمة، دراسات، ص١٤٤. باركر. أرنست، الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز العريني، بيروت. دار النهضة العربية، ط٤، د.ت. ص٤٩. وسيشار له، باكر، الحروب الصليبية؛ Terence Wize, The Wars of the Crusades (1096-1129) osprey publishing ltd. London. 1978, P200.

(٦) الصوري، تاريخ الحروب، ج٢، ص٣١٧؛ Jacques de Vitry. Op. Cit, P6.

إلى شرقي الأردن وجدد بناء قلعة الشوبك وحملت اسم (LaKrak de Monterial) وشحنها بالرجال والعتاد. وقد امتازت هذه القلعة بوسائل دفاعية طبيعية[1]، إذ أنها بنيت على مرتفع يشرف على المنطقة حتى البحر الميت جنوباً على بعد خمسة وثمانين ميلاً من القدس وثمانين ميلاً شمال البحر الأحمر. وقد مكن موقع القلعة الإستراتيجي، الفرنجة ليس حماية ممتلكاتهم وحدودهم فحسب، بل مكنهم أيضاً من فرض الضرائب والإتاوات على القوافل التجارية المارة بين مصر والشام والجزيرة العربية[2].

وقد شكلت هذه القلعة أيضاً خطراً على جنوب فلسطين وخاصة على عسقلان التي ما زالت بأيدي الفاطميين، إذ أصبحت مركزاً متقدماً لمهاجمتها وقطع الإمدادات القادمة إليها من القاهرة[3].

وواصل بلدوين الأول سياسته في تحصين المملكة في الجنوب للسيطرة على موانئ البحر الأحمر. حيث سار في حملة في العام التالي ٥١٠هـ/ ١١١٦م حتى وصل إلى العقبة (أيلة) واحتلها وأنشأ بها قلعة وشحنها بالرجال والعتاد للتحكم بالطريق بين مصر والشام[4]. ثم واصل تقدمه داخل البحر وأنشأ قلعة في جزيرة فرعون (LeGroye)، وبفضل هاتين القلعتين أضحى الفرنج يتحكمون في الطرق التي تصل بين بلاد العرب ومصر،وتعذر على أي جيش اسلامي أن يصل إلى مصر من الشرق[5]، ولا غرو أن صلاح الدين قام بهجماته الأولى على هذه التحصينات لتأمين الإتصال

---

(١) الصوري، تاريخ الحروب، ج٢، ص٣١٧؛ رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص١٥٩؛ Karleton, Op. Cit, P86؛ غوانمة، دراسات ، ص١٤٤.

(٢) الشارتري، تاريخ الحملة، ص١٥٧-١٥٨؛ Fink: Op.Cit, P406; Smail: Op. cit., P 103.

(٣) نوار، صلاح، العدوان الصليبي على العالم الإسلامي (٤٩٠-٥١٥هـ/١٠٩٧-١١٢١م). الإسكندرية، دار الدعوة، ط١، ١٩٩٣، ص٣٣٢ , ٣٣٨. وسيشار له: نوار، العدوان الصليبي؛ J. Prawer: The World, P32.

(٤) الحياري، صلاح الدين، ص١٤١-١٤٢؛ Fink. Op.Cit, P406, W.B. Stevenson, The Crusaders in the East, Cambridge University, Press, London, 1907, P15.

(٥) J.Prawer: The World, P32, Fedden and Thombson, op,Cit. P 24؛ الحياري، صلاح الدين، ص١٤٢.

مع نور الدين في دمشق قبل معركة حطين.

وفي محاولة أخرى من جانب بلدوين الأول لتحصين جنوب فلسطين لصد الغارات الفاطمية، قام بإنشاء حصن في الخليل على سطح صخري ووضع فيه حامية لمراقبة الطرق من شرق المملكة إلى الطرف الجنوبي للبحر الميت[1].

وقد أقام بلدوين الأول معظم هذه القلاع والحصون في ظل معاهدة سلام بينه وبين إمارة دمشق التي وقعت في العام ٥٠٢هـ/١١٠٨م[2].

وبذلك يكون بلدوين الأول قد وضع أساس تحصين المملكة من معظم جهاتها. وكان على خلفائه مواصلة هذه السياسة. وعندما خلفه في الحكم بلدوين الثاني (٥١٢-٥٢٦هـ/ ١١١٨- ١١٣١م) الذي تميز عصره باشتداد الصراع بين مملكة بيت المقدس وأتابكية دمشق من جهة ومع الفاطميين في الجنوب من جهة أخرى، جرى تنسيق بين الجبهة الشامية والمصرية لعقد تحالف لمهاجمة مملكة بيت المقدس، إلا أنهما فشلا في تلك الحملة ضد المملكة بسبب عدم حدوث قتال بين الطرفين في الميدان. وانسحب كل طرف إلى قواعده[3].

ويبدو أن السبب في عدم حدوث اشتباك بين الطرفين عدم رغبتهما في القتال، ولطبيعة الإختلاف المذهبي بين أتابك دمشق وجيشه السني، وبين الجيش المصري الشيعي المذهب. وعدم حضور الأفضل بنفسه إلى ساحة المعركة مما جعل طغتكين يتوجس من الإشتباك مع الفرنج. كذلك فان بلدوين الثاني استنجد بالفرنج من أنطاكية وطرابلس[4].

وقد اغتنم بلدوين الثاني (٥١٢-٥٢٦هـ/١١١٨-١١٣١م) هذه الفرصة لبناء حصون جديدة لزيادة حصانة المملكة وزيادة مواردها. حيث أنشأ حصناً بالقرب من

---

(١) بورشارد، وصف الأرض، ص١٥٩؛ نوار، العدوان، ص٢٣٢.

(٢) J.Prawer, Latin Kingdom, P283.

(٣) ابن الأثير، الكامل، مج١٠، ص٥٤٣؛ رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٣٢-٢٣٣؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص٤٨٩.

(٤) عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص٤٨٩.

بيروت أطلق عليه اسم (Mos Clavianus) وذلك بغرض تحصيل الضرائب من السكان المحليين(١) وكان ذلك في العام ٥٢٠هـ/١١٢٥م.

من ناحية ثانية قام بلدوين الثاني (Baldwin II) (٥١٢-٥٢٦هـ/١١١٨-١١٣١م) بالإستيلاء على بانياس وقلعتها الواقعة في أسفل جبل الشيخ(٢) على الحدود بين إمارة دمشق والمملكة. وذلك لضمان السيطرة على الطريق بين دمشق وأعالي نهر الأردن(٣).

لقد تميز عصر بلدوين الثاني باشتداد الصراع بينه وبين أتابكة دمشق وتركز هذا الصراع على مناطق الحدود بين الدولتين. وقد ركز بلدوين جهوده أيضاً في الصراع في شمال الشام إذ توجه بنفسه إلى هناك وأسر في إحدى المعارك. ثم أفرج عنه في العام ٥١٨هـ/١١٢٤م وواصل غاراته على أملاك دمشق إلا أنه لم يحقق انتصاراً ساحقاً عليها.

وكان من أهم ما يميز عصر بلدوين الثاني هو ظهور الفرق العسكرية وهي الداوية (Templers) والإسبتارية (Hospitalers) اللتين لعبتا دوراً عسكرياً في المملكة اللاتينية، خاصة في محاربة المسلمين، وفي الدفاع عن المملكة وتحصينها. وسوف نتعرض لدور هاتين الفرقتين في الصفحات اللاحقة.

المرحلة الثانية في التحصين (٥٢٦-٥٨٣هـ/١١٣١-١١٨٧م).

بدأت هذه المرحلة باستلام فولك الأنجوي للسلطة في المملكة في الوقت الذي

---

(١) الشارتري، تاريخ الحملة، ص٢٢٦؛
Robert L. Nicholson. The Growth of the Latin States 1118-1144. In: Setton. Vol: 1, P. 425, Stevenson, Op.Cit. P 177.

(٢) جبل الشيخ: ويطلق عليه ايضاً اسم جبل الثلج وجبل الحرمون، وهو عبارة عن سلسلة جبال تقع على الحدود بين لبنان وسوريا وفلسطين. وتتفرع إلى عدة أقسام. وينبع منه عدة أنهار مثل الليطاني وبانياس. وتبلغ أعلى قمة فيه حوالي ٢٨١٤م. أبو العينين، حسن: لبنان "دراسة في الجغرافيا الطبيعية"، بيروت، دار النهضة، ١٩٨٠، ص٢٩٨. وسيشار له: أبو العينين، لبنان.

(٣) الحياري، "مدينة بانياس في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي" مجلة دراسات، الجامعة الأردنية، م٣، ع١٢، ١٩٨٦، ص١٦٩. سيشار له: الحياري، مدينة بانياس.

واجهت فيه أخطاراً خارجية تمثلت بظهور نجم عماد الدين زنكي ومحاولته توحيد الجبهة الإسلامية ضد الفرنج. لايجاد حالة من التوازن الإستراتيجي بين الطرفين[1]. وبالتالي فقد شكلت جهوده خطراً مستمراً على الوجود الفرنجي في بلاد الشام. كذلك فقد تعرضت مملكة الفرنج من الشمال إلى سلسلة من الغارات من جانب إسماعيل بن بوري طغتكين[2] (٥٢٥-٥٢٨هـ/١١٣٢-١١٣٥م) كان أهمها غارته على قلعة بانياس واستردادها من الفرنج في العام (٥٢٧هـ/١١٣٢م) بعد أن نقض صاحب بيروت التابع لملك القدس هدنة مع إمارة دمشق باستيلائه على قافلة لتجار دمشق. فاستغل شمس الملوك إسماعيل بن بوري (٥٢٥-٥٢٨هـ/١١٣٢-١١٣٥م) هذا الحادث، فهاجم بانياس خاصة وأن ملك بيت المقدس وصاحب بانياس كانا بعيدين هما وقواتهما في يافا على الساحل الفلسطيني[3]. هذا في الوقت الذي كان فيه عماد الدين زنكي يقوم بجهود مهمة لتوحيد شمال الشام مع عدم إغفاله لمحاولة السيطرة على دمشق التي تعتبر مفتاح مملكة بيت المقدس من جهة الشمال.

وإزاء هذه الأوضاع حاول الملك فولك الانجوي (Fulk de Anjouy) (٥٢٥-٥٣٦هـ/ ١١٣١-١١٤٣م) أن يتبع سياسة جديدة لا عسكرية مع أتابكية دمشق تهدف إلى المصالحة معها، حيث عقد معاهدة معها سنة (٥٣٢هـ/١١٣٨م) وتم بموجبها إرجاع بانياس لصاحبها[4].

---

(١) قام عماد الدين زنكي بالعديد من المحاولات لتوحيد شمال الشام. وقد نجح في هزيمة الفرنج في عدة معارك. وللمزيد عن جهوده انظر: ابن الأثير، الكامل، مج١١، حوادث سنة ٥٢٩-٥٤٠هـ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، الحوادث من سنة ٥٣٠-٥٤٣هـ.

(٢) إسماعيل بن بوري بن طغتكين (ت٥٢٩هـ/١١٣٥م): هو شمس الملوك إسماعيل صاحب دمشق، قام بمحاربة الفرنج واسترداد بانياس منهم إلا أنه كان سيئ السيرة بسبب نهبه لأموال الناس وسفكه للدماء. انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص٢٥٥.

(٣) الحياري، مدينة بانياس، ص١٧٠.

(٤) الحياري، المرجع السابق، ص١٧٢.

وقد استغل الملك فولك الأنجوي (٥٢٥-٥٣٦هـ/١١٣١-١١٤٣م) هذا الصلح[١] في تعزيز حدود مملكته وتحصينها في وجه الخطر الإسلامي، إذ أقام عدة قلاع في شمال ووسط فلسطين لحمايتها من التهديدات المتمثلة في قوة عماد الدين زنكي المتنامية، الذي شن عدة غارات على دمشق من الجهة الشمالية للمملكة، كما هدف من بنائها حمايتها من الجهة الجنوبية المتمثلة في الغارات الفاطمية المتمركزة في عسقلان لعدم إفساح المجال للاتصال بين القوتين.[٢]

ومن القلاع التي أقامها الملك فولك الانجوي في شمال فلسطين قلعة كوكب الهوى (Belvoir) إلى الشمال من بيسان والجنوب من طبرية وقد شيدت في العام ٥٣٤هـ/١١٤٠م لتحمي طريق وادي الأردن ومخاضاته الممتدة من طبرية حتى بيسان ولحراسة جسر الصنبره[٣] الذي يعتبر المركز الرئيسي الذي تتجمع فيه الجيوش الإسلامية لتهاجم أملاك مملكة بيت المقدس[٤].

كما أقام الملك فولك الانجوي قلعة بوفورت (Beafort)، التي تسمى في المصادر العربية الشقيف ارنون وذلك في العام ٥٣٣هـ/١١٣٩م، في جنوب لبنان بين صور وصيدا على ارتفاع يبلغ ٧٠٠م. وتسيطر هذه القلعة على مجرى نهر الليطاني والطرق المؤدية إلى صيدا[٥] كما أن هذه القلعة تتحكم في المنافذ

---

(١) الصلح لغة: اسم بمعنى المصالحة والتصالح. واصطلاحاً: معاقدة يرتفع بها النزاع بين الخصوم ويتوصل بها إلى الموافقة بني المختلفين، الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، القاهرة، دار الصفوة للطباعة والنشر، ج٢٧، ١٩٩٢، ص٣٢٣. وسيشار له: الموسوعة الفقهية. أما الهدنة: فهي الإتفاق على ترك القتال فترة من الفترات الزمنية قد تنتهي إلى صلح. وتجب في حالة طلب العدو إليها. سابق، سيد، فقه السنة، بيروت، دار الكتاب العربي، ط٣، ١٩٧٧م، م٢، ص٦٥٩-٦٦٠. وسيشار له: سابق، فقه السنة.

(٢) Jacques De Vitry op. cit. p 25.

(٣) جسر الصنبرة: يقع هذا الجسر على الضفة الجنوبية من بحيرة طبرية مقابل عقبة أفيق على بعد ثلاثة أميال من البحيرة، شرانج: فلسطين، ص ٤١٢.

(٤) J.prawer : Historie Du Royame Latin De Jerusalem, Centre National, Paris, 2nd ed, 1975, VI, P332.

(٥) مجهول، تتمة كتاب وليم الصوري والمنسوب خطأ إلى روثلان. ترجمة وتعليق : أسامه زيد =

الجنوبية لهضبة البقاع الخصبة التي كانت نقطة صراع بين الفرنج والمسلمين. وأن المنطقة التي أقيمت عليها القلعة تتميز بكثرة الكهوف التي يمكن الاختباء بها، ونصب الكمائن لمنع تقدم وعبور الجيوش منها[1].

أما قلعة صفد فقد تم توسيعها وتحصينها من قبل الملك فولك الانجوي في العام ٥٣٤هـ/١١٤٠م حتى تستوعب أعداداً كبيرة من الجنود لتكون قاعدة متقدمة لحماية شمال فلسطين من أية غارات دمشقية. وتعتبر هذه القلعة الحصن المركزي في اقليم الجليل[2].

وتقع هذه القلعة على تلة من تلال الجليل الأعلى على ارتفاع ٨٤٠م. وكانت هذه القلعة قد بدئ في بنائها في العام ٤٩٥/١١٠٢م لتسهيل حركة الجيوش العسكرية التي كانت موجهة إلى مدينة صور[3] ولحماية شمال فلسطين من أية هجمات مفاجئة من سوريا وحماية المنطقة من غارات السلب والنهب التي يقوم بها الاعراب[4].

واستمراراً لسياسة التحصين الفرنجية التي كان الهدف منها التوسع والسيطرة على المزيد من الأراضي والتحكم في الطرق والممرات .. الخ، فقد أوعز فولك الانجوي الى أحد أمرائه بتجديد ببناء حصن الكرك[5] في العام ٥٣٦ هـ/

= زكي، وسيشار له: مجهول: تتمة.

(١) Prawer, Latin Kingdom, p 287, Pernoud, op. cit, p 151.

(٢) الحياري، صلاح الدين، ص ٣٧٠؛
Pernoud, Op.Cit., P157; J. Parwer: Historie de Royame,Vol: 1, P332.

(٣) بورشارد، وصف الأرض، ص ٦٩. ابن شداد، عز الدين أبي عبدالله محمد بن علي بن ابراهيم الحلبي (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م). الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، (تاريخ لبنان وسوريا وفلسطين). دمشق : المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٦٢. ج١، ق٢، ص ١٤٦. وسيشار له. ابن شداد : الاعلاق الخطيرة.

(٤) ابن الأثير، الكامل، مج ١٠، ص ٥٥٨.

(٥) حصن الكرك : يقع في جنوب الأردن في الطرف الجنوبي للبحر الميت. بني لزيادة الدفاع شرق المملكة اللاتينية، حوصر وهوجم عدة مرات من قبل نور الدين وصلاح الدين قبل معركة حطين، وقد سيطر عليه صلاح الدين في عام ٥٨٤هـ/١١٨٨م. انظر: فينر مولر: القلاع أيام الحروب الصليبية، ترجمة محمد وليد الجلاد، دمشق، دار الفكر، ط٢، ١٩٨٤، ص ٥٥-٥٦، وسيشار له: مولر: القلاع.

١١٤٢م. في شرق الأردن وعلى نفس الخط مع قلعة الشوبك ليساعد في حماية المملكة وليعزز السيطرة على طرق القوافل التجارية التي كانت تمر في المنطقة وتحتاج إلى التزود بالمياه أثناء مرورها فيها(١).

كما أن الخطر الذي كان يتهدد المملكة من الجنوب بقي مستمراً، إذ شكل الفاطميون تهديداً مباشراً للوجود الفرنجي. وكان لابد لساسة المملكة من ايجاد الوسائل الكفيلة لحمايتها، لا بل مهاجمة أملاك الفاطميين. ولهذا فقد أقام الملك فولك الانجوي عدة قلاع في جنوب ووسط فلسطين وكان الهدف من إقامتها هو جعلها مراكز انطلاق لتشديد الحصار على عسقلان التي بقيت المدينة الوحيدة بيد الفاطميين على الساحل الفلسطيني(٢)، وكذلك لحماية طريق الحاج ما بين يافا والقدس.

وقد أقيمت هذه القلاع في الفترة ما بين عام (٥٣١-٥٣٥هـ/١١٣٦-١١٤٠م) في الوقت الذي كانت تجري فيه مفاوضات بين اتابكية دمشق، ومملكة بيت المقدس لعقد تحالف بين الطرفين. وبالفعل فقد تم عقد هذه المعاهدة في العام ٥٣٣هـ/١١٣٩م. ومن أهم بنودها دعم قوات دمشق ضد عماد الدين زنكي مقابل تسليم بانياس للفرنج(٣)

تعتبر قلعة بيت جبريل (Bait-Jibrin) أو (Jebelin) من أوائل القلاع التي أقامها الملك فولك في العام ٥٣١هـ/١١٣٦م، وتقع هذه القلعة على هضبة مطلة على الشمال الغربي من المدينة على مسافة ٣٠كم الى الشرق من عسقلان(٤) وكان الهدف من انشائها حماية الطريق ما بين غزة وعسقلان باتجاه القدس والخليل من أي

---

(١) مولر : القلاع، ص ١٦؛ Stevenson: Op.Cit., P. 146 ؛ غوانمة: إمارة الكرك، ص ٦٦؛ J. Prawer. Latin Kingdom p 282.

(٢) Jacques De Vitry op. cit. p 15; Boase: kingdoms, p 78.

(٣) ابن القلانسي، الذيل. ص ٤٢٦-٤٢٧. ابن الأثير، الكامل، مج ١١، ص ٧٤. الحياري، بانياس، ص ١٧٣.

(٤) ماير، الحروب الصليبية، ص ١٣٥، رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٣٦٩. Richard op. cit. p 37; Stevenson: op.cit., p 136.

هجمات للفاطميين والأعراب من ناحية، وحتى تكون نقطة انطلاق للجهوم على عسقلان من ناحية أخرى [(١)].

أما قلعة يبنا (Ibelin) فقد أنشأت في العام ٥٣٤هـ/١١٤٠م، وأقيمت على تل مرتفع إلى الجنوب الغربي من مدينة اللد بمسافة عشرة أميال. وتقع إلى الشمال الشرقي من مدينة عسقلان وعلى مسافة حوالى ٢٥كم منها. وتتحكم هذه القلعة بفضل موقعها في الطريق الذي يمتد من عسقلان إلى يافا والرمله[(٢)]. وبعد اتمام بنائها عهد بها الملك فولك الانجوي الى باليان الكبير (الابليني)[(٣)] (Balian de Ibelin).

وإلى الشرق من عسقلان بحوالي ٢٥كم أقيم حصن تل الصافية (Blanch Garde) أو (الحارس الأبيض) في العام ٥٣٤هـ/١١٤٠م، وهو نفس العام الذي أنشئ فيه حصن يبنا حيث أقيم مباشرة بعده. ويقع هذا الحصن الى الشمال الغربي من قلعة بيت جبريل، وكان الهدف من اقامته حراسة الطريق من عسقلان إلى القدس والخليل، وكذلك لزيادة التشديد في حصار عسقلان ومنعها من أي اتصال مع داخل وشمال فلسطين ووقف النشاط الفاطمي العسكري المنطلق من عسقلان[(٤)].

وإذا نظرنا إلى توزيع هذة القلاع الثلاث نلاحظ أنها غيرت الوضع العسكري في جنوب فلسطين لصالح الفرنج، فقد غدت عسقلان مطوقة من البر وخاصة من

---

(١) Ernle Bradford. The sword and scimitar (The saga of the Crusades) G.P. Putnams sons, Milan, 1974. p. 130.
H.J.A. Sire. The Knights of Malta. Yale university press, London New Haven, 1994, p 7, 16. King, op. cit. p 34.
الحياري، صلاح الدين، ص ٢١٧.

(٢) الصوري، تاريخ الحروب، ج٢، ص ٢٠٩ رنسيمان، الحروب الصليبية. ج٢، ص ٣١٨.
Boase. Kingdoms, p. 78.

(٣) باليان الابليني، ويسمى باليان بن بارزان في المصادر العربية. منح إقطاعية يبنا في فلسطين. كان من كبار بارونات الفرنج. واعتبرت اقطاعية يبنا لآل ابلين بالوراثة وقد أسس باليان هذه العائلة التي لعبت دوراً هاماً في شؤون المملكة، انظر الحياري،صلاح الدين، ص ٨٨؛ Boase: Kingdoms, p 78.

(٤) الصوري: تاريخ الحروب، ج٢، ص ٢١٠؛ Richard. op. cit, p 87 .

جهاتها الشمالية والشرقية الأمر الذي كان من نتائجه التقليل من أهمية وحجم الغارات الفاطمية على أراضي المملكة في حدودها الجنوبية[1]. وليس هذا فحسب بل انتقل الفرنج الآن من حالة الدفاع إلى وضعية الهجوم نتيجة تعزيز هذه القلاع بحاميات قوية، الأمر الذي أدى في النهاية الى احتلال مدينة عسقلان والتي كانت القاعدة الوحيدة التي يسيطر عليها الفاطميون في فلسطين.

كما أن بناء تلك القلاع حقق نتائج سياسية واقتصادية للمملكة الفرنجية تكمن في انشاء الفرنج لعدة مراكز استيطانية - بشرية بالقرب منها وأصبحت القلاع نواتها مما شجع الكثير من الفلاحين الفرنج إلى القدوم بعائلاتهم للاستقرار والعمل في الزراعة الأمر الذي ساعد في نشوء مجتمع زراعي يدعم المملكة بمتطلباتها الاقتصادية[2].

وبوفاة الملك فولك عام ٥٣٧هـ/١١٤٣م، أصبحت المملكة تقريباً محاطة ومحصنة بالعديد من القلاع من كافة أطرافها في الشرق والشمال والجنوب، إلا أن ذلك لم يمنع خلفاءه من الملوك الفرنج في الاستمرار في سياسة التحصين والبناء، وفي تقوية التحصينات والقلاع التي اقيمت من قبل لحماية المملكة من أي هجوم مفاجيء تتعرض له، سواء من الشمال أو من الجنوب، ومن ثم القيام بهجمات مضادة على المناطق الاسلامية انطلاقاً من تلك القلاع، ذلك ان خليفة الملك فولك، بلدوين الثالث (Baldwin III) (٥٣٨-٥٥٨هـ/١١٤٣-١١٦٢م) اتبع تلك السياسة للحيلولة دون أي اتصال مباشر بين دمشق والقاهرة. حيث قام باعادة بناء وتحصين قلعة غزة في العام ٥٤٥هـ/١١٤٩م. في أقصى جنوب فلسطين على ساحل البحر المتوسط[3]، بعد فشل الحملة الفرنجية الثانية وتحرير الرها على يد عماد الدين زنكي. كما هدف من بناء تلك القلعة أن تكون منفذاً يستطيع من خلاله الفرنجة

(١) سميل، فن الحرب، ص ٢١٥؛ Prawer. Historie de Royame, vol 1 : p 330.

(٢) الصوري، تاريخ الحروب، ج٢، ص ٢١١؛ ماير: الحروب الصليبية، ص ١٣٦؛ Prawer, Historie de Royame, op. cit, vol 1, p 333.

(٣) الصوري، تاريخ الحروب ج٣، ص ٣٢٩؛ الحياري، صلاح الدين، ص ١٣٧؛ Fabri, op. cit, p 326.

الوصول إلى عسقلان[١] لوقف الغارات المنطلقة منها على جنوب المملكة وفصلها عن مصر وذلك من خلال التنسيق مع قلاع يبنا وتل الصافي وبيت جبريل. ويعبر عن ذلك المؤرخ الفرنجي وليم الصوري (Wiliam of Tyre)بقوله «ان الهدف ليس فقط الدفاع وإنما الهجوم والعدوان وشن الغارات على عسقلان »[٢].

وكانت نتيجة بناء تلك القلاع الأربع في الجنوب أن أصبحت عسقلان واقعة بين فكي كماشه، ومحاصرة من الشمال والشرق والجنوب، ولم يبق منفذاً لها سوى جهة البحر. وكان مصيرها الحتمي كما رأينا احتلالها في العام ٥٤٨هـ/١١٥٣م، بعد محاولات عديدة سابقة للسيطرة عليها. وقد تزامن هذا أيضاً مع اشتداد الصراع داخل البيت الفاطمي في مصر.[٣]

وباحتلال بلدوين الثالث (Baldwin III) لقاعدة عسقلان يكون الفرنج قد بسطوا سيطرتهم على ساحل الشام بأجمعه من الاسكندرونه[٤] شمالاً حتى غزه جنوباً، الأمر الذي كان من نتائجه حرمان الفاطميين من آخر قاعدة لهم على البحر والتي طالما استخدموها في شن الغارات على الممتلكات الفرنجية في جنوب فلسطين. والآن وبعد احتلال المدينة أصبحت الطريق مفتوحة للقيام بغارات عسكرية ضد مصر بعد انسحاب الجيش والاسطول الفاطميين من المدينة وعدم وجود قواعد قريبة له من فلسطين[٥].

---

(١) ابن منقذ، الاعتبار، ص ١٠.

(٢) الصوري، تاريخ الحروب، ج٣، ٢٣٠؛ سميل، الحروب الصليبية، ص ٢١٥.

(٣) ابن القلانسي، الذيل. ص ٤٩٧؛ ابن الأثير، الكامل، مج١١، ص ١٨٨؛ الصوري، تاريخ الحروب، ج٣، ص ٣٦١، وكانت مصر في الفترة التي احتلت فيها عسقلان تعاني من مشاكل داخلية تتمثل في مقتل الوزير ابن السلار وحدوث فتنة بعد مقتله أدت إلى قيام الفتن والفوضى في القاهرة. ابن القلانسي، الذيل، ص ٤٩٥؛ أبو شامه، الررضتين، ج١، ص ٩١؛ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ق١، من ح٨، ص ٢١٤-٢١٥؛ رنسيمان الحروب الصليبية. ج٢، ص ٥٤٥.

(٤) الاسكندرونه : مدينة تقع إلى الشرق من انطاكية على ساحل البحر المتوسط. وتبعد عنها ثمانية فراسخ. الحموي، معجم البلدان، ج١، ص ٢١٦.

(٥) The cambridge History, VIA, p 201.

وإذا كان احتلال عسقلان يمثل انتصاراً كبيراً للفرنج، فإنهم تلقوا ضربة قوية في الشمال -بالإضافة إلى الضربة الأولى، وهي تحرير الرها على يد عماد الدين زنكي في العام ٥٣٩هـ/١١٤٤م[١]- بتحرير دمشق من قبل نورالدين زنكي في العام ٥٤٩هـ/١١٥٤م بعد احتلال عسقلان مباشرة[٢] وبذلك فقد أضحى نور الدين يشكل خطراً حقيقياً على الوجود الفرنجي في بلاد الشام بعد سلسلة الانتصارات التي حققها على الفرنج في سوريا وجهوده في توحيد القوى الاسلامية لتشكيل جبهة موحدة ضد الفرنجة.

ومن ناحية أخرى فقد واصل الملوك الفرنج بعد احتلال عسقلان وتحرير نور الدين زنكي لدمشق سياستهم العدوانية التوسعية في الجنوب عن طريق اقامة المزيد من القلاع والحصون فبعد اقامة قلعة غزة في العام ٥٤٥هـ/١١٤٩م، أقام الملك أماريك (عموري)[٣] (٥٥٨-٥٦٩هـ/١١٦٣-١١٧٤م) في أقصى جنوب فلسطين وعلى حدود مصر قلعة الداروم (دير البلح حالياً) في موقع مرتفع بشكل مستدير بأربعة أبراج[٤]. وقد هدف الفرنج من بنائها أن تكون قاعدة متقدمة على الطريق إلى مصر ومسرحاً لعملياتهم العسكرية التي تنطلق ضد مصر ومنطقة جنوب فلسطين[٥] .

وهكذا وعلى حد قول المؤرخ وليم الصوري فقد كانت أهداف بناء قلاع الجنوب وخاصة غزة والداروم هي لإبقاء على الحرب العدوانية المتواصلة ضد المسلمين، وليس الدفاع عن حدود مملكة الفرنج، ذلك أنه خلال بناء تلك الحصون كانت مصر تعاني من أوضاع سياسية سيئة بسبب الصراعات الداخلية، وبالتالي لايمكن أن تشكل تهديداً على المملكة الفرنجية.[٦]

---

(١) ابن الأثير، الكامل، مج١١، ص ٩٨؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص ٣٩.

(٢) البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٢٠٧، أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص ٢٩٠.

(٣) الملك عموري الأول (اماريك Amlric) وهو الملك الرابع لمملكة بيت المقدس تولى الحكم في العام (١١٦٣-١١٧٤م) وكان قبل ذلك كونت يافا وعسقلان. وقد امتاز بالخبرة بالحرب والمكر والخداع، الصوري، تاريخ الحروب، ج٤، ص ١٥.

(٤) سميل، الحروب الصليبية، ص ٢٢٩؛ Jacques de vitry, op. cit. p 14 .

(٥) الحياري، صلاح الدين، ص ١٣٦؛ Smail, op. cit, p 94 .

(٦) سميل، الحروب الصليبية، ص ٢١٥؛ ماير. الحروب الصليبية، ص ١٧١.

كما قام الملك بلدوين الرابع (Baldwin IV) (٥٧٠-٥٨١هـ/١١٧٤-١١٨٥م) بإعادة تحصين قلعة هونين (Hunin) في العام ٥٧٤هـ/١١٧٨م، وعهد إلى الهمفري[1] (Humphry II) سيد تبنين بتحصينها، وتقع هذه القلعة في أقصى شمال فلسطين على الطريق الواصل بين بانياس وتبنين، وجاء بناؤها رداً على هجمات صلاح الدين المتكررة على شمال المملكة[2].

ومن الملاحظ أن هذه القلاع لعبت دوراً هاماً وبارزاً في الصراع الفرنجي/ الإسلامي على مدى عشرات السنين اذ استطاع الفرنج بواسطتها المحافظة على وجودهم وكيانهم لفترة أطول حتى استطاع صلاح الدين ان يحرر جميع هذه القلاع بعد انتصاره على الفرنج في معركة حطين عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م.

---

(١) الهمفري سيد تبنين : أحد القواد العظام عينه بلدوين الثالث قائداً عاماً للجيش في المملكة وكان حاكماً لمنطقة صور قتل في معركة مرجعيون في العام ٥٧٤هـ/١١٧٨م، الصوري، تاريخ الحروب، ج٣، ص ٣٣٣.

(٢) أبو شامة، الروضتين، ج١، ص١٤٧؛ عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٧٣٢.

أما في الشمال التي تلقى فيها الفرنج عدة ضربات على يد عماد ونور الدين زنكي. فقد حاولوا إعادة تنظيم وتقوية تحصيناتهم للدفاع عن حدودهم الشمالية. خاصة بعد أن ظهر نجم صلاح الدين وقيامه بعدة غارات على حصونهم وقلاعهم في جنوب وشمال فلسطين. ولهذه فقد استغل الملك بلدوين الرابع[1] (BaldwinIV) (٥٧٠-٥٨١هـ/ ١١٧٤-١١٨٥م) الظروف السيئة التي واجهها صلاح الدين في الشام المتمثلة في القحط الشديد والصراع بين الأمراء على بعض اقطاعات الشام، وقام ببناء حصن بيت الأحزان أو «مخاضة يعقوب» في موقع متقدم مع الحدود مع امارة دمشق متذرعاً بقيام بدو المنطقة بشن غارات على شمال المملكة كما يدعي وليم الصوري[2].

إلا أن السبب الحقيقي لانشائه هو الاستفادة من انتصار بلدوين الرابع على صلاح الدين في معركة تل الجرز بالقرب من الرمله بهدف تغطية الخطوط الأمامية للملكة وحتى تكون قاعدة لاحتلال بانياس[3] وليكون هذا الحصن أيضاً نقطة انطلاق لضرب إمارة دمشق[4].

وقد جاء بناؤه مخالفاً للهدنة التي وقعت بين الفرنج وصلاح الدين الذي طلب من الفرنج على الفور بهدمه مقابل دفع مبلغ من المال، إلا أن الفرنج رفضوا. فما كان منه إلا أن توجه إلى الحصن وهدمه وسوّاه بالأرض وقتل وأسر من فيه[5].

---

(١) بلدوين الرابع : تولى حكم مملكة بيت المقدس من العام (١١٧٤-١١٨٤م). وقد جرت بينه وبين صلاح الدين عدة وقائع. وتوفي بسبب مرض الخدام. انظر: Fabri, op. cit. p 332.

(٢) الصوري، تاريخ الحروب، ج٤، ص ٢٢٧.

(٣) Trace op., cit. p 188; King, op. cit, p 109.

(٤) نيوباي، ف.هـ، صلاح الدين وعصره، ترجمة : ممدوح عدوان. دمشق : دار الجندي، ط١، ١٩٩٣. ص ٩٩. وسيشار له : نيوباي، صلاح الدين. لين بول، ستانلي، صلاح الدين وسقوط مملكة بيت المقدس. ترجمة : فاروق سعد أبو جابر. القاهرة : مطابع الأهرام التجارية، ط١، ١٩٩٥م، ص ١٤١، وسيشار له : لين بول، صلاح الدين.

(٥) أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص ٨-٩؛ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ق١، ج٨، ص٣٥١؛ الحياري، صلاح الدين، ص ٢١٧؛ King, op. cit, p 109.

ثالثاً : دور جماعات الفرسان في بناء وتحصين القلاع

أسباب ظهورها والخدمات التي قدموها :

توطيداً لتثبيت الكيان الفرنجي في فلسطين تأسست في الربع الأول من القرن الثاني عشر منظمتان عسكريتان رهبانيتان (Orders) هما منظمة أو جمعية فرسان القديس يوحنا (Hospitallers de Saint Jean) التي اطلق عليها المؤرخون المسلمون اسم «الاسبتارية» والثانية هي فرسان الهيكل (Knight Templers) واطلق عليها الداوية من قبل المسلمين.

وقد أتسم ظهور هذه الجماعات في البداية بالطابع الاجتماعي من خلال ان الفرسان الذين انضموا إليها كانوا يتصفون «بالعفة» و «الطاعة» «الفقر».[1] فالاسبتارية كانت نشأتها الأولى في القدس عن طريق جماعة من مدينة أمالفي[2] الايطالية في العام ٤٦٢هـ/١٠٧٠م. وقد وجّهوا اهتمامهم الخاص في البداية للإعتناء بالمرضى والجرحى من الحجاج الوافدين إلى فلسطين[3] وفي العام (٥١١هـ/١١١٨م) تولى رئاسة هذه المنظمة شخص يدعى (Gerard) الذي ينحدر من جزيرة المارتينيك من اقليم بروفانس في فرنسا وقد منحه الملك جودفري الدعم المادي والمعنوي لبناء مأوى لاستقبال المرضى والحجاج. وبعد وفاة جيرارد (Gerard) في نفس العام تولى قيادة هذه المنظمة راهب فرنسي اسمه ريموند لوبوبيه Hugh de Ruymond وقد حصل على الدعم أيضاً من ملك بيت المقدس و البابوية[4].

أما منظمة الداوية (Templers) فقد تأسست ما بين العام (٥١١-٥١٣هـ/

---

(١) الصوري، تاريخ الحروب، ج٢، ص ٣٤٥؛ Oldenberg. op. cit, p 287; C.F. Strong. The world of the Middle Ages, University of London press 1964, p 96/ C.H. lewerence. Medieval Monasticism, Longman Inc, N.Y. 1984. p 169.

(٢) أمالفي : مدينة ايطالية في مقاطعة ساليرنوا، شاركت المدن الايطالية الأخرى في التجارة. عوض، الرحالة، ص ٦٦، هامش ٥٥.

(٣) مكسيموس، تاريخ الحروب، ج١، ص ١٩٣؛ رنسيمان، الحروب الصليبية ج٢، ص ٢٤٨؛ King. op. cit. p 68.

(٤) مكسيموس، تاريخ الحروب، ج١، ص ١٩٤؛ Strong. op. cit, p. 96; Richard, Op.cit.p. 111.

١١١٨- ١١٢٠م) في بيت المقدس من قبل فريق من الفرسان الفرنسيين برئاسة هيو دي باينز (Hugh de payens) الذي وصل إلى فلسطين من أوروبا بدعم بريطاني / فرنسي مشترك(١). وقد ذكر وليم الصوري وجاك دي فيتري ان عددهم لم يتجاوز تسعة فرسان فقط(٢). والحقيقة ان عددهم كان أكبر من ذلك، إذ لا يعقل ان يبقى عددهم ثابتاً طيلة تسع سنوات دون ان يزداد. ولهذا فالباحث يتفق مع الرأي القائل بأن العدد أكبر من ذلك(٣) وربما كان الهدف وراء ذلك الاعلان إظهارهم بمظهر الضعف حتى يحصلوا على الدعم من البابوية والملوك الفرنج. وبالفعل فقد حصلوا على الدعم من ملك بيت المقدس، حيث سمح لهم بالاستقرار في الجهة الجنوبية الغربية من المسجد الأقصى وحملوا اسم فرسان المعبد (Knight Templers).

كانت الأهداف الأولى لظهور هذه الجماعات هو رعاية الفقراء والمرضى واستقبال الضيوف الغرباء والعناية بهم، خاصة الحجاج الذين يفدون إلى الأماكن المقدسة(٤) وحماية الطريق التي يسلكونها من الساحل الى بيت المقدس، والطرق من بيت المقدس الى الأماكن المقدسة على ضفاف نهر الأردن.(٥) ولكن هذا الهدف تحول إلى الطابع العسكري، وصار على عاتق هذه الجماعات ان تدافع عن ممتلكات الفرنج في الشام، خاصة ان الفرنج لم يسيطروا في تلك الفترة على كامل فلسطين. وبالتالي فقد ترتب عليهم محاربة المسلمين الذين كثفوا هجومهم على ممتلكات الفرنج. كما أن هذه المنظمات شاركت في قمع ثورات السكان المحليين الذين رفضوا الخضوع لسلطة الفرنج وحكمهم.(٦) ومما ساعدهم في ذلك أنهم حصلوا على

---

(١) Charles G. Addison. The History of the Knight Templers. Longman. London, 1842. p 36.

(٢) الصوري، تاريخ الحروب، ج٢، ص ٣٤٦؛ Jacques de Vitry, op. cit, p 50 .

(٣) زابوروف، صليبيون، ص ١٦٠.

(٤) سميث، الاسبتارية، ج١، ص ٥٤؛ زابوروف، صليبيون، ص ١٥٩؛ Jacques de Vitry, op. cit, p 50.

(٥) Prawer. Latin Kingdom, p. 257.

(٦) زابوروف، صليبيون، ص ١٦١؛ داهموس، سبع معارك، ص ١٠٨؛ Robbin Fedden, Syria "Historical Appreciation", Robart Hale Limited, London, 1946, P. 197.

التيوتون (Teutonic Knights) والتي ظهرت كاحدى نتائج الحملة الثالثة على فلسطين بعد العام ٥٨٦هـ/١١٩٠م[١] فبعد إحتلال عكا إستقرت هذه الطائفة المكونة من الألمان في المدينة وأنشأوا مستشفى خاصاً لرعاية المرضى والجرحى للتخفيف عن السكان، وكان ذلك بموجب مرسوم خاص صدر من البابا[٢] وفي العام ٥٩٢هـ/١١٩٦م. أصبحت لهذه الفرقة نظامها الخاص بها مَثَلها مَثَلْ الاسبتارية والداوية. بحيث شاركت في أعمال الدفاع عن المملكة بعد إنشائها لبعض القلاع حول منطقة عكا.

- دور منظمات الفرسان في بناء وتحصين القلاع والحصون :

لم تقتصر مشاركة المنظمات العسكرية الاسبتارية والداوية والتيوتون على الأعمال المدنية والادارية بل تعدتها إلى الأعمال الحربية والعسكرية كما رأينا. مع الملاحظة أن فرسان التيوتون ظهروا في فترة متأخرة من القرن السادس الهجري / الثاني العشر الميلادي.

واذا كانت مشاركة هؤلاء الفرسان في حماية الكيان الفرنجي يعد من الأعمال العسكرية فإن هناك مشاركة أخرى تعتبر الدعامة الأساسية التي جعلت هذا الكيان يستمر وجوده لفترة أطول، ويتمثل ذلك بالدور الذي قامت به جماعات الفرسان في إقامة واعادة بناء وتحصين العديد من القلاع والحصون في معظم أنحاء فلسطين[٣].

ولما كنت قد بسطت سابقاً جهود ملوك بيت المقدس في بناء وتحصين القلاع لحماية المملكة اللاتينية من الهجمات الاسلامية في الشمال والجنوب، وبعد أن استقرت هذه الفرق، حصلت على بعض القلاع من ملوك بيت المقدس ومن الأمراء الاقطاعيين سواء بالمَنْح أو الشراء ذلك أنهم الجهة الوحيدة التي تملك القوة على

---

(١) Indrikis, Sterns: "The Teutonic knights in the crusader states" setton Vol.V, 1985, p 320;

مكسيموس، تاريخ الحروب، ج١، ص ٢٠١.

(٢) شاوندر، صلاح الدين، ص ٢٩٢-٢٩٣؛ Smail, Op.cit, P57; Jacques de vitry op. cit, p 54.

(٣) Eldenberg. op. cit, p 292.

حمايتها والاحتفاظ بها والاستقرار فيها[1] ولهذا فقد اغدق ملوك بيت المقدس والحجاج والبابوات والتجار عليهم الأموال والهبات، مما مكنهم من بناء العديد من الحصون في مختلف الامارات الفرنجية في بلاد الشام.[2] ويعود الفضل في النجاح العسكري الذي حققته المملكة هو إعتمادها على هذه الفئة من الفرسان الذين كان لهم الدور الرئيس في تثبيت وجودها في المشرق، ولولا هذه المنشآت العسكرية التي أقيمت ما تحقق ذلك النجاح[3].

وقد اتخذت الواجبات التي قامت بها حاميات المنظمات العسكرية للقلاع الحدودية في مشاركة الحكام في الدفاع عن المملكة خاصة في الأزمات العسكرية عندما كانت تتعرض إلى الغارات الاسلامية، أو في المشاركة الفعلية في المعارك ضد المسلمين،[4] كما ساعدت هذه الجماعات في ترسيخ دعائم الحكم الفرنجي باعتبار أن القلاع مراكز ادارية واجتماعية واقتصادية إضافة الى كونها مراكز عسكرية.

وكانت هذه القلاع بما تحويه -في الثلث الأول من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي يشرف عليها الأمراء الاقطاعيون الكبار الذين أسهموا في ارسال الحملات الفرنجية الأولى، ولكن مع بداية العقد الرابع من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي حدث تحول في ملكيتها بسبب اتساع نطاق العمليات الحربية بين المسلمين والفرنج، بحيث آل حفظ القلاع والدفاع عنها إلى رجال المنظمات العسكرية[5] لقوتهم من جهة، ولشرائهم للبعض الآخر من جهة أخرى

---

(١) داهموس، سبع معارك، ص١٠٩؛ Bradford,op.cit p 133; Fedden and thombson op.cit,p70.

(٢) مصطفى، فلسطين، ق٢، م٢، ص ٢٧٣-٢٧٤؛ سميث، الاسبتارية، ص٥٨.

(٣) سميث، الاسبتارية، ص١٢٨.

(٤) سميث، الاسبتارية، ص ٦١.

Prawer, Latink Kingdom, p 265. Theodrich : Description of the Holyland. trans : abury stewort. In : P.P.T.S. Vol : V. London, 1896, p 22, 32.

(٥) زكي، عبدالرحمن «القلاع في الحروب الصليبية» المجلة التاريخية المصرية، مجلد ١٥، القاهرة ١٩٦٩م، ص ٦٨، وسيشار له : زكي، القلاع؛

Smail. op. cit, p 56; Wize, op. cit, p 101; J. Prawer : Latin Kingdom, p 265.

الكثير من الامتيازات من أراض وأموال من الأسياد الاقطاعين والملوك إذ إنهم ما ان جاء الربع الأخير من القرن السادس الهجري/الثاني عشرالميلادي حتى ملكوا وسيطروا على الكثير من الأراضي والقلاع[1]. بالإضافة إلى تحكمهم في شبكة الطرق والمواصلات في المملكة من خلال انتشار فرسانهم على حراستها[2].

وخلال النصف الثاني من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي شارك فرسان الاسبتارية والداوية في الكثير من المعارك ضد المسلمين في شمال المملكة، وفي حملات الملوك ضد مصر في الجنوب. وبذلك فقد أصبحوا قوة لايمكن الاستغناء عنها[3]، مما جعلها تؤثر في القرار السياسي والعسكري في المملكة وتشارك فيه أيضاً. وذلك كما يقول المؤرخ فيدن Robin Fedden فقد أكتسبوا أرضاً وثروة وسلطة[4].

وقد شكلت قوة هذه المنظمات العسكرية حجماً كبيراً في المملكة نظراً لأنها تستند في قوتها الى جيش من الفرسان الذين يتمركزون في الحصون والقلاع التي حصلوا عليها والمنتشرة في معظم مناطق فلسطين وتحتوي على مخازن للأسلحة والعتاد الحربي والعنابر (إسطبلات للخيول والمواد الأولية الأخرى)[5].

ومن خلال هذا العرض نلاحظ أن تأسيس هذه المنظمات وتحولها إلى العمل العسكري قد هيأ لمملكة بيت المقدس قوة حربية دائمة ساعدتها في حماية كيانها من القوى الاسلامية المجاورة لها.

وقبل أن ننتقل إلى مشاركة هذه المنظمات العسكرية في بناء وتحصين القلاع لابد أن نشير إلى فرقة ثالثة تأسست في فلسطين وهي فرقة الفرسان

---

(١) Oldenberg, op. cit, p 292.

(٢) C.H. Lawrence. op. cit. p 169; Trace, op. cit, p 175; J.R. Smith. what were the crusades? 2nd Ed. London, 1992, p 73, 75; Terence wize, op, cit , p 101.

(٣) Smail, Op.cit., P. 55; Wize, Op,cit., P. 102.

(٤) Fedden, Syria, P. 197.

(٥) Wurzburg, Jhone, Description of the Holy land, In: P.P.T.S, Vol V, London, P. 310.

بسبب غناهم، حيث استطاعت فرقة الاسبتارية الحصول على معظم قلاع فلسطين ويليها فرقتا الداوية والتيوتون. وقد وصل عدد القلاع التابعة للإسبتارية في بلاد الشام إلى ست وخمسين قلعة، في حين كانت خمس وثلاثون قلعة تابعة للداوية، تحوي الآلاف من الفرسان.(١)

ومن خلال النظر إلى هذه الأعداد نلاحظ أن الفرسان الاسبتارية قد تفوقوا على نظرائهم الداوية في حصولهم على القلاع، وبالتالي فقد لعبوا دوراً أكبرفي الصراع مع المسلمين وفي أعمال البناء والتحصين، وفي حصولهم المبكر على القلاع.

وقد مرت عملية بناء وتحصين القلاع بشكل عام بفترتين: الأولى في النصف الثاني من القرن ٦هـ/ ١٢م، والثانية في النصف الأول من القرن ٧هـ/١٣م. وذلك بسبب قيام صلاح الدين بتدمير معظم القلاع في فلسطين بعد معركة حطين.

وقد قام الاسبتارية بعد أن منحوا قلعة بيت جبريل من قبل الملك فولك الأنجوي (Fulk de Anjou) في العام ٥٣١هـ/١١٣٦م. بإضافة برج لها، وذلك من أجل زيادة مهام الدفاع عن القلعة، وحراسة السكان الذين حولها في المستوطنة وعملوا نفس الشيء مع قلعة عقربلا (كفر بلا)(٢) القريبة من قلعة كوكب الهوى. كما قاموا بإضافة برج قوي على أسوار عسقلان في العام ٥٨٣هـ/١١٨٧م وبرج على قلعة يافا(٣) في العام ٥٩٠هـ/١١٩٤م وبعد أن استولى عليها الفرنج في الحملة الثالثة قام

---

(١) Malcolm Barber. Supplying the Crusader States : "The role of the Templers". In : The Horns of Hittin. Edited by : B.Z. Kedar. Yad Izhak ben-zvi. Jerusalem, 1987, p 315; C.H.Lawrence, op. cit, p. 173. sire. op. cit p. 22.

(٢) سميث. الاسبتارية، ص١٤٢؛ J. Prawer. Latin Kingdom, p 265 .

(٣) قلعة يافا : تقع على ساحل البحر. وهي قلعة شاهقة في الهواء، احتلها الفرنج عام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م وقام بتحصينها الأمير تانكرد عام ٤٩٣هـ/١١٠٠م. استولى عليها صلاح الدين عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م ثم استولى عليها ريتشارد (قلب الأسد عام ٥٩٣هـ/١١٩٧م) في الحملة الثالثة، وقام الملك فريدريك بتحصينها ثم لويس التاسع حتى حررها الظاهر بيبرس في العام ٦٦٤هـ/١٢٦٦م.
(Ayyubids, Manlukes and Crusades) selections form (Terikh al -Duwal wa'l-Muluk of Ibn-Al-Furat) edited by J.R Smith Heffer and Sons, Ltd combridge, 1971, p 134-135.

الاسبتارية بالشروع في ترميمها وتحسين تحصيناتها[1] كما أنهم شاركوا في تحصين قلاع بانياس وهونين في العام ٥٥٢هـ/١١٥٧م لحمايتها من الهجمات الدمشقية[2]. اضافة إلى ذلك قاموا بتحصين قلعة قيسارية في الأعوام ٦١٤هـ/١٢١٨م و ٦٤٩هـ/١٢٥١م خلال الحملة الخامسة والسابعة على مصر. وفي العام ٦٥٣هـ/١٢٥٥م حصلوا على قلعة جبل طابور التي دمرت من قبل المسلمين في العام ٦١٤هـ/١٢١٨م وأعادوا بنائها ووضعوا فيها حامية مكونة من أربعين فارساً لحمايتها[3]. وكان لهذه القلعة بالذات دور في السيطرة على الأراضي الواقعة شرقي إقليم الجليل.

أما فرقة الداوية فقد ذكرنا أن عدد قلاعهم في سوريا وفلسطين كان في حدود خمس وثلاثين قلعة تميزت بالضخامة والقوة وكانت تحتوي على المستودعات والأملاك الواسعة.[4]

وقد بدؤا بملكية القلاع في سوريا منذ العام ٥٣٢هـ/١١٣٧م وفي فلسطين منذ العام ٥٤٤هـ/١١٤٩م. وشاركوا في تحصين بعض المدن الرئيسية مثل بيت المقدس وقيسارية وعكا وغيرها، كما زودوا المملكة بالفرسان والعتاد بحيث أصبحت هذه القلاع مراكز للتجنيد وقواعد للانطلاق عند مهاجمة اعدائهم[5] كما أنها لعبت دوراً في حماية وحفظ المملكة، وقد شارك فرسان الداوية في بناء وتحصين العديد من القلاع مثل حصن بيت الأحزان الذي أقيم في زمن الملك بلدوين الرابع (Baldwin IV)في العام ٥٧٤هـ/١١٧٨م لحماية الحدود الشمالية للمملكة اللاتينية، وذلك بمنع أي محاولة من جانب صلاح الدين للتقدم والهجوم على المملكة. وقد وضعت حامية من الفرسان الداوية لحراسة هذا الحصن[6].

---

(١) مجهول، التتمة، ص١٠٦؛ سميث، الاسبتارية، ص ١٤٠.

(٢) J. Prawer : Latinkingdom, 265.

(٣) Barber, op. cit, p. 315.

(٤) Barber op. cit, p 315. Theodrich, op. cit, p 32.

(٥) Barber op. cit, p 320; Adison, op. cit. p 85.

(٦) Adison, op. cit, 124.

وفي العام ٦٣٨هـ/١٢٤٠م عادت قلعة صفد للفرنج بموجب الاتفاقية التي عقدت بين الفرنج وملك دمشق الصالح اسماعيل[١]. وقد استلمها الداوية وهي خراباً منذ معركة حطين ثم أعادوا بناءها وتحصينها بحيث شارك في بنائها حوالي ١٢٠٠ عامل وعبد من المسلمين[٢] وبقيت حصناً قوياً حتى سقطت على يد الظاهر بيبرس في العام ٦٦٤هـ/١٢٦٦م. كما قام الفرسان الداوية بمشاركة الفرسان التيوتون بتشييد القلعة الضخمة والقوية في عتليت على انقاض قلعة قديمة الى الجنوب من حيفا على الساحل الفلسطيني في العام ٦١٤هـ/١٢١٨م. وكان الهدف من بنائها ضمان استمرار تدفق الامدادات إليهم[٣].

وقد شارك الفرسان التيوتون الاسبتارية والداوية في بناء وتحصين القلاع بعد تأسيس منظمتهم واستقرارهم في عكا في العام ٥٨٧هـ/ ١١٩١م كما شاركوا الطوائف الأخرى في العمليات العسكرية ضد المسلمين وخاصة في الحملة الخامسة على مصر في العام ٦١٤هـ/١٢١٧م، وفي العام ٦٢٥هـ/١٢٢٨م حصلوا على الدعم من الملك الفرنجي في بناء قلعة القرين (Montfort) ومعناها «القصر الجديد» والتي تقع الى الشمال الشرقي من مدينة عكا في الجليل[٤].

كما شارك الفرسان التيوتون في اعادة تحصين قلعة قيسارية الساحلية في العام ٦٢٦هـ/١٢٢٨[٥]. ومن أعمالهم التحصينية الأخرى قيامهم ببناء بعض القلاع الصغيرة حول عكا للدفاع عنها مثل قلعة جدين (Juddin) التي تبعد مسافة ثلاثة

---

(١) الصالح اسماعيل : ابن الملك الكامل الايوبي (ت ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م). تولى امارة دمشق بعد أبيه وكان متقلب الاطوار والأحوال، وكانت بينه وبين الصالح أيوب ملك مصر منافسات شديدة وحروب انتهت باحتلال ملك مصر لدمشق. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، م٧، ص ١٩١.

(٢) Adison, Op. cit, 165-166.

(٣) العسلي، فن الحرب، م٤، ص ٥٢٩؛ رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٢٧٥؛ Fabri, op. cit, p 354.

(٤) حسين، حسين عبدالوهاب، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي المقدسة (٥٨٦-٦٩٠هـ/ ١١٩٠-١٢٩١م). القاهرة : دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩، ص ١٩٠ وسيشار له، حسين، تاريخ جماعة التيوتون؛ Smail, op. cit, p 57.

(٥) عاشور. الحركة الصليبية، ج٢، ص ٩٦٠.

أميال عن قلعة القرين، وقلعة الملك (Castelum Regis) وذلك في العام ٦٢٦هـ/١٢٢٩م، وتقع هاتين القلعتين الى الشمال الشرقي من عكا حول القلعة الرئيسية القرين[١].

وملخصه أن الظروف العسكرية التي رافقت الغزو الفرنجي فرضت مشكلة كبيرة للفرنج تتمثل في تثبيت وجودهم في المشرق الإسلامي خاصة وأنهم غرباء عن المنطقة. فمنذ أن وطئت أقدامهم المنطقة ووجهوا بمقاومة من قبل السكان لأنهم حاولوا السيطرة على الأرض والانسان معاً فكان تخيّر المواقع الاستراتيجية لبناء القلاع أحد الخيارات المهمة للسياسة العسكرية الافرنجية، فقد استطاع الفرنج بعد الحملة الأولى إقامة عدة دويلات في بلاد الشام. وقد واجهت هذه الكيانات منذ البداية مشكلة العمق الاستراتيجي اذ لم يتعد عرضها في أغلب الأحوال من ٥٠-٧٠كم وطولها حوالي ٣٧٠كم[٢]. كما أنها كانت دائماً معرضة للهجوم من قبل المسلمين بسبب العلاقات العدائية التي اتسمت بين الطرفين.[٣]

وحتى يستطيع الفرنجة مواجهة تلك المشكلة فقد أولوا للموقع الجغرافي أهمية خاصة عند بناء قلاعهم التي حمتهم من أعدائهم وشكلت تهديداً متواصلاً ومباشراً لهم. ولهذا فقد اختاروا المواقع التي يتوفر فيها المميزات العسكرية المناسبة لغرض الدفاع عن أنفسهم. ولهذا فقد بنى الفرنج سلسلة قلاعهم بمحاذاة الطرق الرئيسية لغرض تحقيق الأمن والنظام في المنطقة التي يتواجدون فيها[٤].

ومن خلال القاء نظرة لخريطة المنطقة التي أقيمت فوقها القلاع يتبين لنا أنها شيدت فوق قمم الجبال المرتفعة[٥] أو التلال العالية التي تتميز بالوعورة وصعوبة الوصول إليها، حتى يستطيعوا من خلالها مراقبة تحركات خصومهم[٦].

---

(١) Indrikis, op. cit, Vol.V, p 344, 354; Boase : Castles and churches in the crusading kingdom, Oxford University press, London, N.Y. 1967, p 64.

(٢) Fedden and thombson, op. cit, p 14.

(٣) Pernoud, op. cit, p 121.

(٤) Ibid, Op. cit, p 149.

(٥) زكي، القلاع. ص ٦٥؛ رنسيمان : الحروب الصليبية، ج٣، ص ٦٣٢؛ Fedded, Syria, p 199 .

(٦) Pernoud, Op. cit, p 149.

فمثلاً كان اختيار مواقع قلاع يبنه (Ibelin) وتل الصافية (Blanche Gard) وبيت جبريل (Beth Gibelin) على مسافات متقاربة حتى يسهل الاتصال بينها، حيث أنها أقيمت في دائرة لاتتعدى الخمسين كيلو متر مربع بحيث أن هذه القلاع قد شكلت خطراً حقيقياً على عسقلان ورأينا النتيجة في احتلال المدينة بمساعدة تلك القلاع[1].

كما عمدوا خلال بناء القلعة احاطتها بالأسوار العالية، التي تتميز بالسُمك والطول حتى يتمكنوا من مقاومة اي هجوم مباغت تتعرض له القلعة.[2] ولم يحقق الموقع أغراض الأمن والدفاع للفرسان والجنود بل تعداه أيضاً الى توفيرا لحماية للمزارعين والفلاحين المقيمين حول القلاع وحراسة أراضيهم والمناطق المجاورة لها كما في قلعتي بيت جبريل وبيسان[3].

كما انتشرت بعض القلاع الفرنجية بالقرب من منابع الأنهار كالليطاني والأردن، وذلك لأغراض مراقبة تحركات الجيوش والسيطرة على مصادر المياه لأغراض الري والفلاحة كما في قلعة بيت الأحزان[4]. ومن الأمثلة الأخرى قلعة صفد التي أقيمت لمراقبة تحركات جيوش دمشق في الشمال الشرقي للمملكة، وقلعة تبنين التي أقيمت بهدف مراقبة الطريق بين دمشق وصور. وقلعة الشوبك التي اقيمت لحراسة الطريق بين دمشق والقاهرة[5].

وقد وردت الكثير من الاشارات عن أهمية الموقع الذي أنشئت عليه القلاع من خلال وصف بعض الرحالة الأوروبيين الذين زاروا المنطقة خلال فترة الحكم الفرنجي، فقد وصف سايلوف (Saiwolf) موقع قلعة جبل طابور وأهميته «وتقع وسط جبل كثير العشب والأشجار ويرتفع وسط سهل الجليل...»[6]. أما بورشارد

(١) Pernoud, Op. cit, p 149.

(٢) جميعان، ميخائيل، المؤثرات الثقافية الشرقية على الحضارة الغربية، من خلال الحروب الصليبية. د.م، د.ن، د.ت، ص ٢٤١، وسيشار له: جميعان، المؤثرات؛ Wize, op. cit. p 188 .

(٣) الصوري، تاريخ الحروب. ج٢، ص ٢١١؛ ماير، الحروب الصليبية، ص ١٣٦.

(٤) زكي، القلاع، ص ٤٩.

(٥) الصوري، تاريخ الحروب، ج٢، ٢٦٨؛ Pernoud, Op. cit, p 151 .

(٦) Saewulf : op. cit, p 25.

(Borchard) فقد وصف قلعة الفوله (Al-Fula) بقوله «وتشرف على بحيرة طبرية ونهر الأردن من الشمال ومن الجنوب تشرف على نابلس والسامرة...»[1] كما وصف موقع قلعة عتليت (Atlit) بأنها محمية من ناحية البحر من الشمال والغرب. وأما فيتلوس (Feutlus) فقد ذكر بأن قلعة بانياس (Banais) تقع على حافة جبل لبنان[2].

ومن خلال هذا الوصف نرى أن الفرنج قد أولوا للموقع الجغرافي لقلاعهم وحصونهم أهمية خاصة، بحيث أنها تتركز في مناطق ذات أهمية، استراتيجية لحماية الكيان الفرنجي من أعدائهم.

كما تحدث عن أهمية الموقع الرحالة والجغرافيون العرب وذكروا أن الفرنج اختاروا بناء قلاعهم في مواقع تشرف على المناطق التي حولها وتتحكم في الطرق الرئيسية، فهذا ابن جبير يصف حصن الزيب الذي يسميه الفرنج حصن إمبرت (Castle Impert) بقوله «وفي الطريق من عكا إلى الشمال حصن يطل على قرى وعمائر متصلة»[3].

أما شيخ الربوة الدمشقي. فقد وصف موقع قلعة صفد الاستراتيجي بقوله «حصن بقبة جبل كنعان وهو حصن منيع». كما أنه يصف قلعة القرين بقوله «وهي قلعة مليحة منيعة بين جبلين»[4].

وكان الفرنج قد تأثروا بأساليب المسلمين والبيزنطيين من خلال ما شاهدوه من مواقع القلاع الإسلامية والبيزنطية أثناء تجوالهم بالشرق، وبنوا قلاعهم وحصونهم على منوالها. وذلك أنهم كانوا يفتقرون الى القوة البشرية، فكان لابد من اختيار المواقع الاستراتيجية المناسبة لتلك القلاع التي جعلوها بالغة القوة والمناعة[5].

---

(١) بورشارد، الأرض المقدسة : ص ٩٨.

(٢) Fetelus : Desctiplions of Jerusalem and Holyland. In: p.p, Ts, vol.V London 1892, p 24.

(٣) ابن جبير، الرحلة، ص ٢٧٦.

(٤) شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٢١٠، ٢١٨.

(٥) جميعان، المؤثرات الثقافية، ص ٢٤١.

وقد حقق اختيار الموقع الجغرافي والاستراتيجي المناسب للقلاع الفرنجية التي انتشرت في بلاد الشام عامة، وفلسطين خاصة، مزايا عديدة، كان أهمها تثبيت وجودهم في المنطقة لفترة أطول، حالوا فيها دون قيام أي وحدة أو ارتباط بين طرفي المقاومة، الشام ومصر[1] كما أنهم ضمنوا سيطرتهم على طرق التجارة والمواصلات بين مصر والجزيرة العربية والشام. وذلك من خلال القلاع المنتشرة في الجنوب والشرق. أما القلاع الشمالية لفلسطين فقد حقق موقعها المتميز سيطرة فرنجية على منطقة وادي الأردن ومخاضاته الممتدة من بانياس شمالاً حتى بيسان جنوباً، وفي الطرق الممتدة ما بين دمشق واقليم الجليل حتى الساحل الشمالي لفلسطين[2]

(١) غوانمه، امارة الكرك، ص ٦٢؛ الحياري، صلاح الدين، ص ٤٢.

(٢) ماير، الحروب الصليبية، ص ١٣٧؛ J. prawer ... Historie de Royame VI. p 332 .

الفصل الثالث

القلاع الصليبية في شمال فلسطين

طبيعتها ودورها «التأثر والتأثير والدور»

١- مفهوم القلاع وتطورها

٢- أسباب وأهداف بناء القلاع الفرنجية

٣- خصائص القلاع الفرنجية

٤- التأثيرات البيزنطية والإسلامية على العمارة العسكرية الفرنجية

٥- الاتصال بين القلاع

٦- ادارة القلاع

٧- أنواع القلاع

٨- الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية داخل القلعة الفرنجية

مفهوم القلاع وتطورها

كانت القلاع والحصون المنتشرة على إمتداد أراضي الشام. موضع عناية الكثير من المؤرخين والباحثين وعلماء الآثار والمهندسين العسكريين. فقد أجريت عليها أعمال الحفر والتنقيب ووضعت حولها الدراسات والأبحاث.

تعريف القلعة والحصن :

القلعة : (Castle) لغة بتحريك القاف واللام والعين : هي الحصن الممتنع في جبل وجمعها قِلاع وقِلَعٌ وقلوع[1]. والقلعة بسكون اللام أيضاً : هي الحصن المشرف.[2]

أما الحصن (Fortress) فهو ليس فقط القلاع الشامخة فحسب، بل أيضاً المطامير والجبال والمدن والخنادق، وكل ما يشابهها من حصون ومعاقل[3].

وقد ورد تعريف القلعة (Castle) في الموسوعة الأمريكية (American Encyclopedia) بأنها : قرى محصنة المباني. ويعود أصلها إلى الكلمة اللاتينية (Castellum) [4]. بينما ورد تعريفها في الموسوعة الاسلامية (E.I) بأنها الحصن (Fortress) وهي مشتقة من الكلمة الأسبانية (Cala - Alcal'a) التي أطلقت على

---

(١) ابن منظور، أبي الفضائل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/١٣١١م). لسان العرب، بيروت، دار صادر (د.ت). ج٨، ص ٢٩٠، مادة قَلَعَ. وسيشار له: ابن منظور. لسان العرب؛ الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ/١٤١٤م). القاموس المحيط، تحقيق : مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة. بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٤، ١٩٩٤م، ص ٩٧٥، مادة قَلَعَ، وسيشار له. الفيروز أبادي، القاموس المحيط.

(٢) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. القاهرة: دار التحرير للطبع والنشر (عن طبعة بولاق). ١٨٥٣م. ج٢، ص ٢٥. وسيشار له: المقريزي، المواعظ والاعتبار.
ومن معاني القلعة أيضاً : النخلة التي تجتث من أصلها قلعاً أو قطعاً وكذلك الصخرة العظيمة تنقلع عن الجبل صعبة المرتقى. ابن منظور. لسان العرب، ج٨، ص ٢٩٠، مادة قَلَعَ.

(٣) ابن منكلي، جلال الدين بن نظام الدين بن يوغا المصري (ت ٧٨٤هـ/١٣٨٢م). الأدلة الرسمية في التعابي الحربية. حققه وكتب مقدمته : محمود شيت الخطاب. بغداد. المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٨، ص ٢٠٦. وسيشار له: ابن منكلي، الأدلة الرسمية.

(٤) The Encyclopedia of Americana. Crolier cooparation, Danbury. Vol. 5, 1986, p. 786.

شبه الجزيرة الأيبيرية والتي تضم أسبانيا والبرتغال، وعرفت لدى المسلمين باسم القلاع (Al-Kila) [١].

أما في الموسوعة البريطانية (Enc. of Britanica) فقد عرفت القلعة (Caslte) بأنها معقل العصور الوسطى الأوروبية التي كانت مكاناً لسكن الملك أو اللورد في الإقليم الذي كانت توجد فيه[٢]. وفي المعاجم الإنجليزية ورد تعريفها : بأنها مجموعة من الأبنية المحصنة الضخمة ذات أسوار سميكة وأبراج محصنة للدفاع عنها ضد هجمات أعدائها[٣].

والكملة الفرنسية المرادفة لكلمة (Castle) بالانجليزية هي (Chateau) والتي تعني بيتاً كبيراً أو قصراً في القرية وليس قلعة فقط.[٤]. وقد فسّرت القلعة أو الحصن على أساسين: الأول عسكري بمعنى المكان المحصن المعد للدفاع عن منطقة ما وحمايتها من الأعداء، والثاني مدني باعتبارها المكان المخصص للسكن[٥].

وبهذه المعاني فإن القلعة والحصن ترمز إلى القوة التي أبدعها الفكر الإنساني في تسخير الطبيعة لحماية نفسه من الأخطار الخارجية التي قد يتعرض لها، وتأمين الظروف المناسبة للصمود والاستمرار في الحياة.

والواقع أن فكرة بناء القلاع والحصون قديمة[٦]. فقد توالت الشعوب والحضارات على بنائها منذ القدم بدءاً بالفراعنة وانتهاءً بالرومان.

---

(١) The Encyclopedia of Islam (E.I) Edited by : B.Lewis and others. Liden E.T. Bmill. Vol : 4, 1978, p 467.

(٢) The New Encyclopedia Britanica, Edited by : Philip W. Goetz Vol : 2.15th edition, 1990, p 936.

(٣) Oxford English Dictionary, Clarendon Press. Oxford, Vol : 2C. 1970, p 162. The World Book Encyclopedia Dictionary. Doubleday and eompany, U.S.A. Vol : I (A-R). 1963, p 301.

(٤) Enc. of Americana, Vol : 5- p 786/ R. Allen Brown. Castles From the air, Combridge University Press, Combridge, 1989, P2.

(٥) Benvensiti. op. cit, p 277. D J, cathecart, king. The castles in England and wales, croom Helm, London and Sydney, 1988, p.1.

(٦) من الملاحظ أن التحصينات قد نشأت منذ آلاف السنين. فقد كشفت الحفريات في مصر الفرعونية عن وجود آثار ملكية محصنة بالأبراج، في بيوت الطبقة الحاكمة. وباتساع مملكة =

أما العرب فهم كغيرهم من الشعوب والحضارات اهتموا بانشاء التحصينات قبل سيطرتهم على البلاد الخاضعة التي خضعت للرومان. إذ لا تكاد تخلو مدينة أو ثغر من الثغور في الجزيرة العربية من قلعة أو حصن منيع. ففي أقصى الجنوب في حضرموت إلى قلب الجزيرة في الشمال نهضت القلاع العربية الشامخة والحصون. يمر بها الحجاج والرواد بأمان وسلام. كما أن تلك القلاع كانت مخصصة لحماية البلاد من الغزوات الخارجية، ومن أشهر تلك القلاع قلعة يانت (ينت) وحصن الغراب وقلعة معين في اليمن(١).

وعندما بزغ نجم الإسلام تحت راية محمد صلى الله عليه وسلم لم تكن في مدن الجزيرة العربية كالمدينة والطائف ومكة قلاع منيعه، اللهم بعض الحصون والمعاقل الصغيرة في المدينة وخيبر. وفي السنة الخامسة الهجرية / ٦٢٧م، وجد المسلمون أنفسهم مضطرين لأول مرة إلى الالتجاء لنوع من التحصين المتمثل بحفر خندق حول المدينة المنورة(٢).

وفي حصار الطائف عام ٧هـ/٦٢٩م، وجدنا المسلمين يجلبون لأول مرة

= الفراعنة قاموا بتشييد بعض الحصون وأحاطوها بالأسوار الضخمة. كما اهتم الآشوريون بتحصين مدنهم وأحاطتها بالبوابات والأسوار القوية وأنشأوا فوقها الأبراج لغرض المراقبة. كما أهتم الصينيون القدماء بالتحصين عند بنائهم لسور الصين العظيم لأغراض المراقبة

Enc. of Americano. Vol. 5, p 786

أما الاغريق فعززوا مدنهم بالحصون والقلاع لحمايتها وذلك في قرون ما قبل الميلاد. وقد تبعهم الكنعانيون والفينيقيون في تحصين مدنهم بالأسوار والأبراج. وفي العهد الروماني وصل فن بناء التحصينات الى درجة من التطور من خلال توسعهم في المشرق العربي، حيث عنوا بمسائل الدفاع العسكري وطوروه، وأكثروا من بناء القلاع التي تميزت بالمتانة والقوة. كما تطور فن بناء الأبراج وجرى تشييدها على أساس بروزها قليلاً عن الأسوار مع امتداداها على مسافات منتظمة. رنسيمان، الحروب الصليبية. ج٣، ص ٦٢٥– ٦٢٦؛ Enc. of Americana, op. cit, p 787.

(١) زكي. عبد الرحمن، قلاع العالم العربي في العصر الوسيط. مجلة الداره. ع ٤، م١٠، الرياض ١٩٧٦، ص ٧٧، وسيشار له. زكي. قلاع العالم العربي.

(٢) زكي، المرجع السابق، ص ٧٨.

منجنيقاً أمام الحصن الذي استسلم لهم قبل أن تبدأ تلك الآلة عملها. كذلك أفضى اصطدام جيوش العرب الفتية بالقوات البيزنطية في عهد الخلفاء الراشدين، إلى تأكدهم من أهمية وخطورة الحصون واقامة المسالح فيها، ومن ثم عنوا بدراسة فن الحصار وصناعة الآته الثقلية[1]. وهكذا بدأ المسلمون الأوائل يتعلمون فن اقامة القلاع وبناء الحصون الصغيرة، بعد أن إندثرت معظم معاقلهم العتيقة التي شيدها أسلافهم في قلب وجنوب الجزيرة العربية.

ثم بدأت مرحلة جديدة في فن البناء بقيام الأمويين بتشييد الكثير منها في بلاد الشام[2]، مثل قصر الحير[3] وقصر هشام[4] وغيرهـا، التي انتشرت في المناطق الصحراوية على طريق القوافل والبريد. بحيث تأثروا في بنائها بخصائص الحصون الرومانية وأنظمتها العسكرية، وأساليبها المعمارية، وطرز بنائها[5].

وعندما اشتد الصراع بين المسلمين والبيزنطيين بعدما انتقلت الخلافة الإسلامية إلى بني العباس، أخذ الخلفاء العباسيون يشيدون الحصون والقلاع في المناطق التي تفصل بين الدولتين والتي عرفت باسم الثغور[6]. وخاصة في مناطق

---

(١) زكي، قلاع العالم العربي، ص ٧٨.

(٢) زكي، العمارة العسكرية في العصور الوسطى بين العرب والصليبيين» المجلة التاريخية المصرية، القاهرة، م٧، ١٩٥٨، ص ١٠٧-١٠٨، وسيشار له : زكي، العمارة العسكرية.

(٣) قصر الحير : أحد القصور الأموية، بناه الخليفة هشام بن عبدالملك في العام ١١٠هـ/ ٧٣٠م. يقع بالقرب من مدينة الرصافة في الجزيرة الفراتية. إتخذه مقراً لحكومته. ويوجد قصر الحير الغربي الذي يقع بالقرب من مدينة تدمر. العابدي، محمود. القصور الأموية. عمان : مطابع الشركة الصناعية، ١٩٥٨، ص ١٠٧، وسيشار له : العابدي، القصور الأموية.

(٤) قصر هشام : قام ببنائه الخليفة هشام بن عبدالملك، ويقع في خربة المفجر بالقرب من مدينة أريحا. وهو من أعظم القصور الأموية على الاطلاق. ويتكون من عدة طوابق وتزين جدرانه الفسيفساء. العابدي، القصور الأموية، ص ٧٣.

(٥) زكي، قلاع العالم العربي، ص٨١؛ Wize, op. cit. p 187 .

(٦) الثغور : كل موقع قريب من أرض العدو. وهو مأخوذ من الثغرة، وهي الفرجه في الحائط. وانتشرت الثغور في عدة مواقع في الشام والجزيرة الفراتية والتي أصبحت على الحدود مع =

الجزيرة الفراتية والعراق الشمالي للدفاع عنها، ولتكون في مواجهة ثغور الرومان في تلك المنطقة[1].

ومع بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي أصبحت معظم مدن المسلمين أشد تحصيناً، حيث أصبحت الجدران والأسوار المحيطة بها مزدوجة السمك وتحتوي على رواق[2] ضيق (Ballary) مع نوافذ بابية (Casament) التي كان موقعها في الوجه الخارجي لمنافذ رمي السهام (Orchars)[3]، ومع نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي أصبحت القلاع محمية بنظام من البوابات التي تقع بين برجين وممر. كما ظهرت المداخل المنحنية (Bent Entrance) التي أقتبست عن البيزنطيين وتكمن فائدتها في منع المهاجمين من الوصول بسرعة إلى داخل الحصن في حالة نجاحهم في الوصول إليه[4].

ويمكن القول بأن العصر الذهبي لبناء الحصون الإسلامية، كان دون شك في عصر الأيوبيين، حيث تطورت هندسة بنائها بشكل سريع، فتم بناء العديد من القلاع في الشام ومصر مثل قلعة عجلون[5] وحلب[6]

= الدولة البيزنطية لحماية المناطق الإسلامية. وبدأ في بنائها في الفترة الراشدة، واستمر زمن الأمويين والعباسيين على حدود المملكة الإسلامية براً وبحراً. وشحنوها بالجنود والسلاح للتصدي للعدو والقيام بهجمات مضادة عليه. الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص ٩٣-٩٤.

(١) زكي، العمارة العسكرية، ص ١١٢-١١٣؛ زكي، قلاع العالم العربي، ص ٨٢.

(٢) الرواق : جناح أو قسم من الجامع، يشتمل على مجموعة من الغرف لأغراض مختلفة أهمها التدريس، كان ينفق عليه الأموال الكثيرة من الأوقاف. الخطيب، مصطفى، معجم المصطلحات والألفاظ التاريخية. بيروت : مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٦، ص ٢٣١. وسيشار له : الخطيب. معجم المصطلحات.

(٣) زكي، قلاع العالم العربي، ص٨٣.

(٤) Wize, op. cit, p 191.

(٥) قلعة عجلون: تقع فوق جبل عالٍ اقيمت في العام ٥٨٠هـ/١١٨٤م. لمراقبة تحركات الفرنج بناها عز الدين أسامه وتميز موقعها بانه استراتيجي لمراقبة منطقة وادي الأردن من طبرية حتى البحر الميت، المومني، سعد،القلاع الإسلامية في الأردن "الفترة الأيوبية والمملوكية"،عمان: دار البشير، ط١، ١٩٨٨، ص ١١٤-١١٥، وسيشار له: المومني، القلاع.

(٦) قلعة حلب : تقع على تل مرتفع بنيت زمن نور الدين زنكي، ثم ملكها صلاح الدين وأصبحت =

وبصرى[1] وقلعة الجبل.[2] كما قام الأيوبيون بتجديد بعض القلاع الأخرى. ويعود السبب في هذا التطور إلى تغير الأوضاع السياسية والعسكرية في العالم الإسلامي، إذ اشتدت مقاومة الوجود الفرنجي، مما تطلب معه بناء وتحصين القلاع من قبل الطرفين، بحيث لعبت القلاع دوراً هاماً في الصراع الفرنجي – الأيوبي.

أسباب وأهداف بناء القلاع الفرنجية

كان عنصر القوة العسكرية هي الأساس الذي استندت إليه الامارات الفرنجية، في بلاد الشام، وكانت إحدى مظاهر التعبير عن تلك القوة وعن ترجمتها، هي السيطرة على الأرض وبناء القلاع والحصون عليها. وبمجرد وصول الفرنج إلى بلاد الشام واحتلاله شرعوا في القيام بحملات واسعة لجعل دويلاتهم محصنة ضد الهجمات الإسلامية المتواصلة. وجاء بناؤهم للتحصينات استجابة لدواعي الصراع مع المسلمين. ولم يكن للفرنج خطة واضحة ومسبقة لبناء القلاع، بل اعتمدت على الظروف المستجدة وتطورات الأوضاع العسكرية وبالتالي فقد كان بناؤها لمواجهة الحاجات العسكرية الطارئة[3].

بعد أن أقام الفرنج ممالكهم وإماراتهم شرعوا بالتوسع والسيطرة على حساب الأراضي الإسلامية المحيطة بهم ضمن سياسة هدفها تقوية إماراتهم وتحصينها من ردود الفعل الإسلامية. ولهذا فقد أنشأوا منظومة واسعة من القلاع والحصون التي

= من القلاع الهامة في الشام لدورها العسكري. زكي، قلاع العالم العربي، ص ٨٦-٨٧.

(١) قلعة بصرى : تقع في البادية السورية، بناها الأيوبيون : في القرن الخامس الهجري/ الثالث عشر الميلادي. طور بنائها المعظم عيسى في نهاية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي. بزيادة عدد الأبراج فيها. زكي، قلاع العالم العربي، ص ٨٥-٨٦.

(٢) قلعة الجبل : تقع في مكان مرتفع عند تقاطع جبل المقطم في القاهرة : بناها الدين قراقواش بأمر من صلاح الدين. وتحتوي على عدة أروقة وحولها الأبراج. وبها مساكن الأمراء والقواد. العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م) «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»، «ممالك مصر والشام والحجاز واليمن»، تحقيق : أيمن فؤاد السيد. القاهرة : المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٨٥ ص ٧٩-٨٠. وسيشار له : العمري، مسالك الأبصار «مصر والشام».

(٣) J. Prawer. Latin kingdom, p 281; Wize op. cit, p 200.

انتشرت في الجبال والسهول والمخاضات والسواحل. ويمكن ربط بناء تلك التحصينات بأهداف عديدة تتعدى الجانب العسكري الدفاعي لتشمل الجوانب الاقتصادية والادارية والتي هدفت في المحصلة النهائية الى تثبيت أقدام الفرنج وإستمرار وجودهم على أرضنا العربية، على اعتبار أن تلك الأهداف متكاملة ومترابطة وتخدم الهدف النهائي لانشاء القلاع :

-فقد استخدمت كنقاط للحراسة والمراقبة أمام التهديد الإسلامي من الشمال والمتمثل بإمارة دمشق. ومن الجيوش الفاطمية في الجنوب من مصر، بهدف منع الاتصال والتنسيق بين القوتين[1] خاصة إذا علمنا أن مملكة الفرنج جوبهت بمقاومة من هذه الأطراف ليس فقط في فلسطين بل في معظم أنحاء الشام مما اضطر الغزاة الفرنج، وتحت ضغط الحاجة، لوجودهم على أرض غريبة وبعيدة عن بلادهم، إلى بناء هذه القلاع والحصون والمدن المسورة في سبيل المحافظة على ما استولوا عليه، خشية أن يسترده أصحابه الأصليون الذين أخرجوا من ديارهم. وبالتالي فقد مكنتهم هذه القلاع، من وضع خصومهم تحت رقابتهم المستمرة على طول الشريط الذي تمتد عليه الدويلات الفرنجية من أعالي الفرات شمالاً حتى البحر الأحمر جنوباً[2].

- كما ساعدت هذه القلاع في نفس الوقت على تسهيل سيطرة الفرنج على المناطق التي لم يستولوا عليها في الحملة الأولى، وجاء بناؤها لحماية إماراتهم الناشئة وتوفير الأمن لها لأجل ضمان أنفسهم وممتلكاتهم من المقاومة الإسلامية[3]، ذلك أن ممالك الفرنج بحدودها وامتدادها لم تتمتع بعمق استراتيجي، إذ أنها إمتدت بشكل طولي يتراوح ما بين ٤٠٠-٥٠٠كم من الشمال إلى الجنوب في حين

(١) زكي، القلاع، ص ٤٩؛ لامب، هارولد، شعلة الإسلام، «قصة الحروب الصليبية»، ترجمة : محمود عبدالله يعقوب، بغداد : مكتبة دار المتنبي، ١٩٦٧، ص ٩٣. وسيشار له : لامب، شعلة الإسلام؛ Benvensiti, op. cit, p 291.

(٢) مولر، فولفغانغ، «القلاع أيام الحروب الصليبية». ترجمة : وليد الجلاد، مجلة تاريخ العرب والعالم، السنة السادسة، ع ٧٠، بيروت، ١٩٨٤، ص ٨٥. وسيشار له مولر : مقالة القلاع. رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٦٢٢.

(٣) زابوروف، صليبيون، ص ١٣٩؛ Wize. op. cit, p 200; Cathecart King, op. cit, p 11 .

أن عرضها يتراوح ما بين ٥٠-٧٠كم. وبالتالي فقد كانت بهذا الشكل معرضة للهجوم دائماً من جانب القوى الإسلامية المحاذية لها شرقاً وخاصة حلب ودمشق وحمص التي تميزت بقلاعها القوية(١). ذلك أن النظرية العسكرية آنذاك تقول : «في أوقات الحرب فإن اقتحام منطقة معينة، كان يتطلب احتلال قلاعها وإذا أراد الغازي أن يثبت وجوده ويضمن سيطرته على أية منطقة، فعليه احتلال قلاعها(٢). وقد رأينا أن الفرنج لم يتمكنوا من احتلال القلاع التي تقع في المدن الإسلامية المحاذية للشريط الساحلي؛ ولهذا السبب فقد عوّض الفرنج عن ذلك، ببناء المزيد من القلاع المقابلة لها على الساحل.

- كما كانت تلك القلاع، وعلى الدوام قواعد هجومية، بحيث كانت مصممة لتكون مرتكزاً للقوات الفرنجية التي تحاصر المدن الحصينة. وخطوط انطلاق للحملات والغارات السريعة في عمق الأراضي العربية(٣). فقد وصف القاضي الفاضل أساليب الفرنج القتالية وحاجتهم لبناء القلاع بقوله : «وعلم ان الفرنج قد تسللوا لواذاً، وتعللوا بالحصون احتجازاً ولياذاً، وأنهم لا يقاتلون إلا في قرى محصنة، لا يقاتلون إلا على نجاة متيقنة»(٤).

-وبهدف احتفاظ الفرنج بموطىء قدم على الساحل الشامي، كان عليهم أن يحتفظوا بسيادتهم على البحر، كوسيلة لاستمرار صلاتهم مع أوروبا، لأمدادهم بالرجال والعتاد والمؤن. وحتى يتحقق هذا الهدف، كان عليهم إقامة التحصينات الساحلية لكي ينطلقوا منها في عملياتهم ضد المسلمين، ولذا فقد قاموا بتحصين مدن صور وصيدا وعكا ويافا وغيرها عن طريق إنشاء الأبراج فيها لاستخدامها في

---

(١) مولر، القلاع، ص ٩؛ Fedden and Thombson, op. cit p 14, 15 .

(٢) Benvensiti, op. cit, p 277.

(٣) الصوري، تاريخ الحروب، ج٢، ص ١٣١؛ مولر، مقالة القلاع، ص ٨٦؛ سميث، الاسبتارية، ص ١٣٨.

(٤) أبو شامه المقدسي، شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٥م). الروضتين في أخبار الدولتين «النورية و الصلاحية) تحقيق : محمد حلمي أحمد. بيروت : دار الجيل (د.ت). ج٢، ص ٢٨، وسيشار له : أبو شامه، الروضتين.

مراقبة الساحل وحمايته[1]، كما قاموا في الوقت نفسه بإنشاء العديد من القلاع الأخرى.

ـ ونظراً لإفتقار هذه الإمارات للعنصر البشري الكافي للدفاع عنها فقد أصبحت الحاجة ملحة لإقامة التحصينات للاحتفاظ بما تم الاستيلاء عليه من أراض، وذلك لأن معظم الجيش الفرنجي الذي شارك في احتلال فلسطين قد عاد أدراجه إلى أوروبا لاعتقادهم أن الهدف من الحملة انتهى بمجرد احتلال القدس[2]، ولهذا فقد أصبحت المملكة تعاني من نقص شديد في عدد المحاربين اللازمين للدفاع عما حققوه أمام «أعدائهم»[3]. ولم يكن هناك من طريقة سوى مضاعفة الجهود لبناء شبكة من الحصون والقلاع في معظم أنحاء بلاد الشام، وخاصة الجهات الغربية، منها كوسيلة للتعويض عن النقص في الكوادر البشرية العسكرية. ويشير وليم الصوري إلى ذلك بقوله : «ورأينا أننا إن أقمنا قلاعاً، وجهزناها بمزيد من الجند الذين نجمعهم من شتى أرجاء تلك النواحي، كنا أكثر استعداداً لصد هجمات الأعداء[4].

– وعلى صعيد آخر، ولما كان الفرنج قد جاؤوا من أوروبا التي يسود فيها النظام الاقطاعي[5] حيث أن القلعة في أوروبا الإقطاعية كانت مقراً للسيد الإقطاعي والمركز الإداري الذي تدور حوله الحياة العامة، ومكان جمع الضرائب بالإضافة إلى

---

(١) زكي : القلاع، ص ٥٤.

(٢) Fedden and Thombson, op. cit, p 16, 19. Fink, op. cit, p 375.

(٣) زكي، القلاع، ص ٥٤؛ J. prawer, The world, p 121 .

(٤) الصوري، تاريخ الحروب، ج٣، ص ١٣١.

(٥) النظام الاقطاعي : ظهر هذا النظام في أوروبا في القرن الثامن الميلادي. ونما في القرن التاسع الميلادي بعد أن تعرضت أوروبا الغربية إلى هجمات الفيكنج والمجريين فلجأ الأمراء والحكام إلى البحث عن اتباع مسلحين لمواجهة تلك الأخطار مقابل منحهم أراض على شكل اقطاعات، كما أدى ذلك إلى دخول صغار الملاك في حماية الأمراء مقابل تسليمهم أراضيهم، ويصبح بذلك تابعاً إقطاعياً. وكان الملك يقوم بتوزيع الأراضي على الملتزمين الصغار مقابل التزامات معينة لسيدة بتقديم الفرسان وأداء الخدمة العسكرية وحراسة قلاع سيده والمحافظة عليها. عاشور، سعيد، أوروبا في العصور الوسطى، القاهرة، مكتبة الأنلجو المصرية، ج٢، ١٩٨٠. ص ٢٥٨-٢٦٣، وللمزيد من التفصيلات عن تطور نظام الاقطاع وحقوقه =

كونها مركزاً عسكرياً[1]، فقد رأى الفرنج أن باستطاعتهم أن يطبقوا هذا النظام في الشرق عن طريق تشييد المزيد من القلاع والحصون.

- كما اعتبرت القلاع الملجأ الآمن للسكان الفرنج الذين وصلوا قبل الحملة الثانية خاصة الفرسان والمستوطنين. لذلك رافق هذا الأمر حركة بناء لقلاع جديدة بغرض إستيعاب هذه الفئات من السكان[2]. وقد ساعد هذا الأمر في فرض السيطرة وزيادة النفوذ الفرنجي على المناطق المتاخمة للقلاع[3].

- كما مارست القلاع دوراً دينياً يتمثل بحماية الحجيج الوافدين إلى الأراضي المقدسة نتيجة لتعرض طريق الحجاج والتجار الواصل ما بين المناطق الساحلية وبيت المقدس إلى الهجمات على الدوام. ولهذا قام الفرنج ببناء بعض القلاع لحراسة ذلك الطريق لتأمين وصولهم إلى أماكن العبادة في القدس وبيت لحم، ومن الأمثلة على هذه القلاع : قلعة بيت نوبة[4] (Chastel Arnold) على مشارف القدس من الغرب وقلعة اللطرون[5] (Le Torondes chevaliers) مما كان له الأثر في

= وواجباته وخصائصه الحربية والاجتماعية. انظر، عاشور، أوربا، العصور الوسطى، ج٢، ص ٢٥٥، وما بعدها.

(١) Benvensiti, op. cit, p 277, Martin Erbstosser. The Crusades, Brunel House, London, 1978, p. 104.

(٢) Erbstosser, op. cit, p 104, Fedden and Thombson, op.cit, p 15, smail, op.cit, p 89.

(٣) سميل، الحروب الصليبية، ص ٢١٠، ٢١٦؛ Brown. Castles, p 2 .

(٤) قلعة بيت نوبة : تقع إلى الشمال الغربي من القدس وترتفع حوالي ٢٥٠م عن سطح البحر. بنيت زمن الملك فولك الانجوي في العام ١١٣٣م، وذلك لتأمين طريق الحجاج بين يافا والقدس حررها صلاح الدين عام ١١٨٧م. الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٤، ص٢، ص ٥٢١-٥٢٢؛ الصوري، تاريخ الحروب، ج٣، ص ١٠٢.

(٥) قلعة اللطرون : تقع على قمة تلة مشرفة على الطريق بيت المقدس واللد المار خلال باب الواد. بناها فرسان الداوية في القرن ١٢م. استولى عليها صلاح الدين عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م، دمرت في العام٥٨٧هـ/١١٩١م.

Denys pringle. Survey of Castles in the Crusading Kingdom of Jerusalem, in : Levant, Journals of British School of Archaeology in Jerusalem, Vol : 23, Jerusalem 1991, p. 89-90.

تخفيف حدة الهجمات خاصة وأن هذا الطريق يعتبر المنفذ الوحيد لمملكة الفرنج من داخل فلسطين إلى سواحلها، وهو الطريق الرئيسي لتزويد المملكة بما تحتاجه من الموارد البشرية والمادية القادمة من أوروبا(١). وهذا يتطابق مع ما مر معنا في الفصل الثاني حول سياسة ملوك الفرنج في بناء القلاع، التي لعبت دوراً اقتصادياً بارزاً، وخاصة في تحكمها في طرق التجارة بين مصر والشام والجزيرة العربية. وبفرض الضرائب على سكان المنطقة واستغلالها اقتصادياً(٢).

خصائص القلاع الفرنجية:

انتشرت القلاع الفرنجية في شتى المناطق التي احتلها الفرنج على امتداد السواحل الشرقية للبحر المتوسط، وفي المناطق الداخلية المتاخمة لحوضه الشرقي. ويعتبر بناء القلاع ملمحاً بارزاً في فترة الحروب الصليبية التي استمرت أكثر من مائتي عام استطاع الفرنجة خلالها إقامة أربع دويلات على أرض الشام.

ولما كانت هناك حاجة ملحة للدفاع عن هذه الممالك، كانت الوسيلة المناسبة لذلك، هي إقامتهم للقلاع والحصون، لافتقار الفرنج إلى القوة الضاربة(٣). ولذلك فانهم عندما شرعوا في تشييدها اتبعوا أساليب جديدة في البناء، والهدف إضافة إلى ما اقتبسوه عن البيزنطيين والمسلمين، وكان لابد أن تكون قلاعهم بالغة القوة والمناعة ليسهل الدفاع عنها(٤). فقد أدخل الفرنج بعض التحسينات على بعض أجزاء القلعة تبعاً لتطور أوضاعهم وعلاقاتهم مع «اعدائهم» المسلمين منذ مطلع القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. بحيث أصبحت قلاعهم ذات طابع هجومي بغرض التوسع والاستيلاء على مناطق جديدة، ومن الأمثلة على ذلك؛ قلاع يبنا وتل الصافي وبيت جبريل التي أقيمت بهدف امتلاك جنوب فلسطين، وخاصة منطقة

---

(١) الصوري، تاريخ الحروب، ج٣، ص ١٠٢.

(٢) الشارتري، تاريخ الحملة، ص ٢٢٦، سميل، الحروب الصليبية، ص ٥٩.

(٣) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٦٢٧.

(٤) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٦٢٨. ماير، الحروب الصليبية، ص ٢٤٧.

عسقلان كما ذكرنا في الفصل الثاني. وقلاع الكرك والشوبك في الشرق، وكوكب الهوى، وصفد في الشمال.

كما تميزت هذه القلاع الجديدة بنمط معماري معين. حيث تألفت في الغالب من طابقين وشرفة وبرج للمراقبة (Donjon) في أقصى ركن في القلعة. حيث يكون أكثر فاعلية في الدفاع عنها[1]. وجعل الفرنج للقلعة أيضاً مدخلاً واحداً على مستوى الأرض لتسهيل الدفاع عنها. وأقاموا بعض الأبواب السرية الخلفية لتضليل المهاجمين[2]. أما أسوار القلعة فقد حرص الفرنج عن أن تكون واجهاتها مصقولة حتى يتعذر على السلالم المتحركة الارتكاز عليها، كما تميزت بسماكتها وطولها حتى تستطيع ان تصمد طويلاً فيما إذا تعرضت للهجمات، -إذ أن الدفاع عن المباني الخارجية للقلعة كان يشغل عدداً كبيراً من الرجال-، فلا تحدث فيها انهيارات أو فتحات بسبب قصفها بالمناجيق أو الدبابات أو غيرها[3]. أيضاً استخدم الفرنج في القلعة الأسياج الحديدية والمزاغل[4] (فتحات الرمي) اللازمة للرماة التي أصبحت منحنية إلى الأسفل بعد أن كانت مستقيمة، وذلك لتسهيل عملية الرمي من قبل المدافعين إلى أسفل القلعة[5].

ومن المميزات الأخرى للقلعة، اتساع مساحتها، بحيث تسمح باستيعاب أكبر

---

(١) زكي، القلاع، ص ٥٧، العمارة، ص ١٢٥. رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٦٣٠.

Sir Banister Fletchers. A History of Architecture, Athlone press, London, 18 ed, 1975, p 528.

ويسمى هذا البرج (بالنورماندي) الذي كان منتشراً في أوروبا، وقد جلبه الفرنج معهم إلى الشرق، وهو مخصص للسكن والحراسة والمراقبة. انظر: Cathcart, Op.cit, P.28 .

(٢) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٣٦٢؛ Fletchers, op. cit, p 28.

(٣) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٦٢٨، ٦٣٢. زكي، العمارة العسكرية، ص ١٢٤.

(٤) المزاغل : هي عبارة عن فتحات لإلقاء القاذورات والمواد الحارة على المهاجمين. وتتواجد هذه المزاغل في أرضية أبراج القلعة.. العبيدي، صلاح. «التراث المعماري وأثره في العمارة الأوروبية من خلال الحروب الصليبية». المورد ع٤، م ١٦. بغداد: دار الشؤون الثقافية، ١٩٨٧، ص ١٦٩، وسيشار له : العبيدي، التراث المعماري.

(٥) زكي، القلاع، ص ٦١، رنسيمان. الحروب الصليبية، ج٢، ص ٦٣٢؛ Benvensiti,op.cit, p 288 .

عدد من المدافعين ومعداتهم الحربية ومصادر التموين من حبوب وحيوانات الأكل والخيول، وحتى تتمكن أيضاً من الصمود لفترة طويلة أمام أي حصار. كما أحيطت أغلب القلاع الفرنجية بخندق (Moat) لمنع أبراج الحصار[1] الضخمة من الوصول إليها، وكذلك القوات المهاجمة[2]. وتم تشكيل هذه الخنادق عن طريق قطع الصخور المتواجدة حول القلعة. ويتراوح عمقها ما بين ستة إلى اثني عشر متراً. أما عرضها فيتراوح ما بين ثمانية إلى عشرين متراً. وقد أحيطت معظم قلاع فلسطين بهذا النمط من الدفاع مثل كوكب الهوى وصفد وعتليت وغيرها[3].

أما القلاع التي بنيت ما بعد معركة حطين وبداية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي فقد تميزت بزيادة قدرتها الدفاعية بدلاً من استنزاف القوى البشرية[4]، لقلة أعداد الفرنج من جهة وحاجتهم للدفاع عن ممتلكاتهم بعكس المرحلة التي قبلها حيث حصنت جميع المرافىء الساحلية بمنشآت دفاعية خاصة، عن طريق اقامة حصون وأبراج منيعة حولها. مثل صور وبيروت وعكا ويافا، بل تغيرت طبيعة بناء القلاع بحيث تم زيادة أبعاد القلعة. والأسوار المحيطة بها التي تعد العمود الفقري لأية خطه دفاعية فاعلة، بحيث تقاوم القصف أو اللغم (حفر الانفاق تحتها لهدمها) والزلازل، عن طريق زيادة سمكها ورقتها كلما ارتفعت[5].

ثم أن تصميم المنشآت العسكرية أصبح بنظام الاستحكامات المزدوجة، وهذا

---

(١) أبراج الحصار: عبارة عن آلة مصنوعة من الخشب ومغطاة بالحديد والجلد. وكان الغرض منها الاقتراب من الحصون والأسوار لاقتحامها وقذفها بالسهام. وكان البرج عادة يجر على عجلات أو يدفع على اسطوانات، وهو مكون من طبقات. انظر، الحسن، أحمد يوسف «التقانة في فلسطين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. واقعة ضمن كتاب: الصراع الإسلامي – الفرنجي على فلسطين. تحرير: هادية وبرهان الدجاني، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٤، ص٥٥٢، وسيشار له: الحسن، التقانة.

(٢) رنسميان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٦٢٨.

(٣) Benvensiti, op. cit, p 286.

(٤) Fletcher, op. cit, p 529. Erbstosser, op. cit, p 121.

(٥) مولر، القلاع الصليبية، ص ٢٩.

يتفق مع الأبراج الدائرية التي بنيت قرب البوابات من أجل تأمين ملجأ للفرسان في حالة اقتحام العدو للقلعة[1]. ولزيادة المناعة في تلك الأبنية في القلعة، فقد تم مضاعفة عدد الكوات[2] المستخدمة لرماة السهام فيها (Loop Holes) حيث كانت أعدادها قبل ذلك محدودة. كما تم زيادة أطوالها وأصبحت مصممة بعناية لاطلاق الأسهم[3] وجرى تعديل آخر عليها، إذ أصبحت الفتحات قريبة من مستوى الأرض عبر نطاق طولي لاطلاق السهام بقوة من مسافات قريبة[4]. كما ادخل الفرنج تعديلات على الأسوار والاستحكامات بحيث أصبحت مستدقة تدريجياً بالارتفاع ومنحدره أيضاً لمنع المهاجم من اقتحامها أو تسلقها فيما لو وصلها.

ومن الوسائل الأخرى التي طورت للدفاع عن القلعة المداخل المنحنية (Bent Entrance) لبواباتها والتي كانت تجبر القوات المعادية على اتباع طريق ضيق ومنحرف وغير مباشر عند إقتحامها للقلعة[5]. وتحتوي هذه البوابات على ثقوب عمودية في السقف يمكن من خلالها رمي السهام والسوائل الحارة على المهاجمين ومن الأمثلة على ذلك بوابات قلاع عتليت وقيسارية وكوكب الهوى[6].

وبالاضافة لذلك عدل الفرنج في شكل الأبراج أيضاً بحيث أخذت تتحول من أشكال مستطيلة إلى أشكال نصف دائرية ومثلثه بحيث يمكن الرمي منها على طول الجدران المجاورة لها لتعزيز الدفاع عنها[7].

---

(١) Cathecart, op. cit, p 78.

(٢) الكوّه: وجمعها كُوات وكُوى وهي عبارة عن الخرق في الحائط والثقب في البيت. انظر، ابن منظور. لسان العرب، مج١٥، طبعة دار الفكر، ١٩٩٠، ص٢٣٦.

(٣) مولر، القلاع الصليبية، ص ٢٩؛ E. King, op. cit, p 84; Fletchers, Op.cit, P.529 .

(٤) Cathecart, op. cit, p 78.

(٥) مولر، القلاع الصليبية، ص ٢٩؛ Fletchers, op. cit, p 529 .

(٦) Benvensiti, op. cit, p 287.

(٧) E. King. op. cit, p 83. Benvensiti, op. cit, p 288.

التأثيرات البيزنطية والإسلامية على العمارة العسكرية الفرنجية

شاهد الفرنج أثناء غزوهم لأسيا الصغرى وبلاد الشام العديد من القلاع والمدن المحصنة، التي كانت تابعة للبيزنطيين، وتتألف دفاعات تلك التحصينات غالباً من أسوار ساترة تتخللها أبراج عديدة، وتعززها خنادق أو تحصينات خارجية خفيفة. وبعد احتلال الفرنجة للمنطقة ورثوا هذه التحصينات التي لم تدمر، وقاموا باجراء بعض الإصلاحات والتعديلات عليها(١)، واتخذوها نموذجاً لهم فيما شيدوه فيما بعد. وهذه التحصينات كانت مقسمة إلى نوعين (٢). النوع الأول : الذي يتميز بالجدران والأبراج المعقدة التركيب، والتي انتشرت في مدن القسطنطينية وأنطاكية ونيقية وصممت هذه القلاع للدفاع عن مدن ذات أهمية سياسية. النوع الثاني : وهي القلاع المنفصلة المبنية في مواقع استراتيجية. وكان لهذا النوع أهمية بالنسبة للجيش البيزنطي من حيث طبيعة القتال بحيث يقاتل لفترة طويلة بأقل خسارة ممكنة(٣).

وقد استفاد الفرنج من هذه الخصائص والأساليب التحصينية البيزنطية واتخذوها هادياً لهم فيما شيدوه من تحصينات في سوريا وفلسطين بعد أن ادخلوا بعض التحسينات عليها. فقد استخدم الفرنج الأبراج في حصونهم على الأسلوب البيزنطي التي كانت مربعة الشكل ولكن بدون نتوء بارز. ونجد أمثلة لذلك في أبراج قلعة عتليت في فلسطين وقلعة صهيون(٤) في سوريا. كما تميز البرج البيزنطي (Keep) بانه كان منيعاً ويقع في وسط القلعة، وقد بنى الفرنج على نمطه

---

(١) Benvensiti, op. cit, p, 280.

(٢) Fedden and Thombson, op. cit, p 45.

(٣) Fedden and Thombson, p. 45, Erbsstosser, op. cit, p 103.

(٤) قلعة صهيون : تسمى أيضاً قلعة صلاح الدين (Saone) تقع على أحد قمم جبال النصيريه شمال شرق اللاذقية. وتحف بها الجبال الشديدة الانحدار. وهي في الأصل قلعة رومانية. احتلها الفرنج خلال الحملة الأولى، وبقيت حتى حررها صلاح الدين بعد معركة حطين عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م. ثم انتقلت ملكيتها من الأيوبيين إلى المماليك، مولر، القلاع الصليبية، ص ٥٠-٥١؛ Fedden. Syria, Op.cit, P198 .

في العديد من قلاعهم.

كما نقل الفرنج في بناء قلاعهم، عن البيزنطيين بعض عناصر التخطيط الدفاعي والتي من أهمها الأبواب السرية (postern) والمدخل الرئيسي للحصن الذي يضم منحنيين يعملان بشكل زاوية قائمة[1].

أما أسلوب البناء بالحجارة فقد اتبع الفرنج الطراز الذي اتُبع في سوريا والذي كان سائداً قبل الوجود البيزنطي، حيث استخدموا أسلوب البناء بالعقود[2] والقبوات[3] بدلاً من استعمال الخشب، وذلك بسبب ندرته. ومن جهة ثانية تأثر الفن الحربي للفرنج بما شاهدوه أيضاً من نظم ونماذج عسكرية اسلامية. واستفاد الفرنج في هذا المجال من خبرات العرب وأساليبهم في فن العمارة العسكرية فأخذوها وبنوا على شاكلتها[4].

وقد لاحظ الفرنج بعد احتلالهم للشام ان العمارة الحربية الإسلامية تفوق ما كان موجوداً في أوروبا، مع إن المسلمين حاكوا في بعض تحصيناتهم ما عرف عند البيزنطيين ثم طوروها وأضافوا عليها بعض التحسينات التي اقتضتها الظروف العسكرية[5] وانعكست هذه التطورات المعمارية على الفرنج في المشرق وعلى

---

(١) زكي، القلاع الصليبية، ص ٧٠.

(٢) العقود : مفردها عقد. وهو عنصر معماري مقوس يعتمد على نقطتي ارتكاز، يشكل عادة فتحات البناء أو يحيط بها. ويأخذ شكلين أحدهما نصف دائري. والثاني حاد الرأس من قوسين اثنين مركزهما داخل العقد ومنهما تتفرع الأنواع الأخرى وخاصة المحدب والبيضاوي والأفقي والعمودي. غالب، عبدالرحيم، موسوعة العماره الإسلامية بيروت، جروس برس، ط١، ١٩٨٨م. ص ٢٧٥. وسيشار له. غالب، موسوعة العمارة.

(٣) القبوات: مفردها قبه. وهي بناء دائري المسقط مقعر من الداخل ومقبب من الخارج تتالف من دوران قوس على محور عمودي لتصبح نصف كره. وتقام فوق الأسطح مباشرة أو ترتفع رقبة مضلعة لتسهيل الانتقال من المربع الى المثمن. غالب. موسوعة العمارة، ص ٣٠٩.

(٤) جميعان، المؤثرات الثقافية، ص ٢٤٠. النقاش، زكي. العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية. بيروت : دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، ١٩٥٨م. ص ١٦٢. وسيشار له : النقاش. العلاقات.

(٥) الحلاق، حسن. العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى «الأندلس، صقلية، الشام». بيروت : الدار الجامعية، ١٩٨٦، ص ٢٤٥، وسيشار له : الحلاق، العلاقات.

أوروبا خلال الحملات الفرنجية المتعاقبة حيث اقتبسوا بعض الأساليب عن العرب مثل : استخدامهم آلات الحصار من مجانيق[1]، وكباش[2] ودروع[3]، وسلالم وأقواس[4] وأساليب حفر الخنادق واستخدام النار اليونانية[5] وغيرها من آلات الحربية الغربية والتي استخدموها في حروبهم[6].

– ومن المظاهر الأخرى التي تأثر بها الفرنج خلال حروبهم ضد العرب المسلمين، جعلهم المدخل الحربي لباب القلعة أو الحصن متعرجاً أو على شكل زاوية قائمة حتى لا يتمكن المهاجم من اجتيازها[7] وحتى اذا تخطاها فإنه سيواجه

---

(١) المنجنيق : لفظ اعجمي معرب. وهو آله من آلات الحصار في العصور الوسطى. وقد عرفه القلقشندي بأنه آله من الخشب له دفتان قائمتان بينهما سهم طويل ورأسه ثقيل يستخدم لضرب الأسوار بواسطة قذائف حجرية. وقد ذكر صاحب تبصرة الألباب ثلاثة أنواع للمجانيق وهي العربي، والتركي، والفرنجي. القلقشندي، أبو العباس، شهاب الدين بن عبدالله بن أحمد (٨٢١هـ/١٤١٨م) صبح الأعشى في صناعة الانشا، شرحه وعلق عليه : محمد شمس الدين، بيروت : دار الفكر، دار الكتب العلمية، ط١، ج٢، ١٩٨٧، ص ١٥٢، وسيشار له القلقشندي. صبح الأعشى. الطرسوسي، مرضى بن علي بن مرضي (ت ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م) تبصره أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء. تحقيق: كلود كاهن، مجلة الدراسات الشرقية B.D.O. بيروت : ع ١٢، ١٩٤٨، ص ١٧، وسيشار له : الطرسوسي، تبصرة الألباب.

(٢) الكباش : آلة حربية تشبه الدبابة ظهرت في العصور الإسلامية الوسيطة، تتكون من رأس ضخم وقرنان يقوم الجنود بدفعها نحو الأسوار لنقبها وهدمها. الخطيب، معجم المصطلحات، ص ٣٦٢.

(٣) الدروع : مفردها درع. وهو رداء يتخذ من الزرد قوامه حلقات متصلة من الحديد تغطي الظهر والصدر يتخذه المحارب لباساً له أثناء الحرب. الخطيب، معجم المصطلحات، ص ١٧٨.

(٤) الأقواس : من أدوات الحرب عند العرب، منذ العصر الجاهلي، وهي مصنوعة إما من الخشب أو أنها مركبة من عدة أجزاء من الخشب والغراء بطريقة تجعلها قابلة لقذف السهام. الخطيب. معجم المصطلحات، ص ٣٥٦.

(٥) النار اليونانية : أحد الأسلحة التي استخدمت في الحروب البحرية والبرية لضرب السفن. وتطلق عن طريق سهم يكون عليه مواد مشتعله معدنية وخاصة الكبريت والدهون الحيوانية. حيث تخلط مع بعضها وقد ذكر الطرسوسي أنواعاً عدة من أساليب صناعة النار، وكيفية ضربها والمواد الداخلة في صناعته الطرسوسي. تبصرة الالباب، ص ٢٠-٢١.

(٦) عطية: الحروب الصليبية ، ص ١٤٧.

(٧) جميعان، المؤثرات الثقافية، ص ٢٤١، زكي، القلاع الصليبية، ص ٧٥؛ Fedden, Syria, p 202 .

بمقاومة عنيفة وسيتكبد خسائر كبيرة. كما نقل الفرنج عن المسلمين فكرة الأبواب المصنوعة من القضبان الحديدية القوية والمتشابكة التي تنتهي بأسنان حادة أسفلها كالحراب. وهذه المشابك لايمكن دفعها إلاّ بالحبال والبكرات المتواجدة فوق تلك الأبواب(١).

- المزاغل : وهي عبارة عن فتحات لإلقاء القاذورات والأوساخ والسوائل الحارة الملتهبة على المهاجم للقلعة. مثل الماء والزيت الحار، وذلك بهدف منع تقدمه إلى داخل القلعة(٢). وتتواجد هذه المزاغل في أرضية أبراج الحصن نفسه، وتؤدي نفس المهمة. إذ تمنع الأعداء من التسلق إلى أعلى الحصن أو حفر الجدار لغرض الوصول إلى داخل الحصن. وقد عرفت هذه الطريقة في مصر وفلسطين. وقد تعلمها الفرنج ونقلوها معهم إلى أوروبا.

- السقاطات (Machicolies) وهي عبارة عن شرفة تبرز قليلاً عن وجه جدران الأسوار تحاط بالبناء وتحملها كوابيل(٣) بارزة. وهي على نوعين : أفقية، وعمودية. وهذا النظام من ابتكار العرب حيث استخدموه في القصور والقلاع الأموية والعباسية والأيوبية ويستطيع الجنود من خلال هذه السقاطات القاء المقذوفات والسوائل الحارة على الجنود الذين يقتحمون القلعة(٤).

- المقرنصات : (Squinches) وهو نظام معماري استخدمه العرب في عمائرهم وهي عبارة عن طبقات حجرية مصفوفة فوق بعضها البعض ببراعة فنية ومحمولة على قواعد مربعة الشكل وكل صف يبرز عن الذي في أسفلة حتى يلتقي الصف الأعلى بصف القبة(٥) وقد استخدمت المقرنصات في القلاع والحصون

---

(١) العبيدي، التراث المعماري، ص ١٦٨.

(٢) العبيدي، التراث المعماري، ص ١٦٩؛ عطيه، الحروب الصليبية، ص ١١٢.

(٣) كوابيل، مفرهدا كابولي، وهو مسند بارز من الحجر أو الخشب يركز في الجدار ليحمل الشرفات أو العقود. غالب، موسوعة العمارة، ص ٣٢٢.

(٤) زكي، ا لقلاع الصليبية، ص ٧٥؛ الحلاق، المؤثرات الحضارية، ص ٢٤٧.

(٥) الحلاق، العلاقات الحضارية، ص ٢٤٨؛ زكي، القلاع الصليبية، ص ٧٦.

بالإضافة إلى نمط مآذن المساجد وقباب الكنائس.

- المتراس : (Portculis) وهو عبارة عن اطار من الحديد أو الخشب مدبب الأطراف من أسفله وينزلق عمودياً على جانبي باب الحصن، ويثبت بشبكة معدنية صلبة يستطيع المدافعون من وراءه قذف السهام من خلالها، وعند محاولة العدو اقتحام القلعة يسدل الستار بواسطة حبال ميتنة أوسلاسل. وقد استخدمه الفرنج في منشآتهم العسكرية[1].

- البربقان (Barbican) وهو عبارة عن برج كبير يبنى على مسافة قريبة من باب الحصن أو قنطرته المقامة فوق الخندق المحيط بالحصن[2] حيث تأثر الفرنج بهذا النظام في تحصيناتهم في سوريا وفلسطين.

- المشربيات (Machicolation) وهي عبارة عن شرفة خشبية بارزة على جدار البناء وتلعب دور النافذة في الطوابق العليا، وتصنع من قطع خشبية صغيرة مخروطة ومتواصلة على شكل مستطيل مضلع. ولها عدة وظائف حيث تقوم بالمحافظة على حرمة البيت وتخفف قوة النور الداخل إليه. كما أنها تعمل على تصفية الهواء الداخل من الغبار[3] وقد تأثر الفن المعماري العسكري للقلاع الفرنجية بهذا النموذج العربي الإسلامي.

- الباشورة : (Machicaulis) وهي عبارة عن مداخل متعرجة تنعطف يميناً ويساراً في مدخل القلعة وذلك بهدف عرقلة أي اقتحام تتعرض له القلعة أو الحصن مما يسهل على المدافعين الحاق خسائر كبيرة بالمهاجمين[4] وقد تأثر الفرنج خلال وجودهم في بلاد الشام بهذه العناصر واستخدموها في معظم قلاعهم.

أما مادة بناء القلاع فقد استفاد الفرنج من الصخور الموجودة في فلسطين في بناء قلاعهم، وقد بنيت من الحجارة المتينة والنحيتة[5](الحجارة الغير مصقولة).

(١) الحلاق، العلاقات الحضارية، ص ٢٤٨؛ زكي، القلاع الصليبية، ص ٧٦.
(٢) الحلاق، العلاقات الحضارية، ص ٢٤٨؛ زكي، القلاع الصليبية، ص ٧٦.
(٣) غالب، موسوعة العمارة، ص ٣٨٤.
(٤) العبيدي، التراث المعماري،١٦٨.
(٥) Wize, Op.cit., P. 189.

في حين أن مادة بناء القلاع في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي كانت من الطين أو من طبقات صلصالية أو الصخري البلوري (الكوارتز). وقد تميزت تلك الحجارة التي بنيت منها التحصينات بحدها المستدق، وخاصة حجارة زوايا القلعة التي كانت نموذجاً للبناء الفرنجي في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني والثالث عشر الميلاديين.[1] ومن أنواع الحجارة الأخرى التي استخدمت في بناء القلاع حجارة البازلت والصخر الناري بالإضافة إلى الأحجار الكلسية. وذلك بسبب توفرها في المناطق القريبة من، واقع القلاع، وخاصة في سوريا وفلسطين[2]. كما أستخدم الخشب في بناء أعمدة وأسقف القلاع والحصون التابعة للفرنج. وقد جلبت هذه الأخشاب من لبنان وشمال فلسطين[3].

ولابد من الإشارة إلى الفئات التي شاركت في بناء القلاع، فقد شاركت معظم شرائح المجتمع في بنائها وخاصة الفرسان والنبلاء والرهبان والنساء والأطفال. كما استفادوا في هذا المجال من خدمات الأسرى وعامة الناس الذين خضعوا لسيطرة الفرنج.[4]

ويمكن القول أن هذه المشاركة كانت تحت إطار تعزيز الولاء للقلعة من جهة وتسهيل حركة سكانها من جهة أخرى، وتسخير ذلك في خدمة الهدف النهائي لبناء القلاع والمتمثل في استمرارية الوجود الفرنجي في المنطقة.

الاتصال بين القلاع

شيد الفرنج العديد من القلاع والحصون في بلاد الشام كجزء من النظام الدفاعي الذي أقاموه. وقد انتشرت تلك القلاع في المواقع الاستراتيجية الهامة. وحتى تقوم القلعة بوظيفتها العسكرية والسياسية في التوسع والدفاع، كان لا بد

---

(١) Ronny Ellenblum. Construction Methods in Frankish Rural Settlemens. Horns of Haltin, Jerusalem, 1987, p 171.

(٢) Ibid, p 173.

(٣) Fedden and Thombsom, Op.cit., P. 43.

(٤) المومني، القلاع الإسلامية، ص ٩٨.

من ايجاد وسيلة اتصال بين القلاع حتى يتم التنسيق فيما بينها، وتبادل المعلومات.

وإذا ما تفحصنا مواقع القلاع والحصون الفرنجية نجد أنها تركزت في المناطق المرتفعة المتقابلة مع بعضها لسرعة الاتصال بينها وذلك عن طريق إرسال الاشارات. ويتم ذلك بواسطة اشعال النيران في القلعة لتراها القلعة المقابلة لها[1] لتأخذ حذرها وتغلق أبوابها وتستعد حاميتها لمواجهة أي هجوم وشيك مفاجئ[2]. ومن الأمثلة على ذلك، أن الحامية المتمركزة في قلعة الشقيف (Beufort) كانت تتصل بالإشارة النارية مع حامية قلعة الصبيبة (Subiaba)الى الشرق منها ومع قلعة تبنين (Toron) الواقعة جنوبها[3] كما أن قلعة الكرك كانت على الدوام ترسل إشارات نارية الى قلعة القدس في حالات الضرورة، فمثلاً أرسلت طلباً للنجدة في أثناء حصار صلاح الدين لها في العام ٥٧٨هـ/١١٨٢م[4].

إلا أن هذه الطريقة كانت بدائية ولم تستخدم إلا في حالات قليلة، ذلك أن إشارة النار محدودة في طبيعتها، ولا تعطى معلومات مفصلة حول الأخطار التي تتعرض لها القلعة .. من ناحية ثانية فإن طبيعة بعض القلاع قد تسببت في افتقارها لمدى رؤية كاف بسبب الأحوال الجوية السيئة وخاصة في الصباح عند تشكل الضباب والمطر مما يعيق الاتصال بينها[5].

وقد استخدم الفرنجة طريقة أخرى في الإتصال بين القلاع، وهي طريقة ساعي البريد التي تمثلت بنقل الرسالة على الخيل من قلعة إلى أخرى بشكل

---

(١) Tignor Holmes : Life among Europeans in Palestine and Syria in the Twelfth and Thirteenth centuries, in Setton. Vol :4, wisconson, 1960, p. 31. Erbstosser, op. cit, p 122.

(٢) ماير، الحروب الصليبية، ص٢٤٧؛ Benvensiti, op. cit, p 291, 292 .

(٣) زكي، القلاع الصليبية، ص٦٧.

(٤) Benvensiti, op. cit, p 269.

(٥) قد يفسر ذلك عدم تساوي ارتفاع هذه القلاع أو وجود حاجز مادي يعيق رؤية الاشارة النارية بين هذه القلاع.

سريع(١). وقد انتشرت تلك الطريقة بين قلاع الساحل والسهل الداخلي. وقد يعود ذلك لضيق المنطقة السهلية. ومثال ذلك اتصال قلعة يافا مع قلعة يبنا والتي كانت بدورها تتصل مع قلعة تل الصافية. وهذه القلاع كانت حلقة وصل بين قلعتي عسقلان وبيت جبريل(٢).

وقد برع المسلمون في استخدام هذه الطريقة وزاد الاهتمام بها أثناء الصراع الإسلامي الفرنجي. واستخدمت لمعرفة أخبار العدو واستعدادته وتحركاته جيوشه وأعدادها. وكانت الأخبار ترسل عن طريق خيول مميزة، تنتقل عبر محطات أعدت لذلك بعد أن تُستبدل في تلك المحطات(٣). وكان رجال البريد يختارون من أشخاص يتصفون بالكفاءة والأمانة والذكاء وقد شكل صلاح الدين جماعات سعاة للبريد يشرف عليه بنفسه. وقد استخدم البريد بكثرة في أثناء حصار عكا من قبل الفرنج حيث قام المسلمون داخل المدينة بالإتصال مع الجيش في الخارج عن طريق البريد وكذلك عن طريق الحمام الزاجل(٤).

وقد اقتبس الفرنج من المسلمين بعد فترة من احتلالهم للشام طريقة أخرى للإتصال، تتمثل باستخدام الحمام الزاجل في المراسلات بين القلاع وتجمعات الفرنج. والإتصال عبر الحمام الزاجل معروف بين الكثير من الشعوب منذ أقدم العصور. بفضل بعض صفاته، كسرعة الطيران، واحتفاظه بالرسالة، وسهولة تدريبه، ونزوع الحمام إلى وطنه. وقد استخدمه الفرنج في طلب المساعدة والنجدة

---

(١) البريد لغة: هو مسافة معلومة مقدرة باثني عشر ميلاً. وقدره علماء المسالك والممالك باربعة فراسخ، ويطلق عليه أيضاً الرسول. القلقشندي. صبح الأعشى، ج١٤، ص٤١١-٤١٢. وهو في الأصل الفرس المركوب أو مايحمل عليه الرسول. وكان البريد عند المسلمين من مهمات الملك أو السلطان. انظر. ابن كنان، حدائق الياسمين، ص٧٧. وللمزيد من التفاصيل انظر. القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص ٤١١-٤١٥.

(٢) Pernoud, op. cit, p 149.

(٣) حسين، محسن محمد، جيش صلاح الدين، مجلة المورد، مج ١٦، ع ٤، بغداد : ١٩٨٧، ص ٤٨، وسيشار له: حسين، جيش صلاح الدين.

(٤) المرجع نفسه، ص ٤٩.

من القلاع المجاورة في حالات الحصار(١).

كما أن صلاح الدين استخدمه في حروبه ضد الفرنج وخاصة في حصار عكا وحصن بيت الأحزان، وكان له الفضل الكبير في حسم الكثير من المعارك بعد معرفة مقدرة وأحجام جيوش الخصم. واستمر استخدامه زمن المماليك أيضاً. وقد عين لهذه الوظيفة عدداً من الموظفين لكتابة الرسالة وطاقماً لتدريبه(٢). وقد انتشرت محطات عديدة للحمام الزاجل في بلاد الشام تضم أعداداً كبيرة منه(٣).

إدارة القلاع

لعبت القلاع دوراً هاماً منذ تأسيسها عبر صعيدين متكاملين الأول : باعتبارها الأداة التي هيأت لاستقطاب واستيطان أكبر عدد من الفرنج، والآخر باعتبارها معقلاً عسكرياً متقدماً في دويلات الفرنج. ويمكن الإستدلال على هذا الدور بالنظر إلى مبررات الفرنج في بناء الحصون والقلاع.

فبعد أن احتل الفرنج أجزاءاً من بلاد الشام أصبحوا في أراض بعيدة عن بلادهم. ولهذا فقد اضطروا من أجل الحفاظ على ما سيطروا عليه من أراض وممتلكات إلى بناء هذه القلاع، ليس فقط لحماية أنفسهم وممتلكاتهم فحسب وإنما استخدمت كوسيلة حربية تمكنهم من وضع خصومهم تحت مراقبتهم المستمرة كما مر معنا. وقد مكّن هذا الوضع القلاع والحصون لأن تمارس دوراً جديداً على الصعيد السياسي، حيث سعى الفرنج لجعلها مقراً لإقامة السيد الإقطاعي أو الملك وبذلك فقد كانت القلعة مقراً للحكومة الإقطاعية(٤).

وليس أدل على ذلك من حرص الملوك والأمراء الاقطاعيين على إدارة هذه القلاع بأنفسهم أو من قبل لورد كبير وسيد ممن شاركوا في الحملات

---

(١) Holmes, op. cit p 31, Benvensiti, op. cit, p 269.

(٢) وللمزيد من التفاصيل حول استخدامه عند المسلمين وأنواعه وفوائده انظر: القلقشندي. صبح الأعشى، ج٤، ص ٤٣٤-٤٣٥.

(٣) حسين، جيش صلاح الدين، ص ٥١.

(٤) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٦٢٨، زكي، العمارة العسكرية، ص ١٢٤.

الأولى[1]، واشترط أن يكون حاكم القلعة (الكندسطبل)[2] من ذوي الخبرة العسكرية حتى يستطيع مواجهة الأخطار التي قد تتعرض لها القلعة لاسيما القلاع الحدودية التي كانت معرضة للهجوم على الدوام من جانب المسلمين. كما يشترط فيه أيضاً أن يكون تحت امرته مجموعة من الفرسان حتى يستطيع أن يخضع المنطقة المحيطة بالقلعة، ويضبط الأمن فيها وفي حاميتها[3].

ومن وظائف حاكم القلعة (الكندسطبل) أيضاً جمع الأموال المستحقة من ضرائب ورسوم على الفلاحين الذين يعملون في الأراضي التابعة للقلعة، ومن التجار والحجاج الذين يؤمن لهم الطريق خوفاً من تعرضهم لأي هجوم. وهذه الأموال تدفع رواتب للموظفين والجنود في الجهاز العسكري المكلف بحماية القلاع[4].

كما أن حاكم القلعة كان مسؤولاً عن إصدار الأوامر بالقتال أو وقفه أو الاستسلام في حالة تعرضها للهجوم، وذلك بعد اعلام مقدم الفرسان المتواجد في القلعة[5].

وقد تم تخصيص أماكن مميزة لاقامة الحاكم وعائلته في الطوابق العليا للقلعة، وإلى جانبه تقع غرف الادارة الرئيسية حتى يتمكن من الإشراف على القلعة

---

(١) Fedden and Thomobsom, op. cit, p 67 Cathcard king, op. cit, p 2. Allen Brown. The Architechture of Castles. Bastford, London, 1984, p 8.

(٢) الكندسطبل:(Constable): وهي إحدى الوظائف الهامة في ادارة القلعة. وأصل الكلمة لاتيني مأخوذه من الكلمة (Costelanus) أو (Comestabuli). والتي تعني في مصطلح العصور الوسطى حاكم القلعة وحاميها، كما انه يلي الملك في قيادة الجيش في الحملات. انظر. رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص٤٨٧؛ ماير، الحروب الصليبية، ص٢٤١. كما انه كان مسؤولاً عن تأمين الموارد التي تحتاجها القلعة. سميث، الاسبتارية، ص ٥٧. وهذا اللفظ يقابله في العربية الدزدار الذي يعني مستحفظ القلعة، وفي الفرنسية (Chatelian). انظر. ابن واصل، مفرج الكروب، ص١٤٣، هامش٤.

(٣) سميل، الحروب الصليبية، ص ٢١٠؛ Fedden and thombsom, op, cit, p 68.

(٤) Erbstorsser, op. cit, p. 132, Brown, Castles, op. cit, p4.

الشاعر، محمد، أحوال المسلمين في مملكة بيت المقدس الصليبية (١٠٩٩-١٢٩١)م، بغداد : دار الاتفاق، ١٩٨٩، ص ٣١. وسيشار له : الشاعر، أحوال المسلمين.

(٥) سميث، الاسبتارية، ص ٣١٥.

مباشرة[1]. وإلى جانب حاكم القلعة يوجد عدد كبير من كبار الموظفين العسكريين والمدنيين لمساعدته في ادارة شؤون القلعة، كالنبلاء والفرسان الذين عملوا كمستشارين اداريين وككتاب لإدارة شؤون الاقليم المحيط. وقد سكن هؤلاء الموظفون في مساكن خاصة، تتميز باحتوائها على وسائل الراحة[2] .

وحتى يستكمل الدور الاداري للقلعة عند الفرنج، كان لابد من توفر فئات أخرى لتقديم الخدمات لسكان القلعة لجعلها تقوم بوظيفتها التي وجدت من أجلها، ومن هؤلاء الموظفين الأطباء لمعالجة المرضى، والسجانون لحراسة سجن القلعة ومصنعوا الأسلحة وصانعوا الأحذية والملابس. بالإضافة الى بعض العمال لتشغيل المعامل الصغيرة في القلعة[3]. ومن الملاحظ أنه وجد في بعض القلاع موظفون من العرب قام الفرنج باستقدامهم اليهم ليعملوا كَتَبه وأطباء لمعالجة المرضى لجهل الفرنج في هذه الناحية، كما عمل بعض العرب في مجال الترجمة الى اللغة العربية وتعليمها، لاقبال بعض الحكام الفرنج على تعلمها.[4]

وفي منتصف القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي جرى تغير في الخارطة السياسية والعسكرية بظهور قوة إسلامية ناشئة على يد القائد عماد الدين زنكي ثم ابنه نور الدين من بعده، كان لها الأثر في اتساع نطاق العمليات الحربية بين المسلمين والفرنج. فأدى ذلك الى زيادة عبء النفقات والتمويل على القلاع الأمر الذي لم يتحمله السادة الإقطاعيون أصحاب القلاع ومديروها. وهذا التغير أوصلهم الى التخلي عنها وبيعها الى منظمات الفرسان الاسبتارية والداوية الذين أصبحوا يملكون معظم قلاع الشام ويشرفون عليها[5].

أما المسلمون فكان حاكم القلعة عندهم يسمى دزداراً، وهو الشخص الحافظ

---

(١) Holmes, op. cit, p 32. J. Prawer. Latin Kingdom, op. cit, p 304.

(٢) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٦٣٠-٦٣١. زكي، العمارة، ص ١٢٤.

(٣) المومني، القلاع الاسلامية، ص ٧١.

(٤) Fedden and Thombson, op. cit, p 75.

(٥) زكي، القلاع الصليبية، ص ٦٨.

للقلعة وصاحبها[1]، ويساعده بعض الموظفين الاداريين والعسكريين في ادارتها والاشراف عليها، حتى تقوم باداء واجباتها، ومن أهم هذه الوظائف:

نيابة القلعة : وهي نيابة منفردة عن نيابة السلطنة. وتتم ولايتها بموجب مرسوم سلطاني شريف من ديوان الإنشاء الشريف[2]. ونائب القلعة هو المتحدث عنها والمسؤول عن الحراس فيها ومن ضمن صلاحياته حفظ القلعة وصونها، ومراقبة المسجونين فيها. كما أنه يعطي الأوامر بفتح باب القلعة واغلاقها حين قدوم السلطان أو مغادرته لها. وهو المسؤول عن تفقد أسوارها وأبراجها ومنافذها وعمارة ما تحتاج إليه على مر الأوقات[3].

ومن المهمات الأخرى لنائب القلعة تعيين ضارب طبل لاستعلام أوقات الليل حيث يقوم بضرب الطبل في أول ومنتصف الليل، وبداية الفجر في القلعة. وقد انتشرت هذه الوظيفة في جميع القلاع الشامية[4].

- ولاة القلعة وهم اثنان.

١ - والي القلعة : وهو المتحدث على باب القلعة وعليه فتحه واغلاقه ويوجد تحت امرته جماعة يصرفهم فيما يختاره من الأعمال[5].

٢- والي باب القُلّة: وهو أمير عشرة، وله التحدث على باب القلعة[6].

- نقيب القلعة : وهي من الوظائف التي يشغلها العسكريون بالقلاع. وتلي

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص٨، هامش١.

(٢) ديوان الانشاء : من الدواوين الهامة في العصر الأيوبي والمملوكي. ومقره القلعة. ومن ضمن أعماله النظر في المظالم. ويجب على رئيسه أن يكون ملماً بأعمال الكتابة، واللغات الأجنبية حتى يكتب رسائل الى الدول المختلفة، البقلي، محمد قنديل، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٣، ص ١٤٤. وسيشار له : البقلي، التعريف.

(٣) ابن كنان، حدائق الياسمين، ص ١٢٧-١٢٨.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ١٩١.

(٥) ابن كنان، حدائق الياسمين، ص ١٣٢.

(٦) الباشا، حسن، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية. القاهرة، دار النضهة، ١٩٦٩، ج٣، ص ١٣١٩. وسيشار له، الباشا، الفنون.

وظيفة نائب القلعة. وكان نقيب القلعة يحلف يميناً مثل يمين نائب القلعة[1] ويعين هذا الموظف بموجب مرسوم شريف يكتب من قبل السلطان.

- أمير القلاع : ومهمته الكشف على القلاع وتفقد أحوالها ورسم ما تحتاج إليه من صيانة وترميم[2].

- وكيل القلعة : وهو الذي ينوب عن والي القلعة للقيام ببعض أعماله، وتدل على من قام بالاشراف على تشييد أو عمارة القلاع بالنيابة عن صاحبها.

- ناظر العمائر (شاد العمائر) : وله الإشراف على المهندسين والحجارين الذين يقومون بأعمال البناء في القلعة ولا تشغل هذه الوظيفة إلا في وقت تشييد العمائر[3].

وترتب على انشاء بعض المباني في داخل القلعة كالمسجد والمدرسة وجود بعض الموظفين الشرعيين مثل الخطيب والمؤذن والمدرس والحَفَظَة لتعليم ساكني القلاع، بالإضافة الى بعض موظفي الصحة العامة مثل الأطباء والكحالين[4] والجرائحيين[5]. والحدادين، لتصنيع السيوف والرماح والدروع وغيرها من الآلات الحربية، كما كان يتواجد في القلعة الإسلامية بعض الموظفين الثانويين من طباخين وغيرهم للقيام ببعض الأعمال المنزلية[6].

أنواع القلاع

نستدل من المراجع التاريخية، أن بناء القلاع لم يكن وفق معايير معينة أو وفق مخطط مسبق، وإنما كان لكل قلعة ظروفها الخاصة التي تتأثر بالزمان

---

(١) الباشا، الفنون، ج٣، ص ١٣٠٠.

(٢) المومني، القلاع الإسلامية، ص ١٠٠.

(٣) الباشا، الفنون، ج٣، ١٣٤٢-١٣٤٣.

(٤) الكحالين : مفردها كحال وهو الطبيب المختص بمعالجة أمراض العيون. وبقي متداولاً في العصور الإسلامية المتأخرة. الخطيب، معجم المصطلحات، ص ٣٦٥.

(٥) الجرائحيين: مفردها جرائحي وهو لقب الطبيب الجراح في العصر الإسلامي. الخطيب معجم المصطلحات، ص ١٢٢.

(٦) العمري، مسالك الأبصار، «مصر والشام»، ص ٥٠.

والمكان، وبالتالي كان لكل دولة قلاع ذات مواصفات خاصة، رغم أنها لم تنشأ بمعزل عما سبقها. وبناء عليه يمكن أن نصنف القلاع تبعاً للأمم التي قامت ببنائها مثل القلاع الرومانية والإسلامية والفرنجية. وقد تعددت آراء المؤرخين حول تصنيف القلاع. ولم يتفقوا على تصنيف ثابت لها، نظراً لاختلاف أسباب ودواعي بناءها. ولظروف كل دولة وتطور أوضاعها وعلاقاتها مع جاراتها، رغم أن بناء معظم القلاع كانت له أهداف مشتركة سواء كانت في أوروبا أو في المشرق العربي.

فقد صنفها بعض المؤرخين [1] مثل فيدن وثومبسون (Fedden and Thombson) حسب الهدف الذي أقيمت من أجله فصنفوها على نوعين هما :

١- قلاع هجومية : حيث أقام الفرنج بعد وصولهم الشام مباشرة عدة قلاع كان الهدف من إنشائها السيطرة على المزيد من المدن والقلاع الأخرى التي مروا بها خلال الحملة الأولى[2] ومن أهم تلك القلاع تبنين في جنوب لبنان وصفد شمال فلسطين والشوبك في جنوب الأردن. ويندرج تحت هذا النوع صنفان من القلاع :

أ- القلاع الساحلية : التي أقيمت لإخضاع المدن والموانىء الساحلية والسيطرة عليها.

ب- القلاع الحدودية : التي أقيمت لتوسيع السيطرة على الأراضي وحماية ومراقبة الطرق التجارية والممرات الجبلية من أي هجوم تتعرض له.

٢- القلاع الدفاعية : والتي أقيمت بعد الحملة الفرنجية الثالثة، بعد إنحسار الوجود الفرنجي وتقلص نفوذهم ومن أهمها قلعة المرقب[3] في سوريا وعتليت في فلسطين وكان الهدف من إنشائها هو التصدي للهجمات الإسلامية المتواصلة والاحتفاظ بما بقى تحت سيطرتهم من المدن والقلاع الساحلية.

---

(١) Fedden and Thombson, op. cit, p 20-24.

(٢) Ibid, p. 24.

(٣) قلعة المرقب :(Margab) تقع على الساحل السوري فوق جبل صخري متاخم للبحر وهي من القلاع القوية المحاطة بسور خارجي مزودج. بنيت في العام ١٠٦٢م من قبل العرب. واستولى عليها الفرنج في العام ١١١٦م. وملكها الاستبارية في العام ١١٨٦م. حررها المسلمون زمن السلطان قلاوون في العام ١٢٨٥. مولر، القلاع الصليبية، ص ٧١-٧٢.

وهناك من المؤرخين أمثال براون (Alen Brown) [١] من صنفوا القلاع حسب تطور بنائها وشكلها وهي أربعة أنواع ظهرت في أوروبا الإقطاعية وهي :

١- القلعة ذات الرابية (الهضبة والسور) (Motte and Bailey Castles) وقد انتشر هذا النوع في انجلترا وفرنسا حيث تكون القلعة على شكل هضبة محاطة بجدار[٢]. وعلى قمة الهضبة يكون برج خشبي محاط بحواجز طبيعية. وفي العادة يتكون من طابقين أو ثلاثة. ويتم الدفاع عن هذه القلعة بواسطة حفر الخنادق حولها ووضع بوابات حديدية قوية لمنع تسلل العدو إلى داخلها[٣].

٢- القلاع المنحوتة في الصخر (Stone Castles) : وظهر هذا النوع كنتيجة للتحسينات التي أدخلت على النوع الأول بحيث استعيض بالحجارة في بنائها بدلاً من مادتي الخشب والطين الذي صنعت منه مادة القلعة ذات الرابية[٤] وبالتالي فقد أصبحت أكثر حصانة وقوة وأوسع حجماً من ذي قبل وانتشرت هذه القلاع في أوروبا وخاصة في بريطانيا وفرنسا.

٣- الأبراج المحصنة (Tower Keeps) وجاء بناؤها نتيجة للتطورات التي جرت في أوروبا في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي. بعد خروج الفرنج الى المشرق. ومن مميزات هذا الحصن أنه يحتوى على معظم العناصر الأساسية للقلعة كالمخازن والمساكن وأماكن العبادة والحمامات وغيرها[٥] كما أنه محصن بأساليب دفاعية قوية مثل الحواجز الترابية والخشبية والأسوار الصخرية والخنادق حتى يتمكن من التصدي لأية محاولة هجومية وقد قام الفرنج ببناء عدة أبراج محصنة على منوالة في الشرق مثل حصن قيسارية في فلسطين وحصن صافيتا[٦] في سوريا.

---

(١) Brown, Castles, op. cit, p 9-15.

(٢) Brown, Architecture, op. cit, p 20, Holmes - op, cit, p 32.

(٣) Benvensiti, op. cit, p 280. Inc. of Britanica - op. cit, p 936.

(٤) Brown, Castles, op. cit, p. 13.

(٥) Brown, Architecture, op. cit, p 29.

(٦) قلعة صافيتا : (القصر الأبيض Chastle Blane) تقع في عمق الساحل السوري، على ارتفاع ٣٥٠م، =

٤- القلاع ذات الأضلاع الرباعية (Quadrangular Castles) وقد ظهر هذا النوع في أوروبا في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي. وهي مخصصة لسكن النبلاء الإقطاعيين. وتتميز هذه القلعة باحتوائها على برج صغير وعلى كل ما تحتاجه من مساكن وقاعات مختلفة الأغراض، وساحات، وأماكن للعبادة. وتعد هذه القلاع شكلاً من أشكال التطور الذي جرى في أوروبا نتيجة اتصالها مع الشرق(١)

كما صنفت القلاع حسب فترة بنائها وتسلسلها الزمني(٢) حيث ذكر بعض المؤرخين أمثال براور (Prawer) نوعين لها:

١- **النوع الأول** : قلاع القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي وظهر في هذا القرن نوعان من القلاع الأول في النصف الأول من القرن السادس حيث تميزت تلك الفترة بشدة وكثافة العمليات العسكرية بين الفرنج والمسلمين، مما تطلب بناء المزيد من القلاع التي كانت ترمي إلى اعادة رسم الحدود الفرنجية وتوسيعها والدفاع عنها(٣) وتميزت هذه القلاع بأنها كانت هجومية مثل قلاع كوكب الهوى وصفد في شمال فلسطين وقلاع يبنا وتل الصافي وبيت جبريل التي أنشأت لمهاجمة عسقلان والسيطرة على جنوب فلسطين. ومن مواصفات هذه القلاع أنها كانت تحوي أبراجاً للمراقبة حولها، وعلى جدران لحمايتها ومنع اختراقها(٤). كما أنها محاطة بخنادق لمنع العدو من التقدم .

وفي النصف الثاني من القرن نفسه ظهر نوع آخر من التحصينات العسكرية أطلق عليه اسم تحصينات المنعة للسيد الاقطاعي (Fortified Seignorial Seat) وأبرز مثال لهذا النوع القلاع الصغيرة التي بنيت في منطقة عكا مثل معليا وجدّين.

= على قمة صخرية، استولى عليها الفرنج وعهد بها الى الفرسان الداوية في العام ١١٧٠م. سيطر عليها صلاح في العام ١١٨٨م. ثم احتلها الفرنج ثانية في العام ١٢١٧م. وأخيراً حررها بيبرس عام ١٢٧١م. مولر : القلاع الصليبية، ص ٦٣.

(١) Brown, Architecture, p 71-73.

(٢) Fletcher, op. cit, p 528-529. Prawer. Latin Kingdon, p 297-299.

(٣) زكي، القلاع الصليبية، ص ٥٨؛ Prawer, Latin kingdom, p 297.

(٤) Wize, op. cit, p 206, Prawer, Latin kingdom,p 299.

ويتميز هذا النوع بصغر حجمه، وشكله المستطيل مع وجود بعض الأبراج على زواياه. ويمكن تشبيه هذه الحصون بمحمية عسكرية[1] ومع مرور الزمن انتقلت ملكية هذه القلاع الى الفرسان الداوية والاسبتارية والتيوتون.

٢- **النوع الثاني** : قلاع القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي : وقد بدأت فيه مرحلة جديدة من بناء التحصينات، حيث أظهر بناء القلاع الكبيرة في تلك الفترة مدى الحاجة الي زيادة القدرة الدفاعية للقلعة بدلاً من استنزاف القوى. وذلك بعد أن انكمشت مساحة الدولة الفرنجية بعد معركة حطين، وأصبحت تضم شريطاً ساحلياً ضيقاً.

ومن أشهر تلك القلاع قلعة القرين (Montfort) وعتليت (Chateau pelirin) في فلسطين والمرقب في سوريا[2] وتتميز بجدرانها الواقية والساترة لدعم بعضها البعض. وقد زودت هذه القلاع بنظام استحكامات مزدوج وأسوار خارجية منحدرة (Talus) مع مداخل منحنية لزيادة فاعلية المقاومة للقلعة.

وقد رأى قسم من المؤرخين مثل فليتشر (Fletcher palmes) [3] أن القلاع تصنف حسب الأهمية العسكرية اعتماداً علي موقعها الجغرافي وهي :

أولاً: قلاع الحج : والتي كانت -نظراً لموقعها- تقوم بحماية الطرق التي يسلكها الحجاج بين الموانىء الساحلية والأماكن المقدسة في مملكة المقدس، كالطرق الواصلة بين يافا والقدس وعكا والقدس، ولهذا السبب قام الفرنج ببناء عدة قلاع تصل بين الساحل الفلسطيني حتى بيت المقدس لتأمين وصول الحجاج والتجار اليها [4]، ومن أهم تلك القلاع قلعة بيت نوبا (Arnold) وقلعة اللطرون (Toron des chevaliers) ويبنا (Ibilen). وقد صممت تلك القلاع حسب النظام الروماني حيث تضمنت جدران رفيعة وأبراج مستطيلة الشكل ناتئة في الأركان مع خنادق

(١) Prawer, Latin kingdom, p 299.
(٢) Fletcher, op. cit, p 529. Erbstosser, op. cit, p 121.
(٣) Ibid, p 527-528.
(٤) زكي، القلاع، ص ٦٢.

كبيرة حولها. وقد تولى حماية تلك القلاع الفرسان الداوية (Templers).

ثانياً: القلاع البحرية (الساحلية) انتشرت على الساحل الشرقي للبحر المتوسط من انطاكية شمالاً حتى غزه جنوباً. وقد روعي عند اختيار موقع البناء، بعدها عن مركز المدينة، مع اشرافها على الأرض المحيطة بها (أراضي الريف) بحيث اذا سقطت المدينة في قبضة العدو، يستطيع رجال حامية القلعة الدفاع عنها كوحدة مستقلة مع إتصالها بالقلاع الأخرى القريبة منها[1] ومن الأمثلة على هذا النوع : قلعة صيدا[2] وعتليت.

ثالثاً: القلاع الاستراتيجية : تتميز باتساع حجمها. واحتوائها على معظم مرافق الحياة فيها. وهي مكونة من عدة طوابق. وكان الهدف من إنشائها هو حماية المدن والطرق الساحلية التجارية والعسكرية الواصلة بين المدن والقلاع الأخرى أو التي تربط بين الإمارات الفرنجية. ومن الأمثلة على ذلك : قلعة الشقيف أرنون (Beaufort) على نهر الليطاني، وقلعة الصبيبة (Subaibe) بالقرب من بانياس على منحدرات جبل الشيخ اللتان تراقبان الطرق المارة من دمشق إلى فلسطين. وقلعة الشوبك والكرك اللتان تراقبان حركة القوافل بين مصر والشام وطريق الحج الى الجزيرة العربية[3] وتعتبر هذه القلاع الكبرى النموذج الحقيقي للعمارة العسكرية الفرنجية في القرون الوسطى التي تتميز بكفاءة ومهارة بنائها، ويرى الباحث أن هذا التصنيف هو أقرب ما ينطبق على قلاع فلسطين المنتشرة في الشمال والساحل والجنوب والتي تؤدي نفس الأدوار التي تؤديها هذه الأنواع الثلاثة.

ومن المؤرخين أمثال بنفنستي (Benvensiti) وايربستوسر (Erbstosser) من

---

(١) Flectcher, op. cit, p 528.

(٢) قلعة صيدا : (Sidon) تقع على الساحل اللبناني الجنوبي. استولى عليها الفرنج في العام ١١٠٦م، وأقاموابها قلعة على البحر، وبقيت حتى استولى عليها صلاح الدين عام ١١٨٧م. ثم استعادها الفرنجة في العام ١٢٢٨م. وأعادوا تحصينها. وملكها الفرسان الداوية وأخيراً سقطت في العام ١٢٩١م. مولر : القلاع الصليبية، ص ٩١-٩٢.

(٣) Fletcher. op. cit, p 528.

صنف القلاع تبعاً لتصميمها وتطورها مع الزمن فقسمها الى ثلاثة أقسام وهي :

أولاً: الحصن النورماندي : وهذا النوع كان منتشراً في أوروبا وخاصة فرنسا وانجلترا وايطاليا في النصف الأول من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي[١]. ويتكون من برج مؤلف من طابقين مصنوع من الخشب والطين والرمل. كما أنه محاط بسور من نفس المواد. ثم تطور استخدام مواد البناء، فحلت الصخور محل الخشب والرمل، ومن ثم أصبح يسمى بالحصن النورمندي أو الخزنة النورمندية[٢].

ثانياً: الحصون ذات الأبراج الرباعية (Castrum) وهو عبارة عن حصن صغير يتألف من أربعة أبراج تحيط به عند كل ركن من أركان الحصن. وقد استخدمه البيزنطيون ثم المسلمون قبل وصول الفرنج إلى بلاد الشام[٣]، كما أنه كان منتشراً في شمال أفريقيا ووادي الفرات. وقد جاء بناء هذه الحصون استجابة للسرعة والتخطيط الذي يتطلب وجود منطقة مفتوحة، بحيث يتم بناء الأسوار أولاً، ثم الأبراج ثانياً والتي يتغير حجمها مع تغير حجم القلعة[٤]، ويتميز هذا النوع من الحصون ببساطة شكله وسرعة انشائه، وفاعلية دفاعاته. ولذلك فليس من المستغرب أن نجد الفرنجة قد أنشأوا الكثير من حصونهم في فلسطين على النمط نفسه. وقد ذكر وليم الصوري (Wiliam of Tyre) أمثلة من هذه الحصون في فلسطين مثل حصن الداروم وبيت جبريل وبيت الأحزان، ووصفها بأنها مربعة الشكل ونتيجة لإتصال الفرنج المستمر مع المسلمين والبيزنطيين، فقد بنوا الكثير من قلاعهم في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي على هذا النمط[٥].

---

(١) Erbstosser, op. cit, p 104.

(٢) Benvensiti, op. cit, p 278-279.

(٣) Benvensiti, op. cit, p 280; Wize, Op. cit, P. 203.

(٤) Benvensiti, op.cit., p 203, 205.

(٥) Smail, op. cit, p 90.

ثالثاً: القلاع المعلقة (Spur castle) وتبنى هذه القلاع في العادة على مرتفع صخري عند تقاطع ممرين ضيقين بحيث تكون منحدرة من جهات ثلاث، أما الجهة الرابعة فيحفر عندها خندق. وكان هذا الأسلوب في البناء يؤمن ملجئاً أمناً لساكني القلعة. كما أنه يجعل من احتلالها أمراً صعباً جداً[1]. وبني هذا النوع في فلسطين في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي. مثل قلعة صفد التي جُدِّد بناؤها وقلعة القرين وقلعة الشقيف في جنوب لبنان.

الحياة الإجتماعية والإقتصادية والعسكرية داخل القلاع

حاول الفرنج خلال وجودهم الطويل في بلاد الشام تطبيق أساليب الحياة التي مارسوها في قلاعهم في أوروبا وجعلها نموذجاً يقتدون به، إلا أن الظروف التي واجهتهم والتي تتمثل في المقاومة الدائمة جعلتهم يفكرون في أسلوب حياة مختلف قليلاً عما كانوا عليه في أوروبا ذلك أن القلعة في أوروبا كانت في المقام الأول مركزاً للسيد الإقطاعي وعائلته بالإضافة الى الفرسان. أما في المشرق فقد تطلب من الفرنج أن يتخذوا اجراءات عسكرية واسعة، وجهوداً عظيمة لتثبيت وجودهم، وذلك عن طريق بناء العديد من القلاع في محاولة للتعويض عن النقص الدائم في أعداد المحاربين. وقد أسندت القلعة في البداية الى السيد الاقطاعي، إلا أنه وبسبب الضغط المتواصل على الدويلات الفرنجية، فقد أحيلت مهمة الدفاع عنها إلى منظمات الفرسان الداوية والاسبتارية التيوتون.

وفي الواقع فقد مارست القلاع الفرنجية في بلاد الشام حياة اجتماعية واقتصادية ودينية وعسكرية مستقلة باعتبار أن القلعة شكلت مدينة كاملة تشتمل على مجمل عناصر المجتمع المدني. فمن الناحية الاجتماعية فقد أمَّنت القلعة الإقامة الدائمة ليس فقط لحاكمها والفرسان المدافعين عنها، بل أيضاً لكبار الموظفين والقادة والكتاب وأفراد عائلاتهم اللازمين لإدارة القلعة[2] وأمدتهم بوسائل

---

(١) Benvensiti, op, cit, p 283.

(٢) العسلي، فن الحرب، مج٤، ص ٥٣٣. رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ٦٢٠-٦٣١.
Holmes, op. cit, p 32.

الراحة المختلفة بحيث وفرت للقاطنين فيها الحجرات الأنيقة الواسعة للسكن بها والتي تميز بعضها - مثل حجرة حاكم القلعة - بشكلها الجذاب، والمزدانه بالتماثيل المزخرفة[1]. كذلك فقد توفرت الحجرات للفئات السكانية الأخرى وخاصة الفرسان والفلاحين وعائلاتهم ولغيرهم من شرائح السكان الفرنج.

ولا يفوتنا أن ننبه أن حياة الفرنجة داخل قلاعهم لم تكن بعيدة عن تأثير حياة المجتمع الإسلامي حولهم. ونلمس جوانب هذا التأثر في معظم جوانب الحياة التي انتقلت الى داخل القلعة الفرنجية، فنجد داخلها الحدائق والساحات العامة والحمامات والمتنزهات حولها. ونجد مقومات الخدمات الحياتية الأخرى كتوفر الينابيع والابار التي يتم فيها تجميع مياه الأمطار عبر قنوات خاصة. وهذه المياه استخدمت في مجالات عديدة من أهمها : الأعمال المنزلية، وكمسابح للرجال والنساء[2]. كذلك نجد المطابخ وأحواض تربية الأسماك، وأبراج الحمام. وكل ذلك من أجل توفير سبل الراحة والمتعة والتسلية للسكان ورفاهيتهم، كذلك وجدت في القلعة الحمامات التي انتشرت في معظم طوابق القلعة[3].

من جهة أخرى مارست القلعة الفرنجية حياتها الاجتماعية في جوانب أخرى، تتمثل في إقامة الحفلات الموسيقية، وخاصة حفلات الزواج ليس على المستوى الرسمي، بل الشعبي أيضاً، ومن أشهر تلك الحفلات الحفل الكبير الذي أقيم في قلعة الكرك لزواج أحد الأمراء في العام ٥٨٧هـ/١١٨٣م. وقد حضره كبار الزعماء الفرنج من كافة المدن والدول الفرنجية[4]، بالإضافة الى أرباب الملاهي من الراقصات والموسيقيين، وكان يتخلل هذه الحفلات تناول المشروبات الروحية[5]، مما يؤكد عدم انفصال الحياة الاجتماعية في القلعة عن خارجها.

---

(١) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٦٣٤؛ Holmes : op. cit, p. 32.

(٢) Benvensiti, op. cit, p 266, pernoud, op. cit, p 154.

(٣) Erbstosser. op. cit, p 103. Brown, Architecture, op. cit. p 32, 106.

(٤) بردج، الحروب الصليبية، ص ١٩١، رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٧١١.

(٥) Fedden and Thombson, op. cit, p 73-74. Brown, Castles, p.

ومما يجدر ذكره أن القلاع التي امتلكها الفرسان الداوية والاسبتارية لم تضم مأوى للنساء ويعود ذلك برأي الباحث الى حياة الرهبنة التي عاشها الفرسان من ناحية، ورغبة منهم في الاحتفاظ بقوتهم العسكرية من ناحية ثانية لأن القلاع كانت على الدوام مهددة من قبل المسلمين. ويمكن الإشارة الى أن هذا يناقض الدور السياسي والاجتماعي الذي لعبته المرأة الفرنجية خارج القلعة. أما نساء الفرسان الآخرين والأمراء وغيرهم، فقد اقمن معهم في القلعة إلا أنهن لم يكن لهن دوراً فيها ولم يخرجن معهم الى الحرب.

وعلى صعيد آخر وفيما يتعلق بالجانب الصحي، فإنه وبسبب انتشار الأمراض بين السكان خارج القلعة فقد أدى ذلك إلى إنتشارها داخل القلاع ولهذا فقد ارتفع معدل الوفيات وخاصة بين فئات الأطفال[1]. ولهذا فقد إهتم حكام القلاع منذ البداية على إقامة مصحات لمعالجة المرضى القاطنين فيها ولإيواء الفقراء ومن الأمثلة على ذلك المستشفى الذي أقامه الفرسان التيوتون في قلعة القرين (Montfort)[2].

وبسبب ضعف خبرة الفرنج في هذا المجال فقد استخدم الفرنج في قلاعهم الأطباء العرب في معالجة مرضاهم[3].

أما فيما يتعلق بالحياة الاقتصادية التي عاشها سكان القلعة الفرنجية، فقد اقتضت الضرورة أن تكون القلاع مصممة كوحدة (لوجستيه[4]) بحيث تتوفر فيها معظم التجهيزات والموارد لجعلها تستمر في الحياة اليومية، والصمود في وجه أي حصار قد تتعرض له. لذلك نرى أن الكثير من القلاع قد جمدت في وجه الحصار لمدة طويلة قبل أن تسقط بسبب توفر مصادر الماء والغذاء. فقلعة الكرك مثلاً

---

(١) Fedden and Thombson, op. cit, p 89.

(٢) حسين، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، ص ٢٥٦؛ Indrikis : op. cit, p 356.

(٣) أنظر تفاصيل ذلك في كتاب «الإعتبار لأسامة بن منقذ، *الصفحات* ١٢٣-١٣٤.

(٤) اللوجستيه : نظرية عسكرية حديثة تعتمد على التكتيك العسكري، وتتضمن الخطط لتزويد الجيش بالمواد الضرورية اللازمة ومساندته عن طريق الامدادات الغذائية والصحية وتوزيعها وتسهيل وصولها من المركز الى ساحة المعركة، Inc. Of American. op. cit,V : 17, p 688.

صمدت لمدة سنة ونصف قبل أن تسقط بسبب توفر هذه الموارد فيها، حتى أنه لم يبق أي حيوان يمكن أكله[1]. لهذا نجد أن مصادر المياه كانت من أهم الموارد التي يجب توفرها في القلعة وقد بذل حكام القلاع جهوداً كبيرة في سبيل توفيرها للسكان. فقاموا بحفر الابار والبرك، والخزانات والأحواض لتجميع المياه أولاً، ثم توزيعها ثانياً. ولذا فليس غريباً أن نجد أن معظم قلاع الفرنج بنيت بالقرب من مجاري المياه[2] مثل قلعة عتليت وقلعة صفد التي تحتوي على بئر كبيرة لتجميع وتوزيع المياه على السكان «والماء بالحصن كثير من آبار وصهاريج لا يكاد يفرغ منه»[3].

وقد تم نصب أنظمة متشعبة للاستفادة من مياه الأمطار عن طريق قنوات من الفخار في العديد من القلاع مثل القرين وكوكب الهوى وغيرها بحيث استخدمت لصرف مياه الأمطار من الأسقف والأبراج والساحات في القلعة الى خزانات وآبار تجميع كبيرة داخل القلعة من أجل ضمان توزيعها على السكان، لاستعمالها في الأغراض المختلفة[4]، وتجدر الإشارة هنا أن هذه المصادر كانت محمية بشكل جيد وكافي.

من ناحية ثانية اهتم الفرنج بتوفير مصادر الغذاء المختلفة لسكان القلعة. فقد امتلكت القلعة مساحات شاسعة من الأراضي حولها لاستخدامها في الزراعة، وعلى هذا الصعيد فقد شكل الفلاحون الذين يعملون في هذه الأراضي عنصراً هاماً في الحياة الاقتصادية في القلعة. وكانوا على الدوام يعملون فيها. وهذا ما وجدناه بعد في بعض قلاع فلسطين بعد فتحها في عهد السلطان الظاهر بيبرس. فبعد أن

---

(١) Fedden and Thombson, op. cit, p 60.

(٢) Benvenisti. op. cit, p 289.

(٣) العثماني، صدر الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٧٨٠هـ/١٣٧٨م) قطعه من تاريخ صفد، نشرها: برنارد لويس بعنوان: "An Arabic Ac Count of the province of safad" In: B.S.O.A.S. Vol: 15, London, 1953, P. 487.

وسيشار له العثماني: قطعة

(٤) بردج، الحروب الصليبية، ص ١٩١؛ Benvensiti, op. cit, p 260.

استولى على قلعة صفد كان من ضمن الأسرى الذين وجدوا فيها العديد من الفلاحين.[1] ووجد في المصادر التاريخية أن القلعة كانت تنتج معظم المواد الغذائية الضرورية التي تحتاجها، مثل القمح والذرة والحنطة وقصب السكر والزيتون وبعض أصناف الفاكهة والخضروات التي انتشرت في الأراضي التي تقع حول القلعة[2] مع الاشارة لتوفر نظام خاص لري هذه المزروعات.

من جهة ثانية كان توفر تلك المحاصيل يفرض بعض المتطلبات والأعباء الإضافية، فكان لابد من نقلها الى داخل القلاع، ثم تخزينها، ولهذا أقام القائمون على القلاع مبانٍ لتخزين المواد الغذائية في الطوابق السفلية للقلعة،[3] بحيث بنيت وفق معايير خاصة لا تتأثر بعوامل المناخ كونها مقامة في المناطق الباردة والمظلمة. كما أن هذه المخازن كانت محصنة جيداً خوفاً من تعرضها للسرقة أو الإتلاف. وقد شاهد الرحالة دانيال الراهب (Danial Abbot) بعضاً من هذه المخازن في برج داوود في بيت المقدس التي احتوت على كميات ضخمة من الحنطة[4]. وقد انتشرت هذه المخازن في معظم قلاع الشام مثل كوكب الهوى والمرقب وحصن الأكراد وغيرها.

وكان لا بد من إيجاد طريقة لتصنيع هذه المواد الغذائية الخام لاستخدامها في إطعام السكان، ولهذه الغاية أنشأ الفرنج في معظم قلاعهم طواحين خاصة لطحن الحبوب لاسيما القمح والحنطة، وكانت تسير هذه الطواحين بواسطة الرياح، والبعض الآخر بواسطة الحيوانات[5]، وفي بعض الحالات إسْتَخدم الإنسان في تشغيل

---

(١) الكتبي، محمد بن شاكر بن عبدالرحمن بن هارون الدمشقي، (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م). عيون التواريخ تحقيق : فيصل سامر، ونبيله عبدالمنعم. بغداد : دار الحرية للطباعة، ج ٢٠، ١٩٨٠، ص ٣٣٦، وسيشار له: الكتبي، عيون التواريخ.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ١٥٥؛ ماير، الحروب الصليبية، ص ٢٢٨؛ Erbstosser, op. cit, p. 103; Smail, op. cit, p 120.

(٣) Holmes, op. cit, p 32.

(٤) الراهب، دانيال، رحلة الحاج الروسي في الديار المقدسة (١١٠٦-١١٠٧م)، ترجمة: سعيد البيشاوي وداوود أبو هدبة، عمان: د.ن، ط١، ١٩٩٢، ص٥٨، وسيشار له: الراهب، الرحلة.

(٥) ماير، الحروب الصليبية، ص ٢٢٨؛ Smail, op. cit, p 120.

هذه الطواحين[1].

وهكذا أعتبرت الطواحين من المتطلبات الأساسية لاستمرارعجلة الحياة الإقتصادية داخل القلعة وتوفير أسباب صمودها، وبالتالي فإن حرمان القلعة من هذه المتطلبات كان من أهم العوامل التي أدت إلى السيطرة عليها، فقد استسلمت قلعة انطاكية بسبب نقص الحبوب في القلعة[2]، وقلعة الكرك بسبب نقص الغذاء كما ذكرنا، وهذا يدل برأي الباحث على النمط المعيشي داخل القلعة باعتبارها مدينة كبيرة تستطيع أن تكفي نفسها من المواد الغذائية لتقاوم الحصار لفترة طويلة. وعمل الفرنج على الإهتمام بإنشاء معاصر للزيتون والكرمة وقصب السكر والتي انتشرت مزارعه في المناطق المحيطة بالقلعة، بهدف إنتاج زيت الزيتون والنبيذ، الذي استخدم على موائد الطعام[3].

وهناك مورد آخر اهتم الفرنج بتوفيره في القلعة يتمثل في المصدر الحيواني كالخيول والأغنام والأبقار وغيرها من الحيوانات، والتي أستخدمت في أغراض اقتصادية وعسكرية متعددة. وقد عمل القائمون على القلاع على تخصيص مساحات واسعة لايوائها في الطوابق السفلية للقلعة عن طريق بناء الحظائر والإسطبلات، وقد توفرت فيها وسائل الحماية من الغارات والسرقات[4]. وتتميز هذه الحظائر بسعتها الكبيرة لاستيعاب أعداد كبيرة فيها حتى تستطيع القلعة الصمود في وجه الحصار وتلافي نقص المؤن. كما قسمت هذه الأماكن تبعاً لنوع الحيوان بحيث تكون طويلة للخيول وضيقة للأغنام والخراف. وقد وصف أحد الرحالة الأوربيين بعض هذه الحظائر والإسطبلات بأنها تتسع لألفي حصان وألف

---

(١) يفسر هذا الوضع على وجود نظام للسخرة في القلعة تشكل من مجموع الأسرى الذين تم أسرهم في معارك الفرنج مع المسلمين حيث عملوا في الأعمال الشاقة.

(٢) ابن عبد الظاهر، محي الدين أبو الفضل عبدالله بن رشيد الدين (ت ٦٩٢/١٢٩٢م) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر. تحقيق : عبدالعزيز الخويطر، الرياض : د.ن، ط١، ١٩٧٦، ص ٢٠٨ وسيشار له : ابن عبدالظاهر : الروض الزاهر.

(٣) Prawer : Lating kingdom, op. cit, p 31. Benvensiti, op. cit, p 289.

(٤) زكي، العمارة العسكرية، ص ١٢٤، رنسميان، الحروب الصليبية، ج٢، ص ٦٢٨

وخمسمائة جمل[1]. وهذا يبين مدى اهتمام القائمين على القلاع بتوفير هذا العنصر الهام في القلعة لدوره في الحياة الاقتصادية فيها.

أما عن الحياة العسكرية في القلعة فقد ذكرنا في الفصل الثاني أن ملوك الفرنج وأمراءهم وفرسانهم أقاموا العديد من القلاع في معظم أنحاء بلاد الشام بعد تأسيس ممالكهم وإماراتهم فيها. وكان النشاط العمراني المتمثل ببناء القلاع هو إستجابة لظروف الفرنج الذين عانوا من نقص أعداد المحاربين بعد انتهاء الحملة الأولى. ولهذا السبب أنشأوا العديد من القلاع والحصون بغرض الدفاع عن تواجدهم الذي تهدد منذ وصولهم من قبل المسلمين. وفيما بعد أنشأت لأغراض التوسع والسيطرة على المزيد من الأراضي والمدن، ولتشديد المراقبة على الطرق والممرات التي تربط بين الشام ومصر والجزيرة العربية كما ذكرنا. وبناءاً عليه فقد مارس الفرنج سياسة تهدف إلى تحصين كياناتهم عن طريق انشاء شبكة من القلاع التي انتشرت في المواقع الاستراتيجية كقمم الجبال والمخاضات والسواحل. ويبدو أن الفرنج كانوا يسعون لتطبيق النظرية القائلة «أنَّ مَنْ يسيطر على القلاع يسيطر على الأرض»[2].

وعبر سياسة ملء الفراغ قام الفرنج ببناء تلك التحصينات واستقدموا الجنود والفرسان للمرابطة والعيش فيها، للقيام بواجبهم المطلوب منهم في الدفاع عنها وحراستها والتصدي لأي هجوم تتعرض له، وذلك بعد تزويدها بنظام دفاعي لايمكن اختراقه بسهوله[3]. لهذا أصبحت القلاع مركزاً لانطلاق الخيالة والفرسان في معاركهم كما مارسوا دوراً هاماً ليس في بناءالقلاع وتحصينها، وإنما في حراستها والدفاع عنها، لما عرف عنهم من كفاءة وقوة. وقد تكونت حامية القلعة من أفضل هؤلاء الفرسان تنظيماً وتدريباً وتسليحاً، وتميزت بالحنكه الحربية في أساليب

(١) Wulzburg : op. cit, p 310.

(٢) Brown. Architecture op. cit, p9.

(٣) بردج، الحروب الصليبية، ص ١٩١.

الهجوم والدفاع لضمان استمرار دورها[1]، مع التنبيه لتداخل وتكامل متطلبات هذا الاستمرار من حيث توفر وسائل الدعم الإقتصادي من مياه وطعام وغيرها من المواد الضرورية اللازمة لاستمرار الحياة فيها.

أما النقص في القوى البشرية الحربية في القلعة فإنه يؤثر على أدائها ويجعلها تتعرض لمخاطر السقوط، مما يفرض المزيد من الأعباء على حاميتها وسكانها. إذ إن هذا النقص بلا شك هو العامل الرئيسي في سقوط القلاع[2] بالإضافة إلى بعض العوامل الأخرى. فقد سقطت قلعة تبنين مثلاً بعد اسبوع من حصارها لنقص المدافعين عنها. أما بالنسبة لأعداد الجنود في الحامية التابعة للقلعة فكانت متفاوتة العدد، فقد كانت حامية قلعة صفد مثلاً تتكون من خمسين فارساً، وخمسين خيالاً، بالإضافة الى أعداد من الرقباء والعبيد والخدم للقيام بالأعمال الإدارية والعسكرية الأخرى داخل القلعة[3] ومن الملاحظ أن هذا العدد غير كاف للدفاع عن القلعة برأي الباحث، إذ إن أعداد الجنود والفرسان الذين أسروا أو قتلوا خلال مرحلة تحرير القلاع مابعد حطين كانت أكبر بكثير من هذا العدد. وحتى في مرحلة التحرير الثانية زمن الظاهر بيبرس وخلفائه، تبين أن أعدادهم أكبر بكثير من هذا العدد الذي ذكر، وربما يكون هذا العدد في أوقات السلم وليس في أوقات الحرب.

على صعيد آخر مارس رجال الحاميات أيضاً في أوقات السلم بعض الأعمال العسكرية والإدارية داخل القلاع. فقد احتوت القلعة على المئات من العمال والعبيد الذين عملوا في صناعة آلات الحرب وصيانتها في ورشات عمل خاصة في الطوابق السفلية للقلعة، ويعتبر الخشب والحديد من أهم المواد الداخلة في الصناعات الحربية داخل القلعة[4]، وكان هؤلاء جميعاً يقومون في أوقات الشتاء وأوقات السلم والهدوء العسكري بإصلاح وترميم القلاع التي تضررت بسبب الحروب أو بفعل

---

(١) Brown. Castles. op. cit, p3.

(٢) Fedden and Thombson, op. cit, p 58.

(٣) Benvensiti, op. cit, p 203, 278. Brown, Architecture, op. cit, p66.

(٤) Holmes, op. cit, p 28.

الزلازل[1].

من جهة ثانية اشتملت القلعة على العديد من المباني المرتبطة بالأمن والحرب، فكان جنود الحامية في العادة يعيشون في غرف صغيرة وبسيطة مبنية داخل أسوار القلعة في حين أن المقدمين والقواد الكبار نالوا غرفاً أوسع وأكبر مع خدمات أكثر.

ومن ضمن المباني المرتبطة بالحياة العسكرية في القلعة، وجود مخافر للشرطة التي استخدمت في فض النزاعات بين السكان. كما احتوت معظم القلاع الفرنجية على سجن استخدم لسجن الأسرى والمجرمين[2] حيث أن الكثير من القلاع التي حررها صلاح الدين ومَنْ بعده، وجد فيها الكثير من الأسرى المسلمين. ويجب علينا أن لا ننسى أن القلعة الفرنجية احتوت بداخلها على قاعات واسعة استخدمت في عقد مجالس الحرب، ومناقشة الأوضاع العسكرية التي تمر بها دول الفرنج بشكل عام.

وتجدر الاشارة هنا الى جانب آخر يتعلق بالدور الذي لعبته الكنيسة في الحياة العسكرية داخل القلعة، خاصة بالنسبة للفرسان الذين تميزوا بالتعصب الديني الأعمى، ولهذا فقد أقيمت لهم كنائسهم في معظم قلاع الشام لأداء الطقوس والصلوات، وتلقي الدروس الدينية. كما أقيمت كنائس لسكان الضواحي المنتشرين حول القلاع[3] وتمثل هذه الكنائس نماذج فعلية لفن العمارة الفرنجية في الشرق، بحيث تميزت تلك الكنائس بقاعاتها الكبيرة وجمال زخرفتها[4].

وفي الواقع فإن الباحث يعتقد بأنه لايمكن دراسة أنماط الحياة داخل القلعة الفرنجية دون الأخذ بعين الاعتبار التكامل بين أهداف القلاع واحتياجاتها ومتطلبات بقائها. بحيث كانت تمثل وحدة مستقلة تسعى للاعتماد على نفسها

---

(١) Benvensiti, op. cit, p 203, 290.

(٢) سميل، الحروب الصليبية، ص٥٨؛ Cathcart king, op. cit, p5.

(٣) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٦٤٠.

(٤) Hamilton, Bernard. The Latin Church of the Crusades States, London, 1980, p 93.

كوحدة انتاجية - استهلاكية في بناء مجتمعها. ثم الوصول الى مواجهة المصاعب السياسية والعسكرية والاقتصادية تحت شعار الحفاظ على الوجود الفرنجي على الأرض العربية والإسلامية. وتطويع البيئة المحلية للقبول بهم كعضو طبيعي مفروض في هذه المنطقة. وقد عبر عنه فوشيه الشارتري بقوله : إذ إن أولئك الذين كانوا غربيين أصبحوا شرقيين ومن كان رومياً أو فرنجياً قد تحول في هذه البلاد الى جليلي أو فلسطيني، ومن أتى من الراين أو شارتر أصبح الآن مواطناً في صور وانطاكية[1].

(١) الشارتري، تاريخ الحملة، ص٢١٨.

الفصل الرابع

دراسة تاريخية وعسكرية
لاهم القلاع في شمال فلسطين

تعتبر القلاع التي أنشأها الفرنج في بلاد الشام مثالاً بارزاً للعمارة الفرنجية، وهي شاهد على المفهوم الاستراتيجي والاستعماري الذي قامت لأجله. وقد اتسمت المرحلة التاريخية التي شهدت بناء القلاع بالطابع الحربي، لطبيعة الصراع بين المسلمين والفرنج. وبالتالي فقد أملت تلك الظروف على أطراف النزاع تصميم نمط معين من العمارة، تمثل بالقلاع والحصون، لتمكينها من مجابهة تلك الأحداث من جهة، وتلبية الأغراض الخاصة الأخرى، -كان تكون محطة استراحة أو مخزن للمؤن ... الخ- من الجهة الأخرى.

وحيث أن المكان الذي يُختار لاقامة التحصينات عليه يصبح جزءاً رئيسياً من المبنى ذاته، فقد لمسنا مدى الدقة في اختيار المواقع التي بنيت عليها القلاع سواء كانت فوق قمة جبل أو هضبة أو مخاضه[1] من أجل ضمان السيطرة والاشراف وتوفير المزيد من متطلبات الأمن والحماية، كما هو الحال في قلاع كوكب الهوا وصفد وهونين والكرك والحصن وغيرها. أو كأن تكون على شاطىء بحر كقلاع عثليت وقيسارية وصور وعسقلان التي تشرف على الطرق البرية والبحرية التي تربط الشام بمصر.

كنا قد أشرنا في الفصل الثاني إلى سياسة ملوك الفرنج وفرسانهم في بناء القلاع وتحصينها في داخل المملكة وحول أطرافها التي مكنت أصحابها من الوفاء بمعظم حاجاتهم العسكرية والشخصية الخاصة، فمن جهة كان بوسعه أن يحتفظ في داخلها بالقوة اللازمة للسيطرة على المنطقة المحيطة بها، وحفظ الأمن فيها وحمايتها، ومن الجهة الأخرى كان باستطاعته استخدام تلك القوة نفسها في الاستفادة من تلك المنطقة من الناحية الاقتصادية.

وما يهمنا في هذا الفصل هو القلاع التي أقيمت في فلسطين وبالأخص الشمالية منها، والتي قامت بدور بارز في الصراع الاسلامي-الفرنجي. ويمكن

---

(١) المخاضة : الخوض : المشي في الماء. والموضع مخاضه : وهي ما جاز الناس فيها مشاة وركباناً. وجمعها المخائض والمخاوض. ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص ٩٢، مادة خَوَضَ.

تقسيم قلاع شمال فلسطين الى ثلاثة أنواع :

١- القلاع الاستراتيجية

٢- القلاع الساحلية.

٣- الحصون الداخلية الصغيرة.

أولاً : القلاع الاستراتيجية

قلعة كوكب الهوا : (Belvoir)

التسمية والموقع : تسمى بالعربية كوكب الهوا (Kaukab el-Hawa) ومعناها النجم[١]، واطلقت عليها المصادر الفرنجية واللاتينية اسم «بلفوار» (Belvoir) ومعناه المشهد الجميل. وأما اسم «كوكيت» (Coquet) فهو تحريف فرنسي لاسم القلعة كوكب[٢].

تقع القلعة في شمال فلسطين في اقليم الجليل على تل بارز يطل على وادي الأردن بين السهول الواقعة بين طبرية وبيسان على ارتفاع يبلغ ٥٠٠ متر عن سطح البحر[٣]. وهي تشرف على وادي الأردن الشمالي والطرق الواقعة الى الجنوب من بحيرة طبرية حتى بيسان[٤].

وقد هدف الفرنج من بنائها السيطرة على الطريق القادمة من دمشق باتجاه فلسطين الذي يسير عبر شمال الأردن الحالي فالأغوار جنوب بحيرة طبرية وشمال كوكب الهوا حتى ينتهي الى عكا[٥]. وقد منحها موقعها الاستراتيجي هذه الميزات الهامة. فقد وصفها بعض المؤرخين المسلمين بأنها «راسية، شماء، شامخة»[٦].

---

(١) بورشارد، الأرض المقدسة، ص ٩٥.

(٢) Rey. E.G : Les Colonies Franques en Syrie aux, XII, Siecles, paris 1883, p 436. J. Prawer, Latin Kingdom, p 358.

(٣) الصوري، تاريخ الحروب، ج٤، ص ٢٩٠؛ الحياري، صلاح الدين، ص ٣٥٢؛ Jaques de vitry, op. cit, p 26.

(٤) سميث، الاسبتارية، ص١١٨؛ Prawer. Historie de Royame, V2. p. 332.

(٥) غوانمه، إمارة الكرك، ص ٢٤٤.

(٦) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ص ١٦١، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ١٦٠.

وبسبب موقعها المرتفع فقد وصفت بالنجم العالي، ونجمة الرياح وحصن الكوكب[1]، لأنها تجلس في الأعالي بين النجوم كأنها عش نسر، وكأنها جار للقمر[2].

كما يعتبر هذا الحصن من أهم الحصون الحدودية التي أقامها الفرنج في شمال فلسطين لحمايتها وحراستها من هجمات السوريين، ذلك أن أي قوة تقطع نهر الأردن بهدف التقدم نحو منطقة شمال فلسطين يمكن مشاهدتها من قبل القوات المتمركزة في القلعة. فقد صدت الكثير من هجمات اتابك دمشق ثم نورالدين وصلاح الدين فيما بعد[3]، ولهذا فقد ووجه صلاح الدين بمقاومة عنيفة قبل أن يسيطر عليه لحصانته ومناعته، وفي هذا يحدثنا شاهد عيان وهو العماد الاصفهاني الذي رافق صلاح الدين في حصاره بقوله «وهو حصن لايرام، وركن لا يضام، ومعقل لا يسامي ولا يُسام... وقلعة لاتطلب»[4]. كما أن حاميتها كانت قوية لدرجة أن القلعة صمدت لمدة ثمانية عشر شهراً قبل أن يستولي عليها صلاح الدين، ولهذا فقد تطلب قوات كبيرة لحصارها «فهو حصن لايؤخذ إلا بجمع العساكر عليه. وفيه رجال شداد وميره عظيمه»[5] مما جعله يتحمل الحصار لمدة طويلة.

كما شكلت هذه القلعة ضرراً كبيراً على السكان المحليين بسبب فرض الضرائب عليهم بالقوة. ولهذا فليس غريباً ان تُهاجم بقوة بشكل لايدع للشك في أهميتها الاستراتيجية سواء كانت الدفاعية أو الهجومية[6].

---

(١) شاوندر، صلاح الدين، ص ٢٤٥؛ Benvensiti, op.cit., P29.

(٢) H.J.A., Sire, op. cit. p 18.

(٣) Smail, op. cit, p 100.

(٤) الاصفهاني، عماد الدين أبو عبدالله محمد بن صفي الدين بن هبة الله (ت ٥٧٩هـ/١٢٠١م) الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق : محمد محمود صبح، القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر، د.ت. وسيشار له فيما بعد، الأصفهاني: الفتح القسي.

(٥) ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف ابن رافع بن تميم (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٩م) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية. تحقيق : جمال الدين الشيال، ط١، القاهرة : الدار المصرية للنشر، ١٩٦٤، ص ٨٥، وسيشار له فيما بعد: ابن شداد: النوادر؛أبو شامة الروضتين، ج٢، ص ١٢٤.

(٦) سميث، الاسبتارية، ص ١٤٢.

بناؤها ودورها التاريخي والعسكري (دورها في الصراع الفرنجي/الإسلامي) :

بنيت قلعة كوكب الهوا في زمن الملك الفرنجي فولك الانجوي (٥٢٦-٥٣٨هـ/ ١١٣١- ١١٤٣م) في العام ٥٣٦هـ/١١٤١م ضمن سياسته في تحصين شمال مملكة بيت المقدس وذلك لتبيث السيطرة الفرنجية على الطرق المؤدية إليها، وجعلها نقطة حماية وقاعدة للجيوش الفرنجية التي تهاجم اتابكية دمشق. ويعتبر بناء القلعة من أهم الانجازات الفرنجية في تلك الفترة، إذ تبلغ مساحتها ١٢ ألف متر مربع، وهي على شكل مستطيل أطواله ١٦٠م، ١٢٠م[١].

وكان البناء الأول لهذه القلعة صغيراً ومتواضعاً، وقد ملكه نبيل فرنسي تابع للملك. وبقيت تابعة له حتى اشتراها منه الفرسان الاسبتاريون في العام (٥٦٤هـ/ ١١٦٨م). مقابل ١٤٠٠ بيزنط[٢] لأنه لم يعد بامكانه تحمل نفقاتها[٣].

وقد قام الفرسان الاسبتارية بعد شرائها بتحصينها بشكل أفضل، بحيث لم يبق شيء من بنائها الأصلي، وزادوا على ذلك بشراء بعض الأراضي حول القلعة تحتوي على العديد من القرى القريبة من إقطاعية طبرية وضمت إلى الأراضي قلعة كوكب الهوا[٤].

وقد شاركت هذه القلعة في التصدي للحملات التي شنتها قوات صلاح الدين قبل معركة حطين وخاصة حملات الأعوام ٥٧٨هـ، ٥٧٩هـ/١١٨٢م ١١٨٣م. كما أنها صمدت طويلاً أثناء الحصار الذي تعرضت له بعد معركة حطين لحصانتها ومناعة دفاعاتها[٥]. وبعد استيلاء القوات الاسلامية على القلعة قاموا باعادة ترميم بعض اجزائها التي هدمت بسبب القتال مع حاميتها الاسبتارية.

---

(١) بوشارد. الأرض المقدسة، ص٩٥؛ Boase. Castles and Churches, op.cit., p43 .

(٢) البيزنط : Bezant هي عمله ذهبية كانت متداولة في العصور الوسطى. وتعادل ٣.٥ غم من الذهب. وأول من ثبته الامبراطور قسطنطين الكبير. البيشاوي، الممتلكات، ص ١١٨، هامش٤.

(٣) سميث، الاسبتارية، ص ٧٢؛ Smail, op. cit, p 102.

(٤) سميث، الاسبتارية، ص ٤٢٨، الحياري، صلاح الدين، ص ٣٥٢.

(٥) ابن واصل. مفرج الكروب، ج٢، ص٢٧٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، مج٦، ص ٣٥٢.

واستمرت القلعة تقوم بدورها العسكري في الدفاع عن الوجود الاسلامي في فلسطين حتى توقيع صلح الرملة[1] في ٢٢ شعبان ٥٨٨هـ/٢ أيلول١١٩٢م بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد (Richard Lion Heart) أحد قواد الحملة الفرنجية الثالثة حيث كانت تحت ولاية الأمير صارم الدين قايماز النجمي[2].

وبعد وفاة صلاح الدين في (٢٧ صفر ٥٨٩هـ -٤ آذار ١١٩٣م) تولى أخوه العادل أبو بكر بن أيوب (٥٩٧-٦١٥هـ/١٢٠٠-١٢١٨م) الحكم وادارة الصراع مع الفرنج. وقد قام العادل باقطاع قلعة كوكب الهوا الى الأمير عز الدين أسامه[3] بعد وفاة واليها صارم الدين قايماز النجمي[4].

ومع بداية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي لم تعد قلعة كوكب الهوا تلعب دوراً عسكرياً هاماً بسبب تغير طبيعة الصراع ومواقعه بين المسلمين والفرنج، فقد انتقلت دفة الصراع بين الطرفين الى المناطق الساحلية من بلاد الشام. في حين سيطر المسلمون على كافة المناطق والقلاع الداخلية ومن ضمنها

---

(١) صلح الرملة : وقع هذا الصلح بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد في العام ٥٨٨هـ/١١٩٢م. ومن ضمن شروطه : ان تكون عسقلان خراباً، تكون البلاد الساحلية من يافا حتى صور للفرنج، أما اللد والرملة فمناصفه. وقد وقع لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر. ووافق عليه الفرسان الداوية والاسبتارية. ابن شداد، النوادر، ص ٢٣٢-٢٣٤. أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص ٨٣.

(٢) صارم الدين قايماز النجمي (ت٥٩٦هـ/١١٩٩م) أحد مقدمي السلطان صلاح الدين وقائد جيشه الذي حاصر قلعة كوكب في العام ١١٨٧/٥٨٣. بعد حطين. وعينه صلاح الدين أمراً عليها، وعلى قلاع صفد وهونين وغيرها. كان كثير الصدقات. ابن الأثير، الكامل. مج٧. طبعه مؤسسة التاريخ العربي، ١٩٩٤م. ص ٣٤٥، ٣٥٦ ابن واصل مفرج، ج٢، ص ٢٧-٢٨.

(٣) عزالدين اسامه : أحد أمراء الملك العادل، تولى امارة بيروت. قام بشن غارات عديدة على مراكز الفرنج على الساحل الشامي. ثم ولاه العادل ادارة قلاع كوكب وعجلون إلا أنه صادرها منه بسبب تحالفه مع الأفضل، حاكم دمشق. ثم قبض عليه وسجنه في الكرك في العام ٦٠٩هـ/١٢١٢م. ابن الأثير. الكامل، مج٧، طبعة مؤسسة التاريخ العربي، ص٤٢٤، ٤٤٥-٤٤٦؛ ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي بن أحمد (ت٨٠٧هـ/١٤٠٥م). تاريخ الدول والملوك، تحقيق: حسن الشماع، م٥، ج١، البصرة: (د.م)، ١٩٧٩، ص١١٧-١١٨. وسيشار له: ابن الفرات: تاريخ الدول.

(٤) أبو شامه تراجم القرنين السادس والسابع الهجريين (الذيل على الروضتين)، صححه : محمد الكوثري، بيروت : دار الجيل، ط٢، ١٩٧٤، ص ١٠٧، وسيشار له فيما بعد، ابو شامه، الذيل.

قلعة كوكب الهوا[1].

استمر الصراع على القلعة بين الفرنج والمسلمين بعد معركة حطين، فقد قام المعظم بن العادل [2] (٦١٥-٦٢٤هـ/١٢١٨-١٢٢٧م) في العام ٦٠٨هـ/ ١٢١٢م بالتوجه الى قلعة كوكب الهوا، وعندما وصلها أمر بهدمها وتخريبها، ونقل ما فيها من ميره وسلاح الى قلعة الطور التي بدأ ببنائها في نفس العام[3]، وكان السبب في ذلك هو قيام الفرنج بحركة عظيمه في عكا ومهاجمتهم المنطقة الداخلية التي يسيطر عليها المسلمون (الجليل الغربي) ووصولهم الى مشارف قلعة كوكب الهوا[4]. ولهذا فقد رأى العادل هدم القلعة وبناء حصن جديد على جبل الطور لمواجهة غارات الفرنج ووقف تقدمهم وتوغلهم إلى داخل فلسطين[5].

بقيت القلعة مهجورة وفقدت أهميتها العسكرية بسبب بعدها عن مركز الصراع، وعدم وجود خطر يهددها، وتركيز اهتمام المسلمين بقلعة صفد. ثم عادت في العام ٦٣٩هـ/١٢٤١م. مرة أخرى الى فرقة الاسبتارية بموجب الاتفاقية التي

---

(١) Boase : Castles and churches, op. cit, p 65. Benvensiti, op. cit, p297.

(٢) الملك المعظم عيسى بن العادل بن أيوب : (ت ٦٢٤/١٢٢٧م). أحد الملوك الأيوبيين، امتدت مملكته ما بين حمص الى العريش جنوباً، قام بعدة أعمال عمرانية في القدس ودمشق، حارب الفرنج في أكثر من موقعه. اتصف بعدة صفات منها أنه كان عالماً فاضلاً يتقن علوم اللغة. ومن صفاته الأخرى الشجاعة والاقدام. توفي وعمره ٤٧ سنة بمرض الدوسنطاريا. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص٢٠٩-٢١٠.

(٣) أبو شامه، الذيل، ص ١٥٢. ابن أيبك، أبي بكر بن عبد الله الدوداري (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) كنز الدرر وجامع الغرر «الدر المطلوب في أخبار بني أيوب» ج٧، تحقيق : سعيد عبدالفتاح عاشور. القاهرة، د.م ١٩٧٢. ص ١٧٢. وسيشار له فيما بعد، ابن ايبك، كنز الدرر. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص٢١٦. ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر بن عمر بن محمد (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م). تتمة المختصر في أخبار البشر «تاريخ ابن الوردي». تحقيق : أحمد رفعت البدراوي، بيروت: دار المعرفة الجامعية، ط١، ١٩٧٠، ج٢، ص ١٩٤، وسيشار له فيما بعد. ابن الوردي، تتمة المختصر.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب. ج٣، ص ٢٠١، ابن ايبك، كنز الدرر، ج٧، ص ١٧٢.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص ٢١٦، ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج٢، ص ١٦١، ابو الفدا، المختصر، ج٣، ص ١١٤.

عقدت بين الملك الصالح نجم الدين أيوب[1] (٦٣٨-٦٤٧هـ/١٢٤٠-١٢٤٩م) وريتشارد كورنوول[2] (Richard Cornwall) الذي قاد حملة فرنجية من أوروبا الى فلسطين عام ٦٣٩هـ/١٢٤١م[3].

وفي العام ٦٤٥هـ/١٢٤٧م، تعرضت القلعة للهجوم والحصار من قبل قوات الملك الصالح أيوب إلا أنها فشلت في السيطرة عليها، وبقيت تحت سيطرة الإسبتارية[4]. ولم تسعفنا المصادر بتاريخ تحريرها من الفرنج. إلا أنه يمكن الافتراض أنها عادت الي سيطرة المسلمين بعد قيام الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م) بالبدء بتحرير قلاع فلسطين في النصف الثاني من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، حينما حرر أرسوف وقيسارية وصفد بين الأعوام ٦٦٠-٦٦٤هـ/١٢٦٢-١٢٦٦م.

---

(١) الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل (ت ٦٤٧هـ/١٢٤٩م). هو السلطان السابع الأيوبي، تولى حصن كيفا زمن والده الكامل، ثم تولى السلطنة في مصر عام٦٣٨هـ/١٢٤٠م، حارب الفرنج وخاصة في حملتهم على دمياط والمنصورة عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م انتزع دمشق من واليها الصالح اسماعيل عام ٦٤٥هـ/١٢٤٧م. قام بعده اصلاحات في مصر حيث أنه عمرّ المدارس والقلاع، وكان ملكاً شجاعاً ذا هيبة وسطوه. وقد أوصي بالسلطنة إلى إبنه المعظم تورانشاه. ابو شامه، الذيل، ص ١٨٤-١٨٥. القرماني، أخبار الدول، مج٢، ص٢٦١-٢٦٣.

(٢) ريتشارد كورنول : أحد القواد الفرنج الذين حضروا الى فلسطين في حملة عام ٦٣٨هـ/١٢٤٠م، وقام بتوقيع هدنه مع الصالح أيوب صاحب مصر عام ٦٣٩هـ/١٢٤١م. وقد عين نائباً للامبراطور فريدريك الثاني في حكم المملكة. وقد عاد الى أوروبا في نفس العام. رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٢٨١-٢٨٢.

(٣) ابن ابيك، كنز الدرر، ج٧، ص ٣٤٥، عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ٩٩٣. وبموجب هذه الاتفاقية اعترف الصالح أيوب بالمعاهدة التي عقدها الصالح اسماعيل حاكم دمشق مع الفرنج بحقهم في ملكية الشقيف ارنون واقليم الجليل بما فيه حصون تبنين وهونين وطبريه والطور وكوكب الهوا ويافا وعسقلان. المقريزي، أحمد بن علي بن محمد بن إبراهيم بن تميم (ت٨٤٥هـ/١٤٤٢م). السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه: محمد مصطفى زيادة، القاهرة: لجنة التاليف والطباعة والنشر، ط١، ج١، ق٢، ١٩٥٦، ص ٣٠٣. وسيشار له فيما بعد: المقريزي. السلوك.

(٤) سميث، الاسبتارية، ص ٤٢٨.

الموقع وأهميته الاستراتيجية : صفد هي حصن منيع كانت قديماً قرية، وحينما احتلها الفرنج، أقاموا فيها حصناً سمي صفت ثم قيل صفد[1] وتعني العطاء والوثاق[2]، كما سميت صفد بمعنى الغل لأنها «جبل عال ووعر، لايتمكن ساكنها من الحركة كل وقت، ان ركب تعب، وإن مشى على قدمه اختلط لحمه بدمه لصعود الربوة وهبوط الوهدة»[3]. أما الفرنج فقد ترجموا الاسم العربي الى اللغة اللاتينية وسموها (Sapheth saful) [4].

تقع قلعة صفد شمال غرب مدينة صفد في أقصى شمال فلسطين في منطقة الجليل الأعلى، وترتفع عن سطح البحر حوالي ٨٤٠م. وهي واقعة الى الشمال الغربي من بحيرة طبرية والى الجنوب الغربي من بحيرة الحولة[5]. وإذا نظرنا إلى موقعها نلاحظ أنها تقع على نفس خط الطول مع قلعة كوكب الهوا وتبعد عنها حوالي ٥٠كم الى الشمال. وتشكل هذه القلعة مع قلعة كوكب أهمية بالغة لأنهما من أخطر القلاع وامنعهما في مملكة بيت المقدس[6]. حيث تعتبر قلعة صفد من القلاع التي لايوجد لها نظير في بلاد الشام إلا عشرة قلاع[7].

وتشرف هذه القلعة الحصينة على بحيرة طبرية والتلال المحيطة بها وتحف

---

(١) شيخ الربوه. نخبة الدهر، ص ٢١١.

(٢) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٦، ق٢، ص ٧٧.

(٣) العثماني، قطعة من تاريخ صفد، ص ٤٧٩.

(٤) Jacques de vitry, op. cit, p 25.

(٥) زكار. سهيل، «فلسطين في عصر المماليك»، الموسوعة الفلسطينية، ق٢، م٢، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط١، ١٩٩٠، ص ٥٤٨. وسيشار له فيما بعد: زكار: فلسطين في عصر المماليك.

(٦) الاصفهاني، الفتح القسي، ص ١٧١، ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ص ١٦٢.

(٧) ابن شاهين الظاهري، غرس الدين خليل (ت ٨٧٣هـ/١٤٦٧م) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك. صححه : بولس راويس. باريس: المطبعة الجمهورية، ١٨٩٤، ص ٤٤، وسيشار له: ابن شاهين. زبده؛

T.E. Lawrence. Crusader Castles. London : Immel publishing. 1992. p 78.

بها الجبال والأودية وخاصة جبل الجرمق[1]. فقد وصفها ابن شداد بقوله «وقلعة صفد منيعة قد تقاطعت حولها أودية من سائر جوانبها[2]، في حين ان شيخ الربوة الدمشقي وصفها بقوله : «وهي حصن بقية جبل كنعان في أرض الجرمق»[3] . أما الرحالة الأوروبيين فقد بينوا أهميتها وتحكمها في طرق الموصلات. فقد اعتبرها بورشارد (Burchard) من أمنع القلاع لوقوعها على صخرة عالية شامخة الارتفاع[4].

والقلعة ذات شكل بيضوي طولها ٩٥م. وعرضها حوالي ٤٠م[5]، وقد أصبحت قلعة صفد بعد بنائها من أقوى وأعظم القلاع في فلسطين لأنها أصبحت تسيطر على الطريق القادم من دمشق إلى فلسطين عبر وادي الأردن الشمالي. والطرق الممتدة من الجليل الأعلى الى عكا والساحل الفلسطيني[6]. ولذلك فلا غرابة ان يطلق عليها الفرنج ... (مفتاح الجليل)[7]، وان يهتموا بتحصينها وبتقويتها أكثر من مرة.

وقد شكلت خطورة كبيرة على الوجود الإسلامي، ولهذا لم ينفكوا عن مهاجمتها منذ أيام نور الدين زنكي مروراً بصلاح الدين حتى الظاهر بيبرس الذي حررها عام ٦٦٤هـ/١٢٦٦م. فقد وصفت بأنها «القلعة التي يضرب بها المثل في حصانتها ويطمئن أهل الاسلام في ايداع أموالهم وأهلهم الى أمانتها، قد اطلت على الكواكب نزولاً، واتعبت الرياح لما حَلّقت اليها، وأضافت الهلال حتى وقف رقيباً عليها ...الخ»[8] ولهذا فليس غريباً من قيام المؤرخين والفقهاء المسلمين بمهاجمة الملك

---

(١) جبل الجرمق : من جبال الجليل يقع الى الشمال الغربي من صفد، ويرتفع حوالي ١٢٠٨م، عن سطح البحر وهو أعلى قمم فلسطين. وسمى بذلك نسبة الى قبيلة الجرامقه العربية التي سكنت تلك المنطقة. شراب، معجم، ص ٢٥٤، الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٦، ق٢، ص ٦٤.

(٢) ابن شداد، النوادر، ص٩٥. أبو شامه، الروضتين، ج٢، ص ١٣٥.

Ayyubids, Mamlukes, op. cit, 112.

(٣) شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٢١١.

(٤) بورشارد، الأرض المقدسة، ص٦٩-٧٠.

(٥) Rey. op. cit, p 445.

(٦) بورشارد، الأرض المقدسة، ص ٧٠، غوانمه، امارة الكرك، ص ٣٤٤.

Boase : castles and churches, p 65.

(٧) بورشارد، الأرض المقدسة، ص ٦٩؛ Benvensiti, op. cit, p 201.

(٨) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٢، ص ٢٠٦.

الصالح اسماعيل[1] (٦٣٩- ٦٤٥هـ/١٢٤١-١٢٤٧م) بعنف عندما تنازل للفرنج عنها في العام ١٢٤١/٦٣٩م لأنها شكلت خطراً كبيراً عليهم فهي «الغصة في حلق الشام، والشجا في صدر الاسلام»[2] فقد أعاقت تحركاتهم وتنقلاتهم بين سوريا وفلسطين واعتبرت أيضاً عش البلية الذي هدد تواجد المسلمين على الدوام[3]، ولهذا فعندما سيطر عليها الظاهر بيبرس في العام ٦٦٤هـ/١٢٦٦م جعلها مركزاً متقدماً لانطلاق هجماته على بقية قلاع شمال فلسطين وسوريا[4] «فهي قلعة قل ان يوجد مثلها شبيه، لا تروم السحب إلا من ضبب ... ولا تجاوز الأرض إلا وهي إذا رامت السماء، ولا يعوقها سبب، ولما فتحها الملك الظاهر عظمها لأنها تستحق التعظيم».[5]

بناؤها وتطور دورها التاريخي والعسكري :

تعتبر قلعة صفد واحدة من المراكز المحصنة التي أقامها الفرنج في شمال فلسطين، فبعد أن احتل الفرنج بيت المقدس قاموا بالتوسع شمالاً حيث أنشأوا أساساتها الأولى في العام ٤٩٥هـ/١١٠٢م[6]. والذي قام ببنائها هو أمير الجليل

---

(١) الصالح اسماعيل بن العادل بن ايوب (ت ٦٤٥هـ/١٢٤٧م)تولى امارة دمشق في العام٦٣٩هـ/١٢٤١م وخلال توليه لها دخل في صراع مع ابن اخيه الصالح أيوب فتحولت الشام الى ساحة للفوضى والاضطراب. وقد تعاون مع الفرنج ووقع معهم معاهدة تنازل عن قلاع طبرية وعسقلان وتبنين في العام ٦٣٩هـ/١٢٤١م. وتحالف معهم في حربه ضد الصالح أيوب، وكان متقلب الأطوار والأحوال. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، م٧، ص١٩١.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٥٤؛ Ayyubids, Mamlukes, op. cit, p 113.

(٣) الأصفهاني، البرق الشامي. تحقيق : مصطفى الحياري، عمان : مؤسسة عبدالحميد شومان، ط١، ١٩٨٧، ج٣، ص ١٧٧، وسيشار له فيما بعد، الاصفهاني: البرق الشامي. أبو شامه، الروضتين، ج٢، ص ١١.

(٤) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٩٤.

(٥) العمري، شهاب الدين بن العباس بن يحيى بن فضل الله (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م). مسالك الأبصار في ممالك الأمصار «دولة المماليك الأولى، تحقيق ودراسة : دروروتيا كرافولكسي، بيروت: المركز الإسلامي للبحوث، ط١، ١٩٨٦، ص ٢٠٦، وسيشار له فيما بعد: العمري، المسالك "دولة المماليك الأولى"، العمري، المسالك، "مصر والشام"، ص ١٣٤.

(٦) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج٢، ص ١٤٦، العمري، مسالك الأبصار، "مصر والشام"، ص ١٣٤. Ayyubids, Mamlukees, op.cit, p112.

هيو دي سينت أومير (Hugh de St. Omer) الذي رغب في توسيع حدود امارته في الشمال عن طريق بناء العديد من القلاع لمواجهة هجمات أتابكية دمشق ولجعل تلك القلاع نقاط انطلاق لمهاجمتها[1].

ويبدو أن ابن شداد قد اختلط عليه الأمر حينما ذكر أن الداوية هم الذين بنوا القلعة، ذلك أن فرقة الداوية تأسست بعد ذلك التاريخ الذي ذكره، ويعود السبب في ذلك الى أنه أطلق على الجنود والفرسان الذين بنوها اسم الداوية على اعتبار أنه وضع كتابة بعد الحدث بعشرات السنين وان الفرقة حينما تأسست انضم اليها الكثير من الجنود الفرنج الذين اشتركوا في الحملة الأولى.

وبقيت هذه القلعة تؤدي دوراً متواضعاً مع القلاع الأخرى حتى العام ٥٣٤هـ/ ١١٤٠م عندما قام ملك بيت المقدس أنذاك فولك الانجوي (Fulk de Anjau) (٥٢٥-٥٣٧هـ/١١٣١- ١١٤٣م) باعادة تحصينها وتوسيعها، واستقدم المزيد من الفرسان اليها ضمن سياسة توسعية وتحصينية للمملكة للوقوف في وجه المقاومة الاسلامية التي بدأت تزداد في الشمال - امارة دمشق- والجنوب - مصر، ومنع تقدمها باتجاه أراضي المملكة. وجعل القلعة نقطة انطلاق لمهاجمة منطقة السواد لنهب خيراتها[2].

وبعد اتمام البناء أصبحت القلعة تحت إمرة ملك بيت المقدس فولك وضمن أملاكه، وبقيت تابعة له. ثم انتقلت ملكيتها بعد وفاته الى الملك بلدوين الثالث (٥٣٧-٥٥٨هـ/ ١١٤٣-١١٦٢م) حيث لعبت في فترة حكمه دوراً عسكرياً في التصدي لهجمات نور الدين زنكي (٥٤١- ٥٦٩هـ/١١٤٦-١١٧٤م). إلا أنه ومع حلول العام ٥٦٣هـ/١١٦٨م باعها الملك عموري الأول (امالريك) (Amalric) (٥٥٨-٥٧٠هـ/١١٦٢-١١٧٤م) الى الفرسان الداوية[3]، الذين تقاسموا مع الفرسان الاسبتارية معظم قلاع فلسطين.

---

(١) مولر، القلاع الصليبية، ص ١٥، الحياري، صلاح الدين، ص ٣٧؛ King, op.cit., p36.

(٢) Boases: Castles and churches. p65. J. prower, Historiede Royame, p 332.

(٣) Beyer, G : Die Kreuz Fahrer gebiete Akko und Galilaea in Z.D.P.V., V : LXVII - 1944-5. p 230. Benvensiti, op. cit, p 202.

وقد قام الفرسان الداوية بعد شرائها بتقوية تحصيناتها عن طريق زيادة عدد أبراجها. وشحنوها بالمقاتلة والفرسان والمعدات الحربية ووسائل التموين، كما أنهم حفروا حولها بئراً لجلب المياه الى داخل القلعة بواسطة قنوات خاصة[1].

ومع وصول صلاح الدين الأيوبي (٥٦٩-٥٨٩هـ/١١٧٤-١١٩٣م) الى زمام الحكم في مصر، بدأت مرحلة جديدة من الصراع مع الفرنج في بلاد الشام تمثلت في زيادة الضغط على الممالك الفرنجية عامة والقلاع بشكل خاص. التي كان لها دور رئيسي في استمرار وجودهم واستيطانهم في بلاد الشام. وقد تمثلت تلك السياسة على أرض الواقع بشن العديد من الهجمات على القلاع قبل تحريرها إثر معركة حطين. فقد هاجم صلاح الدين حصن بيت الأحزان في العام ٥٧٥هـ/١١٧٩م، كما أغار على بيسان وطبرية[2]. ولم تسلم قلعة صفد من الغارات، إذ أغار عليها عز الدين فروخشاه[3]، ووصل الى ربضها وقتل وأسر بعض رجال حاميتها من الفرسان الداوية وعاد بالغنائم والسبي الكثير[4]. كما قام صلاح الدين في العام التالي ٥٧٦هـ/١١٨٠م بالغارة على المناطق والأراضي التابعة للقلعة، ونهب وأحرق أجزاء منها، مما اضطر الفرنج الى طلب الصلح من صلاح الدين[5]. ولم تفلح محاولات صلاح الدين في السيطرة على قلعة صفد ومعها كوكب بعد انتصاره على الفرنج في معركة حطين، إلا

---

(١) زكار. فلسطين في عصر المماليك، ص ٥٤٨.

(٢) الأصفهاني، البرق الشامي، ج٣، ص ١٧٦.

(٣) عزالدين فروخشاه بن شاهنشاه بن أيوب (ت٥٧٨هـ/١١٨٢م). أحد قواد صلاح الدين المشهورين بالقوة، حارب الفرنجة في أكثر من موقعة، استنابه صلاح الدين في الشام، ومن صفاته أنه كان شاعراً، كثير الصدقات، توفي بدمشق، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ق١، ج٨، ص ٣٧٢.

(٤) ابن شاهنشاه، محمد بن تقي الدين عمر (ت ٦١٧هـ-١٢٢١م). مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق: حسن حبشي، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٦٨م ص٣١، وسيشار له فيما بعد: ابن شاهنشاه، مضمار.

(٥) أبو الهيجاء (ت٥٨٩هـ-١١٩٣م)، تاريخ ابي الهيجاء، مخطوط رقم ١٣٨٥٣، جامعة اليرموك، عدد الورقات ٢٠٥، ص ١٨١أ. وسيشار له أبي الهيجاء، تاريخ أبي الهيجاء. لين بول، صلاح الدين، ص ١٤٣-١٤٤.

بعد محاولات عديدة وحصارها باحكام لعدة أشهر وذلك لحصانتها القوية وقوة المدافعين عنها وكثرتهم.

وبعد فتح المسلمين للقلعة أمر صلاح الدين باصلاحها من الدمار الذي تعرضت له بسبب الحصار والقتال بين الطرفين[1]. وعادت للعب دورها الدفاعي كأحد مكتسبات معركة حطين حتى قام الملك المعظم عيسى (٦١٥-٦٢٤هـ/١٢١٨-١١٢٤م) بهدمها في العام ٦١٦هـ/١٢١٩م. وذلك خوفاً من احتمال سيطرة الفرنج عليها مرة أخرى اذا ما نجحوا في هجومهم الجديد، بعد وصول حملة جديدة على عكا، وانطلاقها الى مصر في العام (٦١٤-٦١٨هـ/١٢١٧-١٢٢١م)، كما أنه دمر بعض القلاع الأخرى في شمال فلسطين والقدس لنفس السبب[2]. وبالرغم من فشل الحملة فقد بقيت القلعة شبه مدمرة وتابعة لولاية دمشق لاعتقاد المسلمين بأن الخطر الفرنجي ما زال قائماً.

واستمرت محاولات الفرنج السياسية تارة والعسكرية تارة أخرى في سبيل اعادة السيطرة على القلاع في فلسطين. مستغلين الانقسام والصراع داخل البيت الأيوبي والتي كان أخرها الصراع على السيطرة على بعض مناطق سوريا وفلسطين بين الملك الصالح اسماعيل (٦٣٩-٦٤٥هـ/١٢٤١-١٢٤٧م) والصالح نجم الدين أيوب(٦٣٨-٦٤٧هـ/١٢٤٠-١٢٤٩م). وقد أفلحت جهود الفرنج في استغلال هذا النزاع في العام ٦٣٨هـ/١٢٤٠م، حيث سلمت لهم بعض قلاع شمال فلسطين ومنها قلعة صفد وطبريا والشقيف بموجب معاهدة التحالف الموقعة بين الملك الصالح اسماعيل والفرنج ضد حاكم مصر الصالح أيوب[3] .

وكان من نتائج تلك المعاهدة أن أعاد الفرنج سيطرتهم على معظم المناطق التي تم تحريرها بعد معركة حطين، وقد بلغت مملكة بيت المقدس أقصى اتساع لها

---

(١) الاصفهاني، الفتح القسي، ص ٦١٤.

(٢) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ص ١٤٧؛ Ayyubids, Mamlukes, op. cit, p 112.

(٣) أبوشامه، الذيل، ص ١٧٠، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص١٤٧. ابن كثير، البداية والنهاية. ج٩، طبعة دار الفكر، ١٩٩٦م، ص ٣٧، عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ٩٩٠.

منذ العام ١١٨٧/٥٨٣م. حيث خضعت معظم مناطق فلسطين من الجليل حتى غزة في الجنوب ماعدا نابلس والقدس والخليل للفرنج[١].

وبمجرد عودة القلعة الى الفرسان الداوية بدأت عملية اعادة بنائها وتحصينها وتوسيعها مرة أخرى بتوجيه وتشجيع المؤسسة الدينية الفرنجية في هذه المرة. فقد زار فلسطين وسورية أحد أساقفة مرسيليا واسمه «بنيدكت» (Benedict de Alignan) في رحلة له في تلك الفترة. وخلال مسيره من دمشق الى فلسطين شاهد بعينه المواقع الاستراتيجية الاسلامية في شمال مملكة بيت المقدس وخاصة القلاع والحصون مثل بانياس وهونين وعندما وصل الى قلعة صفد المهدمة، طلب من قائد القلعة ان يبدأ في مشروع إعادة تحصينها وبنائها لما تمثله القلعة من أهمية استراتيجية وعسكرية في حماية الحجاج النصارى الذين يزورون الأراضي المقدسة[٢] وقد عرض هذا القسيس المساعدة في بناء القلعة من خلال تقديم الأيدي العاملة والأموال من الرهبان والقساوسة في عكا للعمل من أجل ذلك[٣] وقد بدأت عملية التحصين بمشاركة القس نفسه الذي وضع حجر الأساس مع العمال والعبيد المحتجزين في القلعة[٤].

ومما تجدر ملاحظته ان الأسرى المسلمين المحتجزين لدى الفرنج أرغموا على العمل في البناء، إلا أنهم رفضوا المشاركة وقاموا بحركة عصيان وتمرد فما كان من الفرنج إلا أن ذبحوهم جميعاً[٥].

---

(١) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٣٨٠، ماير، الحروب الصليبية، ص ٣٦٩.
Benvensiti, op. cit, p 213.

(٢) Pringle. D. Reconstruction the Castle of Safad, P.E.Q. Jan-June, 1985, p 139, Benvensiti, op. cit, p 203.

(٣) Edward Robinson, Eli Smith and others: Bibical Researches In Palestine 1838-1852, vol : 2, 2n.ed. London. Sportiswoode, 1856, p 427. Boase, Castles and churches, p 65.

(٤) Pringle : Castle of safad, p 139, Robinson, op, cit, Vol: 2. P 427.

(٥) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ص ١٤٨.
Ayyubids, Mamlukes, op. cit, p 122-113. Benvensiti, op. cit, p 203.

وبعد انجاز عملية البناء جُهزت القلعة بكل ما تحتاج إليه من وسائل الدفاع كالأبراج والأسوار والخنادق، وشحنت بالآلات الحربية. وقد خططت بشكل يمكن الدفاع عنها بأقل عدد من الفرسان. وقد استغرق العمل بها حوالي سنتين ونصف وبكلفة فاقت المليون بيزنط[1] وان دل هذا على شيء فإنه يبين مدى ضخامة العمل وأهميته لدى الفرنج.

ونستنتج من حادثة تحصين القلعة الذي كان بتشجيع ومشاركة القس بنيدكت (Benedict) وغيره على أن أهداف الرحالة والحجاج الفرنج لم تكن دينية فقط، بل تعدتها الى الأهداف السياسية والعسكرية لخدمة الأغراض الاستعمارية الفرنجية ومجهودهم الحربي. والدليل على ذلك أن هذا الراهب اعطى وصفاً دقيقاً لكافة المواقع العسكرية في جنوب سوريا وشمال فلسطين التي مر عنها والتابعة للمسلمين، ونبه الى خطرها على الوجود الفرنجي، والى أهمية تحصين مواقع الفرنج. وقد سبقه الى ذلك الرحالة «سايولوف» (Saewulf) الذي وصف الطريق من يافا الى القدس وبيّن أهميتها العسكرية، ونبه الى ضرورة السيطرة عليها. ومن هنا يتراءى لنا أهداف بعض الرحالة والحجاج التي كان من ضمنها التجسس على مصالح المسلمين وكشف مواقعهم العسكرية ونقلها الى أسيادهم الفرنج.

وقد ساعد بناء القلعة في اعادة تثبيت الوجود الفرنجي في فلسطين بعد خروجهم منها بعد معركة حطين. وزاد في توسعها على حساب التواجد الإسلامي مما كان له الأثر إعاقة تقدم قوات المسلمين وحرية حركتها وقطع الطريق أمامها للتنسيق فيما بينها في فلسطين وسوريا. مما كان له الأثر في تصميم المسلمين على تحريرها.

---

(١) Benvensiti, op. cit, p 203.

ومن شدة حرصه على اتمام البناء عاد بنديكت مرة أخرى الى فلسطين في العام ٦٥٩/١٢٦١م، ليتاكد من تحصيناتها ودفاعاتها. Robinson, op. cit Vol: 2. p 427.

وفي العام ٦٦٠هـ/١٢٦٢م وبعد معركة عين جالوت بين المماليك والتتار زار القس بنيدكت (Benidict) فلسطين مرة ثانية ومر على قلعة صفد، وقد أعجب بحصانتها والتجديدات التي أدخلت عليها[1].

ومع وصول الملك الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م) الى السلطة في العام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م. قام بحملة واسعة لتحرير بلاد الشام وقلاعها من الاحتلال الفرنجي، وقد شن هجوماً واسعاً على قلعة صفد في العام ٦٦٣هـ/١٢٦٥م. واستطاع السيطرة عليها[2]. وبعد تحريرها مباشرة أمر السلطان باعادة تحصينها وتقوية دفاعاتها، واتخذها قاعدة لعملياته العسكرية في منطقة الجليل وسوريا ولبنان. فقد شاركت حامية القلعة الإسلامية في عدة حملات على قلاع تبنين وهونين، كما صدت محاولات الفرنج للهجوم على طبرية في العام ٦٦٥هـ/١٢٦٧م، ومحاولة فرنجية أخرى أتت من عكا أثناء انشغال السلطان بيبرس في مهاجمة قلاع المدن السورية في العام ٦٦٩هـ/١٢٧١م. وبعد عودة السلطان اتخذها قاعدة ومركزاً عسكرياً لمهاجمة قلعة القرين التي حررها في نفس العام[3].

قلعة القـــرين MontFort

التسمية وأهمية الموقع : اطلق على هذا الموقع أكثر من تسمية وذلك بحسب ورودها في المصادر العربية واللاتينية، فقد ذكرت في المصادر العربية على إنها كلمة سريانية تعني القمة والعلو[4]، ومن معانيها الأخرى الحصن أو القلعة[5]. أما المصادر اللاتينية فقد أوردتها بعدة أسماء منها «مونتفورت»(Montfort) ومعناها

---

(١) Pringle : Castle of Safad. p 139.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٨٠-٢٨١. زكار، فلسطين في عصر المماليك، ص ٥٤٨.

(٣) زكار، فلسطين في عصر المماليك، ص ٥٥١.

(٤) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٧، ق٢، ص ٤٢٠.

(٥) ابن شداد، عزالدين، تاريخ الملك الظاهر. تحقيق : أحمد حطيط، بيروت : مركز الطباعة الحديثة، د.ت. ص ٣٢١. وسيشار له ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر. شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص٢١١.

القلعة الملكية الجديدة والقصر الجديد والتل القوى[1]، ومن أسمائها الأخرى ستار-كنبرغ (Starkenberg)[2]وهي ترجمة ألمانية لمونتفورت، واطلقت عليها بعد أن أعاد الفرسان الألمان التيوتون بناءها وجعلوها مركزاً لهم[3].

يقع هذا الحصن على أحد التلال في الشمال الشرقي من مدينة عكا وعلى مسافة ٢٠كم منها، بارتفاع ٣٠٠م عن سطح البحر[4]. وقد بنيت القلعة على جرف صخري في واد عميق يشرف على أحد جبال الجليل الأعلى الغربية. وقد وصف شيخ الربوة الدمشقي الوادي الذي تشرف عليه القلعة بقوله: «واد نزه معروف من إثره البقاع ...»[5]، وهو ينحدر تدريجياً نحو الغرب والجنوب الغربي. وهذا الوادي يطلق عليه وادي القرين. ويتكون هذا الحصن من ثلاثة طوابق بطول ٨٠م. وعرض لا يتجاوز ٣٠م[6].

ويعتبر حصن القرين (Montfort) من الحصون القوية في شمال فلسطين، وهو ذو موقع استراتيجي خاصة في الدفاع عن منطقة عكا. فقد وصفت بأنها قلعة مليحة تقع بين جبلين وثغرٍ من ثغور الفرنج[7] وهي أيضاً من أمنع القلاع وأضرها على صفد[8]. أما مادة بنائه فهي الحجر والحديد الصلب حتى يقوم بوظيفته العسكرية على أكمل وجه كما يقول ابن أيبك «حصن صعب المرام، بناؤه بالحجر الأصم وبين كل حجرين عمود ملزم بالحديد»[9]. كما وصفه أحد الرحالة المعاصرين

---

(١) بورشارد، الأرض المقدسة، ص ٥٨. Indrikis, op. cit, p 345.

(٢) مولر، القلاع الصليبية، ص ٩٨.

(٣) E.W.G. Mastermann. A visit to the Ruind Castles of the Teutonic knights. P.E.F. 1919. p. 71. Acrusaders Fortress in palestine. P.E.F. 1928, p 92.

(٤) Indrikis, op. cit, p 356/ H.B.Tristram, Journal of Travels in palestine, London, 1985. p 76.

(٥) شيخ الربوة. نخبة الدهر، ص ٢١١.

(٦) Indrikis, op. cit, p 356.

(٧) شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٢١١.

(٨) ابن شداد، الملك الظاهر، ص ٣٢١. ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٨٥.

(٩) ابن ايبك، كنز الدرر، ج٧، ص ٢٠٥.

بأنه يتمتع بموقع طبيعي حصين يمكن اعتباره حصناً منيعاً بكل معنى الكلمة، وهذا الموقع جعل من القلعة تتوسط المسافة بين عكا وصور وتبنين[1].

ومع أن المؤرخ براور (J. prawer) خالف هذه الآراء واعتبر ان موقعه ليس له أهمية استراتيجية[2] ولا يستطيع المقاومة لفترة طويلة، إلا أن الأحداث التي تلت بناءه من الصراع العسكري بين المسلمين والفرنج اثبتت عكس ذلك، اذ شكل خطورة كبيرة على قلعة صفد كما ذكرنا وخاصة بعد أن سيطر عليها المسلمون، كما واجه المماليك صعوبات كبيرة في السيطرة عليه لصعوبة الطريق المؤدي اليه من ناحية، ولوقوعه فوق قمة جبلية مرتفعة بالمقارنة مع ما حولها من المناطق السهلية من ناحية أخرى. مما تطلب معه جهوداً كبيرة والآت عسكرية ضخمة للسيطرة على القلعة[3]. كما جاء اختيار موقع القلعة لتحقيق بعض الاغراض الاقتصادية ذلك ان القلعة تشرف على وادي القرين الذي يروي البساتين والكروم والحقول المجاورة له[4].

ومجموع هذه الأمور تجعلنا نشكك في آراء براور (J. Prawer) حول عدم أهميتها العسكرية وحصانتها، فقد بنيت من أحجار ضخمة. وكانت المركز المتقدم للدفاع عن عكا. بؤرة مملكة الفرنج بعد معركة حطين[5] بالإضافة لكونها المكان الذي وضعت فيه جماعة التيوتون ارشيفاتها وكنوزها المهمة ومقرها الدائم[6].

بناؤها ودورها في الصراع الإسلامي - الفرنجي :

كان موقع قلعة القرين محصناً منذ أيام الحكم الروماني وبقيت آثار لتلك القلعة حتى احتلال الفرنج لبيت المقدس، فقام ملوك الفرنج الأوائل بسياسة

---

(١) Mastermann, op. cit, p 73.

(٢) J. prawer, Latin kingdom, p 308.

(٣) Ayyubids, Mamlukes, op. cit, p 191. Crusader Fortress op. cit, p 93.

(٤) العثماني، قطعة من تاريخ صفد، ص ٤٨٤. J. Prawer, Latin Kingdom, op. cit, p 308.

(٥) حسين، عبدالوهاب، تاريخ جماعة التيوتون، ص ١٨٩.

(٦) المرجع نفسه، ص ١٨٩.

التوسع والتحصين في المملكة عن طريق بناء العديد من القلاع والحصون في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي. ولم تحدد المصادر والمراجع تاريخاً لبناء القلعة. إلا أنه من المحتمل ان فرسان الداوية قد بنوها في بداية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي لحماية عكا وميناءها من هجمات المسلمين[1]. حيث كان بناؤه صغيراً، لإنشغال أمير الجليل في ذلك الوقت هيودي سينت أومير (Hugh de Saint Omer) ببناء العديد من الحصون والقلاع الجديدة مثل صفد وبانياس وهونين التي تقع في أقصى شمال فلسطين. وكانت تلك القلعة الصغيرة تابعة لاقطاعية معليا المجاورة له[2]، ثم اعطيت في العام ٥٧٤هـ/١١٧٩م الى الأمير جوسلين الثالث[3]. وربما يكون ذلك راجعاً الى زيادة أعباء المملكة في تلك الفترة وظهور نورالدين زنكي ثم صلاح الدين من بعده.

وفي العام ٥٨٨هـ/١١٩٢م عادت تلك القلعة الى السيطرة الفرنجية بعد توقيع صلح الرملة، حيث كان ريتشارد قلب الأسد قد سيطر عليه أثر احتلال عكا بعد قتال مع قوات صلاح الدين[4].

وفي العام ٥٩٢هـ/١١٩٦م وصلت الى عكا حملة فرنجية صغيرة قادمة من أوروبا معظمها من الألمان وحطت في ميناء بيروت، ثم واصلت السير جنوباً حتى وصلت الى عكا. وقد تصدى العادل لها حتى أجبرها على العودة الى أوروبا[5] إلا أن تلك الحملة خلفت طائفة من الفرسان الألمان الذين استقروا في عكا وبدؤا بممارسة

---

(١) الدباغ. بلادنا فلسطين، ج٧، ق٢، ص١٦٧.

(٢) شيخ الربوه. نخبة الدهر، ص ٢١١.

(٣) جوسلين الثالث : أحد الأمراء الفرنج، كان قد أسر في معركة حارم عام ٥٥٩هـ/١١٦٤م. أمام نورالدين زنكي. كان وصياً على الملك بلدوين الخامس. وجرى صراع بينه وبين ريموند الثالث امير طرابلس، كان أميراً على منطقة عكا والقلاع المجاورة لها في العام ٥٨٢/١١٨٦م. وكان من ضمن الذين اسروا في معركة حطين، عاشور. الحركة الصليبية، ج٢، ص ٦٦٥، ٧٦٣-٧٨٢،٧٦٤

(٤) Ambroise. The crusade of Richard Loin-Heart, Translated by, M.J. Hubert, Newyork, 1941, p 135.

(٥) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص١٧٨-١٧٩.

بعض النشاطات الاجتماعية. وبعد سنة من وصولهم حصلوا علي الاعتراف من ملك عكا جاي لوزنجنان[1] (Gay Losginan) (٥٨١ -٥٨٣ هـ/١١٨٥ - ١١٨٧ م) والبابا في أوروبا على أنها طائفة عسكرية مثل الداوية والاسبتارية. أما القلعة فقد بقيت ضمن أملاك ورثة جوسلين الثالث الذين باعوها بدورهم الى الفرسان التيوتون[2].

وبمجرد حصول الطائفة على القلعة في بداية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي قاموا باعادة بناء وتحصين القلعة من جديد وجعلوها قلعتهم الرئيسية[3]. وبعد أن أصبح هرمان دي سالزا [4] (Herman de Salza) (٦٠٧-٦٣٧هـ/ ١٢١١-١٢٣٩م) مقدماً لهذه الجماعة في العام ٦٠٧هـ/١٢١١م جعلها مقراً لقيادته ومركزاً لحفظ سجلاتهم ووثائقهم الرسمية وذلك في العام ٦٢٥هـ/١١٢٨م[5].

ولما كانت اعادة بنائها وتحصينها يتطلبان مبالغ طائلة من المال، فإن مقدم هؤلاء الفرسان تقدم بطلب الى البابا جريجوري التاسع[6] (وليس الرابع كما ذكر مولر)[7] للمساعدة، وقد لبّى البابا طلبه بارسال الأموال الطائلة له[8]. وبعد بنائها

---

(١) جاي لوزنجنان Gay Losginan : أحد ملوك مملكة بيت المقدس منذ العام ٥٨١هـ/١١٨٥م، قاد الجيش الفرنجي في معركة حطين ضد صلاح الدين. وقد أسر في المعركة ثم اطلق سراحه وتوجه الى صور ومنها توجه لحصار عكا. تم استبعاده من الملك وعين على مملكة قبرص. مولر : القلاع الصليبية، ص ٩٨.

(٢) مولر، القلاع الصليبية، ص ٩٨. J. Prawer. Historie de Rayame, Vol: 2, P 181.

(٣) Deschamps, S.C. La Defense du Royaume de Jerusalem "les chateux des croises", Vol: 1, paris, 1939, p 17. Smail, op, cit, p 57.

(٤) هرمان دي سالزا Herman de Salza : (٦٠٧-٦٣٧هـ/١٢١٠-١٢٣٩م). هو المؤسس الحقيقي لجماعة الفرسان التيوتون، قدم الى فلسطين في العام ٥٩٢هـ/١١٩٦م. والتحق بالجماعة ثم انتخب مقدماً لها في العام ٦٠٧هـ/١٢١١م. وقد حققت الجماعة في عهده تقدماً لم تحققه مع أي مقدم أخر. حسين، تاريخ جماعة التيوتون، ص ١٥١.

(٥) Crusader Fortress, op. cit, p 92. Mastermann. op. cit, p 71.

(٦) البابا جريجوري التاسع : أحد بابوات أوروبا تولى بابوية روما من العام ١٢٢٧-١٢٤١م. وهو الذي اصدر قرار الحرمان ضد الامبراطور فريدريك الثاني بسبب الخلاف بينهما. ولعلاقته مع المسلمين، مجهول. تتمة وليم الصوري، ص ٦٣.

(٧) مولر: القلاع الصليبية، ص٩٨.

(٨) مولر، القلاع الصليبية، ص ٩٨. Benvensiti, op. cit, p 333.

أصبحت القلعة من أكثر الحصون تميزاً رغم أنها لم تكن الأكبر في المملكة. وبدأ دورها يبرز أكثر فأكثر حينما لعبت دوراً في حراسة قوافل الحجاج القادمة من أوروبا الى فلسطين عن طريق عكا والمتوجهة الى الأماكن المقدسة في شمال فلسطين ووسطها وذلك بدعم من البابا نفسه، وفي الوقت نفسه أصبحت تشكل خطراً كبيراً على قلعة صفد التي استعادها المسلمون بعد معركة حطين.

وقد بدأت القلعة بالتوسع عن طريق قيام المشرفين عليها بالسيطرة على مساحات واسعة من الأرض في الجليل الغربي والأوسط القريبة منها، وأصبحت الأراضي المحيطة بالقلعة تمتد من قرية فسوطه[1] شرقاً حتى ساحل البحر المتوسط غرباً، ومن طبرية في الجنوب الشرقي حتى عكا في الغرب، وقد احتوت هذه المنطقة على خمسين قرية تعود لجماعة الفرسان التيوتون[2].

وفي العام ٦٤٢هـ/١٢٤٤م قام الفرسان التيوتون بتجديد عمارتها وتحصينها عن طريق اقامة برج آخر في القلعة لمواجهة أي هجوم اسلامي قد تتعرض له، خاصة وان قوات الملك الصالح نجم الدين أيوب قامت بتحرير قلعة طبرية القريبة من قلعة القرين[3]. كما شاركت حامية القلعة في الهجوم على بعض قلاع الشمال وخاصة بانياس في العام ٦٤٧هـ/١٢٤٩م[4].

وفي منتصف القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي كانت قلعة القرين في منأى عن الهجمات الإسلامية بسبب الصراع بين الملوك الأيوبيين في مصر والشام من جهة، ثم تعرض المنطقة لاجتياح المغول في العام ٦٥٦-٦٥٨هـ/ ١٢٥٨-١٢٦٠م من الجهة الأخرى. إلا أنه وبعد دحر التتار وهزيمتهم في معركة عين جالوت بدأ المماليك بقيادة الظاهر بيبرس (٦٥٨- ٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م) بعملية تحرير

---

(١) فسوطه : قرية فلسطينية قريبة من الحدود اللبنانية في منطقة عكا والى الشمال الشرقي منها. شراب. معجم، ص ٥٨٥.

(٢) Benvensiti, op. cit, p 333.

(٣) أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص ١٧٦.

(٤) حسين، عبدالوهاب، تاريخ جماعة التيوتون، ص ٢٦٤-٢٦٥. Indrikis, op. cit, p 355.

شاملة للقلاع في بلاد الشام. إذ قام بيبرس في العام ٦٦٦هـ/١٢٦٨م بشن هجوم على القلعة إلا أنه أجبر على الانسحاب عنها بعد أن وقع صلحاً مع حاكم عكا. وكان من أهم بنوده فيما يتعلق بقلعة القرين هو إبقاء عشر قرى تابعة لها. وباقي القرى التابعة لها تكون مناصفة بين المسلمين والفرنج[1]، إلا أن الظاهر بيبرس عاد مرة أخرى وحاصرها في العام ٦٧٠هـ/١٢٧٢م وفتحها بعد أن كان قد فتح قلعتي كوكب الهوا وصفد[2].

قلعة الطور :

التسمية وأهمية الموقع : الطور في اللغة هو الجبل، ولا يسمى طوراً حتى يكون ذا شجر[3]، وقد أطلق على هذا الموقع باسم جبل الطور في معظم المصادر الإسلامية، أما المصادر اللاتينية فقد اطلقت عليه جبل طابور (Mount Thabor, Mount Tabor).

يقع جبل الطور في إقليم الجليل الى الشرق من مرج ابن عامر في ظاهر قرية دبوريه[4] التي تقع على سفحه الغربي. ولايبعد عن الناصرة سوى بضعة كيلومترات ويرتفع عن سطح البحر حوالي ٥٨٨م[5]. وتشرف قمته على مناطق واسعة من جبال الجليل الأعلى شمالاً حتى جبال فقوعه[6] جنوباً. وهذا الموقع جعله يضمن سيطرة على أغلب الطرق والمسالك الواقعة جنوب بحيرة طبرية ومرج ابن عامر، وخاصة

(١) العيني، بدر الدين بن أحمد بن الحسين بن يوسف (ت٨٥٥هـ/١٤٥١م) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان «عصر سلاطين المماليك»، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة : الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٧، ١٩٨٨. ج٢، (حوادث ٦٦٥-٦٨٨هـ/١٢٦٦-١٢٨٩م)، ص ٣٢، وسيشار له فيما بعد، العيني: عقد الجمان. وكان من أهم بنود الصلح أيضاً ابقاء ٣٠ ضيعة لعكا. وان تكون حيفا للفرنج ولها ثلاث ضياع والباقي مناصفة، أما بلاد صيدا فالوطاه للفرنج والجبلية للمسلمين.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٨٥. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١٥٣.

(٣) الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص ٥٣، ابن منظور، لسان العرب، م٤، ص ٥٠٨، مادة طَوَرَ.

(٤) دبوريه : قرية فلسطينية تقع الى الشرق من مدينة الناصرة على السفح الغربي من جبل طابور وترتفع ٢٠٠ متر من سطح البحر. شراب، معجم، ص ٣٧٢.

(٥) بورشارد، الأرض المقدسة، ص ٩٤. Fetulus, op. cit, Vol: 5. p 30. الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٧، ق٢، ص ١٣.

(٦) جبال فقوعه : هي الجزء الشمالي الشرقي من جبال نابلس، وتقع على سفوحها قرى فقوعه ودير عزاله، شراب، معجم، ص ٥٨٦.

الطريق القادم من دمشق عبر الأغوار جنوب طبرية والمتجه الى عكا[١]، وبالاضافة لذلك يشكل هذا الموقع خطاً دفاعياً أمام الغارات القادمة من منطقة عكا[٢]. ويتميز الجبل بأنه منفرد عن بقية جبال الكرمل[٣]، فقمته مدورة طولها أقل من نصف كيلومتر وعرضها خمسة كيلومترات ويظهر منه جبل الشيخ وجبال شرقي الأردن الشمالية وبحيرة طبرية ومرج ابن عامر والكرمل والبحر المتوسط[٤].

وهذه الميزات الطبيعية تمكنه من مراقبة الأحداث التي تدورحوله في المنطقة[٥]، ولهذا فقد جاء وصف قلعة الطور في المصادر الاسلامية والفرنجية على أنها قلعة حصينة ومنيعة وقوية[٦]. ولذلك فقد بذل أطراف الصراع أقصى جهودهم للسيطرة على المنطقة لما لها من أهمية عسكرية بالدرجة الأولى واقتصادية في الدرجة الثانية.

بناؤها ودورها في الصراع الإسلامي - الفرنجي :

كان جبل الطور قديماً، أحد مناطق انتشار المسيحية في فلسطين في القرن الرابع الميلادي[٧] حيث كان السيد المسيح عيسى قد تجلى عليه، ثم أقيم عليه ديراً تكريماً له. وفي القرن السادس الميلادي أصبح الجبل منطقة محصنة، وبني فوقه كنيسة مسيحية واحيطت به الأسوار الحجرية في القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي[٨].

وبعد احتلال الفرنج لفلسطين وتأسيس مملكة بيت المقدس اللاتينية قام تانكرد (Tancerd)-أمير الجليل- بالسيطرة على الجبل والحقه بممتلكاته ضمن امارة

---

(١) الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص ٥٣. غوانمه، امارة الكرك، ص ٣٤٤.
Focas, op. cit, Vol: 5, P 15

(٢) ابن الفرات، تاريخ الدول. م٥، ج١، ص ١٢٣. Jacques de Vitry, op. cit, Vol: 5, p 31.

(٣) جبال الكرمل : هي عبارة عن سلسلة جبال تقع شمال فلسطين تمتد من مرج ابن عامر جنوباً حتى حيفا شمالاً على الشاطىء. وتفصل بين السهل الساحلي في الجنوب وسهل عكا حيفا شمالاً. شراب، معجم، ص ٦١٧-٦١٨.

(٤) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٧، ق٢، ص ١٣.

(٥) Bayer : op, cit, p 224. Theodrich, op. cit Vol: 5, p 67.

(٦) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج٢، ص ١٦٢، بورشارد، الأرض المقدسة، ص ٩٤.

(٧) Robinson, op. cit, Vol: 2. P358.

(٨) Ibid, p 359.

الجليل، وجعله أحد الرهبانيات الكبيرة، بعد أن حصنه. وذلك في العام ٤٩٦هـ/ ١١٠٣م.(١)

وفي العام ٥٠٦هـ/١١١٣م هاجمت قوات دمشق جبل الطور المحصن واستطاعت أن تدمر أسواره. إلا أن الفرنج أعادوا بناءه من جديد بعد مرور سنة على الحملة(٢). ومنذ ذلك الوقت بقي تحت السيطرة الفرنجية ولم يتعرض لأي هجوم أو غارة ذلك أن ملوك بيت المقدس قاموا خلال عقدي الأربعينيات والخمسينيات من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. ببناء العديد من القلاع والحصون شمال فلسطين وشرقها، بحيث جعلت هناك صعوبة كبيرة في الوصول الى قلعة الطور الحصينة الواقعة في قلب الشمال الفلسطيني.

ومع وصول صلاح الدين (٥٦٩-٥٨٩هـ/١١٧٤-١١٩٣م) الى مقاليد الحكم، بدأت هناك مرحلة جديدة من الصراع مع الفرنج، حيث بدأ بانتهاج سياسة تهدف الى تحرير بلاد الشام من الوجود الفرنجي عن طريق القوة العسكرية. وتطبيقاً لهذه السياسة أرسل قائده عزالدين فروخشاه، الذي استغل انشغال ملك بيت المقدس في مواجهة قوات صلاح الدين في جنوب فلسطين، فهاجم قلعة الطور في العام ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م عن طريق دمشق، كما هاجم المناطق المحيطة بها وقتل العديد من الفرنج، وأسر بعضهم، وعاد بالغنائم الى دمشق(٣).

ولم تمض سنوات قليلة على هذا الهجوم، حتى قام صلاح الدين بهجوم شامل على مملكة القدس وانتصر عليها في معركة حطين التي كان من نتائجها عودة جميع القلاع الى السيطرة الإسلامية. وقد أمر صلاح الدين بتحصين تلك القلعة الصغيرة، وجعلها نقطة مراقبة على المناطق المحيطة بها، في نفس الوقت حمايتها من أي هجوم قد يقوم به الفرنج من عكا عليها (٤).

---

(١) Ibid, p 358.

(٢) Benvensiti, op. cit, 358

(٣) لين بول، صلاح الدين، ص ١٤٩.

(٤) مكسيموس، الحروب المقدسة، ج٢، ص ٢٤٨، البيشاوي، الممتلكات، ص ٣٥٥.

Bayer, op. cit, 224.

إعادة بناء القلعة وموقف الفرنج منه :

بالرغم من الجهود الكبيرة للحملة الفرنجية الثالثة ومساعيها لإعادة احتلال فلسطين، إلا أن معظم فلسطين بقيت تحت السيادة الإسلامية ماعدا الشريط الساحلي الممتد من يافا الى صور. وكان من نتائج هذه الحملة أن أصبحت عكا قاعدة رئيسية للفرنج. وقد حاول الفرنج جاهدين استعادة المناطق التي فقدوها عن طريق إرسال نداءات الاستغاثة الى أوروبا، فارسلت بدورها حملة جديدة -الرابعة- التي كان من أهدافها الرئيسية إعادة السيطرة على بيت المقدس[1]، وقد وصلت عكا بعض فلول هذه الحملة في العام ٦٠١هـ/١٢٠٤م، بعد أن نهب أفرادها مدينة القسطنطينية[2] وهم في طريقهم إلى فلسطين. فأغاروا على كفر كنا[3]، وفي نيتهم مهاجمة قلعة الطور وما حولها لفتح الطريق إلى بيت المقدس[4]. ونهبوا مناطق المسلمين من ناحية نهر الأردن الشمالي وقتلوا بعضهم[5].

وبمجرد سماع الملك العادل (٥٨٩-٦١٤/١١٩٣-١٢١٧م) بهذه الأخبار، قام بجمع العساكر من مصر والشام، وتقدم نحو قلعة الطور لمواجهة الفرنج، وعند وصوله انسحب الفرنج إلى عكا[6]. ثم بدأت المفاوضات بين الطرفين وأسفرت عن توقيع هدنة تم بموجبها تنازل العادل عن يافا ومناصفتهم للّد والرملة[7].

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص ١٥٩، أبو الفدا، المختصر، ج٣، ص ١٠٥.

(٢) القسطنطينية: مدينة من بناء الامبرطور قسطنطين الأكبر الروماني، وكانت مقراً لحكمهم. ويطلق عليها اليوم اسطنبول، يحيط بها الماء من الشرق والشمال. وهي من المدن المحصنة، جرى حولها صراع كبير بين المسلمين والروم. الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٣٩٥.

(٣) كفر كنا: قرية تقع شرق مدينة الناصرة في جبال الجليل الأسفل. شراب. معجم، ص٦٢٨.

(٤) ابن واصل. مفرج الكروب، ج٣، ص١٥٩. الحريري، الاعلام والتبيين، ص٨٩.

(٥) الاشرف الغساني، عماد الدين أبو العباس اسماعيل بن العباس بن علي (ت٨٠٣هـ/١٤٠٠م). العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، تحقيق : شاكر محمود عبدالمنعم، بغداد : دار البيان، بيروت : دار التراث للطباعة والنشر، ١٩٧٥، ج٢، ص ٢٨٤، وسيشار له فيما بعد: الغساني، العسجد.

(٦) ابن الفرات. تاريخ الدول، م٥، ج١، ص ٢٠-٢١. الغساني ، العسجد، ج٢، ص ٢٨٤.

(٧) ابن واصل. مفرج الكروب، ج٣، ١٦٢، ابن الفرات. تاريخ الدول، مج٥، ج١، ص ٢١، وقد ذكرت بعض المصادر ان العادل تنازل للفرنج عن الناصرة، الغساني، العسجد، ج٢، ص ٢٨٥.

وقد أدرك العادل أهمية المنطقة المحيطة بالقلعة بعد توقيع الهدنة في المحافظة على الوجود الاسلامي باعتبارها نقطة رئيسية في وجه التوسع الفرنجي في الجليل. وهي أقصر الطرق الى بيت المقدس(1). ولهذا فقد توجه العادل بعساكره ونزل بها وأحضر معه الصناع والبنائين من كل بلد لعمارتها وتحصينها وقد أشرف بنفسه على عملية البناء ونقل الحجارة. واشترك في البناء خمسمائة من البنائين ماعدا الفَعَلَة والنحاتين. ولم يزل مقيماً هناك حتى فرغ من بنائها(2)، وكان ذلك في العام ٦٠٩هـ/١٢١٣م. وقد استغرقت عملية البناء أكثر من عام ونصف العام مما يدل على عظمة البناء.

وبعد الانتهاء من بنائها قام الملك المعظم (٦١٥-٦٢٤هـ/١٢١٨-١٢٢٧م) بشحنها بالرجال والذخائر والسلاح والمؤن والعتاد الحربي. وقد جُلب قسم من هذه المواد من قلعة كوكب الهوا المجاورة لقلعة الطور بعد أن قام المعظم بهدمها(3). وبهذا أصبح المسلمون قادرين على السيطرة والتحكم بالطريق التي يستخدمها الحجاج الفرنج من عكا باتجاه القدس عبر الناصرة والتي تمر عند قاعدة جبل الطور(4)، كما أنها أضحت تشكل خطراً مباشراً على عاصمة الفرنجة -عكا- وبالتالي تهديداً مباشراً على الوجود الفرنجي في منطقة الساحل الفلسطيني بشكل عام(5).

أما ردة الفعل الفرنجية من بناء الحصن فقد عارضوا إقامته منذ البداية وأخذت مقاومتهم للبناء في اتجاهين : الأول ديبلوماسي ويتمثل في إرسالهم الرسل الى الملك العادل لمنع اقامته لخطورته عليهم(6). إلا أن العادل رفض ذلك

---

(١) الحموي، ابي الفضائل محمد بن علي بن نظيف (ت. ق ٧هـ/١٣م). التاريخ المنصوري المسمى، (تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان)، نشر وتحقيق : أبو السعيد دودو. دمشق : مطبعة الحجاز، ١٩٨١، ص ٦٣. وسيشار له فيما بعد: الحموي: التاريخ المنصوري.

(٢) ابن الفرات. تاريخ الدول، م٥، ج١، ص ١٢٤. المقريزي، السلوك. ج١، ق١، ص ١٧٦.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، مج٧، ص ٦٩.

(٤) Benvensiti, op. cit; p 359.

(٥) الحموي، التاريخ المنصوري، ص ٦٣.

(٦) ابوشامه، الذيل، ص ٧٠. ابن الفرات، تاريخ الدول، م٥، ج١، ص ١٢٤. Deschamp, op. cit, Vol:1, p26.

وواصل المعظم بنائه ولم يأبه لتهديداتهم. أما الاتجاه الثاني فقد تمثل بارسال الفرنج نداءات الاستغاثة الى أوروبا يعرفونهم بالخطر الذي سيلحق بهم فيما لو تم هذا العمل[1] - بناء القلعة-.

وقد لبت أوروبا والباباللنداء الذي اطلقه الفرنج وارسلا حملة جديدة الى المشرق -الحملة الخامسة- في بداية العام ٦١٤هـ/١٢١٧م. وكان من ضمن أهدافها السيطرة على قلعة جبل الطور وبقية القلاع الأخرى في الجليل[2] واعادة احتلال القدس وبلاد الساحل[3].

وبعد وصول الحملة الى عكا قام الجيش الفرنجي بمهاجمة بيسان وعين جالوت بعد أن نقض الصلح مع العادل وعاث في المنطقة قتلاً ونهباً وسلباً[4]. ثم واصل غاراته في شمال فلسطين حتى وصل الى مشارف دمشق وعاد الى عكا[5] ولم تستطع قوات العادل التصدي لقوات الفرنج بسبب قلة عددها وتفرقها في مصر والشام[6].

وعندما رأى الفرنج ضعف المقاومة الإسلامية قاموا بهجوم واسع على قلعة جبل الطور مصطحبين معهم آلات الحصار، وحاصروها لمدة سبعة عشر يوماً، إلا أنهم فشلوا في السيطرة عليها بسبب حصانتها وعنف المقاومة فيها وسوء الأحوال الجوية[7]. وقد قاتلهم المسلمون قتالاً لم يعهد في جاهلية ولا في إسلام مثله[4]. ثم قام الفرنج بهجوم آخر بعد وصول النجدات لهم من القلاع الأخرى المجاورة. إلا أن

---

(١) ابن الفرات، تاريخ الدول، مج٥، ج١، ص ١٠٧.

(٢) Christian Society and the Crusader 1198-1229, "Capture of Damietta by Oliver Paderborn". Translated by : John. J. Gavigan, university of pensylvania press, philadelphia, 1971, p 156.

(٣) المقريزي، السلوك، ج١ ق١، ص ١٨٦.

(٤) أبو شامه، الذيل، ص ١٠٢. ابن ايبك، كنز الدرر، ج٧، ص ١٩٣.

(٥) المقريزي، السلوك، ج١ ق١، ص١٨٦- ١٨٧، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، مج٧، ص ٨٤.

(٦) أبو شامه، الذيل، ص ١٠٢، المقريزي، السلوك ج١ ق١، ص ١٨٦.

(٧) ابن الأثير، الكامل، مج١٢، ص ٣٢٢، المقريزي، السلوك ج١ ق١، ص ١٨٧.

(٤) ابوشامه، الذيل، ص ١٠٢، ابن ايبك، كنز الدرر، ج٧، ص ١٩٠.

محاولتهم باءت بالفشل فانسحبوا عائدين الى عكا[1].

وفي مطلع العام ٦١٥هـ/١٢١٨م عقد مجلس الشورى الفرنجي إجتماعاً في عكا لتدارس الوضع العسكري. فقرر مهاجمة مصر لأنها الطريق الموصل إلى القدس وسائر بلاد الشام وقالوا : «إن الملك الناصر صلاح الدين إنما استولى على الممالك وأخرج الفرنج من القدس والساحل جميعه بملكة ديار مصر وتقويته برجالها وأموالها، فالمصلحة ان نقصد مصر أولاً ونملكها، وحينئذ لايبقى لنا مانع من أخذ القدس وغيره من البلاد»[2].

وعندما تأكد العادل من نيه الفرنج مهاجمة مصر استدعى ابنه المعظم عيسى إلى دمشق وأمره بهدم قلعة الطور لحفظ دماء المسلمين، لأنه لو ملكها الفرنج ستكون السبب في خراب الشام، وليملكوا بها بلاد الاسلام[3]. ولأن هدمها سيوفر على المسلمين استنزاف الطاقات والسلاح والعدة والأرواح، ومن ثم يتمكنوا من تركيز قوتهم في مواجهة الفرنج في دمياط[4]. كما إن العادل خشي إن سيطر الفرنج على القلعة أن يجعلوها قاعدة لانطلاق الغارات على المراكز الإسلامية في شمال فلسطين[5]. ومن الأسباب الأخرى التي دعته لهدمها هو مباشرة الفرنج بتشييد قلعة عتليت الضخمة على الساحل على بعد ٤٠كم من قلعة الطور. وتهديدهم بمهاجمة أملاك المسلمين اذا لم يهدموا القلعة[6].

وبهدم هذا الحصن أعلن المعظم عن سياسة استراتيجية كان صلاح الدين قد طبقها قبله ومن بعده الظاهر بيبرس، والتي تتمثل بتدمير الحصون والقلاع التي من شأنها ان تشكل خطراً على الوجود الإسلامي سواء التابعة للمسلمين أو التابعة للفرنج، حيث قام المعظم بمهاجمة قلاع قيسارية وهونين وبانياس بعد سنتين من

(١) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٢٦٣. Robinson, op. cit, Vol: 2, p 360.

(٢) ابن الفرات، تاريخ الدول، م٥، ج١، ص ٢٢٨.

(٣) ابن الفرات، تاريخ الدول، م٥، ج١، ص ١٢٥، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٢٢٢.

(٤) ابو شامه، الذيل، ص ١٠٩، جب، صلاح الدين، ص٢١١.

(٥) Deschamp, op. cit, Vol:1, p 16, 26.

(٦) Deschamp, op. cit, Vol:1. p 16, 26, Benvensiti, op. cit, p 359.

تدمير قلعة الطور[١].

وبقي الحصن مدمراً حتى العام (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م). وهو العام الذي وقّع فيه الملك الكامل بن العادل[٢] (٦١٥-٦٣٥هـ/١٢١٨-١٢٣٨م) معاهدة مع الامبراطور فريدريك الثاني[٣] (Friedrick II)، حيث تم بموجبها اعادة القلعة الى الفرنج[٤]، وقد قام الفرنج بعد حصولهم عليها باعادة بنائها وتحصينها وخلال الفترة ما بين الأعوام ٦٣٨-٦٤٠هـ/١٢٣٩-١٢٤١م. وصلت حملة فرنجية بقيادة ريتشارد كورنول (Richard Cornwall). وقد استغل الصراع بين الملك الصالح اسماعيل حاكم دمشق والصالح أيوب حاكم مصر ووقّع مع كل منهما معاهدة أقرا فيهما بحق الفرنج بإمتلاك قلاع الشمال وتنازلهما عن معظم الجليل حتى بيت المقدس والطريق الموصل بين القدس ويافا[٥].

إلا أن محاولات المسلمين استعادة القلعة بقيت مستمرة ومتواصلة، اذ استطاع الجيش المصري من استردادها في العام (٦٤٥هـ/١٢٤٧م)، مع بعض القلاع الأخرى

---

(١) King, op. cit, p 193. Benvensiti, op. cit, p 360.

(٢) الكامل محمد بن العادل بن أيوب (ت٦٣٥هـ/١٢٣٨م). تولى حكم مصر بعد وفاة والده الملك العادل عام ٦١٥هـ/١٢١٨م. تصدى للفرنج في دمياط خلال حملتهم على مصر. فتح عدة حصون منها كيفا والرها وخرتبرت. توفي بدمشق في العام ٦٣٥هـ/١٢٣٨م. قام ببعض الأعمال الخيرية مثل انشاء مدرسة بين القصرين وجعلها دار للحديث. القرماني،أخبار الدول،مج٢، ص ٢٥٩-٢٦٠.

(٣) فريدريك الثاني : (١١٩٤-١٢٥٠م). أحد ملوك أوروبا أصبح ملكاً على صقلية عام ١١٩٧م ثم ملكاً للجرمان عام ١٢١٦م، ثم امبراطوراً للغرب عام ١٢٢٠م. وقد دخل في صراع مع البابا والكنيسة. قاد الحملة السادسة الى فلسطين ووقع المعاهدة مع الملك الكامل. العسلي، فن الحرب، م٤، ص ٥٣٥، هامش(١). كما نصت المعاهدة على ارجاع القدس للفرنج، وبقائها خراب. أما ضواحيها فهي للمسلمين مع سيطرة المسلمين على الحرم والمسجد الأقصى. والقرى ما بين عكا ويافا والقدس للفرنج. المقريزي، السلوك، ج١، ق١،ص ٢٣٠، اليويني، قطب الدين بن محمد بن أحمد ابن قطب الدين البعلبكي (ت٧٢٦هـ/١٢٢٦م). ذيل مرآة الزمان، حيدر أباد: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ط١، ١٩٥٤، ج١، ص ١٤٠-١٤١. وسيشار له فيما بعد: اليونيني، ذيل مرآة الزمان.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى. ج٣، ص ٤٩٦.

(٥) Bayer, op. cit. p 224, Deschamp, op. cit, Vol:1, p 17.

في شمال فلسطين[١]. وقام المسلمون بتدميرها خوفاً من اعادة احتلالها من قبل الفرنج مرة أخرى. وبقيت القلعة مهدمة حتى العام ٦٥٣هـ/١٢٥٥م حينما استولى عليه الفرنج، وتم اعطائها الى الفرسان الاسبتارية الذين قاموا بإعادة بنائها وتحصينها عن طريق إضافة أبراج مراقبة جديدة وزيادة الخطوط الدفاعية للقلعة مع تزويدها بفرسان آخرين إلى حاميتها[٢]. وبذلك أصبحت هذه القلعة تسيطر على معظم الأراضي الواقعة شرق الجليل وتشرف على أملاك الاسبتارية حول عكا والناصرة[٣].

ويعود السبب في حصول الاسبتارية عليها هو عدم قدرة الرهبان في الدفاع عنه بسبب محاذاته مناطق السيطرة الاسلامية في الجليل[٤]. وقد استمر الاسبتارية في الاحتفاظ بها تحت سيطرتهم حتى العام ٦٦٢هـ/١٢٦٤م، حينما هاجمها السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٩-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م) وقام بفتحها[٥]. ومنذ ذلك الوقت بقيت مدمرة ذلك أن الرحالة بورشارد مر بها في العام ٦٨٢هـ/١٢٨٣م ورآها اطلالاً.

حصن بيت الأحزان :

التسمية والموقع : أطلق على هذا الموقع في المصادر العربية اسم بيت الأحزان، وقد سمي كذلك لاعتقادهم بأنه كان مسكن سيدنا يعقوب أيام فراقه لسيدنا يوسف وحزنه عليه[٦]، كما اطلقت عليه بعض المصادر اسم مخاضة بيت الأضرار[٧]، وسمى أيضاً حصن بنات يعقوب الذي قع الى الشمال من جسر بنات يعقوب الذي

---

(١) رنسميان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٣٩٩. مصطفى «فلسطين»، ق٢، مج٢، ص ٤٢٧، العسلي، فن الحرب، مج٤، ص ٢١٢.

(٢) سميث، الاسبتارية، ص ٤١٠. Sire, op. cit, p 22 .

(٣) سميث، الاسبتارية، ص ٤١٠، ٤٢٨.

(٤) البيشاوي، الممتلكات، ص ٣٥٥. Benvensiti, op. cit, p 360.

(٥) Robinson, op. cit, Vol:2, p 360. King, op, cit, p 259.

(٦) الحموي، معجم البلدان، ج١، ص ٦١٥.

(٧) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، م٥، ص ٣٥٠.

اقامه المماليك[1]. أما المصادر الفرنجية فقد أطلقت عليه اسم شاستيليت (Chastelet) [2]. ويقع حصن بيت الأحزان جنوبي بحيرة الحوله مباشرة والى الشمال من بحيرة طبرية على ارتفاع يبلغ ٥٠٠م عن سطح البحر[3].

وتتمتع منطقة الجولان الواقعة على الحدود السورية - الأردنية - الفلسطينية بموقع استراتيجي هام ومميز كونها غنية بثرواتها الزراعية والمائية، كما تتمتع بموقع جغرافي نظراً لوقوعها على خط التجارة الدولية والمواصلات بين داخل بلاد الشام وسواحلها الجنوبية[4]. والملاحظ ان تلك المنطقة يتواجد فيها بعض الممرات الطبيعية التي تربط بين سوريا والأردن (الحالي) من جهة وفلسطين ولبنان على الجهة الأخرى.

فالطريق الأول يمر عند قاعدة جبل الشيخ الجنوبية الشرقية بالقرب من مدينة بانياس[5]، ويستمر ماراً بوادي الحولة الشمالي حتى يصل الى تبنين في جنوب لبنان ومنها الى مدينة صور الساحلية[6]. وقد استطاع الفرنجة ان يسيطروا على الجزء الغربي من هذا الطريق عندما احتلوا تبنين عام ٥٠٠هـ/١١٠٧م وقاموا ببناء حصن فيها. ومن الجدير ذكره ان هذا الطريق كان مسرحاً للصراع الفرنجي الاسلامي طوال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. أما الطريق الثاني فكان يمر خلال القنيطرة[7] قاطعاً شمال الأردن الحالي حتى يصل الى مخاضه بيت

---

(١) الحياري، «حصن بيت الأحزان، جانب من العلاقات بين المسلمين والفرنجة الصليبيين في زمن صلاح الدين»، مجلة درسات، الجامعة الأردنية، مج١٣، ع٤، ١٩٨٦، ص ٤١، وسيشار له فيما بعد: الحياري، حصن بيت الأحزان.Benvensiti, op. cit, p 303.

(٢) King, op. cit, p 109. Rey, op. cit, p 438.

(٣) الصوري، تاريخ الحروب، ج٤، ص ٢٢٧، الحياري، حصن بيت الأحزان، ص ٤١.

(٤) الحياري، حصن بيت الأحزان، ص ٤٠.

(٥) الحياري، حصن بيت الأحزان، ص ٤٠.

(٦) Benvensiti, op. cit, p 315.

(٧) القنيطرة : مدينة سورية تقع الى الجنوب الغربي من البلاد في منطقة الجولان والى الشمال الشرقي من بحيرة الحولة، وقد تمتعت بموقع استراتيجي. الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٦، ق٢، ص ١٤٥.

الأحزان جنوب بحيرة الحوله، حيث تبدأ الطريق بالتفرع واحدة الى صفد والأخرى غرباً الى عكا[١].

أما الطريق الثالث فكان يجتاز هضبة الجولان ويعبر خسفين[٢] وعقبه فيق[٣] ليجتاز نهر الأردن جنوب بحيرة طبرية حتى يصل الى جسر الصنبرة. ومنه الى مدينة طبرية حتى يصل عكا على الساحل[٤]. ومن جسر الصنبرة يتفرع طريق آخر الى الجنوب حتى يصل بيسان ومرج بن عامر. وهذا الطريق سلكتها قوات صلاح الدين في الأعوام ٥٧٨هـ/١١٨٢م، ٥٧٩هـ/١١٨٣م، ٥٨٣هـ/١١٨٧م أثناء غاراتها على شمال فلسطين[٥].

ونتيجة لذلك فقد اهتم الفرنج بتلك المنطقة وأقاموا فيها على أطراف وادي الأردن الشرقية والغربية العديد من القلاع والحصون كجزء من سياستهم الهادفة إلى السيطرة على تلك المنطقة الاستراتيجية لاستخدامها كقواعد هجومية للتوسع والسيطرة على إمارة دمشق لأنها مصدر لحركة آلاف القوافل التجارية وقوافل الحجاج المارة بين دمشق وفلسطين[٦] ولهذا فقد جاء بناء حصن بيت الأحزان وبانياس وهونين كجزء من هذه السياسة.

---

(١) غوانمه، امارة الكرك، ص ٣٤٤. J. Prawer, Latinkingdom, p 285.

(٢) خسفين : قرية من أعمال حوران بعد نوى في طريق مصر. تقع الى الشرق من بحيرة طبرية وهي محطة على الطريق المؤدي من دمشق الى عقبة فيق ونهر الأردن ومرج ابن عامر وساحل فلسطين. الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص ٤٢٤-٤٢٥، الحياري، صلاح الدين، ص ٢٧٥.

(٣) عقبة فيق : مدينة بالشام بين دمشق وطبرية وعقبة فيق ينحدر منها الى الغور وهي تشرف على بحرية طبرية ومدينتها. الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص ٣٢٤.

(٤) الحياري، حصن بيت الأحزان، ص ٤١، غوانمه، امارة الكرك، ص ٣٤٤.

Benvensiti, op. cit, p 310.

(٥) Benvensiti, op. cit, p 310.

(٦) ابن جبير، الرحلة، ص ٢٧٧-٢٧٨. غوانمه، امارة الكرك، ٣٣٥.

ظروف بناء الحصن وموقف صلاح الدين

شكل موقع حصن بيت الأحزان أهمية كبيرة من عدة نواحي، فمن الناحية العسكرية هو يتحكم في الطرق والممرات الواصلة بين ضفاف نهر الأردن الشرقية والغربية الواقعة بين بحيرة طبرية وبحيرة الحولة. ولهذا فقد قصد الفرنج من إقامة الحصن جعله نقطة متقدمة ومرصداً لمراقبة تحركات الجيوش الاسلامية في تلك المنطقة(١). أما من الناحية الاقتصادية فإن بناءه يحقق للفرنج السيطرة على سهول الحوله وبانياس وجزء من منطقة السواد التي تشتهر بإنتاج القمح والقطن والأرز(٢).

لم يكن بناء هذا الحصن مصادفةً، بل جاء ضمن خطة محكمة رسمها الفرنج للأسباب التي ذكرناها. وهناك بعض الظروف التي ساعدت الفرنج في إتمام هذا العمل، فبالنسبة للفرنج في فلسطين فقد كانوا في صراع دائم مع المسلمين، وكانت قلعة صفد هي التي تتكفل بمواجهة الحملات الإسلامية. مما دفع حاميتها من الفرسان الداوية الطلب الى الملك بلدوين الرابع (٥٧٠-٥٧٩هـ/١١٧٤-١١٨٣م) إلى بناء حصن مجاور لها لتخفيف الضغط عنهم(٣). وقد رفض الملك طلبهم في البداية بسبب توقيعه هدنة مع السلطان صلاح الدين. إلا أنه في النهاية وتحت الحاحهم وافق على مطلبهم في بناء الحصن. كما أن تغير الوضع السياسي والعسكري على الأرض الذي أحدثه الأيوبيون بقيادة صلاح الدين بجمع قوة مصر والشام، ومن قبله نورالدين زنكي -الذي استولى على بانياس وقلعتها عام ٥٥٩هـ/١١٦٤م-، أدى الى تغير موقف الفرنج من امارة دمشق.

ولذلك كان هناك حاجة للفرنج لإقامة مركز متقدم يتابع تحركات صلاح الدين باتجاه حدودهم، ويتحكم في الطريق الواصلة بين دمشق - صور(٤). وبالرغم من

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، مج٦، ص ٣٢٠، عوض، الرحالة، ص ١٠٨.

(٢) لين بول، صلاح الدين، ص ١٤١.

(٣) Benvensiti, op. cit, p 304, Deschamp, op. cit, Vol:1, p 112.

(٤) ماير، الحروب الصليبية، ص ١٣٧.

التبرير الذي أورده وليم الصوري لبناء الحصن المتمثل في منع غارات البدو من اقليم السواد على المزارع والحقول في شمال فلسطين. إلا أنه يعترف في موضع آخر بأن بنائه جاء لقطع الطريق على المسافرين والسابله ومنعهم من المغادرة والسفر من امارة دمشق الى فلسطين وبالعكس[1].

أما الظروف الموضوعية التي كانت تمر بها الدولة الإسلامية والتي شجعت الفرنج على القيام بهذا العمل، فقد بدأت في العام ٥٧٣هـ/١١٧٧م حينما تعرض صلاح الدين الى هزيمة كبيرة في معركة تل الجزر (تل جازر)[2] بالقرب من الرملة. وقام الفرنج على أثرها بالهجوم على ضواحي دمشق والقلاع المحيطة بها[3]. فاستغل بلدوين الرابع (٥٧٠-٥٨١هـ/١١٧٤-١١٨٥م) هذا الانتصار بأن قرر تشييد استحكامات جديدة على امتداد حدود مملكته مع امارة دمشق، وشرع في بناء حصن بيت الأحزان فيما انصرف همفري الثاني[4] (Humphry II) سيد تبنين الى تحصين قلعة هونين على طريق بانياس تبنين لتحقيق الأهداف التي ذكرت[5].

وعندما بدأ الفرنج بعملية البناء توجه صلاح الدين إلى الشام وانشغل في محاربة بعض الامارات التي تمردت عليه وخاصة بعلبك بقيادة واليها شمس الدين

---

(١) الصوري، تاريخ الحروب، ج٤، ص ٢٢٧-٢٢٨.

(٢) تل جازر (تل الجزر) : موقع الى الجنوب الشرقي من الرملة، في منتصف الطريق بين يافا والقدس التي تصل بين الساحل الى المنطقة الجبلية، تقوم عليها قرية أبو شوشه. الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٢، ق١، ص ٣٦٤.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ٦٥، أبو شامه، الروضتين، ج١، ص ٢٧٣. ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٥٣-٥٤، ابن الأثير، الكامل، مج٧، طبعة مؤسسة التاريخ العربي، ١٩٩٦، ص ٢٧٥.

(٤) همفري الثاني : أحد قادة الفرنج العظام. عينه الملك بلدوين الثالث حاكماً على اقطاعية تبنين وصور. وقد قاد جيشه في محاربة المسلمين في العام ٥٧٤هـ/١١٧٨م. قام باعادة تحصين قلعة هونين. وقد قتل في معركة مرجعيون أثناء الصراع حول حصن بيت الأحزان.
انظر، الصوري، تاريخ الحروب، ج٣، ص ٣٣٣. الأصفهاني، البرق الشام، ج٣، ص ١٥٠.

(٥) اليسييف، نيكيتا، «المملكة اللاتينية في القدس والحكام المسلمون في القرن ١٢م». وقع ضمن كتاب: الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين. تحرير : هاديه الدجاني، بيروت : مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٤، ص ٢٤٩، وسيشار له فيما بعد، اليسييف : المملكة اللاتينية.

لقد جاء بناء الحصن مخالفاً لشروط الهدنة التي وقعت بين الطرفين الإسلامي والفرنجي، حيث منع الطرفان بموجبها من إقامة تحصينات جديدة في مناطق الحدود التي تفصل بين إمارة دمشق ومملكة بيت المقدس[1] وبالتالي فإن بناءه يعتبر تهديداً مباشراً للتواجد الإسلامي في المنطقة وتحدياً سافراً لهم. ولهذا فقد حاول صلاح الدين الاتصال مع ملك بيت المقدس بلدوين الرابع لمفاوضته حول هدم الحصن بالطرق السلمية إلا أن الفرنج رفضوا هذا المطلب، عندئذ هدد السلطان بهدم الحصن بالقوة العسكرية[2]. فكان جواب الفرنج الموافقة بشرط التعويض عما دفعوه من أموال.

وقد أبدى صلاح الدين مرونة، وعرض عليهم دفع ستين ألف دينار لكن الفرنج رفضوا هذا الاقتراح. فرفع المبلغ الى مائة ألف، فرفضوا مرة أخرى لعلهم يرفعون المبلغ أكثر من ذلك[3]. وحينما رأى صلاح الدين أن الجهود الدبلوماسية لم تؤدي الى نتيجة، رأى أن ليس أمامه إلا الخيار العسكري فجمع أصحابه ومستشاريه وخاصة ابن أخيه المظفر تقي الدين عمر[4] ليشاورهم في الأمر فكان الجواب هو هدم الحصن وقال «ما أرى هذا -المفاوضات من أجل التعويض- رأياً صالحاً. وان اللهَ يَسْأَلك أنْ تَصْرف هَذه الأمْوال الى الأجْناد وتُرغِبّهم في الجهاد وتَنْزل عليه -أي الحصن- بعساكرك»[5].

فما كان من السلطان إلا أن توجه بجيشه الى الحصن وحاصره في ١١ربيع

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، مج٦، ص ٣٠٠، الحياري، صلاح الدين، ص ٢٠٧.

(٢) أبو شامه، الروضتين، ج٢، ص٨، الحياري، حصن بيت الأحزان، ص ٤٧.

(٣) ابن شاهنشاه، مضمار الحقائق، ص ٢٥، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، مج٦، ص٣٢١.

(٤) تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب (ت ٥٨٧هـ/١١٩١م). أحد المقربين من صلاح الدين، وهو ابن أخيه. ومن مستشاريه العسكريين، عينه صلاح الدين والياً على مناطق ما وراء الفرات ومصر، حارب الفرنج في فلسطين. ويعتبر من أركان البيت الأيوبي، وقد أتصف بالشجاعة وشدة البأس. ابن واصل، مفرج الكروب. ج٢، ص ٢٧٥-٢٧٦. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، مج٦، ص ٣٦٩.

(٥) ابن شاهنشاه، مضمار الحقائق، ص ٢٥.

ابن المقدم[1] في العام ٥٧٤هـ/١١٧٨م. وبعد أن قضى على التمرد توجه إلى دمشق إلا أنه وصل متأخراً فقد كان الفرنج قد أتموا البناء[2].

ومما ساعد الفرنج في عملهم هذا أن الظروف الاقتصادية التي مرت بها الشام حينها كانت سيئة جداً بسبب القحط الشديد الذي أصاب المنطقة في تلك السنة. ولم يكن بالامكان القيام بعملية عسكرية سريعة ضد الحصن أثناء بناءه[3].

وقد بدأ بلدوين الرابع (٥٧٠-٥٨١هـ/١١٧٤-١١٨٥م) العمل في بناء الحصن في جمادي الآخرة ٥٧٤هـ/تشرين الأول/١١٧٨م. واستمر البناء حوالي ستة أشهر[4]. وقد جاء بنائه على شكل مستطيل طوله ١٤٠م وعرضه ٦٥م، حيث بني فوق تلة تشرف على نهر الأردن، وبني عليه أربعة أبراج مربعة يحيط به أسوار وخنادق خارجية للدفاع عنه[5].

أما موقف المسلمين المتمثل في سلطانهم صلاح الدين. فكما ذكرنا فقد استغل الفرنج كل الظروف السياسية والعسكرية في سبيل اقامة الحصن. الذي شكل تهديداً مباشراً لدمشق التي لا تبعد عنه سوى مسيرة يوم واحد -٤٠كم-[6] وقد نبه مساعدوا ، صلاح الدين عليه بمدى الخطورة الذي سيسببه ذلك الحصن إذا بنوه ... ذلك أنه متى أحكم بناء هذا الحصن تمكن الوهن من بلاد الاسلام[7]. إلا أن صلاح الدين كان أقل تشاؤماً من أصحابه ومستشاريه ورد عليهم بأنهم اذا أتموا بناء الحصن نزلنا عليه وهدمناه من الأساس[8].

---

(١) شمس الدين بن المقدم : هو محمد بن عبدالملك، وهو من أكابر الأمراء في الدولة الزنكية والأيوبية وقد ساعد صلاح الدين في البداية على السيطرة على دمشق وبلاد الشام، وعندما سيطر على بعلبك ولاه عليها. الأصفهاني، البرق الشامي، ج٣، ص ٩٢، هامش٣.

(٢) أبو شامه، الروضتين، ج٢، ص ٦.

(٣) ابن الأثير، الكامل، م٧، طبعه مؤسسة التاريخ العربي١٩٩٦ ص ٢٧٤، الحياري، صلاح الدين، ص ٢١٦.

(٤) الصوري، تاريخ الحروب، ج٤، ص ٢٢٧.

(٥) Benvensiti, op. cit, p 303.

(٦) الأصفهاني: البرق الشامي، ج٣، ص١٤٥. أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص٦.

(٧) الأصفهاني، البرق الشامي، ج٣، ص ١٤٥. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ٧٢.

(٨) المصدر نفسه والجزء والصفحة.

هذه المميزات جعلتها تشرف على الطريق الذي يربط بين دمشق وصور وبين دمشق ووادي الحوله وطبريه عبر منحدرات جبل الشيخ[1]. وكان هذا الطريق أحد أهم الطرق التجارية في العصور الوسطى وجرى حوله صراع عسكري دائم بين إمارة دمشق ومملكة بيت المقدس[2]. ولهذا فقد حرص الفرنج منذ الاستيلاء على شمال فلسطين على إقامة بعض القلاع فيها مثل هونين وتبنين اللتين وصفتا بأنهما من أمنع المعاقل الموجودة في تلك النواحي الجبلية المطلة على صور[3]. كما وصفها إبن واصل بأنها « من أحصن القلاع وأمنعها »[4] ولهذا فلا غرابة أن يستعصي هذا الحصن على صلاح الدين بعد معركة حطين مع قلعة صفد وكوكب. وقد شكل هذا الحصن أيضاً مع قلعة بيت الأحزان خط دفاع أول لحماية فلسطين من الجهة الشمالية[5].

بناؤها ودورها في الصراع الإسلامي - الفرنجي :

بنيت قلعة هونين الحصينة فوق صخرة منفردة قائمة لوحدها[6] في بداية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي[7] من قبل أمير الجليل (هيو دي سينت أومير) (٤٩٤-٥٠٠هـ/١١٠١-١١٠٦م). ضمن خطة فرنجية للسيطرة على طريق دمشق – صور من ناحية، ولمنع أي تحرك تقوم به قوات إمارة دمشق لمهاجمة المملكة من تلك المنطقة كما ذكرنا.

والقلعة شكلها مستطيل بطول ٨٥ م وعرض ٦٥م. وهي محاطة بمنحدرات من الصخور المقطوعة من جهة الشمال والجنوب والغرب [8]. مما مكنها من الاشراف

---

(١) الحياري، صلاح الدين، ص ٣٠٥. Benvensiti, op. cit, p 300.

(٢) Benvensiti, op, cit, p 300. King, op. cit, p 132.

(٣) الصوري، تاريخ الحروب، ج٤، ص ٣١٦.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ٢٤٧.

(٥) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٦، ق٢، ص ٢٣٠، عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ٧٣٢.

(٦) العثماني، قطعة من تاريخ صفد، ص ٤٨٢.

(٧) العمري، مسالك الأبصار، « الدولة المملوكية الأولى »، ص ٢٠٧. العمري، مسالك الأبصار « مصر والشام »، ص ١٣٥، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ١٥٧.

(٨) Priugle : Survey of castles, p 89.

مباشر لإمارة دمشق واختبار جديد لقوة صلاح الدين.

وكانت ردة فعل صلاح الدين أن تحرك بسرعة من دمشق وهاجم حصن بيت الأحزان ودمره، إلا أنه اخفق، في السيطرة على قلعة هونين بسبب دفاعاتها القوية[1]. غير أن محاولاته بقيت مستمرة حتى سقطت القلعة في قبضته بعد معركة حطين، وفُتحت على يد أخيه الملك العادل في العام (٥٨٤هـ/١١٨٨م)[2] واستولى على ما فيها من ذخيرة وآلات وميره وعين العادل صارم الدين قايماز النجمي والياً عليها .

وبقيت تحت السيطرة الإسلامية حيث قام العادل بزيارتها وتفقدها في العام (٥٩٢هـ/١١٩٧م). ضمن حملة قام بها في شمال فلسطين[3].

وفي العام (٥٩٥هـ/١١٩٩م)، إنتقلت ادارة القلعة الى حسام الدين بشاره صاحب بانياس على أثر الصراع الذي تجدد بين الفرنج والمسلمين ومحاولة الفرنج اعادة سيطرتهم على القلاع التي فقدوها بعد معركة حطين[4]. وقد مكنت قلاع بانياس وهونين حسام الدين من التحكم والسيطرة على طريق دمشق -صور، وفي التصدي للمحاولات الفرنجية لاقتحام تلك المناطق[5].

وبانحسار الوجود الفرنجي إلى منطقة الساحل أصبحت هونين بمنأى عن هجوم الفرنج. إلا أنه ومع قدوم الحملة الخامسة (٦١٤-٦١٧هـ/١٢١٧-١٢٢٠م)، ومحاولة الفرنج إعادة السيطرة على القلاع التي جُردَّت، قام الملك المعظم عيسى بتدمير قلعة هونين في العام (٦١٧هـ/١٢٢٠م)[6] لمنع سقوطها بأيدي الفرنجة مرة أخرى.

وبقيت القلعة مدمرة وفقدت أهميتها بسبب سيطرة المسلمين على معظم

---

(١) ماير، الحروب الصليبية، ص ٩٣. Benvensiti, op. cit p 302.

(٢) الأصفهاني، الفتح القسي، ص ١٧٠، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ٢٤٧.

(٣) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مج٤، ص ٣٩٧.

(٤) أبو شامه، الروضتين، ج٢، ص ٢٣٣، ٢٣٩. Christian Society, op. cit p 77.

(٥) Christian Society, op. cit, p 77.

(٦) أبو شامه، الروضتين، ج٢، ص ٧٩. Pringle : Survey of castles, p 89.

الأول٥٧٥/١٦آب١١٧٩م. واستمر حصاره لمدة أربعة عشر يوماً حتى سقط في ٢٤ربيع الأول عام ٥٧٥هـ/٢٩آب١١٧٩م. ثم استولى على ما فيه من سلاح وعتاد ومؤن، وفك أسرى المسلمين الذين وجدهم بداخله، ثم قام بهدمه وتسويته بالأرض(١).

قلعة هونين :

التسمية وأهمية الموقع : تسمى في المصادر العربية باسم هونين لأنها أقيمت في البلدة التي تسمى هونين(٢). أما المصادر اللاتينية فقد أطلقت عليه اسم شاتيونوف (Chateau Neuf) وكاسترم نوفم (Castrum Novum) والتي تعني (New castle) أي القلعة الجديدة(٣).

أما بالنسبة لموقع القلعة فتقع في أقصى شمال فلسطين على الحدود اللبنانية (في منطقة إصبع الجليل الحالية) وترتفع عن سطح البحر حوالي ٦٥٠م. في حين أن القلعة مقامة على جبل جنوبي البلدة على ارتفاع ٩٠٠م(٤). والمكان الذي تتواجد عليه القلعة هو ممر جبلي أسفله واد يتصل مع نهر الليطاني(٥). وينحدر من الجهة الشرقية للقلعة واد آخر نحو الجنوب يصل حتى وادي الحوله وبانياس(٦). وهذه الوديان المنتشرة حول القلعة مغطاة بالأشجار والنباتات ويزرع بعضها بأصناف المحاصيل(٧). كما أن القلعة ومعها قلعة بانياس تشرفان أيضاً على الوادي الذي يجرى من دمشق باتجاه بحيرة الحوله.

---

(١) ابن الأثير، الكامل، مج٧، طبعة مؤسسة التاريخ العربي، ص ٢٧٨، ابن شاهنشاه، مضمار الحقائق، ص ٢٨-٣٠، أبو شامه، الروضتين، ج٢، ص ٨-٩، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ق١، ج٨، ص ٣٥١.

(٢) الحموي، معجم البلدان، ح٥، ص ٤٨٢، الدومنيكي، مرمرجي، بلدانية فلسطين العربية، بيروت : عالم الكتب، ط١، ١٩٨٧، ص ٣١٩، وسيشار له فيما بعد. الدومنيكي، بلدانية فلسطين.

(٣) الصوري، تاريخ الحروب، ج٤، ص٢٦١، الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٢، ق٢، ص ٢٣٠.

(٤) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٢، ق٢، ص ٢٢٩، Pringle, Survey of castles, p 89.

(٥) Robinson, op. cit, p370.

(٦) Robinson, op. cit, p 370, pringle, Survey of castles, p 89.

(٧) ابن جبير، الرحلة، ص ٢٤٧، Tristram, op. cit, p 579.

والتحكم بالطرق والأراضي التي حولها كما كانت بعدة بعيدة عن مرمى أي هجوم مفاجئ.

وقد شاركت هذه القلعة بجانب من الصراع بين الفرنج والمسلمين -منذ بنائها- مع القلاع الأخرى المجاورة لها وخاصة تبنين وبانياس. إلا أن الصراع في البداية كان حول قلعة بانياس ذات الموقع الاستراتيجي الهام والمميز لأنها تشكل تهديداً مباشراً لدمشق. فهي عبارة عن برج مراقبة يطل عليها(١).

وبعد صراع طويل عليها استطاع نور الدين زنكي أن يحررها في العام (٥٥٩هـ/ ١١٦٤م)(٢). ولم تسلم قلعة هونين من هذه الهجمات الزنكية مما اضطر صاحبها همفري الثاني الى الإستنجاد بالفرسان الاسبتارية في العام ٥٥٢هـ/١١٥٧م بسبب زيادة أعباء الدفاع عنها(٣). واستمرت تلك المحاولات الزنكية للسيطرة على القلعة، ففي العام (٥٦٢هـ/١١٦٧م) شنّ نور الدين هجوماً واسعاً على القلعة، ففرت حاميتها قبل وصوله فهدم أسوارها ودفاعاتها بسبب خطورتها على المسلمين(٤). ثم عاد الى دمشق. وكان لتدمير هونين وتحرير بانياس أثر إيجابي على المسلمين إذ أصبحت الطريق أمامهم مفتوحة لمهاجمة المواقع الفرنجية في شمال فلسطين.

وبموت نورالدين في ١١شوال ٥٦٩هـ/١٥أيار١١٧٤م تخلص الفرنج من خصم عنيد لهم، فاستغلوا ذلك الحدث بالإضافة الى هزيمة صلاح الدين في معركة تل الجزر والأوضاع الاقتصادية السيئة التي عصفت ببلاد الشام كما ذكرنا سابقاً ببناء حصن بيت الأحزان في العام (٥٧٤هـ/١١٧٨م). فيما انصرف همفري الثاني (Humphry II) الى إعادة تحصين قلعة هونين(٥)، وقد اعتبر هذا العمل بمثابة تحدي

---

(١) Fetulus, op. cit. , p 24.نوار، العدوان الصليبي، ص ٣٣٧، العسلي، فن الحرب، م٤، ص ٥٥٧.

(٢) ابن أيبك، كنز الدرر، ج٧، ص ٣٣، مولر، القلاع الصليبية، ص ٥٣.

(٣) سميث، الاسبتارية، ص ٦٠. Benvensiti, op. cit, p 302.

(٤) أبوشامه، الروضتين، ج١، ص ١٤٧، أبي الهيجاء، تاريخ أبي الهيجاء، ورقة ١٦٣ ب.
T.E. Lawrence, op. cit, p 78.

(٥) شبارو، «السلاجقة»، ص ١١٣.
Desheumpe: Op.cit, Vol 1,P. 14; pringle, Survey of castles, p 89.

شمال فلسطين حتى العام ٦٣٨هـ/١٢٤٠م حينما قدمت حملة فرنجية جديدة على فلسطين (٦٣٧-٦٣٩هـ/١١٣٩-١١٤١م). وقد استغل قادتها الصراع بين حكام دمشق ومصر وتحالفوا مع حاكم دمشق الصالح إسماعيل (٦٣٨-٦٤٥هـ/١٢٤٠-١٢٤٧م) ضد الصالح أيوب وذلك مقابل تنازله عن بعض القلاع شمال فلسطين وخاصة قلاع الشقيف أرنون، وطبرية، وعسقلان، وصفد، وهونين[١]، وقد قام الفرنج بعد تسلمهم تلك القلاع بإعادة بنائها مجدداً[٢].

ودامت سيطرة الفرنج على قلعة هونين بعد ذلك مدة خمسة وعشرين عاماً لعدم قدرة المسلمين على التحرك. ولحالة التشرذم والصراع بين أطراف البيت الأيوبي، من جهة وبعد ذلك بين الأيوبين والمماليك في مصر والشام من جهة أخرى. كل هذه الأسباب مجتمعة كرست الخلافات وصبت في صالح الفرنج واستمرار وجودهم جاثمين على أجزاء من أرض الشام، ولكن بعد أن تولى السلطان الظاهر بيبرس السلطنة في مصر في العام (٦٥٩هـ/١٢٦١م) قام بشن حرب تحريرية شاملة على الوجود الفرنجي في معظم بلاد الشام لتخليصها وتحرير قلاعها منهم. وقد قام بالهجوم على قلعة هونين في العام ٦٦٣هـ/١٢٦٥م وقام بعد السيطرة عليها بإصدار الأوامر إلى واليها الذي عينه بإعادة إعمارها لما تتميز به من موقع استراتيجي هام[٣].

---

(١) أبو شامه، الذيل، ص ١٧٠.

(٢) Benvensiti, op. cit, p 302. Pringle : survey of castles, p 89.

(٣) Benvensiti, op. cit, p 302. Pringle, Survey of castle, p 89. T.E. Lawrence : op. cit, p 78.

ثانياً القلاع الساحلية

قلعة عتليت:

الموقع وأهميته : اشتهرت في العصر الكنعاني باسم عتليت، وفي العصر اليوناني، الروماني ذكرت باسم بوكولون بوليس (Bucolon polis) [1]. أما المصادر الإسلامية فقد ذكرتها باسم عثليت والحصن الأحمر على أنه حصن بسواحل الشام[2]. في حين أن المصادر اللاتينية أطلقت عليها عدة أسماء منها عتليت (Atlit) وهي تحريف للكلمة العربية، وقلعة الحجاج (Pilgrims castle) وذلك لمشاركة الحجاج الأوروبيين الذين قدموا مع الحملة الخامسة[3] في بنائها. وقد وردت بعدة أسماء أخرى مثل شاتيو بيليران (Chateau Pelirn) وبترانسيكيا (Petra Incikia) وكاستروم فيلي داي (Castrum Fili Dei)[4].

وتقع قلعة عتليت على الساحل الفلسطيني على بعد ١٦كم جنوبي حيفا و ٢٠كم شمالي قيسارية[5]. وقد بنيت على شبه جزيرة صخرية محاطة بالماء من ثلاث جهات ومؤمنة بمرسى خوفاً من تاثير العواصف على مينائها[6]، أما الجهة الرابعة فهي محاطة بممر ضيق يخترق في بعض اجزائه منحدرات جبل الكرمل وذلك لمنع أي تقدم باتجاهها والسيطرة عليها[7]، كما أن موقعها يشرف على الطريق الساحلي وتتحكم فيه. ولذلك جاء بناؤها ليجعلها نقطة اتصال بين منطقة الساحل الشمالي والقلاع الداخلية، وبهذا فقد اعتبرت من أهم القلاع في شمال فلسطين[8]، وهذا ما

---

(١) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٧، ق٢، ص ٥٩٥.

(٢) الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٨٥.

(٣) بورشارد، الأرض المقدسة، ص ٣٥، ٣٦.
C.N.Jhons, Excavations at pilgrims Castle "Atliti", Q.D.A.P. Vol 3. No.4, 1933, p. 111.

(٤) مولر: القلاع الصليبية، ص٩٢؛ الدباغ: بلادنا فلسطين، ج٧، ق٢، ص٥٩٦.

(٥) العسلي: فن الحرب، مج٤، ص٥٢٩.

(٦) Jhons, op. cit, p 111-112; Boase: Military Architecture in the crusader states in palestine and syria, In: Setton, Vol : 4, 1977, p 142.

(٧) Boase : castles and churches, p. 61. Deschamp, op. cit, Vol 1, p. p 24.

(٨) king, op. cit, p 190.

أكده الرحالة بورشارد بقوله «ومثل هذه الحصون الأمامية لايمكن لأي قوة في عالم ذلك الوقت من الاستيلاء عليها أو أخذها»[1] بسبب قوة تحصيناتها القوية من أبراج وأسوار.

أسباب بنائها والدور الذي لعبته في الصراع الإسلامي - الفرنجي :

بعد أن استولى الفرنج على فلسطين في الحملة الأولى قام الفرنج في عهد بلدوين الأول ٤٩٣-٥١١هـ/١١٠٠-١١١٨م ببناء حصن صغير سمي بدستري (Destroit casal destreiz) في ظاهر عتليت الشرقي[2] ومع قيام ملوك بيت المقدس وأمرائهم ببناء القلاع في مناطق شمال فلسطين وشرقها وسيطرتهم على كامل الساحل الفلسطيني وجدنا أن هذا الحصن فقد أهميته، ولذلك فإنه لم يلعب دوراً هاماً حتى إعادة بناءه في العام ٦١٥هـ/١٢١٨م.

وقد جاءت إعادة بناء القلعة في فترة حاسمة من الصراع الإسلامي - الفرنجي، إذ ارسلت أوروبا حملة جديدة الى فلسطين في العام (٦١٤هـ/١٢١٧م) -الحملة الخامسة- بقصد إعادة سيطرة الفرنج على كامل فلسطين وخاصة بيت المقدس. وبعد فشلهم في السيطرة على شمال فلسطين وبيت المقدس توجهت الحملة إلى مصر في العام ٦١٥هـ/١٢١٨م في محاولة لاحتلالها حتى يسهل عليهم احتلال بيت المقدس وبقية فلسطين والشام لأنهم اعتبروا أن مصر هي مفتاح القدس[3].

وخلال هجومهم على مصر بُدِأ العمل في بناء تلك القلعة من قبل مجموعة من الفرسان التيوتون والداوية وبمساعدة من بعض الحجاج الذين قدموا مع الحملة حيث عرفت هذه القلعة بعد بنائها باسمهم[4]. وقد هدف الفرنج من إنشائها إلى زيادة

---

(١) بورشارد، الأرض المقدسة، ص ١٦١. وقد تحدث بورشارد عنها أيضاً بأنها من أعظم الأماكن التي امتلكها الفرنج قوة وتحصيناً.

(٢) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٧، ق٢، ص ٥٩٦.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص ٢٠٢، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص ٢٥٤.

(٤) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٧، ق٢، ص ٥٩٦.

الضغط على القيادة الإسلامية في مصر من أجل تقديم تنازلات للفرنج خلال المفاوضات التي جرت في القاهرة بين الطرفين، بعد أن مالت كفّة النصر لصالح المسلمين، فحاول الفرنج من خلال بنائها التأكيد على تصميمهم بالاحتفاظ بما بقي لهم من المواقع في فلسطين[1].

وزيادة على ذلك فقد جاء بناؤها من أجل مواجهة ما قام به المسلمون من إعادة تحصين قلعة جبل الطور في العام ٦٠٩هـ/١٢١٢م. لجعل الطريق الواصلة بين عكا وبيت المقدس والتي يسلكها الحجاج الفرنج في منأى من الهجمات الإسلامية[2] لضمان وصولهم الى بيت المقدس.

ولهذا فقد أعتبرت من أعظم القلاع تحصيناً وقوة وأحيطت بالأسوار والأبراج القوية بحيث يصعب على أي قوة في ذلك الوقت اختراقها كما ذكر ذلك بورشارد [3].

وقد حرص الفرنج خلال عملية بنائها على تقوية تحصيناتها وحاميتها وعملوا على أن تكون واجهة أسوارها المشرفة على جهة البر مصقولة حتى يتعذر على السلالم المتحركة أن تستقر عليها فيما لو هاجمتها أي قوة[4]، كما عززت جوانبها بمجموعة من الأبراج البارزة. أما ميناؤها فقد شيد على أساس قوي يستطيع من خلاله استقبال السفن الضخمة[5]، وجاء بناؤها ضخماً بحيث تستوعب آلاف المقاتلين بالإضافة الى مئات العمال والخدم. وزيادة على ذلك احتوت بداخلها على الاسطبلات والمستودعات وغيرها من المرافق[6]. لتقديم التسهيلات لنزلائها من الجنود والفرسان وعائلاتهم، أما خدمات الحجاج الوافدين الى القلعة فقد قدمت لهم المخازن لحفظ أمتعتهم وبضاعتهم والبيوت للنوم فيها[7] .

---

(١) العسلي: فن الحرب، مج٤، ص ٥٣٤. Prawer: Latin Kingdom, p 312.

(٢) لامب، شعلة الإسلام، ص ٤٥٨. Prawer, Historie de Royame, Vol 2, p 145.

(٣) بورشارد، الأرض المقدسة، ص ١٦١.

(٤) العسلي، فن الحرب، مج٤، ص ٥٢٩.

(٥) Fedden and Thombsom, op. cit, p 91.

(٦) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٦٣١. مولر، القلاع الصليبية، ص ٩٢.

(٧) لامب، شعلة الإسلام، ص ٤٥٨.

تم انجاز بناء القلعة علي يد الفرسان الداوية في نفس العام الذي بدأ فيه البناء في ظل غياب أي رد اسلامي على هذا العمل لإنشغال المسلمين بمقاومة الحملة على مصر، وقد بدأت المراسلات بين الملك الكامل سلطان مصر، والمعظم عيسى حاكم دمشق وفلسطين حول كيفية الرد على الفرنج. فقام المعظم عيسى بالمبادرة لتخفيف الضغط عن مصر، عن طريق فتح جبهة أخرى معهم وذلك بمهاجمة بعض قلاع شمال فلسطين وخاصة قلعتي قيسارية وعتليت وغيرها في العام ٦١٧هـ/١٢٢٠م. تمكن المعظم من تدمير بعض القلاع والمواقع العسكرية الفرنجية، إلا أنه لم يستطع اختراق الدفاعات القوية للقلعة[١] وذلك لحصانتها وتدفق التعزيزات العسكرية إليها من المناطق الساحلية المجاورة لها وخاصة عكا وبيروت وقبرص. مما أدى به الى سحب قواته بعد أن قامت بتدمير وحرق المزروعات والمراعي المنتشرة حول القلعة.[٢] وبالرغم من قيام المعظم بمهاجمتها مرة أخرى في العام ٦٢٢هـ/١٢٢٥م إلا أنه فشل في السيطرة عليها[٣] وبقيت القلعة تلعب دوراً مركزياً هاماً في استقبال السفن من أوروبا لدعم التواجد الفرنجي في فلسطين بالقوة العسكرية. بالرغم من هزيمة الفرنج في مصر وانسحابهم الى عكا.

استمرت المحاولات الفرنجية لإعادة احتلال فلسطين بعد هزيمتهم في دمياط، فقد وصلت الى فلسطين حملة جديدة -السادسة- بقيادة الامبراطور فريدريك الثاني في العام ٦٢٦هـ/١٢٢٩م في محاولة لإعادة السيطرة على الأراضي التي حررها صلاح الدين بعد معركة حطين مستغلاً بذلك الخلاف بين الملك الكامل سلطان مصر وأخيه الملك المعظم سلطان دمشق وفلسطين[٤]. وكما مر معنا فقد تنازل الكامل عن بيت المقدس وبعض القلاع الأخرى للفرنج بموجب المعاهدة الموقعة بين الطرفين.

إلا أن ما يهمنا من أمر هذه الحملة هو قيام الامبراطور بالتوجه الى قلعة

---

(١) Deschamp, op. cit, Vol 1. P27.

(٢) Christian society, op. cit, p 108. Benvensiti, op. cit, p 176.

(٣) Boase. Castles and churches, p 62.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص ٣٨٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، مج٧، ص ١٣٣.

عتليت واشرافه على تحصينها وتقويتها بمساعدة أصحابها فرسان الداوية. وقد حاول خلال إقامته فيها أن يستولى عليها نظراً لما تتمتع به من القوة والحصانة والموقع الاستراتيجي لتقوية مركزه في أوروبا. إلا أن الفرسان الداوية رفضوا طلبه، مما اضطره الى العودة الى أوروبا[١].

وقد ازدادت أهمية القلعة بعد إعادة سيطرة الفرنج على بيت المقدس بحيث غدت الميناء الرئيسي بعد عكا في تزويد الفرنج بالموارد المادية والبشرية، كذلك أصبحت محطة لاستقبال الأساطيل الفرنجية القادمة من أوروبا الى فلسطين. وازدادت أهميتها أكثر فأكثر بقدوم الملك لويس التاسع[٢] (Lewis IX) إليها (٦٢٣-٦٦٨هـ/ ١٢٢٦-١٢٦٩م) في حملته -السابعة- على المشرق في العام (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م). والتي كانت نتيجتها الفشل العسكري في مصر بعد أسره. وبعد توقيعه الصلح مع مصر انسحب إلى فلسطين. وخلال إقامته التي استمرت عدة سنوات (٦٤٩-٦٥٣هـ/ ١٢٥١-١٢٥٤م) أبدى كعادة قواد الحملات السابقة - استعداداً واسعاً لتقديم المساعدات المادية والبشرية في خدمة المجهود العسكري الفرنجي في فلسطين. فقام بتقوية تحصينات القلعة وزيادتها، عن طريق تقويه أسوارها وبواباتها باعتبارها مركزاً بحرياً هاماً وتجمعاً بشرياً كبيراً للفرنج[٣]. ولذلك نرى أن الداوية والاسبتارية والتيوتون رفضوا أن يتنازلوا عن القلاع التابعة لهم خلال المفاوضات بين المسلمين والفرنج بعد أسر الملك لويس التاسع، حتى إن الملك نفسه رفض ان يتنازل عنها لما تمثله تلك القلاع والحصون من دور في المحافظة على الوجود الفرنجي في فلسطين[٤] وخلال إقامة لويس التاسع في فلسطين أسكن

---

(١) مولر، القلاع الصليبية، ص ٩٢. Fedden and Thombson, op cit, p 92.

(٢) لويس التاسع (١٢٢٦م-١٢٦٩م) أحد ملوك فرنسا تولى الحكم فيها عام ١٢٢٦م. قاد الحملة السابعة على مصر عام ١٢٤٨م. وعاد بعدها الى فرنسا عام ١٢٥٤م. ثم قاد الحملة على تونس عام ١٢٦٩م، ومات خلال الحملة، مكسيموس، تاريخ الحروب، ج٢، ص ٢٩٤-٢٩٥. مولر: القلاع الصليبية، ص ٢٧.

(٣) Fedden and Thombosn, op. cit, p 92, Benvensiti, op. cit, 177.

(٤) جوانفيل، القديس لويس، ص ١٥٧.

زوجته مارغريت التي صحبته في الحملة القلعة لأنها أكثر أمناً. وخلال إقامتها وضعت فيها مولوداً جديداً[1].

وفي العام (٦٥٨هـ/١٢٦٠م)، شاركت حامية القلعة مع حاميات القلاع الأخرى في الجليل وخاصة قلعة صفد في التصدي لغارة إسلامية إنطلقت من طبرية[2]، والتي كانت مقدمة لمرحلة جديدة في التعامل مع القلاع بعد وصول المماليك الى السلطة. كما قام الظاهر بيبرس بغارة على القلعة عام ٦٦٤هـ/١٢٦٦م. إلا أنه لم يستطع فتحها بسبب حصانتها القوية، واكتفى بتدمير الأبنية والمزارع التي حولها[3].

وفي العام (٦٨٠هـ/١٢٨٢م) قام السلطان المنصور قلاوون [4] بعقد صلح لمدة عشر سنوات مع الاسبتارية والداوية للتفرغ لمشاكله الداخلية والخطر المغولي، وكان من أهم بنوده اقتسام الأراضي التي حول قلعة عتليت[5] إلا أن المحاولات الإسلامية بقيت مستمرة لتحرير القلعة وقد تحقق ذلك الهدف في العام ٦٩٠هـ/١٢٩١م بعد تحرير عكا. حيث كانت أخر المعاقل الفرنجية التي سيطر عليها المسلمون[6] ثم قاموا بتدميرها بعد هروب سكانها.

قلعة قيسارية

التسمية وأهمية الموقع : تعتبر قيسارية من المدن الكنعانية القديمة وكانت تحمل إسم برج استراتون[7] وفي الفترة الرومانية سميت قيصرية نسبة الى

---

(١) Deschamp. op. cit, Vol 1, p 28.

(٢) Ibid, p 28.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٣٤.

(٤) المنصور قلاوون (سيف الدين الصالحي) : (ت ٦٨٩هـ/١٢٩٠م) أصله مملوك اشتراه الملك الصالح نجم الدين أيوب. كان من أكابر الأمراء، تدرج في المناصب حتى صار من أكابر الأمراء، تولى الملك عام ٦٧٨هـ/١٢٧٨م، فتح بعض القلاع والحصون والمدن الشامية. كان شجاعاً وقوراً حارب التتار في أكثر من معركة. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، مج٧، ص ٣٣٦.

(٥) زكار، فلسطين في عصر المماليك، ص ٥٥٣. عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ١١٠.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية. ج٩، طبعة دار الفكر، ١٩٩٦، ص ٢٠٩.

(٧) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٧، ق٢، ص ٦١٧.

القيصر الروماني أوغسطس(1)، أما التسمية اللاتينية فهي سيزاريه (Cesaria) و (Caesarea Martima)(2) في حين أن التسمية العربية لها قيسارية.

تقع قيسارية على الساحل الفلسطيني ما بين يافا جنوباً وحيفا شمالاً. وكانت مرفئاً هاماً من مرافىء فلسطين في العصور القديمة والوسطى(3). وتتصل من جهة الجنوب بقلعة قديمة كانت تشغل حيزاً من الأرض عند الطرف الجنوبي للمرفأ ويحميها من جهة البر سور قوي(4).

وتعتبر قلعة قيسارية من القلاع الساحلية المهمة، وتشكل مع قلعة عتليت في شمالها وقلعة ارسوف ويافا في جنوبها حاجزاً منيعاً يحمي المملكة الفرنجية من جهة الساحل من هجمات الفاطميين والأيوبين والمماليك، فهي «من أحصن القلاع وأحسنها وما رُئي في الساحل أحسن منها عَمارة ولا أمنع ولا أرفع، لأن البحر حافٌ بها، وجائز في خنادقها، حتى إذا علقت لاتقع»(5).

دورها في الصراع بين المسلمين والفرنج:

فتح العرب المسلمون قيسارية في العام ١٨هـ/٦٤٠م، وعملوا على تحصينها نتيجة لموقعها على البحر(6)، واستمرت تحت السيطرة الإسلامية الى أن احتلها الفرنج في الحملة الأولى عام (٤٩٤هـ/١١٠١م)(7). وقاموا بإعادة تحصينها عن طريق تقوية أسوارها وأبراجها لمواجهة الأساطيل الفاطمية التي حاولت استردادها،

---

(١) بورشارد، الأرض المقدسة، ص ١٦١، جونز، أرنولد: مدن بلاد الشام حين كانت ولاية رومانية، ترجمة: احسان عباس. عمان، دار الشروق، ط١، ١٩٨٧، ص ٨٦، وسيشار له فيما بعد، جونز: مدن الشام.

(٢) مولر، القلاع الصليبية، ص ٩٧.

(٣) Joannaes phocas. The pilgrims of Joannes phocas in the Holy land, Trans : Aubery stewart, P.P.T.S, Vol :5, London, 1896, p 35.

(٤) مولر، القلاع الصليبية، ص ٩٧.

(٥) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٣٠-٢٣١. المقريزي، السلوك، ج١، ق١، ص٥٢٦.
Ayyubids Mamlukes op.cit., p86-87.

(٦) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٧، ق٢، ص ٦١٧.

(٧) الصوري، تاريخ الحروب، ج٢، ص ٢٢١؛ الشارتري، تاريخ الحملة، ص١١٥.

والمدن الساحلية الأخرى.

واستمرت في تأدية دورها العسكري حتى معركة حطين والتي كان من نتائجها سقوط القلاع والحصون الفرنجية في قبضة صلاح الدين ومنها قيسارية التي فتحها المسلمون دون عناء وذلك لغياب المدافعين عنها[1]. إلا أن الصراع بقى مستمراً بين صلاح الدين والفرنج اذ وصلت حملة جديدة إلى فلسطين كان ريتشارد قلب الأسد[2] (Richard Lion Heart) أحد قوادها العظام. وقد استطاع هذا القائد ان يحتل عكا. إلا أنه فشل في احتلال القدس التي كانت هدفه الأول بسبب المقاومة التي أبداها المسلمون بقيادة صلاح الدين. وانتهى الصراع بينهما بتوقيع صلح الرملة في العام (٥٨٩هـ/١١٩٣م). وكان أحد أهم بنوده أن تكون المنطقة ما بين يافا حتى صور للفرنج متضمنه قيسارية وارسوف وحيفا وعكا[3]، وبهذا فقد سيطر الفرنج على معظم القلاع الساحلية، التي شكلت نقاطاً خطره على المراكز الإسلامية في الداخل.

واستكمالاً للحملة التي قادها ريتشارد قلب الأسد لاعادة السيطرة على فلسطين، وصلت حملة أخرى في العام (٦١٤هـ/١٢١٧م) لنفس الأهداف التي انطلقت فيها الحملات الأولى. وبالرغم من الفشل العسكري للحملة في السيطرة على مناطق جديدة إلا أن نتائجها كانت واضحة في إعادة بناء وتحصين بعض القلاع الساحلية وخاصة عتليت وقيسارية في العام ٦١٥هـ/١٢١٨م[4]. وقد أشرف على أعمال التحصين تلك، الملك جان دي برين[5] (Jeande Brenne)وذلك بمساعدة الفرسان

---

(١) العسلي، فن الحرب، مج٤، ص ٥٤٤.

(٢) ريتشارد قلب الأسد (Richard Lion Heart) (ت ٦٩٤/١١٩٤م) أحد ملوك انكلترا ولد في اكسفورد عام ١١٥٧. ثم أصبح ملكاً عليها عام ١١٨٩. قاد الحملة الثالثة على فلسطين واستطاع احتلال عكا بعد صراعه مع صلاح الدين. ووقع معه صلح الرملة وعاد إلى أوروبا. وتوفى عام ١١٩٤م. مولر، القلاع الصليبية، ص ٢٤.

(٣) الأصفهاني، الفتح القسي، ص ٦٠٥، أبو شامه، الروضتين، ج٢، ص ٢٠٢.

(٤) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٢٧٥.

(٥) جان دي برين (Janne de Brenne) أحد ملوك بيت المقدس من العام ١٢١٠-١٢٢٥م. ثم توج امبراطوراً للمشرق كله في القسطنطينية من العام ١٢٣١-١٢٣٧م. مولر، القلاع الصليبية، ص ٢٥.

الاسبتارية وجنود وفرسان الحملة. وقد استمرت عمليات التحصين حوالي الشهر[1].

وما ان أنهى الفرنج عمليات التحصين حتى جاء الرد من دمشق من قبل الملك المعظم عيسى الذي هاجم قلعة قيسارية عام (٦١٧هـ/١٢٢٠م) ودمرها، كما قام بمهاجمة قلاع بانياس وصفد وكوكب الهوا وتم تدمير أجزاء منها خوفاً من أن تصبح قواعد إنطلاق لمهاجمة المراكز والتجمعات الإسلامية في شمال فلسطين ودمشق[2].

وبالرغم من فشل الحملة وعدم تحقيق أهدافها في احتلال بقية فلسطين أو مصر، فقد واصل الملوك والأباطرة الفرنجة في أوروبا بارسال الحملات المتتالية. فوصلت حملة سادسة بقيادة فريدريك الثاني (Freidrick II) الذي استغل الصراع بين الملك الكامل وابن أخيه الملك الناصر داوود[3] بتوقيع معاهدة مع الكامل في العام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م سُلمت من خلالها له بيت المقدس[3]، فضلاً عن السماح له بتحصين القلاع الساحلية مثل صيدا ويافا وقيسارية التي أعاد الفرنجة عمارتها بمساعدة الامبراطور في العام (٦٢٦هـ/١١٢٩م) بعد أن كان المعظم قد دمرها قبل عدة سنوات[4].

وبوفاة الملك الكامل محمد في العام (٦٣٥هـ/١٢٣٧م). زاد التمزق والشقاق في صفوف البيت الأيوبي فحاول الفرنج استغلال تلك الأحداث لتعزيز وجودهم في فلسطين. فأعادوا تحصين القدس التي منعوا من تحصينها بموجب الإتفاقية. فما كان من الناصر داوود حاكم الكرك إلا أن تحرك بقواته باتجاه بيت المقدس وحاصرها ثم طهرها من الفرنج في جمادي الأولى ٦٣٧هـ/كانون الثاني ١٢٣٩م.[5]

---

(١) Benvensiti, op. cit, p 137. Fabri, op. cit, p 354.

(٢) الدباغ، بلادنا فلسطين،ج٧،ق٢، ص ٦٢٦. Benvensiti, op. cit, p 137.جب، صلاح الدين،ص ٢١٢.

(٣) الناصر داوود بن المعظم عيسى : ولد بدمشق عام ٦٠٣هـ/١٢٠٦م. نشأ في بيت يحب العلم وتولى حكم مملكة دمشق بعد وفاة أبيه المعظم عام ٦٢٤هـ/١٢٢٧م. كان من أهم أعماله تحرير بيت المقدس من الفرنج في العام ٦٣٧هـ/١٢٣٩م. وللمزيد من التفاصيل عن هذا الملك انظر. غوانمه،دراسات،٢٠١-٢٠٣.

(٣) الحموي، التاريخ المنصوري، ص ١٥٢، ١٥٦، غوانمه، دراسات، ص ٢٠٧.

(٤) غوانمه، دراسات، ص ٢٠٦.

(٥) نفسه، ص ٢١٢.

وفي الوقت الذي كان الناصر داوود يحاصر بيت المقدس وصلت حملة فرنجية جديدة الى فلسطين لاعادة احتلال بيت المقدس وبقية المناطق الفلسطينية. واستطاع قائدها ثيوبولد الرابع (Theobald IV)[1] أمير شامبني ان يوقع معاهدة تحالف مع الصالح اسماعيل حاكم دمشق الذي سلمه القدس وطبرية وعسقلان والشقيف وغيرها من البلاد[2]. أما ريتشارد كونول (Richard Cornwall) الذي وصل بعد ثيوبولد بسنه فقد عقد اتفاقية مع الصالح أيوب واعترف بحق الفرنج في ملكية الجليل بما فيه من القلاع والحصون وخاصة هونين وتبنين وكوكب الهوا فضلاً عن بيت المقدس[3].

وبالرغم من سيطرة الفرنج على معظم قلاع فلسطين إلا أن سياستهم العدوانية استمرت وخاصة بعد فقدانهم لمدينة بيت المقدس. وقيام الخوارزمية بإرتكاب المذابح فيها في العام ٦٤٤هـ/١٢٤٦م. مما جعل اساقفتها الفرنج يستنجدون باوروبا ويطلبون المعونة العاجلة[4] فما كان من أباطرتها والبابا إلا ان ارسلوا حملة جديدة -السابعة- بقيادة لويس التاسع في العام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م. وبالرغم من فشلها العسكري إلا أنها كانت ذات فائدة بالنسبة للقلاع إذ قام لويس بعد اطلاق سراحه من مصربالتعريج على يافا وتحصينها. ثم واصل طريقه الى قلعة قيسارية، وقام بالاشراف على اعادة بنائها واصلاح الأضرار التي لحقت بها بعد أن دمرها المسلمون[5]. حيث تم وضع نظام دفاعي لها عن طريق تقوية أبراجها واعادة بناء جدرانها

---

(١) ثيوبولد الرابع (Theobold IV) : أحد الأمراء الفرنسيين الذي كان حاكماً على اقليم شامبني، قاد حملة من الفرنسيين إلى عكا في العام ٦٣٧هـ/١٢٣٩م. وقد وقع المعاهدة مع الصالح اسماعيل في العام ٦٣٧هـ/١٢٣٩م. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص ٩٨٧-٩٨٩.

(٢) أبو شامه، الذيل، ص ١٧٠، غوانمه، دراسات، ص ٢١٢.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٠٢، عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص٩٩٣.

(٤) عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ١٠٠٤.

(٥) جوانفيل، القديس لويس، ص ٢١٠، ابنالعبري، أبو الفرج جمال الدين بن الشماس تاج الدين هارون الملطي (ت ٦٨٦هـ/١٢٨٧م): تاريخ الزمان، ترجمة : الأب اسحاق أرمله، بيروت : دار المشرق، ١٩٨٦، ص ٢٩٥. وسيشار له فيما بعد: ابن العبري، تاريخ الزمان.

وأسوارها خلال اقامته بها لمدة ستة عشر يوماً، وذلك في العام (٦٤٩هـ/١٢٥١م)[١]، وذلك حتى تقاوم أي هجوم قد تتعرض له من جانب المسلمين.

وبعد رحيل الملك لويس التاسع عن فلسطين في العام (٦٥٣هـ/١٢٥٥م) بقيت قيسارية وقلعتها تحت سيطرة الفرنج. حتى قام السلطان الظاهر بيبرس بشن هجوم عليها في العام ٦٦٣هـ/١٢٦٥م واستطاع فتحها بعد حصار دام اسبوعاً ثم أمر بهدمها خوفاً من عودة الفرنج اليها مرة أخرى[٢].

تحصينات عكا

الموقع وأهميته : وردت في المصادر العربية باسم عكا وعكه[٣]، أما اليونان فقد سموها بتوليماس (Ptolemias)، واطلقت عليها المصادر اللاتينية أيضاً بتوليماس وسينت جان داكر (Saint Jean Acre) وأكون (Akkon)[٤].

وعكا من المدن الساحلية في شمال فلسطين وقد استخدمت منذ القدم كميناء بحري للأغراض التجارية والعسكرية في زمن الكنعانيين واليونان والرومان[٥] وفي العهد الإسلامي اتخذت داراً لصناعة السفن ومركزاً متقدماً لمقاومة البيزنطيين لضمان السيطرة العربية الإسلامية على منطقة شرق البحر المتوسط الساحلية[٦]. ويتميز هذا الميناء بأنه محمي من الرياح لأنه يقع فوق بقعة من الأرض بارزة قليلاً في البحر الى جوار خليج حيفا[٧] وكانت المدينة محاطة بالأسوار والخنادق والأبراج المحصنة والقوية حولها على مر الأزمان[٨] فهي مثلثه الشكل بحيث يواجه جانبان

(١) مجهول، تتمة ، ص ٢٢، مولر، القلاع الصليبية، ص ٢٧-٢٨.

(٢) Ayyubids, Mamlukes, op. cit, p 88.

(٣) الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص ١٦٢.

(٤) مولر، القلاع الصليبية، ص ١٢٧.

(٥) جونز، مدن الشام، ص ١٥.

(٦) الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص ١٦٢، العسلي، فن الحرب، مج٤، ص ٥١٣-٥١٧.

(٧) مولر: القلاع الصليبية، ص ٩٤.

(٨) ابن شاهين، زبده كشف الممالك، ص ٤٤

Jhone Poloners Description of the Holy land. P.P.T.S Vol: 6. London, 1894, p 29.

منها البحر والجانب الثالث يواجه السهل المحيط بها[1].

ولهذا فقد حرص الفرنج بعد احتلالهم لعكا على الاهتمام بها وتحصينها لتأمين أغراضهم العسكرية ولجعلها مكاناً لرسو السفن، وخاصة الآتية من الغرب. وبذلك نشطت بها الحركة التجارية وحركة السفن، وأصبحت قاعدة المدن الفرنجية يجتمع في مينائها السفن والتجار من كافة المناطق وفي كل الأوقات[2]. ولهذا قام الفرسان الداوية والاسبتارية والتيوتون الذين استقروا في عكا ببناء أبراجهم وحصونهم الخاصة بهم. هذا فضلاً عن تحصيناتها السابقة وأصبحت من أحصن المدن، لما تتمتع به من أسوار عالية وخنادق عميقة وأبراج شاهقة قوية[3].

أهم تحصينات المدينة :

انتشرت في عكا العديد من التحصينات كالأبراج والحصون والقلاع وهذه التحصينات ليست في خارج المدينة، بل هي جزء من نظام دفاعها الخاص[4] ولم تكن من عمل الفرنج وحدهم، بل من الدول التي سبقتهم كالسلاجقة والفاطميين. فقد وصفت تحصيناتها قبل أن يسيطر عليها الفرنج. إلا أنها تعرضت للتدمير والهدم بفعل الزلازل التي كان اشهرها زلزال عام (٤٥٢هـ/١٠٥٩م) وزلزال (٤٦٢هـ/١٠٦٧م)[5] غير أن الفاطميين قاموا باعادة بنائها وتحصينها حتى احتلها الفرنج في العام (٤٩٥هـ/١١٠٢م).

وخلال قيام الملوك الفرنج بتحصين المملكة قاموا بتشييد بعض التحصينات

---

(١) بورشارد، الأرض المقدسة، ص ٣٩-٤٠. Theodrich, op. cit Vol: 5, P59.

(٢) ابن جبير، الرحلة، ص ٢٧٦.

(٣) مكسيموس، تاريخ الحروب، ج٢، ص ١٢١. J. prawer, Latin Kingdom, p 294.

(٤) Boase: Military Architecture, P143.

(٥) سبط بن الجوزي، ق١، ج٨، ص ٢٨٨، الصوري، تاريخ الحروب، ج٤، ص ١٢٨-١٢٩. الحنبلي، أبو الفلاح عبدالحي بن أحمد بن محمد الدمشقي (ت ١٠٨٩/١٦٨٠م). شذرات الذهب في أخبار من ذهب. بيروت : المكتب التجاري للطباعة والنشر، د.ت، ج٣، ص ٣٠٨، وسيشار له، الحنبلي، شذرات الذهب.

في عكا بمشاركة الفرسان الاسبتارية والداوية والتيوتون ومنها:

١- حصن برج الذبان : ويقع هذا الحصن في الجنوب الغربي من المدينة بالقرب من الشاطىء وهو في غاية الاحكام[١] فقد أقيم فوق صخرة عالية. وهذه الميزة جعلته يتحكم في الميناء -الذي يشرف عليه- ويحميه من أي هجوم قد يتعرض له من جهة البحر، وذلك عن طريق رفع وشد سلاسل حديدية ثقيلة لمنع السفن من التقدم والدخول إلى الميناء[٢]، كما أنه يقوم بحماية السفن القادمة من الغرب عن طريق إرسال اشارات تحذيرية للسفن القادمة وقد ظهر ذلك أثناء الصراع بين المسلمين والفرنج على المدينة بين الأعوام (٥٨٥-٥٨٧هـ/ ١١٨٩-١١٩١م)[٣]، كما أن الحصن في الوقت نفسه يلعب دوراً عسكرياً في الدفاع عن المدينة من أي هجوم قد تتعرض من جهة البر أيضاً[٤]. وقد تميز هذا الحصن من الناحية العسكرية بأنه كان محصناً جداً، حيث أن جدرانه عريضه وتنتشر حوله بعض الأبراج الصغيرة للقيام بعمليات المراقبة من جهة البحر والبر[٥].

ومن الجدير ذكره هنا أن حصن برج الذبان كانت مقراً للفرسان الداوية الذين حصلوا عليه في العام (٥٢٦هـ/١١٣١م) من قبل ملك بيت المقدس بلدوين الثاني (٥١٢- ٥٢٦هـ/١١١٨-١١٣١م).

٢- الحصن الملعون : ويقع الى الشمال الشرقي من مدينة عكا التي كان يحميها سوران ضخمان يلتقيان في زاوية قائمة عند البرج الملعون[٦]. وقد لعب هذا الحصن دوراً عسكرياً كبيراً في التصدي للهجمات العديدة من قبل قوات السلطان صلاح الدين الذي حاول السيطرة عليه أكثر من مرة[٧]، وبعد استيلاء صلاح الدين

(١) خسرو، معين الدين ناصر القبادياني (ت ٤٨١هـ-١٠٨٨م.) سفرنامه «رحله ناصر خسرو»، ترجمة : أحمد خالد، الرياض : جامعة الملك سعود، ١٩٨٣، ص ٥٠، وسيشار له فيما بعد: خسرو، سفرنامه.

(٢) خسرو، سفرنامه، ص ٥١، التطيلي، الرحلة، ص٩٣.

(٣) لين بول، صلاح الدين، ص ٢٢٣.

(٤) Fedden and Thombosn, op. cit, p 32.

(٥) J. Prawer, Latin Kingdom, p 326.

(٦) رنسميان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٥٤، لين بول، صلاح الدين، ص ٢١٤.

(٧) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٥٥. Smail, op. cit, p 75.

على الحصن قام بتحصينه واصلاح الأضرار التي لحقت به جراء الاشتباكات مع الفرنج، كما وضع فيه حاميه قوية وزوده بالمؤن والعتاد ليجعله يقوى على الصمود والمقاومة.

ومن التحصينات الأخرى التي أقيمت في عكا البرج التابع لفرسان الاسبتارية الذي يقع عند النهاية الشمالية للمدينة القديمة. فقد حصلوا عليه في منتصف القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي وأصبح مقرهم الدائم[١]. كما حصل فرسان التيوتون على أحد الأبراج في داخل مدينة عكا وبنوا حوله مستشفى تابعاً لهم[٢]. وبالإضافة لذلك قام الفرنج ببناء وتشييد العديد من الأبراج الصغيرة في جهات المدينة المختلفة التابعة للفرق الفرسانية الدينية الأخرى. وبعضها كان تابع لجماعات التجار الأوروبية وخاصة البيزوية والبندقية والجنوية[٣].

وهذه التحصينات العديدة التي انتشرت في المدينة شاركت في تصديها للمحاولات الإسلامية العديدة للسيطرة على المدينة.

الدور العسكري والتاريخي لهذه التحصينات :

لعبت التحصينات في عكا قبل مجيء الفرنج والتي أقامها الفرنج أو التي أعيد بناؤها في كافة جهات المدينة دوراً هاماً في الدفاع عن المدينة أمام الغارات التي تعرضت لها المدينة سواء من جهة البر أم من جهة البحر. حتى إستطاع صلاح الدين السيطرة عليها بعد معركة حطين فأصدر أوامره باصلاح وتحصين الحصون والأبراج التي تعرضت للدمار والخراب بسبب الحرب مع الفرنج بعد المعركة[٤]، كما أمر السلطان بوضع حامية قوية في تلك الأبراج والحصون مع ما تحتاج اليه من العدة والسلاح والمؤن. وأصبحت من القدرة والقوة ما يجعلها تقاوم الحصار لمدة

---

(١) Benvensiti, op. cit, p 105.

(٢) Smail, op. cit, p 76.

(٣) J.Prawer, Latin Kingdom, p 326.

(٤) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٥٥.

طويلة[1] إلا أن المسلمين لم يحتفظوا بتلك التحصينات إلا لفترة بسيطة إذ استولى عليها ريتشارد قلب الأسد الذي وصل مع الحملة الفرنجية الثالثة بعد قتال وصراع شديدين مع المسلمين المتمركزين فيها. وذلك في العام (٥٨٧هـ/١١٩١م). وقد أمر باعادة تحصينات المدينة وترميم قلاعها ودعمها وذلك قبل ان يواصل طريقه جنوباً للسيطرة على بقية المناطق التي حررها صلاح الدين بعد معركة حطين[2].

وفي العام (٥٩٧هـ/١٢٠١م) تعرضت بلاد الشام الى زلزال قوي. أسفر عن تهدم معظم قلاع الشام الساحلية مثل صور وطرابلس وغيرها. وكان نصيب عكا من الزلزال ان تهدمت أبراجها وحصونها وخاصة الساحلية منها[3]، فقام ملك عكا باعادة تحصين وترميم دفاعات المدينة في أعقاب هذا الزلزال. وقد وصفت تحصيناتها في العام (٦٠٨هـ/١٢١٢م) بأنها مدينة قوية ذات أسوار وأبراج قوية[4].

وكان من نتائج الحملة الفرنجية الثالثة أن أصبحت عكا هي القاعدة الرئيسية لمملكة الفرنج، وبالتالي فقد حرص حكامها بتحصينها على الدوام واستمرت عكا في استقبال معظم الحملات الفرنجية المتعاقبة وشكلت نقطة انطلاق الحملات نحو فلسطين وسوريا ومصر، ومركزاً تجارياً نشطاً يستقبل السفن والتجار والرحالة من كافة انحاء العالم. غير أن تحصيناتها لم تسلم من الخراب بسبب النزاعات والصراعات بين الجماعات والفرق التي تسكنها وخاصة جماعات الفرسان الاسبتارية والداوية والتيوتون وغيرهم. فقد تعرضت التحصينات التابعة لفرقتي الاسبتارية والداوية الى التدمير بسبب الصراع العسكري الذي نشب بينهما بسبب اختلاف مواقفهما من التحالف مع مصر. فقد حالف الداوية حاكم دمشق بعكس

---

(١) ماير، الحروب الصليبية، ص ٢١٠.

(٢) شوفيل، جنفياف، صلاح الدين «بطل الإسلام»، ترجمة : جورج أبي صالح، بيروت: دار الأميرة، ١٩٩١، ص ٤٠٤. وسيشار له فيما بعد: شوفيل، صلاح الدين.Ambroise, op. cit, p 316.

(٣) أبو شامه، الذيل،ص ٢٠، السيوطي،كشف الزلزله، ص ١١١.Christion Society, op. cit, p 147.

(٤) Boase. Castles and churches, p 64.

الاسبتارية الذين أيدوا التحالف مع حاكم مصر(1). وكان ذلك في العام (٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م).

واستكمالاً للدور الهام الذي لعبته عكا في الصراع مع المسلمين، ونتيجة للاهتمام البالغ الذي أبداه الملوك الفرنج والبابوات في أوروبا، فقد وصلت الى الشرق حملة فرنجية جديدة في العام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م وهاجمت مصر إلا أنها فشلت في السيطرة عليها. وأسفرت عن توقيع صلحاً بين الأيوبين في مصر ولويس التاسع فانسحب لويس الى فلسطين ومكث فيها مدة أربع سنوات (٦٤٨-٦٥٢هـ/ ١٢٥٠-١٢٥٤م). وقد شهدت تلك الفترة ذروه أعمال التحصينات الفرنجية في بلاد الشام عامة وفلسطين خاصة(2) حيث تميزت هذه الفترة بتنوع التحصينات وزيادتها أكثر مما كان متبعاً من قبل، بسبب زيادة الخطر على الوجود الفرنجي.(3) ولهذا قام لويس بالاشراف على اعادة تحصين عكا لتكون مهياة للمرحلة القادمة من الصراع مع المسلمين(4).

ومن أهم التحسينات التي أدخلت على عكا مضاعفة أسوارها وزيادة عدد أبراج الحصون وتزويدها بوسائل حديثة لضرب القذائف والأسلحة الأخرى. كما جُعلت أبوابها أكثر متانة وحفرت الخنادق حولها، كما زود الميناء بعدد جديد من الأبراج الدفاعية(5). وفي العام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م تعرضت بعض هذه التحصينات الى التدمير بسبب الصراع الذي نشب بين رجال المدن التجارية الايطالية -البندقية وبيزا- من جهة، والجنوية وفرسان القديس يوحنا والأسبان من الجهة الأخرى، مما كان له الأثر في هروب الكثير من سكان المدينة وهجر أبراجها وحصونها(6)، ومع هذا فقد

---

(١) عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٩٩٤.
Crousset, Renei, Historie des croisades, paris, 1948, V3, p 394 .
(٢) زكار، فلسطين في عهد المماليك، ص ٥٣٨.
(٣) مولر، القلاع الصليبية، ص ٢٨.
(٤) Deschamp. op. cit, Vol : 1, p 18.
(٥) زكار، فلسطين في عهد المماليك، ق٢، مج٢، ص ٥٣٨.
(٦) مجهول، تتمة، ص ٢٣٧-٢٣٨.

صمدت المدينة، أمام الظاهر بيبرس في حملاته المتالية عليها وخاصة في الأعوام (٦٦٢هـ/١٢٦٤م)، (٦٦٦هـ/١٢٦٨م) بحيث فشل في السيطرة عليها[١]. ثم واصل خلفاؤه محاولة فتحها حتى استطاع تحقيق ذلك السلطان الاشرف خليل[٢] الذي قام بتدمير تحصيناتها.

---

(١) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٧، ق٢، ص ٢٢٨.

(٢) الأشرف خليل : (ت ٦٩٣هـ/١٢٩٣م) تولى السلطنة بعد أبيه المنصور قلاوون عام ٦٨٩هـ/١٢٨٩م قام بفتح العديد من البلاد منها عكا وقلعة الروم. ابطل بعض الضرائب عن الناس، ومن صفاته الكرم والشجاعة والهمة العالية، قتله بعض المماليك في العام ٦٩٣هـ/١١٩٣م. القرماني: أخبار الدول، ج٢، ص ٢٧٥-٢٧٦.

ثالثاً: القلاع الصغيرة:

قلعة الفولة

التسمية والموقع: وردت في المصادر العربية بإسم الفولة(1). إلا أن الفرنج عندما احتلوا فلسطين ترجموا الإسم العربي إلى اللغة اللاتينية وسموها "لافيف" (Lafeve)(2). كما وردت باسم "كاستيلوم فابي" (Castelum Fabe) و"فابا" (Faba) و "فين" (Fene) "وفيف" (Feve)(3).

أما بالنسبة لموقع القلعة فتتوسط مرج إبن عامر إلى الجنوب من الناصرة والجنوب الغربي من جبل الطور والشمال الغربي من بيسان(4). وتتحكم هذه القلعة، مع قلعتي كوكب الهوا وبيسان في العيون والينابيع المنتشرة حولها التي تستخدم في ري المزروعات والحقول المنتشرة في السهول المحيطة بها والتي تزود القلاع بما تحتاج إليه من الموارد الإقتصادية(5). كما أنها تشارك قلعتي الطور وصفورية في الإشراف على الطريق السريع القادم من القدس إلى نابلس وطبرية. والآخر القادم من عكا إلى بيسان من جهة الغرب(6). الأمر الذي يبين أهمية هذا المكان بالنسبة للمسلمين والفرنج.

وإذا نظرنا إلى خارطة توزيع القلاع نلاحظ أن هذه القلعة قريبة من قلعة كوكب الهوا الواقعة إلى شرقها، مما يجعل التنسيق بينهما ممكناً وسريعاً في حالة تعرض أي منهما لأي غارة من جهة الأردن الشرقية. خاصة إذا ما علمنا أن المسافة بينهما لا تتعدى ٣٠كم(7). ولهذا فلا غرابة أن يصفها العماد الأصفهاني بأنها قلعة من

---

(١) الأصفهاني، الفتح القسي، ص٩٧؛ الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٣١٨.

(٢) Benvensiti, Op.Cit, P323.

(٣) Rey. Op.Cit, P439.

(٤) Benjamin. Z. Kedar, Denys Pringle. LeFeve: "Acrusader Castle in the Jezreel Valley". Israel exploration Jornal Vol: 35, No, 2-3, Jerusalem, 1985, P 164.

(٥) بورشارد، الأرض المقدسة، ص٩٨؛ Kedar and pringle, Lefeve, P.164.

(٦) Kedar and pringle. Lefeve, P165. Bayer, Op.Cit, P231.

(٧) بورشارد، الأرض المقدسة، ٩٨.

أحصن القلاع وأحسنها[1]. مع العلم بأنها لا تماثل القلاع الكبيرة المنتشرة في المنطقة وخاصة كوكب الهوا وصفد.

بناؤها ودورها العسكري في الصراع:

احتل الفرنج الفولة على يد الأمير تانكرد أحد قواد الحملة الفرنجية الأولى في العام (٤٩٣هـ/١١٠٠م). وقد كانت الفولة ضمن إحدى عشرة قرية تابعة لراهبيه جبل الطور[2] ولا يعرف متى بنيت القلعة وإن كان البعض يرجح بناءها في النصف الأول من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي وأعطيت إلى فرقة الداوية[3]. وقد ورد ذكر هذا الحصن في المصادر الفرنجية من قبل الرحالة ثيودريك (Theodrich) الذي زار فلسطين في العام (٥٦٨هـ/١١٧٢م). وهو أول من أشار إلى وجود قلعة ذات حجم كبير، وبالقرب منها خزانٌ كبيرٌ للماء مزودٌ بآلة ذات عجلات لسحب المياه إليها[4]. أما وليم الصوري فلم يتعرض لذكر هذه القلعة بالشيء الكثير بل ذكر كاستيلوم (Castelum) وهو أحد أسماء الفولة ضمن حديثه عن الصراع بين الفرنج وقوات صلاح الدين في الأعوام (٥٧٨هـ ٥٧٩هـ/ ١١٨٢م، ١١٨٣م)[5].

والمصادر الإسلامية أيضاً لم تتحدث كثيراً عن قلعة الفولة. فقد ذكرها العماد الأصفهاني الذي رافق صلاح الدين في حملاته وحروبه بأنها قلعة حصينة وكانت مليئة بالرجال والعتاد عشية فتحها (وهي حِصْنُهم الحصين ومكان مكين وركن ركين... ومسند مشيد... ومجمع إخوانهم ومشرع شيطانهم)[6].

ولأن قلعة الفولة قلعة داخلية فقد كانت في منأى عن مركز الصراع الذي تركز

---

(١) الأصفهاني، الفتح القسي، ص٩٧. كما أن العثماني ذكر بأنها قلعة حسنة واقعة ضمن أعمال صفد. أنظر: العثماني، قطعة من تريخ صفد، ص٤٨٢.

(٢) Kedar and pringle. Lefeve, P166.

(٣) Ibid, P 166.

(٤) Benvensiti, Op. Cit, P 323' Theodrich, Op.Cit, P63-64.

(٥) الصوري، تاريخ الحروب، ج٤، ص٣٠٧.

(٦) الأصفهاني، الفتح القسي، ص٩٧.

على الأطراف في معظم الأوقات، إلا أن ظهور صلاح الدين زاد من حدة الصراع. فقام بالهجوم على القلعة في العام ٥٧٩هـ/١١٨٣م من جهة نهر الأردن وعبر بيسان، ضمن حملاته عل شمال فلسطن حتى وصل إلى القلعة واشتبك مع حاميتها التي هربت أثناء الليل باتجاه عكا[١]. ثم تقدم قائد القوة حتى وصل إلى جبل الطور ونهبه وعاد إلى دمشق عبر نهر الأردن بعد ثمانية أيام من الغارات المتواصلة دون أن يجري قتال واسع وحقيقي[٢].

وفي العام (٥٨٣هـ/١١٨٧م). سقطت القلعة بيد قوات صلاح الدين ومعها كافة المعاقل والحصون في فلسطين بعد أن قتل وأسر العديد من فرسان حاميتها[٣]. واستولى على ما فيها من ذخائر ونفائس ومواد غذائية[٤]. ولم تشر المصادر الإسلامية إلى تدمير المسلمين للقلعة بعد أن تم فتحها[٥]. في حين إن المصادر اللاتينية أشارت إلى تدمير المسلمين للقلعة[٦]. وهذا مخالف للواقع لأن صلاح الدين لم يكن من سياسته تدمير القلاع التي يفتحها إلا بمقدار ما تهدد فيه تلك القلعة الوجود الإسلامي. وبما أن حصن الفولة كان بعيداً عن مراكز تجمع الفرنج فإنه لم يدمّر، بدليل أنه حينما وقع تحت السيطرة الفرنجية في العام (٦٣٩هـ/١٢٤١م) لم يجر إعادة بنائه أو تحصينه[٧].

وبقيت القلعة تحت سيطرة الفرسان الداوية بعد رجوعها إليهم. ولم تعد تشكل خطورة على الوجود الإسلامي إذ أصبح دورها هامشياً، وذلك لأن قلعة صفد

---

(١) أبي الهيجاء، تاريخ أبي الهيجاء، ورقة ١٨١أ؛ لين بول، صلاح الدين، ص١٥٦.

(٢) أبي الهيجاء، تاريخ أبي الهيجاء، ورقة١٨١أ؛ لامب، شعلة الإسلام، ص٨٩.

(٣) البنداري، الفتح بن علي بن محمد (ت٦٢٢هـ/١٢٢٥م). سنا البرق الشامي (٥٦٢-٥٨٣هـ/ ١١٦-١١٨٧م). تحقيق: فتحية النبراوي، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٧٩، ص٣٠٢، وسيشار له فيما بعد: البنداري، سنا البرق.

(٤) البنداري، سنا البرق، ص٣٠٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٥٤٠.

(٥) البنداري، سنا البرق، ص٣٠٢.

(٦) Kedar and pringle. Lefeve, P170.

(٧) Bayer. Op.Cit, P231. Kedar, and pringle, Lefeve, P170.

أصبحت مركز الصراع بين الفرنج والمسلمين. وقد شن الظاهر بيبرس حملة عليها في العام ٦٦٤هـ/١٢٦٦م. وقام بتدميرها[1].

قلعة طبرية

التسمية والموقع: تعتبر طبرية من المدن الكنعانية القديمة. وقد حملت عدة أسماء منها "رقّة" التي تعني الأرض المنبسطة وتعني أيضاً "شاطئ"[2]. وأطلق عليها رحالة العصور الوسطى مجموعة أسماء منها جنساريت (Giennesaret) وسيناريت (Senareth). وهذه الأسماء وردت في كتاب العهد القديم[3]. وفي القرن الأول الميلادي أعاد القيصر تيباريوس[4] (Tiberius Gaeser) بناءها وأصبحت بعد ذلك تسمى باسمه[5]. واستمرت هذه التسمية مع تعديل طفيف وأصبح إسمها طبرية[6].

تقع طبرية على الجانب الغربي من البحيرة المسماة باسمها. أما القلعة فتربض على شاطئ البحيرة وهي مبنية من حجر البازلت الأسود المتماسك وتمتد مساحتها حتى حافة المياه[7]. وقد أظهرت الدراسات الحديثة أن القلعة موجودة داخل أسوار المدينة في الجهة الجنوبية الشرقية من المدينة على امتداد خليج صغير وكانت مكونة من طابقين، ولها برجان على الزاويتين الشرقية والجنوبية الشرقية[8]. ويحيط بها الجبال من أطرافها الغربية والشمالية. وهذا ما جعلها تشارك في الإشراف على الطريق القادم من دمشق والمار عبر نهر الأردن حتى يصل

---

(١) Kedar and pringle, Lefeve, P171.

(٢) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٦، ق٢، ص٢٩٨.

(٣) جونز، مدن الشام، ص٩١.

(٤) تيباريوس قيصر: (١٤-٣٧م). أحد الأباطرة الرومان العظام. تولى حكم الإمبراطورية عام ١٤م حكم مناطق واسعة في أوروبا وآسيا وأفريقيا. قام بعدة إصلاحات في دولته شملت تنظيم الضرائب في الولايات. الموسوعة العربية الميسرة، ص٥٦٧.

(٥) Anonymous Pilgrims, Op.Cit, P55, Fetelus, Op.Cit, P29.

(٦) الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص١٩.

(٧) لامب، شعلة الإسلام، ص٨١.

(٨) Zvi Razi, Eliot Brawn. "The Lost Crusader Castle of Tiberias". In Horns of Itiltin, Jerusalem, 1987. P219.

إلى طبرية وينتهي عند عكا على الساحل[1]. ولهذا قام الفرنج بعد احتلالهم لطبرية بإعادة تحصينها حتى يتمكنوا من التحكم في ذلك الطريق الإستراتيجي.

وقد شكلت هذه القلعة مع قلاع هونين وصفد وكوكب الهوا خطاً دفاعياً على حدود مملكة الفرنج الشمالية الشرقية المحاذية لإمارة دمشق. كما شاركت حاميتها في شن الغارات على الأراضي الإسلامية في إقليم السواد[2]. ومع هذا لم تكن هذه القلعة بتلك الأهمية الإستراتيجية التي أكتسبتها القلاع الأخرى القريبة منها مثل قلعتي صفد وكوكب الهوا، ذلك أن صلاح الدين لم يواجه صعوبة في السيطرة عليها بعد معركة حطين، ولما تركها خلفه عندما توجه لقتال الفرنج.

بناؤها ودورها في الصراع

قام الرومان بعد بناء المدينة بتحصينها عن طريق بناء الأسوار حولها. وفي القرن السادس الميلادي أعادوا تحصينها[3]. وخلال وقوعها تحت السيطرة الإسلامية قام الفاطميون بإعادة تحصينها مرة أخرى عن طريق بناء قصر جنوبي المدينة لمواجهة خصومهم السلاجقة[4]. وبناء على ما كتبه الرحالة ناصر خسرو الذي زارها في العام (٤٣٩هـ/١٠٤٧م) فان طبرية كان يحيط بها سور من كافة جهاتها ما عدا الجهة الشرقية التي تتصل بالماء[5].

وفي النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي تعرضت تحصينات المدينة للهدم نتيجة الصراع بين السلاجقة والفاطميين للإستيلاء على شمال فلسطين[6]. وهذا يفسر استيلاء الفرنجة عليها بسهولة بعكس بعض المدن الفلسطينية الأخرى التي كانت محصنة بقوة مثل عسقلان وعكا[7]. وبعد

(١) ابن جبير، الرحلة، ص٢٨٢؛ الدومنكي، البلدانية، ص٢٠٤؛ لامب، شعلة الإسلام، ص٨١.

(٢) Prawer, Historie de Royame, Vol: 1. P 255.

(٣) Robinson, Op.Cit, Vol 2. P 392.

(٤) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج١، ص ١٢٣.

(٥) خسرو. سفرنامة، ص٤٨.

(٦) Ayyubids, Mamlukes, Op. cit., P. 55.

(٧) رمضان، عبد العظيم. الصراع بين العرب وأوروبا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية. القاهرة: مطبعة دار المعارف، ١٩٨٨م، ص٣٦٦. وسيشار له فيما بعد: رمضان: الصراع.

استيلاء تانكرد على المدينة جعلها مقراً لأمارته، ولهذا قام بتحصينها تحصيناً قوياً، في نفس العام الذي سيطر عليها عن طريق بناء قلعة فيها[1].

وخلال مرحلة الصراع بين الفرنج والمسلمين تعرضت المدينة والقلعة في العام ٥١١هـ/١١١٨م لهجوم من قبل حاكم دمشق ظهير الدين طغتكين (ت٥٢١هـ/١١٢٨م). الذي حاول السيطرة على القلعة إلا أنه فشل وانسحب إلى دمشق بعد أن وقع صلحاً مع الفرنج[2]. كما تعرضت المدينة والقلعة إلى هجوم آخر من قبل شمس الملوك اسماعيل[3] (٥٢٥هـ-١١٣٢م/٥٢٨هـ-١١٣٥م) في العام (٥٢٧هـ/١١٣٤م) بسبب نقض الفرنج للهدنة بمهاجمة قافلة اسلامية، إن الحملة لم تحقق شيئاً بسبب طلب الفرنج تجديد الهدنة[4].

على أن قيام الفرنج ببناء حصون وقلاع عديدة في شمال فلسطين وعلى الحدود مع إمارة دمشق. مثل قلعتي صفد وكوكب الهوا واستيلائهم على قلعة بانياس لم يعرض قلعة طبرية لأي هجوم، حتى قام السلطان صلاح الدين بتحرير القلعة بعد معركة حطين وأطلق سراح صاحبتها اشيفا الثانية (Assheva II)[5]. بقيت القلعة تحت السيطرة الإسلامية حتى قدوم الحملة الفرنجية الثالثة، فقام صلاح الدين وبعد استشارة أصحابه بإصدار الأوامر بهدم أسوار القلعة بالإضافة إلى بعض القلاع الساحلية الاخرى لمنع الفرنج من الإستفادة منها والتحصن فيها فيما لو أعادوا

---

(١) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج٢، ص١٣٢؛ Ayynid, Mamlukes, Op.Cit, P.55
Deshamp, Op.Cit, P. 124.

(٢) Ayyubids Mamlukes, Op.Cit, P55, J. Prawer, Histori de Royame, P. 255.

(٣) شمس الملوك اسماعيل بن بوري (ت٥٢٩هـ/١١٣٥م). صاحب دمشق. استرد بانياس من الفرنج عام ٥٢٧هـ/١١٣٣م. ساءت سيرته وأخذ الأموال وسفك دماء الكثير من الناس من العامة والأعيان. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص٢٥٥.

(٤) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مج٥، ص٢٣٦-٢٣٧.

(٥) اشيفا الثانية: زوجه صاحب طبرية والتر أوف فولكنبرغ. وبعد وفاته تزوجت من ريموند الثالث كونت طرابلس. وأصبحت صاحبة طبرية قبل معركة حطين. البيشاوي، الممتلكات، ص٢٤٨،هامش٤.

إحتلالها[1]. وكان ذلك في العام (٥٨٦هـ/١١٩٠م) وبعد هدم التحصينات المدينة والقلعة، بقيت مهجورة. ولم يجر أي تحصين لها. لأنها لم تعد تلعب أي دور في الصراع بسبب بُعدها عن مركز الصراع. ذلك أن الفرنج انحسر وجودهم في المنطقة الساحلية التي لم يتجاوز عرضها العشرين كيلومتراً[2].

ومع وصول حملة جديدة من أوروبا بين عامي ٦٣٨-٦٤٠هـ/١٢٤٠-١٢٤٢م بقيادة ثيبالد الرابع (Thebald IV) أمير شامبني وتيشارد لونول (Richard, Cornwall) إلى فلسطين، سلمت قلعة طبرية والمدينة إلى الفرنجة بموجب المعاهدة التي وقعها الفرنج مع حاكم دمشق الصالح اسماعيل[3] كما نصت على عودة شمال فلسطين إلى السيطرة الفرنجية. بالإضافة إلى الساحل حتى عسقلان ما عدا بيت المقدس والخليل وغزة[4].

ومع تولي الحاكم أودو مونتبلارد (Odo of Montbelard) [5] إدارة الجليل قام على الفور بإعادة بناء وتحصين القلعة في طبرية[6]. إلا أنها لم تستمر طويلاً في قبضة الفرنج إذ قام الجيش المصري التابع للملك الصالح نجم الدين أيوب باستعادة المدينة والقلعة في العام (٦٤٥هـ/١٢٤٧م). وقام بتدميرها[7] . كما فتح قلاع

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص٣٢٤-٣٢٥؛ Zvi , Razi, Op.Cit, P218

(٢) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٧، ق٢، ص٢٠٨.

(٣) ابن العميد، المكين جرجس بن العميد أبي الياس بن أبي المكارم النصراني (ت بعد سنة ٦٧٢هـ/١٢٧٣م). أخبار الأيوبيين، تحقيق: كلود كاهن، مجلة المعهد العلمي، دمشق، ج٧، ١٩٥٨، ص١٥٣، وسيشار له فيما بعد، ابن العميد. أخبار الأيوبيين؛ ابن أيبك، كنز الدرر، ج٧، ص٣٤٤؛ أبو الفدا، المختصر، ج٣، ص١٧٢.

(٤) Grossete: Op.Cit, Vol, 3. P394. Deschamp, Op.Cit, Vol: 1, P 17.

(٥) أودو أوف مونتبيلارد Odo of Montbelard: أحد الأمراء الفرنج وهو زوج إحدى حفيدات اشيفا الثانية سيدة طبرية من زوجها والتر؛ جان ريشار، «تكوين مملكة بيت المقدس»، ص١٧١.

(٦) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٣٩٩؛ Zvi Razi, Op. Cit, P 218.

(٧) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص١٥٨؛ أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص١٧٦؛
R.Stephen Humphrys: From Saladin to the Mongols (The Ayyubids of Damascus (1193-1260) Albany, 1977, P 283.

بانياس وعسقلان والطور والشقيف وأرنون. ثم توجه بعد ذلك إلى عسقلان وحاصرها وفتحها ثم هدمها[1].

ومنذ ذلك الوقت بقيت طبرية وقلعتها تحت السيطرة الإسلامية ولم تهاجمها أي قوة خارجية. الا أن ابن شداد صاحب «الأعلاق الخطيرة» وجوانفيل صاحب «سيرة القديس لويس التاسع» وقعا في خطأ حينما ذكرا أن ملك التتار بركة خان قد هاجم طبرية، في العام ٦٥٣هـ/١٢٥٥م[2]. والصحيح كما ذكرت معظم المصادر أن التتار لم يصلوا إلى فلسطين إلا في العام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م.

قلعة بيسان

التسمية والموقع: تعتبر بيسان من أقدم مدن فلسطين، وقد دعيت في العهد الكنعاني باسم بيت شان (Bietshen) بمعنى بيت الإله شان[3]، أما في العهدين اليوناني والروماني أطلق عليها اسم سكيثوبولس (Scythopolis) [4]، في حين المصادر اللاتينية فقد سمتها بيت شان (Bethshan) [5] وجاءت التسمية العربية لها بإسمها الكنعاني مع تعديل طفيف (بيسان).

وتقع بيسان في غور الأردن إلى الجنوب من بحيرة طبرية في منتصف المسافة بين نهر الأردن في الشرق وجبال فقوعة في الغرب[6]. وتسمى بيسان بمدينة الغور[7] لأنها تقع في قلبه، وتحيط بها السهول الواسعة التي تروى من مياه نهر الأردن والمجاري القادمة من الجبال الواقعة إلى الغرب منها[8]. إلا أنها تكثر

(١) رنسيمان ، الحروب الصليبية، ج٣، ص٤٠٠؛ مصطفى، «فلسطين»، ق٢، م٢، ص٤٢٧؛ العسلي: فن الحرب، مج٤، ص٢١٢.

(٢) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج٢، ص٣٥؛ جوانفيل، القديس لويس، ص٢٣٢.

(٣) جونز، مدن الشام، ص٢٠؛ الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٦، ق٢، ص٤٦٢.

(٤) بورشارد، الأرض المقدسة، ص٣٦؛ Wurzburg, Op.Cit, P6.

(٥) الصوري، تاريخ الحروب، ج٢، ص٩١؛ Robinson, Op. Cit, P63.

(٦) بورشارد، الأرض المقدسة، ص٣٦؛ Wurzburg, Op.Cit, P6, Theodrich, Op.Cit, P63.

(٧) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج٢، ص١٣٦؛ Ayyubids, Mamlukes, Op.Cit, P56.

(٨) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج٢، ص١٣٦؛ الصوري، تاريخ الحروب، مج٤، ص٢٩٠.

فيها المستنقعات مما جعل المنطقة طاردة للسكان وتعيق حركة الجيوش[1]،

لم يكن لقلعة بيسان أهمية عسكرية أو استراتيجية. فقد كانت صغيرة الحجم[2]. ولم تكن في موقع يُمكّنها أن تتحكم في ممرات أو طرق رئيسية. ولهذا نجد أن المعلومات الواردة عنها في المصادر قليلة جداً بالمقارنة مع القلاع الأخرى في شمال فلسطين، إلا أن المنطقة لها أهمية اقتصادية من حيث أنها تشتهر بزراعة القطن والحبوب[3].

وكانت بيسان في العصر الروماني عاصمة لفلسطين الثانية[4]، إلا أنها فقدت أهميتها في العصور الإسلامية الأولى. وبعد احتلال بيت المقدس قام الفرنج باحتلال بيسان في العام (٤٩٢هـ/١٠٩٩م) من قبل القائد تانكرد الذي قام بإعادة تحصينها[5].

ولا تمدنا المصادر والمراجع عن ماهية تلك التحصينات التي استحدثت بعد احتلال المدينة، والأرجح أن تكون أعادة بناء القلعة، ذلك أنه وبالرجوع إلى وليم الصوري الذي عاصر قيام دولة الفرنج فإنه يتحدث على قلعة بيسان بأنها كانت صغيرة الحجم[6]. وبقيت كذلك على الأقل حتى العام ٥٧٨هـ/١١٨٢م. لأنها لم تبد أي مقاومة خلال الهجوم عليها في تلك السنة لأن حاميتها كانت صغيرة الحجم[7] .

---

(١) الصوري، تاريخ الحروب، ج٤، ص٣٢٠.

(٢) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص١٣٦؛ Ayyubids, Mamlukes, Op.Cit, P56.

(٣) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٦، ق٢، ص٤٦٢.

(٤) فلسطين الثانية: كانت فلسطين في العهد الروماني مقسمة إلى ثلاثة أقسام، الأولى كانت عاصمتها قيسارية ويدخل في حدودها نابلس وبيت المقدس والخليل والسهل الساحلي حتى رفح، أما فلسطين الثانية فكانت عاصمتها بيسان والتي تضم ديار الجليل وأم قيس وطبرية. أما فلسطين الثالثة فكانت عاصمتها البتراء واشتملت على النقب والمنطقة الجنوبية للأردن الحالية. وساحل فلسطين الجنوبي. أنظر: بورشارد، الأرض المقدسة، ص٣٦، هامش١.

(٥) رمضان، الصراع، ص٣٦٦؛ البيشاوي، الممتلكات، ص٦٩؛ Deschamp. Op.Cit, Vol:1, P 124.

(٦) الصوري، تاريخ الحروب، ج٤، ص٣٢٠.

(٧) نفسه، ج٤، ص٢٩٠، ٣٢٠.

وهناك قاسم مشترك بين المصادر الإسلامية والمصادر الفرنجية حول المعلومات عن القلعة ذلك أن المصادر الإسلامية أيضاً تتحدث عن صغر حجمها. إلا انها لم تحدد زماناً لبنائها[1]. وفي اعتقاد الباحث أن هذا راجعٌ لبعدها عن مركز الصراع بالمقارنة مع القلاع الأخرى ولعدم وجود كثافة سكانية حولها وعدم وقوعها في موقع استراتيجي كما ذكرنا ذلك في الصفحات السابقة.

وقد تعرضت بيسان وقلعتها لسلسلة من الغارات من قبل قوات صلاح الدين قبل تحريرها فقد أرسل في ربيع الأول ٥٧٨هـ/سبتمبر١١٨٢م ابن أخته فروخ شاه في حملة على شمال فلسطين قادمة من دمشق، فَعَبَرَ طبرية وتوجه إلى بيسان وهاجمها واستطاع أن يسيطر على ربضها[2] ثم أغار على قلعتها الصغيرة فهربت حاميتها إلى قلعة كوكب الهوا المجاورة لها، ثم عاد الجيش إلى قواعده محملاً بالغنائم[3].

وحتى لا يترك مجالاً للفرنج في تعبئة قواتهم قام صلاح الدين بهجوم آخر على شمال فلسطين في جمادى الآخرة ٥٧٩هـ/ديسمبر١١٨٣م وكانت بيسان وقلعتها من الأماكن التي هوجمت فهربت حاميتها مرة أخرى تاركين أموالهم ورائهم[4]، فقام الجيش بهدم أسوار القلعة وأبراجها ومن ثم أحرقها بعد أن استولى على ما فيها من المؤن والمعدات[5]. ولم تفلح محاولات الفرنجة لأخذ زمام المبادرة والهجوم بالرغم من وصول النجدات لهم[6]. وقد واصل الجيش الإسلامي هجومه على الحصون الداخلية وخاصة الفولة وعفربلا وصفورية فقتلوا، وأسروا، وغنموا، وعادوا إلى

---

(١) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج٢، ص١٣٦؛ العمري، المسالك، «الدولة المملوكية»، ص١٨٧؛ العمري، المسالك «مصر والشام»، ص١١٨.

(٢) ابن شاهنشاه، مضمار الحقائق، ص٩٥.

(٣) الصوري، تاريخ الحروب، ج٤، ص٢٩٠؛ ابن شاهنشاه، مضمار الحقائق، ص٩٦.

(٤) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص٧٢.

(٥) الأصفهاني، البرق الشامي، ج٥، ص١٤٧؛ ابو شامة، الروضتين، ج٢، ص٥٠.

(٦) الأصفهاني، البرق الشامي، تحقيق: فالح حسين(ج٥) عمان: مؤسسة عبد الحميد شومان، ١٩٨٧، ص ١٤٧؛ ابن شاهنشاه، مضمار الحقائق، ص١٥٣.

معسكراتهم[1].

واصل صلاح الدين سياسته الهادفة إلى تحرير فلسطين والشام من الإحتلال الفرنجي، وتم له ذلك بعد معركة حطين حيث حُرّرت معظم القلاع في فلسطين وأصبحت كلها تحت الراية الإسلامية. إلا أن الصراع مع الفرنج تجدد مرّة أخرى بوصول الحملة الفرنجية الثالثة من أوروبا والتي كان من نتائجها خضوع بعض القلاع الساحلية للسيطرة الفرنجية مثل قيسارية وعكا وأرسوف ويافا وصور. أما قلعة بيسان فبقيت تحت السيادة الإسلامية.

وبعد توقيع صلح الرملة توجه صلاح الدين إلى القدس وتفقدها، ثم سار إلى نابلس شمالاً حتى وصل إلى بيسان وصعد إلى قلعتها المهجورة والمهدمة وقال لأصحابه "الصواب أن نبني هذه - يعني قلعة بيسان - ونهدم كوكب"[2]. ووجه نصائحه حول كيفية بنائها. وترتيب أمورها، ووعد بإحكامها وإعلاء أعلامها[3] ثم غادرها شمالاً ليتفقد قلاع صفد وهونين وطبرية وبيروت حتى وصل إلى دمشق[4].

وفي العام (٦١٤هـ/١٢١٧م) وصلت حملة فرنجية جديدة -الخامسة- إلى فلسطين وشن فرسانها الغارت على شمال فلسطين في محاولة لتوسيع مناطق نفوذهم، فهاجموا طبرية والطور وبانياس حتى وصلوا إلى مشارف دمشق[5]. إلا أنهم لم يستولوا على أي منها. بل استغلوا وجودهم في تحصين بعض القلاع الساحلية وبناء قلعة عتليت على الساحل لحراسة طريق الحج الرئيسي[6]. وبالرغم من ذلك فقد بقيت القلعة مهدمة ومهجورة دون أن يعيد المسلمون تحصينها. وفي

---

(١) أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص٥٠؛ ابن أبي الهيجاء، تاريخ أبي الهيجاء، ورقة١٨١ أ؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق١، ص٨١.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب ج٢، ص٤٠٧-٤٠٩؛ ابن الفرات، تاريخ الدول، مج٤، ج٢، ص٢٢٥.

(٣) الحياري، صلاح الدين، ص٤٦٩.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص٤٠٩؛ الحياري، صلاح الدين، ٤٧٠.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص٢٥٤-٢٥٥؛ ابن أيبك، كنز الدرر، ج٧، ص١٩٠-١٩١.

(٦) بردج: الحروب الصليبية، ٢٤٦.

العام (٦٣٨-٦٣٩هـ/١٢٤٠-١٢٤١م) وصلت حملة فرنجية جديدة كان من نتائجها حصول الفرنج على معظم قلاع فلسطين الشمالية ومنها قلعة بيسان إلا أن الفرنج لم يعيدوا تحصينها لعدم أهميتها بل حصنوا القلاع المجاورة لها كصفد وكوكب الهوا.

قلعة صفورية

التسمية وأهمية الموقع: سميت بعدة أسماء منها الإسم الآرامي صفرايا بمعنى الجدي وصفرة: بمعنى الطائر[1]. وفي العصر الروماني سميت باتوقراطوريس (Otogratores) وديو قيسارية (DoiGaisaria)[2]. أما الفرنج فقد أطلقوا عليها صفوريس (Sephories)[3]. أما الإسم العربي لها فهو صفورية وهو تحريف للإسم الآرامي.

كانت صفورية من أهم المدن في الجليل خلال القرون الميلادية الأولى، فقد كانت محصنة ومقراً لمقاطعة واسعة تضم القسم الغربي من الجليل الأدنى. كما أنها كانت عاصمة بالجليل في تلك الفترة[4].

تقع صفورية على طريق الناصرة- عكا إلى الشمال الغربي من الناصرة. وتبعد عن طبرية ستة فراسخ[5] (٣٣كم) وعن الناصرة فرسخين (١١كم)، وترتفع عن سطح البحر حوالي ٢٧٥م. وقد نبعت بعض الأهمية لقلعة صفورية من حيث الموقع المتوسط بين عكا وطبرية. حيث أنها كانت محطة مركزية للجيش الفرنجي خاصة وأنه تتواجد فيها عيون مياه تسمى باسمها لتزويد الجيوش بالماء قبل انطلاقها،

---

(١) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٧، ق٢، ص١٠٢.

(٢) جونز، مدن الشام، ص٩٥، ٩٧، ١٠٢.

(٣) بورشارد الأرض المقدسة، ص٩٢؛ الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٧، ق٢، ص١٠٢.

(٤) بورشارد، الأرض المقدسة، ص٨٨، هامش١.

(٥) الفرسخ: يساوي ثلاثة أميال أي ما يعادل (٥٥٤٤) متراً. وهذه المسافة كان يقطعها الرحالة مشياً على الأقدام وهناك فرسخ وصفه بورشارد بانه كان قصيراً. والمقصود هنا الفرسخ الذي كان يقطعه الإنسان وهو راكب على ظهر الحصان. وقد ذكر بورشارد أنه سار رحلته مشياً على الاقدام مما يفيد أن الفرسخ يساوي ثلاثة أميال للإنسان الذي يسير على قدمية. بورشارد، الأرض، ص٣٤، هامش٣.

وذلك لافتقار تلك المنطقة لموارد المياه[1]. ولهذا فقد اهتم بها الفرنج وأقاموا فيها قلعة لمراقبة الطرق الواصلة بين طبرية وعكا. وقد وصفها بعض الرحالة الذين زاروها أمثال ثيودريخ (Theodrich) بقوله "مدينة محصنة على الطريق المؤدي إلى عكا"[2]. أما بورشارد فوصفها بقوله "وهي مدينة جميلة تشتمل على قلعة فوقها"[3].

دورها في الصراع الإسلامي-الفرنجي

كما رأينا فإن المعلومات عن صفورية وقلعتها كانت بسيطة وكل ما ذكر في المصادر الإسلامية هو قيام صلاح الدين بتحرير معظم قلاع وحصون فلسطين بعد معركة حطين ومنها قلعة صفورية، وكذلك ذكرت المصادر الفرنجية، مما يعني أنها لم تكن قلعة كبيرة هذا أولاً، وثانياً فإنها لم تلعب دوراً ذا أهمية كبيرة في الصراع بين الفرنج والمسلمين وكل ما ذكر عنها لا يتعدى كونها مركزاً للجيوش الفرنجية التي انطلقت منها لمواجهة هجمات صلاح الدين قبل معركة حطين. ففي العام (٥٧٧هـ/١١٨١م) وأثناء غارة صلاح الدين على شمال فلسطين وقلاعها، كانت قوات الفرنج متمركزة في صفورية[4]. وفي العام ٥٨٣هـ/١١٨٧م حرّر قلعة صفورية ثم أمر بتدميرها[5]. وبقيت مهجورة حتى سُلّمت إلى الفرنج في العام (٦٣٨هـ/١٢٤٠م) مع القلاع الشمالية الأخرى. وقام الداوية بإعادة بنائها وتحصينها[6].

وبقيت القلعة تحت السيطرة الفرنجية حتى قام السلطان الظاهر بيبرس بتحريرها في العام ٦٦١هـ/١٢٦٣م.

قلعة جدين

تقع قلعة جدّين إلى الشمال الشرقي من مدينة عكا على بعد ثلاثة فراسخ

---

(١) الصوري، تاريخ الحروب، ج٤، ص١٤٦، ٢٩٣، ٣١٦؛ لين بول، صلاح الدين، ص١٧٨.

(٢) Theodrich, Op. Cit, Vol:5, P69.

(٣) بورشارد، الأرض المقدسة، ص٩٢.

(٤) الصوري، تاريخ الحروب، ج٤، ص٢٨٩؛ رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص٧٠٨.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٥٤٠؛ أبو الفدا، المختصر، ج٣، ص٧٢.

(٦) Benvensiti, Op. Cit, P 206.

(١٥كم) منها[١]. وتبعد عن قلعة القرين حوالي ٥كم[٢]. وترتفع عن سطح البحر حوالي ٤٢٠م.

ومن خلال إلقاء نظرة على خارطة توزيع القلاع التابعة للفرسان التيوتون القرين وجدّين ومعليا نلاحظ أنها تقع على طريق القوافل التجارية القادمة من دمشق إلى عكا مروراً بقلاع بانياس وتبنين وهونين ثم قلاع القرين وجدّين حتى عكا وهذا الطريق هو الذي سلكه الرحالة ابن جبير في رحلته إلى عكا[٣].

أما بالنسبة لدور القلعة، فبسبب صغر حجمها وبعدها عن مركز الصراع، فكانت أهميتها قليلة ولذلك لم نجد عنها في المصادر سواء الإسلامية أو اللاتينية إلا شذرات بسيطة . وكان التركيز على قلعة القرين المجاورة لها، والتي لعبت دوراً هاماً في الصراع الإسلامي الفرنجي، وربما شاركت قلعة جدّين في الصراع إلا أن ذلك ربما يكون ضمن اشتركها مع قلعة القرين.

ومن خلال دراستنا لقلعة القرين نستطيع أن نستنتج أن قلعة جدين قد بُنيت في نفس الفترة التي أعيد فيها بناء حصن القرين وتوسيعه في العام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م، بعد توقيع اتفاقية بين الكامل أيوب بن العادل مع الإمبراطور فريدريك الثاني[٤]. وقد دمرت القلعة من قبل جيش السلطان المنصور قلاوون قبل العام ٦٨١هـ/ ١٢٨٣م. ذلك أن الرحالة بورشارد الذي مر عنها في تلك الفترة ووجدها مدمرة، وليس كما ذكر الدباغ من أنها دمرت في العام ٦٨٧هـ/١٢٨٨م[٥].

قلعة الملك [معليا]

أطلق على هذه القلعة في المصادر العربية باسم معليا[٦]. وكذلك قلعة الملك[٧].

---

(١) بورشارد، الأرض المقدسة، ص٦٧.

(٢) Doschamp, Op.Cit, Vol:1, P121' Indrikis, Op.Cit, P354.

(٣) ابن جبير، الرحلة، ص٢٧٣-٢٧٥.

(٤) Indrikis, Op.Cit, P354.

(٥) بورشارد، الأرض المقدسة، ص٦٧.

(٦) شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص٢١١؛ العثماني، قطعة من تاريخ صفد، ص٤٨٤.

(٧) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص١٠٦.

أما المصادر اللاتينية فقد سمتها كالستيلام ريجيز (Castelum Regis)، وشاتيو دي روي (Chateau de Roi). وهي الترجمة العربية لقلعة الملك. و تخص هذه القلعة جماعة الفرسان التيوتون.

وتقع هذه القلعة على أراضي قرية معليا وترتفع عن سطح البحر حوالي ٥٠٠م وتبعد عن عكا حوالي ٢٥كم إلى الشمال الشرقي منها، وإلى الشمال الغربي من قلعة القرين، في حين أنها تبعد مقدار ثلاثة فراسخ (١٥كم) عن قلعة جدّين[1]. وهذا الموقع مكنها مع قلعة جدّين والقرين من الإشراف على طريق المواصلات القادم من شمال فلسطين إلى عكا. وشكلت نقطة مراقبة لتحذير عكا من أي هجوم قادم إليها من الشمال أو الشمال الشرقي عن طريق برج المراقبة الموجود في القلعة[2]، بفضل ارتفاعها بالمقارنة مع المناطق التي حولها فقد وصفها شيخ الربوة الدمشقي بقوله "قلعة مليحة حصينة جبلية" [3].

بناؤها ودورها في الصراع الإسلامي - الفرنجي:

لم نعثر في المصادر العربية واللاتينية التي بين أيدينا عن تاريخ بناء الحصن ولكن من الثابت أنه بني قبل نهاية القرن السادس الهجر/الثاني عشر الميلادي ويظهر لنا ذلك من خلال ذكر المؤرخ إبن شداد في كتابه "النوادر السلطانية" بأن الحصن قد وصل إليه المسلمون أثناء صراعهم مع الفرنج حول عكا بعد وصول الحملة الثالثة[4]. والأرجح أنه بني في عصر الملك فولك الأنجوي (٥٢٥هـ/١١٣١م- ٥٣٧هـ/١١٤٣م) الذي تميز عصره بعصر بناء القلاع والحصون، وقد ورد ذكره للمرة الأولى في العام (٥٥٥هـ/١١٦٠م). عندما منح ملك بيت المقدس آنذاك بلدوين الثالث (٥٣٧-٥٥٦هـ/١١٤٣-١١٦٢م) منطقة القلعة إلى أحد أمراء حيفا

---

(١) البيشاوي، الممتلكات، ص٩٥؛ الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٧، ق٢، ص٤١٨؛
Mastermann, Op. Cit, P73.

(٢) Mastermann, Op.Cit, P. 73.

(٣) شيخ الربوة. نخبة الدهر، ص٢١٢.

(٤) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص١٠٦.

واسمه هنري دي ميلي (Henri de Milley)[١]. وكان يتبع القلعة حتى ذلك الوقت ما لا يقل عن ٣٦ قرية في الجليل الأوسط والغربي[٢]. وفي العام (٥٦٥هـ/١١٧٠م) حصل جوسلين الثالث على القلعة وبعض القرى المجاورة بعد زواجه من إحدى قريبات الملك عموري (٥٥٦-٥٦٨هـ/١١٦٢-١١٧٤م)،[٣] وبقيت القلعة تابعة لجوسلين الثالث حتى استطاع صلاح الدين تحريرها بعد انتصاره في معركة حطين[٤]. إلا أنها لم تستمر طويلاً بيد المسلمين إذ استطاع الفرنجة إعادة احتلالها بعد الحملة الثالثة في العام (٥٨٨هـ/١١٩٢م)[٥]. واحتفظت بها عائلة جوسلين الثالث حتى العام (٦٦٤هـ/١٢٦٦م) عندما سقطت بيد المماليك على يد السلطان الظاهر بيبرس[٦].

حصن القيمون

الموقع وأهميته: يقع حصن القيمون على قمة أحد المنحدرات الجنوبية الشرقية لجبال الكرمل. الواقعة جنوب وشرق وحيفا[٧]. ويشرف على الأطراف الغربية لمرج بن عامر، كما أنه يشارك في حراسة الطريق الواصل بين المنطقة الساحلية (عكا وحيفا) والمتجهة إلى منطقة السامرة عبر تلال الكرمل[٨].

والمعلومات عن هذا الحصن قليلة في المصادر اللاتينية وكذلك الإسلامية

---

(١) هنري دي ميلي Henri de Milley: أحد نبلاء منطقة عكا وصهر الكونت جوسلين الثالث. ويعود أصل هذه العائلة إلى الأصل الفلمنكي "بلجيكي". وكان لهذه العائلة أقطاع نابلس فمنح لهم زمن بلدوين الأول. البيشاوي، نابلس «الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية في عصر الحروب الصليبية»، عمان، د.ن، ط١، ١٩٩١، ص٩. وسيشار له: البيشاوي: نابلس.

(٢) Benvensiti, Op. Cit, P 197.

(٣) Ibid, P 197.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٥٤٠؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص١٠٦؛ أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص٧٢.

(٥) Benvensiti, Op.Cit, P 198, Pringle, Survey of Castles, P. 90.

(٦) Benvensiti, Op. Cit, P 198.

(٧) بورشارد، الأرض المقدسة، ص٩٧؛ لين بول، صلاح الدين، ١٥٢.

(٨) شوفيل، صلاح الدين، ص٣٤٩؛ رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص١٠٨، ٥٧٧؛ Deschamp. Op.Cit, Vol:1, P 124.

فياقوت الحموي، ذكره في كتابه مرتين: الأولى عندما ذكر بأن حصن القيمون يقع بالقرب من الرملة[1] وهذا خطأ من ناحية تحديد الموقع. فربما قصد بذلك حصن قاقون الذي وصفه أيضاً بأنه يقع بالقرب من الرملة وهذا صحيح، ذلك أن آثار هذا الحصن موجودة حتى هذا الوقت.

وقد أشارت بعض المصادر الإسلامية الأخرى إليه بعد انتصار صلاح في معركة حطين. أشارت الى أن جماعة من أهل الحزم والرأي أشاروا عليه بتخريب عكا ومحو آثارها حتى لا يعود الفرنج إليها مرة أخرى[2]. واقترحوا عليه بدلاً من ذلك أن يقوم ببناء حصن القيمون. وقد اقتنع صلاح الدين بذلك الرأي إلا أن البعض الآخر من مستشاريه العسكريين رفضوا هذه الفكرة وأشاروا عليه بعدم هدم عكا "لأنها مدينة كبيرة والمصلحة تبقيتها، وأن تُعمر وتحصّن" [3] وقد اقتنع صلاح الدين بهذا الرأي وعدل عن فكرة الهدم.

ولا يعرف بعد ذلك متى تمت إعادة بناء الحصن إلا أنه من الثابت أنه بني من قبل المسلمين قبل العام ٥٨٨هـ/١١٩٢م لأنه هوجم من قبل الفرنج في العام ٥٨٨هـ/١١٩٢م أثناء الصراع بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد[4].

وبقي هذا الحصن تحت السيطرة الفرنجية بعد صلح الرملة. وشكل مع القلاع الأخرى في منطقة مرج بن عامر عائقاً أمام الهجمات الإسلامية سواء من الشمال أم من الجنوب. إلا أنه تعرض للدمار من قبل المعظم عيسى في العام ٦١٥هـ/١٢١٨م أثناء هجومه الواسع على القلاع الفرنجية في شمال فلسطين لتخفيف الضغط عن دمياط المحاصرة من قبل الفرنج[5]. ويبدوا أنه بقي مدمراً لإنشغال الفرنج بتحصين قلاع قيسارية وعتليت.

---

(١) الحموي، معجم البلدان، مج٤، ص٤٨١.

(٢) أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص١٢٥. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص٢٥٣.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص٢٥٣.

(٤) J.Prawer. Historie de Royame, Vol: 2, P 78.

(٥) جب، صلاح الدين، ص٢١١-٢١٢؛ J. Prawer. Historie de Royame, Vol: 2, P. 78.

حصن عفربلا (كفربلا)

أطلق على هذا الحصن في المصادر العربية عفربلا وكفربلا، أما في المصادر اللاتينية فقد أطلقت عليه فوربلت (Forbelt) [1].

يقع هذا الحصن الصغير في غور الأردن إلى الشمال من بيسان وإلى الجنوب من بحيرة طبرية[2]. كما أنه يتوسط قلعتي كوكب الهوا في الشرق وقلعة الفولة في الغرب. وهذا الموقع جعله يشكل مع قلعتي كوكب الهوا وبيسان حاجزاً أمام أي تقدم للقوات الإسلامية إلى عمق منطقة الجليل من جهة الغور.

وقد بني هذا الحصن الصغير في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي من قبل الفرسان الإسبتارية[3]. ولم يشكل هذا الحصن خطراً على المسلمين في صراعهم مع الفرنج لأن حصن كوكب الهوا المجاور له هو الذي تحمل كافة الأعباء في مواجهة المسلمين.

وقد تعرض هذا الحصن كغيره من الحصون والقلاع في شمال فلسطين إلى هجمات الجيوش الإسلامية زمن صلاح الدين. ففي العام ٥٧٩هـ/١١٨٣م. هاجمت قوات صلاح الدين الحدود الشرقية لمملكة بيت المقدس وأغارت على بيسان في البداية واستولت على ما فيها. ثم واصلت توغلها حتى وصلت إلى حصن عفربلا واستولت عليه عنوة، وغنمت ما فيه من مؤن وعتاد[4]. وقد صور لنا المؤرخ أبو شامة في كتابه "الروضتين" نتائج الحملات التي قام بها صلاح الدين ضد الحصون والقلاع في شمال فلسطين ضمن رسالة بعث بها القاضي الفاضل إلى بغداد بقوله: "... وأخذت رجال الإسلام تنقص الأرض من أطرافها ... فإذا البلاد قد انهزم أهلها، فألحقها المسلمون مساكنها في الهزيمة... وعولوا فيها على سيوف المعاول. فإذا هي راحلة وكأنها مقيمة ... مثل بيسان وكفربلا وزرعين، وكلها بلاد مشاهير لها

(١) الحموي، معجم. مج٤، ص١٤٨؛ أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص٢٩.

(٢) الصوري، تاريخ الحروب،مج٤، ص٣٢١؛ Rey Op. Cit, P, 440.

(٣) Pringle, Survey of Castles, P 90.

(٤) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص٧٣؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق١، ص٨١.

قري مغلة. وقلاع مطلّة وأسوار قد ضُربت .. الخ[1].

وبعد معركة حطين سيطر المسلمون على هذه القلعة واتخذها السلطان صلاح الدين قاعدة ونقطة ارتكاز لمهاجمة قلعتي كوكب الهوا وصفد[2]. اللتين فتحتا في العام ٥٨٤هـ/١١٨٨م.

حصن الزيب

أطلق الجغرافيون العرب عليه اسم حصن الزيب[3] التي كانت مدينة كنعانية قديمة، أما الفرنج فقد أطلقوا عليه اسم "إمبرت" (Casal Impert) وذلك نسبة إلى الفارس الفرنجي الذي احتلها عام (٤٩٧هـ/١١٠٤م)[4]. كما عرف باسم تل أكزيب (Tel- Achzib).

وهذا الحصن يطل على أقصى الساحل الفلسطيني الشمالي عند مصب وادي القرين. ويبعد حوالي ١٤كم شمال عكا[5] وتشتهر المنطقة التي حوله بزراعة الكروم والحدائق لتوفير المياه الجارية. ولهذا فقد حولها الملك بلدوين الثالث (٥٣٧-٥٥٨هـ/ ١١٤٢-١١٦٢م) إلى منطقة استيطانية للسكن فيها[6].

ولم تحدد لنا المصادر التاريخية التي وقعت تحت أيدينا متى أنشيء الحصن إلا أننا نستطيع أن نقول أنه أقيم قبل العام ٥٨٠هـ/١١٨٤م. ذلك أن الرحالة ابن جبير وصف الحصن خلال رحلته إلى فلسطين بقوله "وفي الطريق من عكا إلى الشمال حصن يطل على قرى وعمائر متصلة"[7]. أما الإدريسي فقد وصفه بقوله "هو حصن حسن على ضفّة البحر الملح -البحر المتوسط" -[8].

---

(١) أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص٥١.

(٢) أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص١١٩؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص٨٤.

(٣) ابن جبير، الرحلة، ص٢٧٧؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص٣٦٥.

(٤) بورشارد، الأرض المقدسة، ص٤٠، هامش ٢.

(٥) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٧، ق٢، ص٣٤٤.

(٦) ابن جبير، الرحلة، ص٢٧٧؛ بور شارد، الأرض المقدسة، ص٤٠؛ Benvensiti, Op.Cit, P22

(٧) ابن جبير، الرحلة، ص٢٧٧.

(٨) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص٣٦٥.

وكان الهدف من إقامة هذا الحصن جعله مركزاً لجمع الضرائب من سكان المنطقة المسلمين وليس فقط لحماية وحراسة الطرق التجارية الساحلية[1].

وقد استرد صلاح الدين هذا الحصن في العام (٥٨٣هـ/١١٨٧م) بعد معركة حطين، إلا أن الفرنج أعادوا سيطرتهم عليه خلال الحملة الثالثة حيث سيطر عليه ريتشارد قلب الأسد خلال مسيره من صور باتجاه عكا عن طريق الساحل. ومكث فيه بعض الأيام وذلك في العام (٥٨٨هـ/١١٩٢م)[2]. وفي العام ٦٥٤هـ/١٢٥٦م. تحولت ملكيته الى الفرسان التيوتون. واستمرت ملكيتهم له حتى العام ٦٦٩هـ/ ١٢٧١م، حيث قام الظاهر بيبرس بمهاجمته واستولى عليه وقام بتدميره[3].

---

(١) J. Prower, Latin kingdom, P 293.

(٢) Ambroise, Op. Cit, P 115.

(٣) حسين، تاريخ جماعة التيوتون، ص٢٧٤؛ Benvensiti, Op. Cit, P223.

الفصل الخامس

مرحلة تحرير القلاع

المرحلة الأولى: صلاح الدين وخلفاؤه

- جهود صلاح الدين في توحيد مصر والشام
- حملات صلاح الدين على القلاع في فلسطين قبيل معركة حطين
- معركة حطين وتحرير القلاع في شمال فلسطين

أ- أوضاع الفرنج والمسلمين قبيل معركة حطين

ب- نتائج المعركة وتحرير القلاع

المرحلة الثانية: دور المماليك في تحرير القلاع حتى العام ٦٩٠هـ/١٢٩١م

١. دولة المماليك وعلاقتهم مع الفرنج في فلسطين

٢. حملات الظاهر بيبرس وخلفاؤه على القلاع في شمال فلسطين وتحريرها

المرحلة الأولى: صلاح الدين وخلفاؤه:

أولاً : جهود صلاح الدين في توحيد مصر والشام

يعتبر تاريخ الدولة الأيوبية التي امتدت من السنة ٥٦٩هـ-٦٤٨هـ/ ١١٧٤-١٢٥٠م من أهم المراحل التاريخية الذي عرفها المشرق العربي الإسلامي، فقد واجه المسلمون حملات فرنجية متتابعة على أيدي أقوى ملوك وأباطرة أوروبا والتي تجلت فيها فكرة الاستعمار والتوسع بأوضح صورها.

ويعتبر عهد صلاح الدين - مؤسس الدولة الأيوبية - من أهم مراحل تاريخ الحروب الفرنجية الزاخرة بالبطولة والإنسانية في مواجهة أعداء المسلمين والاسلام. ولم يكن بوسع صلاح الدين أن يواجه الفرنج ويحرر البلاد منهم وهم في ذروة قوتهم لولا تحقيق وحدة المشرق .

وحتى يحقق هذا الهدف على أرض الواقع، كان لا بد من القيام بعدة خطوات للوصول الى هذا الهدف. وكانت أولى خطواته في القضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية وإحياء الخلافة العباسية السنية، عبر سلسلة من الاجراءات والخطوات، انتهت في العام ٥٦٧هـ/١١٧١م باعلان الخلافة السنية والغاء الخلافة الفاطمية(١). وبذلك قد صفت الأجواء لصلاح الدين. وصار يُخطب له على المنابر بعد الخليفة العباسي والملك العادل نور الدين زنكي(٢).

وقد اتخذ صلاح الدين عدة خطوات لتثبيت حكمة في مصر مبتدءاً بإصلاح الأوضاع الداخلية، فأبطل المكوس والضرائب ورفع الظلم ونشر العدل(٣)، كما رأى ان من واجبه انشاء جيشاً جديداً يتصف بالقوة. لضبط أحوال مصر وتأمين أطرافها

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ١٧١، ابن كثير، البداية والنهاية. ج١٢، مج٦، ص ٢٨٣، ابن أياس، محمد بن أحمد الحنفي (ت ٩٣٠/١٥٢٤م). بدائع الزهور في وقائع الدهور. تحقيق : محمد مصطفى. القاهرة : الهيئة المصرية للكتاب، ط٢، ١٩٨٢، ج١، ص ٢٣٥. وسيشار له، ابن اياس، بدائع الزهور.

(٢) ابن تغري، بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص ٣٥٧.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة. ج٥، ص ٣٥٥. إبن اياس، بدائع الزهور، ج١، ص ٢٣٨.

من أي اعتداء خارجي، وحتى يحافظ على مكاسبه التي حققها في مصر[1]. فقد استطاع من خلال هذا الجيش ان يقضي على المؤامرة التي استهدفت الاطاحة به وإعادة إحياء الخلافة الفاطمية[2] التي اشترك فيها بعض رموز الخلافة الفاطمية بالتعاون مع الفرنج وذلك في العام ٥٦٩هـ/١١٧٤م[3].

وبعد وفاة نور الدين في ١١ شوال ٥٦٩هـ/٥ أيار ١١٧٤م حصل في بلاد الشام نوع من عدم الاستقرار تمثل في الصراع بين أمراء الشام حول السلطة[4]، وكاد هذا الصراع أن يودي بالوحدة الإسلامية إلى الزوال التي أجهد نور الدين نفسه في بنائها. لأن وريثه الوحيد كان صغير السن، ولهذا قرر صلاح الدين التوجه الى الشام لاعادة الأمور إلى نصابها. فسيطر على دمشق ثم توجه الى حلب في العام ٥٧٠هـ/١١٧٥م واستولى في طريقه على حماة وحمص. أما حلب فقد كانت تحت سيطرة الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين[5]، والتي رفضت الاستسلام له، وطلبت المساعدة من الفرنج ومن الاسماعيلية الباطنية، فاضطر صلاح الدين للإلتجاء الى الوسائل السياسية ووقع صلحاً مع حاكم حلب، وانسحب عنها وتوجه الى بعلبك وتسلمها من واليها[6].

أدرك صلاح الدين ما أصاب الوحدة الإسلامية من التصدع وطمع الأعداء وخاصة الفرنج في البلاد الإسلامية، وأنه ليس في استطاعته وهو بمصر محاربتهم. لهذا فقد طلب من الخليفة العباسي تقليداً جامعاً بمصر والشام والمغرب واليمن[7] من

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص ٣٥٥.

(٢) أبوشامه، الروضتين، ج١، ص ٢١٩. ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص ٢٤٤.

(٣) ابن الأثير، الكامل، مج١١، ص٣٩٨-٤٠٠. المقريزي، السلوك ج١، ق٢، ص ٥٥٣.

(٤) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ق١ ،ح٨، ص ٣٢٦، أبو شامه، الروضتين ج١، ق٢، ص ٥٩٠-٥٩١.

(٥) الملك الصالح اسماعيل بن نورالدين (ت ٥٧٧هـ/١١٨١م) : حكم الموصل وحلب، لمدة عشر سنين كان حسن الخلق نحيلاً، توفي وهو صغير نتيجة المرض بالسل وعمره عشرين سنة. انظر : ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ٩٢-٩٣؛ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ق١ج٨، ص٣٦٦.

(٦) ابن الأثير، الكامل. مج١١، ص ٤١٧-٤٢٠. ابو شامه. الروضتين، ج٢، ص ٢٤، ابن واصل. مفرج الكروب، ج٢، ص ٢٠، ٢٩-٣٠، المقريزي، السلوك. ج١ ق١، ص ٥٩.

(٧) ابن واصل. مفرج الكروب، ح٢، ص ٢٧-٢٩. المقريزي، السلوك ج١ ق١، ص٦٠.

أجل التفرغ لأعداء المسلمين. وقد جاء الرد بالاعتراف من الخليفة العباسي. فتابع صلاح الدين مخططه لتوطيد حكمه في الشام، فاستولى على بُزاغه[1] في العام ٥٧١هـ/١١٧٥م ثم منبج[2] وعزاز[3] وعاد الى القاهرة، وأثناء وجوده فيها قام بتحصين قلعة الجبل، وتقوية الاسطول وذلك في العام ٥٧٢هـ/١١٧٦م[4] وفي هذا الإتجاه أيضاً، قام صلاح الدين باحكام سيطرته على البحر الأحمر بعد أن تعرضت قوافل المسلمين الماره بقربه إلى هجمات الفرنج الذين حاولوا السيطرة على تجارة الشرق الأقصى والمحيط الهندي[5]، من أجل إحكام الطوق على الفرنج ومنع وصول الإمدادات البحرية إليهم. ولم يكتف بذلك، بل واصل سياسته التوحيديه بعد وفاة الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين صاحب حلب في ٢٥رجب ٥٧٧هـ/١٤ كانون أول ١١٨١م ودخولها تحت امرة صاحب الموصل عز الدين مسعود[6]. فتوجه الى الشام لفتح حلب، ونازلها، ثم رحل عنها إلى منطقة الفرات حيث استولى على حران[7] ونصيبين[8]، ولما وصل إلى الموصل لم يتمكن من دخولها بسبب مقاومة

---

(١) بزاغه : بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان بين منبج وحلب وفيها عيون ومياه جاريه وأسواق حسنه. انظر الحموي : معجم البلدان، ج١، ص ٤٠٩.

(٢) منبج مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة ورزاق واسعة في فضاء من الأرض كان عليها سور مبني بالحجارة محكم، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ وبينها وبين حلب عشرة فراسخ. الحموي معجم البلدان، ج٥، ص ٢٠٦.

(٣) عزاز : بليدة فيها قلعة ولها رستاق شمالي حلب بينهما يوم وهي طيبة الهواء عذبة الماء. الحموي : معجم البلدان، ج٤، ص ١١٨.

(٤) الحيارى، صلاح الدين، ص ١٩١.

(٥) شبارو السلاجقه، ص ١٤٦. العسلي، فن الحرب م٤، ص ١٢٣.

(٦) عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، صاحب الموصل، حوصر من قبل صلاح الدين ثلاث مرات، كان على حران بعد موت صلاح الدين كان عادلاً منصفاً. أنظر : سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ق١، ج٨، ص ٤٢٣-٤٢٤.

(٧) حران : مدينة عظمية مشهورة من جزيرة أقور وهي قصبة ديار مضر بينها وبين الرها يوم وبين الرقه يومان، وهي على طريق الموصل والشام والروم، الحموي : معجم البلدان، ج٢، ص ٢٣٥.

(٨) نصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة علي جادة القوافل من الموصل الى الشام وفي قراها =

صاحبها عز الدين مسعود. فانسحب عنها قاصداً سنجار[1] فتملكها[2]. وفي العام ٥٧٩هـ/١١٨٣م أغار صلاح الدين مرة أخرى على حلب وبقي محاصراً لها لعدة أيام حتى تسلمها في صفر٥٧٩/حزيران١١٨٣م[3].

لاشك أن فتح صلاح الدين لحلب والمناطق المجاورة لها. كان نصراً كبيراً لفكرة الجبهة الإسلامية الموحدة، وضربة قوية للفرنج، فقد علق المؤرخ وليم الصوري (William of Tyre) على ذلك بقوله «كان ذلك أسوأ حدث يمكن أن ينزل بالفرنجة»[4]، ولم يبق أمامه الموصل لضمها. فتوجه اليها للمرة الثانية في العام ٥٨١هـ/١١٨٥م. وحاصرها، ثم تسلمها بعد توقيع الصلح مع صاحبها على أن يكون تابعاً لصلاح الدين وأن يخطب باسمه على المنابر[5].

وهكذا تمكن صلاح الدين بالديبلوماسية أحياناً وبالتهديد والترهيب أحياناً أخرى وبالعمل العسكري المحدود في بعض الأحيان من تحقيق وحدة بلاد الشام ومصر والقسم الأكبر من شرق الفرات تحت قيادته[6]. وتحولت تلك الوحدة الى جبهة عريضة واحدة بزعامته.

ثانياً: حملات صلاح الدين على القلاع في فلسطين قبل معركة حطين:

لم يتوان صلاح الدين عن مناوشة الفرنج خلال جهوده في توحيد مصر والشام، وذلك للحيلولة دون قيام تحالف بينهم وبين الأمراء الانفصاليين الذين تصدوا له

= على ما يذكر أهلها أربعون ألف بستان بينها وبين سنجار تسعة فراسخ وبينها وبين الموصل ستة أيام وعليها سور. الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص ٢٨٨.

(١) سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام وهي في لحف جبل عال في وسطها نهر جارٍ، وحوله البساتين ذات الأشجار والنخل. الحموي. معجم البلدان، ج٣، ص٢٦٢.

(٢) ابن الأثير، الكامل، مج١١، ص ٤٨٧-٤٨٨. ابن واصل. مفرج الكروب، ج٢، ص ١١٧-١٢٤.

(٣) أبو شامه، الروضتين، ج٢، ص ١٦٣-١٦٤. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ١٤١-١٤٢.

(٤) الصوري؛ تاريخ الحروب، ج٤، ص٣١٤

(٥) ابن الأثير، الكامل، مج١١، ص ٥١٦-٥١٧. أبو شامه، الروضتين، ج٢، ص ١٦٣-١٦٥. المقريزي، السلوك ج١، ق ١. ص ٨٩-٩٠، ابن كثير، البدايه والنهاية، ج١٢ م٦، ص ٣١٦.

(٦) الحياري، صلاح الدين، ص ٢٠٣.

وعارضوه. إلا أنه لم يكن متفرغاً لحربهم طوال الوقت ذلك أن جل اهتمامه كان منصباً على الجبهة الشامية.

ومنذ أن وصل صلاح الدين الى منصب الوزارة في الدولة الفاطمية، في مصر قام بسلسلة من الغارات والهجمات الخاطفة على القلاع والحصون التابعة للفرنج في مملكة بيت المقدس، ففي بداية العام ٥٦٦هـ/١١٧٠م أغار على حصون الرملة وعسقلان وغزة، وهزم جيشاً فرنجياً هناك[١] ثم واصل تقدمه نحو قلعة الداروم - التي أقامها الملك عموري الأول (Amarlic) (٥٥٨-٥٧٠هـ/١١٦٢-١١٧٤م) لحماية جنوب فلسطين وشرقي الأردن من جهة مصر.[٢] وهناك أباد صلاح الدين جيشاً جاء لنجدتها ثم عاد إلى القاهرة[٣].

وفي منتصف ربيع الأول من العام ٥٦٦هـ/تشرين الثاني١١٧٠م. خرج صلاح الدين لمهاجمة قلعة أيله التي كانت تشكل خطراً على طريق الحج المتوجه من مصر إلى الحجاز[٤]. واستولى عليها بعد أن قتل وأسر من فيها، ثم شحنها بالرجال والسلاح والميرة وقفل راجعاً الى القاهرة[٥].

وهكذا فقد حقق صلاح الدين هدفه بالاغارة على القلاع الجنوبية من مملكة بيت المقدس في فتح الطريق بين مصر والشام. ومع ذلك فقد بقي الخطر قائماً بوجود قلعتي الكرك والشوبك، ولذلك كان لابد من القيام بعمل ما لإختبار قوتهما ومعرفة تحصيناتهما، والسبل الكفيلة بالسيطرة عليهما ولذلك قام منذ توليه الحكم في مصر، بمهاجمة حصني الكرك والشوبك لأنهما يشكلان خطراً على الوجود الإسلامي

---

(١) ابن الأثير، الكامل، مج١١، ص ٣٦٥، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ق١، ج٨، ص ٢٨٣، ابن واصل، مفرج الكروب ج١، ص ١٩٨. أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص ٥٠.

(٢) الصوري، تاريخ الحروب، ج٤، ص ١٣٢-١٣٣. شاوندر، صلاح الدين، ص ٩١.

(٣) ابن الفرات، تاريخ الدول، مج٤ ،ج١، ص ١٢٦، شاوندر، صلاح الدين، ص ٩١.

(٤) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان. ق١، ج٨، ص ٢٨٣.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص ١٩٩، أبو الفداء المختصر، ج٢، ص ٥٠، الحياري، صلاح الدين، ص١٤٢-١٤٣.

لتحكمهما في طريق القوافل من الشام إلى مصر والجزيرة العربية وبالعكس[1]، وكان الهدف من تلك الحملة هو محاولة إختبار قوتهما[2]، وتوجيه ضربة إلى العربان في تلك المنطقة بسبب نقلهم أخبار المسلمين الى الفرنج وخاصة مواقع وتحركات القوات والقوافل الإسلامية[3]. ومع أن الحملة لم تحقق نصراً عسكرياً ساحقاً على الفرنج إلا أنها أضرّت بالكثير من المناطق الزراعية المحيطة بالقلاع[4]. وبيّنت أن قوة صلاح الدين لا يستهان بها. وأخذ الفرنج يحسبون حسابها.

وكان لوفاة نور الدين زنكي أثره على بلاد الشام، فقد غابت القوة المركزية التي يرهبها الأعداء، فذهب بعض الأمراء إلى الإنفصال. وقد رافق هذا الوضع السياسي وصول صلاح الدين إلى الحكم ومحاولته سد الفراغ الذي نجم عن غياب نور الدين زنكي. وقد إنعكست هذه الأحداث على الفرنج الذين رغبوا في متابعة تحركات صلاح الدين وقاموا ببناء حصن بيت الأحزان شمال فلسطين على المجرى الأعلى لنهر اليرموك، مما اضطر صلاح الدين للتحرك فوراً لمهاجمة قلاع الفرنج. فتوجه من مصر إلى الشام لمعالجة أمر هذا الحصن الذي بني في العام ٥٧٤هـ/١١٧٨م. وقد حاول صلاح الدين هدمه بالوسائل السلمية، إلا أن الفرنج رفضوا ذلك، فما كان منه إلا أن جهّز جيشه وتوجه لهدمه لأنه شكل خطراً بالغاً على مراكز المسلمين وتجمعاتهم في تلك المنطقة. وعندما وصله نصب المجانيق وبدأ يقصف الحصن بشده، وتحت غطاء النيران الكثيف، شرع النقابون في نقب الأسوار المحيطة بالحصن من جميع جهاته حتى تمكنوا من فتح ثغرات فيه. ثم أحضروا الأخشاب ووضعوها في داخل الفتحات وقاموا باشعال النيران فيها فأدت إلى انهيار تلك

---

(١) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٤٥. سبط بن الجوزي، مرآة الزمان. ق١ من ج٨، ص ٢٩٤.

(٢) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص٤٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة. ج٦، ص ٢٣.

(٣) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ق١ ج٨، ص ٢٩٣.

(٤) ابن واصل. مفرج الكروب، ج١، ص ٢٢٤.

الأسوار[1]، وقد امتدت ألسنة اللهب التي حركتها الرياح بقوة باتجاه من في داخل القلعة. مما كان له الأثر في إحراق بعض بيوتهم وأسلحتهم المخزنة، مما جعلهم يطلبون الأمان والإستسلام[2].

وبعد أن أتت النيران عليها، دخل المسلمون الحصن وأسروا الفرسان الفرنج الذين بداخله والذين قدروا بحوالي سبع مئة فارس من الداوية أرسلوا الى دمشق[3]. كما حرر الأسرى المسلمين الذين وجدوا بداخله[4] ، وبالإضافة لذلك فقد غنموا الآلاف من قطع السلاح بكافة أنواعها، ناهيك عن الميرة والأقوات والحيوانات[5]. وبقي السلطان مشرفاً على أعمال الهدم منذ البداية حتى هدم إلى القرار، وقد إستغرقت هذه العملية قرابة إسبوعين[6].

ويعتبر فتح حصن بيت الأحزان من أهم الفتوح الصلاحية قبل معركة حطين. وقد ترتب على تحريره أنه فتح الطريق أمام صلاح الدين للإسراع في مواصلة جهوده الهادفة الى توحيد الشام، كما أن فتحه كان بمثابة بداية مرحلة جديدة لتحرير كامل المشرق، ستكون في المستقبل القريب فاعلة لطرد الفرنج نهائياً من البلاد الإسلامية. وهذا ما عبر عنه القاضي الفاضل ضمن رسالة بعث بها الى الخليفة العباسي في بغداد يقول فيها : « ... والمنادي ينادي بلسان مصابها (ما حل بالحصن) اياك أعني واسمعي يا جاره »[7] وفي موضع آخر من الرسالة يقول : «وصارت بلاد الفرنج لا يسكن فيها إلا قلعة أو مدينة. ولا يقيم فيها إلا من نفسه لشدة الخوف معتلقه في نفسه أو مشحونه »[8].وإذا ما تابعنا تطور الأحداث بعد تسعة

(١) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ق١ج٨، ص ٣٥٤، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، مج٦، ص ٣٢٣.

(٢) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ق١ج٨، ص ٣٥٤. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢،مج٦، ص ٣٢٣.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ٨٢. ابن كثير، البداية والنهاية. ج١٢، مج٦، ص ٣٢٤.

(٤) الأصفهاني، البرق الشامي، ج٣، ص ١٨٠، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ٨٢.

(٥) أبو شامه، الروضتين، ج٢، ص ١١، ابن واصل ج٢،ص٨٢؛ المقريزي، السلوك ج١، ق ١، ص ٦٧، وقد بالغ ابن واصل حينما تحدث عن اغتنام مائة ألف قطعة من السلاح من الحصن.

(٦) الأصفهاني، البرق الشامي، ج٣، ص١٨١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ٨٢.

(٧) ابوشامه، الروضتين، ج٢، ص ١٣.

(٨) المصدر نفسه، ج٢، ص ١٣.

سنوات لتثمن صحة ما توقعه القاضي الفاضل حيث حرر صلاح الدين كافة القلاع والحصون في فلسطين بعد معركة حطين.

وبعد هذا الانتصار على الفرنج وفتح الحصن وقّع صلاح الدين هدنة مع بلدوين الرابع (Baldwin IV) (٥٦٩-٥٨٠هـ/١١٧٤-١١٨٥م) في العام (٥٧٦هـ/١١٨٠م) ليتفرغ لمحاربة بلاد الأرمن وغيرها من المناطق في الأناضول[1]. إلا أن الفرنج نقضوا الهدنة بقيام حاكم الكرك إرناط (Renald chatillon) بمهاجمة بلاد الحجاز في العام ٥٧٨هـ/١١٨٢م. فما كان من القوات البحرية الأيوبية إلا أن هاجمت الاسطول الفرنجي في البحر الأحمر ودمرته وأسرت وقتلت رُبّانه[2].

اغتنم صلاح الدين تلك الحادثة وهاجم حصنى الكرك والشوبك وبلادهما دون أن يشتبك مباشرة مع حاميات الحصنين، وواصل طريقه الى دمشق[3] وعندما علم الفرنج بحركة صلاح الدين تحركت قواتهم المرابطة في القلاع الشمالية لفلسطين لمواجهته، فاغتنم فروخشاه خروج الفرنج من مواقعهم، فتحرك من دمشق وهاجم حصون طبرية وعكا ودبوريه[4]. وكان من نتائج تلك الحملة قتل وأسر بعض الفرنج والاستيلاء على آلاف الرؤوس من الحيوانات[5].

وخلال عودة فروخ شاه إلى دمشق هاجم في طريقه حصن حابس جلدك[6] على الضفة الشرقية لنهر الأردن وسيطر عليه، ووضع فيه حامية لاستخدامه كنقطة

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ٩٧-٩٨.

(٢) المقريزي، السلوك ج١ ق١، ص ٧٩.

(٣) ابن الأثير، الكامل، مج١١، ص ٤٧٨، ابن واصل، مفرج الكروب، ح٢، ص ١١٤، المقريزي، السلوك ج١ ق١، ص ٧٧.

(٤) ابن شاهنشاه، مضمار الحقائق، ص ٩٥. ابو شامه، الروضتين، ج٢، ص ٢٨.

(٥) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ق١ج٨، ص ٣٦٩. ابن كثير، البداية والنهاية ج١٢ مج٦، ص ٣٣١.

(٦) حصن حبيس جلدك : أحد الحصون الهامة في منطقة السواد والذي اختلف في تحديد موقعه في الدراسات الحديثة ففي البداية ونتيجة للتحديد غير الدقيق لموقع السواد وحصن العال وضع موقعه في الخرائط الى الشمال من نهر اليرموك، قرب موقع قرية العال وقرية أفيق التي تقع على الطريق الرئيسي بين دمشق وطبريه، أما في الدراسات المتأخرة فتضعه الى الجنوب من نهر اليرموك وفي موقع قريب من عين الحبيس الحالية. وتقع عين الحبيس =

مراقبة على الحاميات الفرنجية المنتشرة في المنطقة[1].

وبعد استراحة لعدة أيام خرج صلاح الدين من دمشق متوجهاً الى فلسطين مرة أخرى يريد طبرية وأثناء تخييمه في الأقحوانه[2] علم الفرنج بتحركاته ومقاصده فتوجهوا فوراً الى طبرية للدفاع عنها[3] إلا أن السلطان غير خطته الحربية في مهاجمة طبرية، وأرسل القائد فروخ شاه للاغارة على بيسان. واستطاع من خلال تلك الحملة قتل حاميتها الصغيرة والاستيلاء على ما فيها من موارد[4] فما كان من الفرنج الذين هالتهم خطة صلاح الدين إلا أن توجهوا مباشرة بإتجاه الجنوب نحو قلعة كوكب الهوا لصد قوات فروخ شاه فيما لو هاجمته[5] وقبيل وصولهم كانت قوات المسلمين قد اشتبكت معهم في معركة شرسة قتل فيها الكثير من الفريقين دون أن تحسم لأي طرف[6] وبعد انتهاء المعركة توجهت قوات صلاح الدين وفروخ

= الحالية في موقع متوسط من حوض نهر اليرموك الجنوبي الى الغرب من وادي الشلاله والي الشمال من بلدة حرثا الحالية والشمال الشرقي من بلدة الرقيد في مكان متوسط بين وادي السجن في الشرق والذي هو الامتداد الشمالي لوادي قويلبه باتجاه نهر اليرموك ووادي ام رشيد الذي يمر الي الغرب من حرثا والشمال الشرقي من الرفيد وترتفع منطقة عين الحبيس حوالي ٤٠٠م عن سطح البحر، والحصن شق في الصخر يقع في وادي سحيق جداً يصعب الوصول اليه لوعورته ولا تصل اليه الطريق إلا من جهة الجنوب ويبلغ ارتفاع الكهف ٤٥م. لمزيد من التفاصيل عن هذا الحصن. انظر ويعد وليم الصوري من أحدث المصادر اللاتينية التي تعرضت لوصف هذا الحصن من حيث الموقع والتحصين والاهمية لمزيد من التفاصيل راجع أوصاف وليم الصوري عن هذا الحصن في: الصوري : تاريخ الحروب، ج٤، ص٢٨٦، ٣٠٤-٣٠٥؛ الحياري: حصن حبيس جلدك، ص ١٥٠-١٥١.
Deshamps : op. cit., VoL1 P. 112.

(١) أبو شامه، الروضتين، ج٢، ص ٢٨. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ١١٥؛ الصوري: تاريخ الحروب، ج٤،ص٢٨٦-٢٨٦.

(٢) الاقحوانه : وقد حددها الدكتور الغوانمه بأنها تقع شمالي الأردن في المنطقة المحصورة بين أم قيس والشونه الشمالية مع المنطقة التي تقابلها من الأغوار. غوانمه : امارة الكرك، ص ١٥٥.

(٣) ابن الأثير، الكامل مج١١، ص ٤٨١، ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص٤٥.

(٤) ابن الأثير، الكامل، مج١١، ص ٤٨١، ابو شامه، الروضتين ج٢، ص ٢٨.

(٥) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ٩٦، المقريزي، السلوك ج١ ق١، ص ٧٨.

(٦) ابن الأثير، الكامل، مج١١، ص ٤٨١، أبو شامه الروضتين ح٢، ص ٢٨. King, op. cit, p 111.

شاه الى دمشق.

وفي صفر ٥٧٩هـ/١١٨٣م استغل الفرنج غياب صلاح الدين في حلب وأعادوا سيطرتهم على حصن الحبيس جلدك[١] ، فما كان من صلاح الدين الذي عاد لتوة من حلب، أن عبر نهر الأردن حتى وصل إلى بيسان فوجدها خالية من المدافعين فقام باحراقها وتخريبها بالكامل بعد أن أعاد الفرنج عمارتها وتحصينها، كما استولوا على الأسلحة والمؤن[٢] وقتلوا بعض الفرنج الهاربين وأسروا منهم جماعة ثم واصل صلاح الدين توغله في مناطق الفرنج وهاجم عين جالوت والناصرة ودبوريه، ملحقاً بها خسائراً كبيرة في الممتلكات.

أما الفرنج فقد تجمعوا في دبوريه وتوجهوا إلى قلعة الفولة، وعندما علم صلاح الدين بذلك توجه لقطع الطريق عليهم حيث جرى قتال بين الطرفين إلا أنه لم يحسم لصالح أي من الأطراف[٣]. فانسحب الفرنج الى الطور ثم الى عكا في حين أن القوات الإسلامية عادت الى دمشق، ودخلها صلاح الدين في جمادي الآخرة ٥٧٩هـ/١١٨٣م[٤].

وكان من نتائج تلك الغارات الخاطفة مقتل العديد من الفرنج، بالإضافة الى تدمير وتخريب العديد من القرى والحصون مثل بيسان -الفولة، الطور، عفربلا، طبرية وزرعين. كما عملت على إرباكهم بحيث فشلوا في التنسيق بين حامياتهم، لإعاقة تقدم القوات الإسلامية التي توغلت في عمق المدن والقلاع الفرنجية في شمال فلسطين، كما كان لهذه الغارات أثر في شل قدرة الفرنج على التنسيق بين حاميات القلاع ولو لفترة معينة، كما أنها دبت الفزع والرعب في نفوس الفرنج

---

(١) الصوري: تاريخ الحروب، ج٤، ص٣٠٤-٣٠٦؛ شاوندر، صلاح الدين، ص ١٧٥.

(٢) الأصفهاني، البرق، ج٥، ص ١٤٧، أبو شامه، الروضتين، ج٢، ص ٥٠، الصوري، تاريخ الحروب ج٤، ص ٣٢٠.

(٣) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٦٢، سبط بن الجوزي، ق١، ج٨، ص ٢٧٧، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ١٤٨.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ١٥١، ابي الهيجاء، تاريخ أبي الهيجاء، ورقة ١٨١أ.

وجعلتهم لايقوون على المواجهة.

أما الرد الفرنجي فقد تمثل باقامة معسكر دائم لهم في صفورية تحسباً من غارات اسلامية جديدة مفاجئة على شمال فلسطين، لأن سيطرة صلاح الدين على تلك المنطقة الاستراتيجية سيعزل المنطقة الشمالية من المملكة عن منطقة الساحل والمنطقة الجنوبية وبالتالي التسريع في القضاء على المملكة.

ثالثاً : معركة حطين وتحرير القلاع في شمال فلسطين :

كان الهجوم الكبير الذي شنته قوات صلاح الدين على شمال فلسطين وتخريب العديد من المواقع والقلاع الفرنجية أثره البالغ في التأثير على مجريات الأحداث التي سبقت معركة حطين.

لم يكن إنتصار المسلمين في معركة حطين مصادفة بل جاء نتيجة خطة عسكرية محكمة وسياسة مرسومة وضعها صلاح الدين للتخلص من الفرنج في بلاد الشام. وإذا ما أردنا أن نفهم سبب انتصار المسلمين في المعركة، وهزيمة الفرنج فلابد من إلقاء الضوء على أوضاع الجانبين قبيل المعركة.

أ- أوضاع الفرنج :

أدت وفاة نورالدين زنكي الى تعرض العالم الإسلامي الى خسارة كبيرة، فقد تركت وفاته فراغا سياسياً في بلاد الشام، حاول على أثره حكام الفرنج التدخل في شؤون المسلمين، إلا أن وفاة ملك بيت المقدس عموري (Amarlic) (٥٥٨-٥٧٠هـ/ ١١٦٢-١١٧٤م) في (ذي الحجة ٥٦٩هـ/تموز١١٧٤م) جعل مملكة بيت المقدس والامارات الفرنجية الأخرى تتعرض لازمة سياسية حادة، باعتباره آخر ملك قوي اعتلى عرش المملكة[١] فقد دب النزاع بين الأمراء والبارونات ورجال الدين في مملكة بيت المقدس بسبب الوصاية على العرش، مما أدى الى ظهور فرق وأحزاب

---

(١) غوانمه، دراسات، ص ١٥٠.
Baldwin. The declin and Full of Jerusalem (1174-1189). In : Setton, vol : I. p 590.

سياسية مختلفة ومتباينة في مواقفها من صلاح الدين(1)، وهذا فتح المجال أمام صلاح الدين للقيام بخطوات على طريق وحدة بلاد الشام(2)، وقد حاول الملك بلدوين الرابع (الأبرص) (Baldwin IV) (٥٦٩-٥٨٠هـ/١١٧٤-١١٨٥م) خليفة عموري (Amarlic) تقوية الجبهة الداخلية الفرنجية التي ضعفت قوتها أمام القوة الإسلامية الناشئة. إلا أنه فشل بسبب زيادة حدة الصراع داخل المملكة بعد زواج أخت الملك بلدوين الرابع من الأمير جاي لوزجنان (Gay Losignan) الذي تحالف مع ارناط حاكم الكرك ضد الملك بلدوين الرابع. وأصبح جاي (Gay) هو المنافس الأقوى للملك، وبذلك فقد نشأ حزبان داخل المعسكر الفرنجي مما أدى الى اضعاف دولة الفرنج وتفتيت قوتها وضياع مجهودها(3).

وبوفاة الملك بلدوين الرابع (Baldwin IV) في العام (٥٨١هـ/١١٨٥م) زادت أحوال المملكة أكثر فأكثر، وأصبح أمراء وبارونات المملكة يتدخلون في شؤون الحكم والوصاية على العرش(4). وقد تم تعيين بلدوين الخامس(5) (Baldwin VI) لحكم المملكة في العام ٥٨١هـ/١١٨٥م وهو طفل صغير. إلا أنه وبعد أقل من سنة توفي وعمره لم يتجاوز التاسعة، فاستمر النزاع على السلطة والحكم، وجرى انقسام آخر بين الأمراء بعد أن اعلنت أمه نفسها ملكة لمملكة بيت المقدس بدعم من زوجها جاي (Gay) وارناط صاحب الكرك(6) في حين ان ريموند (Reymond) صاحب طرابلس لم

---

(١) علي،عبد الحفيظ: مشكلات الوراثة في مملكة بيت المقدس وأثرها على الحركة الصليبية، القاهرة، دار النهضة العربية ١٩٨٤، ص.١٠٠ وسيشار له علي: مشكلات الوراثة.

(٢) غوانمه، دراسات، ص ١٥١. Baldwin, op. cit, p 606.

(٣) غوانمه، دراسات، ص ١٥٢. Baldwin, op. cit, p 601-602.

(٤) عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ٧٦٢. Baldwin, op. cit, p 606.

(٥) بلدوين الخامس : (ت ٥٨٢/١١٨٦م). أحد ملوك بيت المقدس، تولى حكم المملكة وهو صغير السن بوصاية الأمير ريموند كونت طرابلس. حكم لمدة أقل من سنة. توفي في عكا في العام ٥٨٢هـ/١١٨٦م. غوانمه، دراسات، ص١٥٢.

(٦) عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ٧٦٤، غوانمه، امارة ا لكرك، ص ١٤٩، الحياري، صلاح الدين، ص ٢٦٧، علي، مشكلات الوراثه، ص ١٢٢.

يعترف بالملكة الجديدة. ووقف ضد الحلف الجديد بزعامة الملك جاي (Gay) [1].

هذا التصدع والتمزق الذي جرى في البناء الداخلي لمملكة بيت المقدس والإمارات الأخرى كان له الأثر الواضح في إضعاف الموقف الفرنجي وزيادة قوة المسلمين مما جعل المؤرخون المسلمون يستبشرون خيراً بتلك النتائج فابن الأثير يقول : «فاختلفت كلمتهم وتفرق شملهم»[2]. أما ابن الجوزي فعلق قائلاً : «وظهر الخلاف وتفرقت كلمتهم، وكان ذلك سبباً لسعادة الإسلام»[3]. وهكذا لم يبق أمام صلاح الدين إلا البدء بشن حرب تحريرية شاملة ضد الوجود الفرنجي بعدما وصلت اليه المملكة من انحلال وضعف وانقسامها الى عدة تيارات وأحزاب متصارعة فيما بينها، فأخذ يتحين الفرصة المناسبة لتنفيذ مخططه الكبير.

ب- أوضاع المسلمين واستراتيجية صلاح الدين قبيل حطين :

ذكرنا في بداية الفصل الجهود الحثيثة والمتواصلة التي قام بها صلاح الدين في سبيل الوصول الى وحدة اسلامية حقيقية على أرض الواقع من خلال موقعه كسلطان للمسلمين، وقبل أن يبدأ صراعه النهائي مع الفرنج قام بعدة خطوات هدفها لم شمل المسلمين. والتي بدونها لايمكن لا بل من المستحيل على أية قوة أن تقضي على الفرنج. ذلك أن من يريد القضاء على أي عدو خارجي في بلاد الشام لابد له من وحدة الشام ومصر.

وهذا ما طبقه صلاح الدين على أرض الواقع خلال مسيرته الجهادية، فقد أشرنا في الصفحات السابقة الى أعماله المتواصلة في مهاجمة الحصون والمدن الفرنجية وكذلك دوره في فتح المدن الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة الفراتية والتي كان آخرها فتح حلب والموصل في العام ٥٧٩هـ/١١٨٣م.

ومنذ تلك اللحظة أخذ صلاح الدين في توجيه الحملات المتلاحقة على الفرنج بحيث لم يترك لهم فرصة للراحة والهدوء، بعد أن اجتمعت له الجيوش من كافة

---

(١) الحياري، صلاح الدين، ص ٢٦٧، غوانمه، امارة الكرك، ص ١٤٩.

(٢) ابن الأثير، الكامل. مج١١، ص ٥٢٧.

(٣) ابن الجوزي، مرآة الزمان ق١، ج٨، ص٣٨٩.

المدن والولايات الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة الفراتية وكانت تلك الغارات الواسعة على القلاع والحصون الفرنجية في فلسطين من شمالها الى جنوبها في الأعوام ٥٧٤هـ/١١٧٨م، ٥٧٥هـ/١١٧٩م، ٥٧٨هـ/١١٨٢م، ٥٧٩/١١٨٣م. خير دليل على هذا النهج . وقد استطاع من خلال هذه الغارات استنزاف القوة الفرنجية وتشتيتها في أكثر من موقع وشل حركتها وقدرتها على المواجهة في أكثر من مرة.

ثم واصل صلاح الدين حملاته على قلاع وحصون الفرنج فتوجه في ربيع الآخر ٥٨٠هـ/حزيران ١١٨٤م لمهاجمة قلعة الكرك، واستطاع أن يملك ربضها[1]. إلا أنه لم يستطع السيطرة على القلعة لحصانتها وكثرة المدافعين عنها[2]. وقد اغتنم صلاح الدين فرصة خروج القوات الفرنجية من شمال فلسطين لمساعدة اخوانهم في الكرك، فشن غارات خاطفة على تجمعاتهم، وعاد إلى دمشق قبل أن يستطيعوا تجميع صفوفهم مرة أخرى لمهاجمته[3].

وخلال وجود صلاح الدين في دمشق بدأ يخطط فعلياً لتحرير بيت المقدس ومدن الشام الأخرى وقلاعها من الفرنج. وإن التخطيط لعملية كهذه يستوجب ابقاء خطوط مواصلات دائمة بيت القاعدة (دمشق) وساحة العمليات المقبلة (فلسطين) لمواصلة مراقبة تحركات الفرنج في الجزء الشمالي من فلسطين الذي تنتشر فيه معظم القلاع الفرنجية، ولهذه الغاية انشأ شبكة من المواقع والنقاط المتتالية، فأوعز صلاح الدين في العام ٥٨٠هـ/١١٨٤م الى عامله في عجلون الأمير عزالدين اسامه ببناء قلعة عجلون «الربض» لتتمكن من مراقبة تحركات الفرنج في قلعة كوكب الهوا وبيسان المشرفتين على الغور الأوسط[4]، وخلال تلك الفترة كانت

---

(١) الربض: ما حول المدينة، وقيل هو الفضاء حول المدينة وقيل الربض وسط الشيء، الربض بالتحريك نواحيه وجمعها أرباض. إبن منظور: لسان العرب، مادة ربض، ص١١٠٧.

(٢) ابن شاهنشاه، مضمار الحقائق، ص ١٨٩. ابن الأثير، الكامل، مج١١، ص ٥٠٢.

(٣) ابو شامه، الروضتين، ج٢، ص ٥٥. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ١٥٨-١٥٩. غوانمه، امارة الكرك، ص ١٤٦.

(٤) ابن شداد: الاعلاق الخطيرة ص٨٦-٨٧؛ غوانمه، امارة الكرك، ص ١٤٧.

أحوال مملكة بيت المقدس تزداد سوءاً بسبب الصراع الداخلي كما أشرنا سابقاً، ومما زادها سوءاً أكثر فأكثر قيام ريموند (Reymond) كونت طرابلس بعقد هدنة منفردة مع صلاح الدين، والتي كان من آثارها تفرغ السلطان صلاح الدين لأخذ الموصل. وقد وقعت الهدنة في العام ٥٨١هـ/١١٨٥م لمدة أربعة سنوات[1].

وفي نهاية العام ٥٨٢هـ/بداية العام ١١٨٧م. هاجم إرناط حاكم الكرك قافلة اسلامية كانت في طريقها من مصر إلى الشام[2]. واستولي على ما فيها. وعندما علم صلاح الدين بذلك بعث له برسالة تهديد طالبه فيهاباطلاق سراح القافلة فوراً وبدون شروط، إلا أن إرناط رفض العرض فما كان من صلاح الدين إلا أن أقسم أن ظفر به ليقتلنه[3]. وفي النتيجة فإن التحركات التي قام بها صلاح الدين حيال إمارة الكرك تدلل على مدى ادراكه الواسع لأهمية تأمين الطرق الادارية والعسكرية التي تخدم حركة قواته، ولذلك سعى بنفسه لحمايتها ليفوّت الفرصة على ارناط للتدخل فيها واعاقتها.

كانت هذه الحادثة هي الناقوس الذي دق أجراس الحرب، والقشة التي قصمت ظهر البعير، فأعلن صلاح الدين الجهاد والحرب الشاملة على الفرنج، بعد أن أمّن الجبهتين الشرقية (بلاد الشام) بتوحيدها والغربية (مصر) باستقرار الأمور فيها، وبموجب هذا الإعلان أرسل صلاح الدين كتاباً إلى سائر الأطراف في دولته يحثهم على تجيهز الجيوش استعداداً للمعركة الفاصلة مع الفرنج.

ومن ضمن الخطط الاستراتيجية الأخرى التي استخدمها صلاح الدين لتطويق الفرنج واضعافهم. أنه عمل على إنشاء جهازاً «للتجسس» على الفرنج من أجل امداده بالأخبار التي تكشف تحركاتهم وتنظيماتهم وخططهم العسكرية ومواردهم

---

(١) غوانمه، امارة الكرك، ص ١٤٧. Stevenson, op. cit, p 206.

(٢) ابن الأثير، الكامل. مج١١، ص ٥٢٨، أبو شامه، الروضتين، ج٢، ص ٧٥، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ٧٥.

(٣) ابن الأثير، الكامل، مج١١، ص ٥٢٨. ابن واصل. مفرج الكروب، ج٢، ص ١٨٥.

الاقتصادية ومواطن الضعف والقوة عندهم[1] وقد أثبت هذا الجهاز نجاعته بتزويد صلاح الدين بمعلومات كافية عما كان يجري على الجانب الفرنجي من نزاعات وصراعات داخلية.

وقد انتشر هؤلاء العيون والطلائع، في كافة مناطق العالم الإسلامي بما فيها فلسطين وسوريا،وجنّد في هذا الجهاز أشخاصاً من مختلف الطبقات الاجتماعية من فلاحين وبدو ورجال دين وخاصة الصوفية الذين استغلوا صفتهم الدينية في التجوال حتى لا ينكشف أمرهم[2]. بينما تخفّى البدو والفلاحين في صورة باعة متجولين في المعسكرات الفرنجية. وهذه الفئات كانت عند عودتها تقدم تقارير كاملة بالمعلومات التي حصلت عليها للقيادة الإسلامية[3].

كما جند هذ الجهاز في صفوفه أناساً غير مسلمين وخاصة من الفرنج ومنهم زوجة حاكم انطاكية التي زودته بمعلومات هامة عن تحركات القوات الفرنجية في سوريا[4].

وقد قدم عيون المسلمين في العهد الأيوبي خدمات جليلة الى جيوشهم وقياداتهم كان لبعضها الفضل في كسب المعارك واحراز النصر[5] ومن الأمثلة على ذلك اكتشاف المخابرات الأيوبية لمجموعة من الفرسان الفرنج كانوا متوجهين لنجدة قلعة كوكب الهوا أثناء حصارها في العام ٥٨٤هـ/١١٨٨م وتم أسرهم وقتلهم[6].

---

(١) الشيال، جمال الدين، (الجاسوسية، في حروب بني أيوب)، دراسات في التاريخ الإسلامي، بيروت : دار الثقافة، ١٩٨١، ص ٧٣. وسيشار له الشيال، الجاسوسية: العسلي، فن الحرب، مج٤، ص ٦٢٢، البحيري، صلاح الدين، المخابرات الأيوبية في مواجهة الصليبيين، المؤرخ العربي، مج٤، ع ٤١-٤٢ السنة ١٦، ١٩٩٠، ص ١١٤ وسيشار له البحيري، المخابرات الأيوبية.

(٢) البحيري، المخابرات الأيوبية، ص ١٢٢.

(٣) سعداوي، نظير، جيش مصر في أيام صلاح الدين، القاهرة : مكتبة النهضة العربية، ط٢، ١٩٥٩، ص ٨٦. وسيشار له : سعداوي، جيش مصر، العسلي، فن الحرب، ص ٦٦٣.

(٤) العسلي، فن الحرب، مج٤، ص ٦٢٢، نيوباي، صلاح الدين، ص ١٣٢.

(٥) الشيال « الجاسوسية » ص٧٣. رسنيمان: الحروب الصليبية، ج٣، ص٧٠.

(٦) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢ ص ٢٧٢-٢٧٣.

كما استخدم صلاح الدين وسيلة أخرى في جمع المعلومات عن أعدائه وهي استعمال الحمام الزاجل «البريد الجوي». بحيث أقام محطات له حول المواقع الفرنجية لتزويده بمعلومات عن تحركاتهم العسكرية(١).

وبالاضافة إلى الاجراءات السياسية والعسكرية التى اتخذها صلاح الدين فقد أدرك أيضاً ما للمصالح التجارية من أهمية في إبقاء واستمرار الإمارات الفرنجية، ولهذا قام بعد توليه الحكم باتخاذ سلسلة من الاجراءات لضرب المصالح التجارية الفرنجية واضعافها، فمنذ أن تولى صلاح الدين الحكم في مصر بذل جهوداً واسعة لجذب تجارة المدن الايطالية الى مصر من أجل دعم وزيادة موارده من المواد الأولية اللازمة لبناء الأسطول(٢)، وخاصة مادتي الخشب والحديد، كما هدف من هذه العلاقة إضعاف تجارة الفرنج، لاسيما وقد سيطر صلاح الدين على البحر الأحمر(٣). ومنع وصول الامدادات أو الاتصال مع القوى الفرنجية.

وقد اتبع صلاح الدين أسلوباً آخر لضرب المصالح التجارية الفرنجية عن طريق اتباع سياسة «الأرض المحروقة» فقد عملت القوات الأيوبية التابعة لصلاح الدين منذ بداية الاشتباكات مع الفرنج على تدمير المناطق المزروعة التابعة للفرنج من مزارع وحقول وأرباض تدميراً منظماً من أقصى شمال سوريا الى أقصى جنوب فلسطين والأردن(٤) ليحرم الفرنجة وخيولهم من المخزون الغذائي. وانطلقت سرايا المسلمين وجيوشهم تجوب المناطق الفرنجية تستولي على قطعان الماشية وتدمر الحقول والمزارع وتحرقها. وليس أدل على ذلك من قيام جيوش صلاح الدين بهذه السياسة هي سلسلة الغارات التي قام بتنفيذها على قلاع شمال فلسطين ومدنها وقلاع شرقي الأردن الجنوبية (الكرك والشوبك) من العام ٥٧٤هـ/١١٧٨م

---

(١) سعداوي، جيش مصر، ص ٨٣.

(٢) العريني، سيد الباز، الشرق الأدنى في العصور الوسطى «الأيوبيون». بيروت. دار النهضة العربية، ١٩٦٧، ص ٧٨. وسيشار له : العريني، الأيوبيون. حسين. جيش صلاح الدين، ص ٥٧.

(٣) العريني، الأيوبيون، ص ٧٨. غوانمه، امارة الكرك، ١٤٩.

(٤) الصوري، تاريخ الحروب، ج٤، ص٣٢٢-٣٢٣؛ سميل، الحروب الصليبية، ص ٨٢.

وحتى العام ٥٨٠هـ/١١٨٤م، ويتحدث أبو شامة عن تلك السياسة لقوله «أن السلطان كان يركب في كل يوم بحجة الصيد، ويجرد الفرسان والقبائل العربية الى صيدا وبيروت حتى يحصدوا غلات العدو. ولا يبرح مكانه حتى يعودوا بجمالهم وأحمالهم حتى خف زرع الكفار».[1]

وأصبح الصراع على الموارد الاقتصادية في مرات عديدة هو العامل الأساسي في تصعيد الصراع واشعال فتيل الحرب، بين المسلمين والفرنج والمعروف أن الشرارة التي فجرّت الصراع وأدت إلى معركة حطين هو قيام حاكم الكرك بالاعتداء على أحد القوافل التجارية الإسلامية ونهبها. وبذلك لم تنته سنة ٥٨٢هـ/١١٨٧م حتى أصبح صلاح الدين مستعداً لتحقيق غرضه في المواجهة مع الفرنج بعد أن أصبحت الجبهة الإسلامية قوية ومتماسكة من كافة جوانبها في الوقت الذي بدت فيه أوضاع مملكة الفرنج ممزقة الأوصال ويعتريها الضعف والانقسام.

ج - معركة حطين وتحرير القلاع في شمال فلسطين :

كان استيلاء ارناط حاكم الكرك على قافلة المسلمين القادمة من مصر وفشل المفاوضات بين صلاح الدين وارناط في حل المشكلة هي الشرارة التي فجرّت الصراع بين المسلمين والفرنج. إذ قام صلاح الدين بعد أن رتّب أوضاعه الداخلية، باعلان حالة النفير العام في كافة أنحاء الولايات الإسلامية وبدأ بتجهيز قواته للجهاد والدخول مع الفرنج بحرب شاملة.

خرج صلاح الدين من دمشق في محرم ٥٨٣هـ/آذار/ ١١٨٧م. بعد وصول بعض الفرق العسكرية اليه من الولايات الإسلامية، قاصداً الكرك لمعاقبة حاكمها على فعلته، فهاجم أعمالها وقطع أشجارها وحرق زرعها وثمارها[2]. إلا أن القلعة استعصت عليه. وأقام على هذه الحالة لمدة شهرين حتى وصلته قوات إضافية من

(١) أبو شامة، عيون الروضتين في أخبار الدولتين. تحقيق: أحمد البسومي. دمشق وزارة الثقافة، ١٩٩١-١٩٩٢م. ج٢، ص٥٥، وسيشار له: أبو شامة، عيون الروضتين.

(٢) أبو شامه، الروضتين، ج٢، ص ٧٥. ابن شداد. النوادر السلطانية، ص ٧٦، المقريزي، السلوك ج١ ق١، ص ٩٣.

مصر لدعمه[1]. في حين أن قوات ابنه الأفضل علي[2] الذي كان قد خرج من دمشق وعسكر على الحدود الشمالية للمملكة الفرنجية، وطال انتظاره، تحرك لاستطلاع الموقف العسكري، فدخل منطقة عكا واشتبك مع قوات الفرنج المرابطة في مرج صفورية وقتل وأسر مجموعة منهم وعاد الى معسكره في رأس الماء[3]، وهكذا فقد كان على الفرنج نتيجة هذه السياسة الحكيمة لصلاح الدين أن يحاربوا على جبهتين في آن واحد: جبهة في الأردن (الكرك والشوبك) وجبهة في شمال فلسطين وهو أمر لم يكن في قدرتهم القيام به[4].

أما صلاح الدين فقد توجه بعد غاراته على الكرك الى معسكر المسلمين بالقرب من عشترا[5]، حيث تجمعت القوات الإسلامية فيه. وفي ربيع الآخر ٥٨٣هـ/حزيران/ ١١٨٧م تحرك صلاح الدين بقواته قاصداً فلسطين -بعد أن رتب قواته - حتى وصل الى بحيرة طبرية[6] ومنها انطلق الى كفر سبت[7] غرب البحيرة حتى يقطع الاتصال بين الفرنج في طبريه وقاعدتهم الرئيسية في صفورية وعكا[8].

أما الفرنج فبعد أن تمت المصالحة بين زعمائهم أصدر الملك جاي أمراً بالتعبئة العامة لجيمع قوات المملكة[9]. وبعد تجمعها عسكرت هذه القوات في

---

(١) أبو شامه، الروضتين، ج٢، ص ٧٥. غوانمه، امارة الكرك، ص ١٥٤.

(٢) الأفضل علي بن صلاح الدين (ت٦٢٢/١٢٢٥م). توفى وهو على سمسياط، كان عادلاً حليماً، ملك دمشق بعد وفاة والده صلاح الدين ثم أخذها منه أخوه العزيز عثمان، ملك مصر بعد العزيز ثم أخذها منه عمه العادل. ولم يبق معه الا صرخد ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ١٥٥-١٥٦.

(٣) ابن العديم، زبده الحلب، ج٣، ص ٩١. ابن واصل، مفرج الكروب، ح٢، ص ١٨٧. ابن كثير، البداية والنهاية. ج١٢ مج٦، ص ٣٤١. Baldwin, o. cit, p 585.

(٤) غوانمه، امارة الكرك، ص ١٥٤.

(٥) عشترا: موضع بحوران من أعمال دمشق. الحموي معجم البلدان. ج٤، ص١٢٥.

(٦) ابن الأثير، الكامل، مج١١، ص ٥٣٢، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ١٨٧.

(٧) كفر سبت : وهي بلفظة يوم من أيام الأسبوع وتقع هذه القرية إلى الغرب من طبرية الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص ٤٦٩.

(٨) غوانمه، امارة الكرك، ص ١٥٥، الحياري، صلاح الدين، ص ٢٧٥.

(٩) الحياري، صلاح الدين، ص ٢٧٥. Baldwin, op. cit, p 609.

صفورية حيث الماء الوفير علي بعد ثلاثين كيلومتراً من معسكر المسلمين[1].

وهنا ظهرت مهارة صلاح الدين وحنكته العسكرية، اذ كان يريد الاشتباك في معركة فاصلة مع الفرنج، وفي الوقت نفسه يريد أن يختار الموقع الذي يحدده بنفسه ليجبر عدوه على القدوم اليه. ليقطع مسافة ثلاثين كيلومتراً في ظروف غير مناسبة من إرتفاع درجة الحرارة وقلة الماء[2]. ولهذا قام بحركة سريعة أربكت الفرنج وقيادتهم - من أجل تحقيق هدفه في جرهم الى موقع المعركة الذي يريد - بأن توجه إلى طبرية وفتحها بدون قلعتها، وقد غض الطرف عن بعض الفرنج الهاربين ليعلموا اخوانهم المعسكرين في صفورية ما جرى لهم في طبرية.

أما الفرنج فبعد أن علموا ما جري لطبرية عقدوا إجتماعاً عسكرياً لمناقشة تطور الأوضاع على الساحة، والاجراءات التي سوف يتخذونها، وقد ظهر في الاجتماع فريقين متباينين : الأول : والذي يتزعمه ريموند (Remond) كونت طرابلس وزوج حاكمه طبرية ومعه بعض الأمراء، والذي رؤوا أن الدفاع السلبي (بقاء الفرنج في مواقعهم وعدم التحرك) هو أفضل وسيلة للدفاع أمام أعمال صلاح الدين، وبرر موقفه بأن ما قام به صلاح الدين هو لخدعة الفرنج من أجل استقدامهم إليه. كما رأى هذا الفريق أن صعوبة الطريقة وقلة الماء فيها، يؤديان الى صعوبة التزود بالامدادات[3]. وهذا يؤدي بالتالي الى انخفاض كفائة الجيش الفرنجي وبذلك فقد نصح قائلاً « لا تخاطروا بالمملكة بتعريض الجيش الميداني للخطر، تخلوا عن طبرية، وإبقوا هنا في صفوريه »[4].

أما الرأي الثاني والذي انتصر في النهاية فقد مثله مقدم الداوية وحاكم الكرك ومعهم الملك جاي - وقرروا التقدم باتجاه طبرية لانقاذها وكانت حجتهم

---

(١) العسلي، فن الحرب، مج٤، ص ١٣٩. Baldwin, op. cit, p 610.

(٢) النبداري، سنا البرق، ص ٢٩٤؛عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ٧٧٣..

(٣) ماير، الحروب الصليبية، ص ١٩٧. عاشور، الحركة الصليبية ج٢، ص ٧٧٤. Baldwin, op. cit, p 611.

(٤) سميل، الحروب الصليبية، ص١٧٧.

تقوم على أن نظرية الدفاع السلبي التي اقترحها ريموند غير مبررة في ضوء قيام أحد اتباع الملك بإرسال الرسائل لطلب النجدة بعد ضياع طبرية، وفي ضوء الأنظمة الإقطاعية فإن الملك مُلزم بتلبية النداء رغم أن المصلحة العسكرية تحتم انتهاج الدفاع السلبي، ولكن هذه المصلحة تتعارض مع الالتزامات الاقطاعية[1]، كما أن النصيحة التي قدمها ريموند بانتهاج أسلوب الدفاع السلبي المتسفيد منها صلاح الدين الذي سيخرب المملكة دون مقاومة من الفرنج ومن الممكن أن يستفيد منها ريموند حليف صلاح الدين[2] وإلا ما معنى أن يسمح بعبور قوات صلاح الدين المملكة ويترك زوجته في طبرية دون حماية كافية؟؟ وانتهت هذه المناقشات بين قيادات الفرنج بالاتفاق على التقدم الى طبرية لانقاذها وقد علق صلاح الدين على ذلك بقوله : «قد حصل المطلوب وكمل المخطوب، وجائنا ما نريد»[3].

وخلال مسير الجيش الفرنجي باتجاه طبرية في فصل الصيف تعرض جنوده لأشعة الشمس وعانوا من حرارتها اللاهبة والغبار والعطش لقلة الماء. مما أدى إلى انهيار معنوياتهم وارتفاع معنويات المسلمين، الذين تمركزت قواتهم بالقرب من عيون حطين حيث الماء والظل الوفير[4].

وما إن وصل الجيش الفرنجي إلى حطين (غرب طبريه بخمسة كيلومترات) حتي اشتبك الفريقان يوم الجمعة ٢٤ربيع الآخر٥٨٣/٣تموز١١٨٧م في معركة من أشهر المعارك الفاصلة في تاريخ الصراع الإسلامي - الفرنجي، ودارت الدائرة على الفرنج بسبب شدة العطش والتعب وبسالة المسلمين وإقدامهم فانسحبوا الى قرون حطين[5].

---

(١) ستيفنسن كارل، الاقطاع في العصور الوسطى، ترجمة : محمد فتحي الشاعر، القاهرة : دار المعارف، د.ت، ص ١٥، وسيشار له، ستيفنسن، الاقطاع. سميل، الحروب الصليبية، ص١٧٧

(٢) Qeodfrey Regan, Saladin and the Fall of Jerusalem, London, 1987, p 110-113.

(٣) الأصفهاني الفتح القسي، ص٧٧.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ١٩٠، سميل، الحروب الصليبية، ص ١٧٩.

(٥) ابن الأثير، الكامل. مج١١، ص ٥٣٥، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ١٩٠.

وفي اليوم التالي هاجم الجند الإسلامي القوات الفرنجية التي وصلت الى حالة رثة من الفوضى والارباك مما أدى إلى تفرقها وانقسامها وفي الوقت نفسه قام المسلمون بخطوة تكتيكية جديدة لإحكام الحصار على القوات الفرنجية، تمثلت باشعال النيران في الحشائش التي حولهم فاجتمع عليهم كما يقول المؤرخون حر العطش وحر النار وحر الزمان وحر القتال(١). وقد ساعدت هذه الظروف على انتصار المسلمين في المعركة بعد مقتل الآلاف من الفرنج وجرح وأسر الآلاف أيضاً منهم.

صلاح الدين وتحرير القلاع

كانت معركة حطين التي أطلق علها المؤرخ ابن واصل مفتاح الفتوح الإسلامية، أعظم من مجرد نصر حربي أحرزه المسلمون. لقد كانت في حقيقة الأمر تشير إلى نجاح المسلمين في القضاء على أكبر حركة استعمارية شهدها العالم في العصور الوسطى، إلى درجة أن المملكة لم تعد قادرة على القيام مرة أخرى كما كانت عليه من قبل. وعلى حد قول المؤرخ ابن العديم بانه «لَمْ يَجْرِ على الفِرَنْج مُنْذ خَرجوا الى الساحل مِثْلَ هذه الوَقْعة».

ولاتكمن أهيمتها في مقتل وأسر وجرح عشرات الآلاف من الفرنج، ولكنها مهدت لأنهاء الوجود الفرنجي على الأرض العربية، وأرجعت الحقوق الى أصحابها. وأفهمت الفرنج في الشرق والغرب إن الدولة المصطعنة التي عاشت بالاعتماد على أوروبا تسقط في اللحظة التي ينقطع عنها هذا الطريق (طريق الدعم).

قرر صلاح الدين بعد الانتصار في حطين أن يستغل الظروف في التقدم دون ابطاء لتحرير القلاع وتصفية الوجود الفرنجي. وقد وضع خطته في تحريرها على استراتيجية تعتمد على الحرب النفسية تتمثّل بنشر الرعب والفزع في نفوس عدوّه حتى يستسلم، لأن ذلك سيوفر عليه الوقت والجهد والمال(٢).

---

(١) ابن الأثير، الكامل، مج١١، ص ٥٣٥، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ١٩٠، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، مج٦، ص ٣٤٢.

(٢) William J. Hamblin, Saladin and Muslim Military Theory, In Horns of Haltin, Jerusalem, 1987. p 234-235.

كما تبنى صلاح الدين نظرية عسكرية أخرى ساعدته في تسهيل سيطرته على القلاع الفرنجية تتمثل في التوجه أولاً إلى القلاع الضعيفة والغير محصنة وترك القوية منها لمرحلة متأخرة، وقد طبق هذه السياسة حينما ابقى مع قلاع كوكب الهوا وصفد إلى مرحلة متأخرة [1].

فتح طبرية

كانت قلعة طبرية هي أول قلعة يتم تحريرها بعد معركة حطين على يد قوات صلاح الدين. فقد تعرضت للهجوم قبل معركة حطين بعدة أيام في ربيع الثاني ٥٨٣/تموز١١٨٧م. وخلال تقدم قوات صلاح الدين إلى طبرية اصطحب معه بالإضافة إلى الجنود والفرسان فرقاً من النقابين والحجارين والقذافين لمهاجمة القلعة وكان لهذه الفرق دوراً رئيسياً في السيطرة على القلاع.

وكانت أشيفا (Aschiva) زوجة ريموند - كونت طرابلس - تدافع عن المدينة والقلعة، وحينما تقدم صلاح الدين بقواته سيطر على المدينة بسهولة وأسر الكثير من المدافعين عنها ثم حرقها[2] .كما هاجموا بعض أبراجها وهدموها مما سبب الذعر لدى سكانها فهربوا إلى القلعة وتحصنوا بها مع سيدتها[3].

ولدى سماع ريموند (Reymond) بفتح طبرية علق قائلاً : «إذا أخذت طبريه أخذت البلاد وذهبت الطراف والتلاد»[4]. وبقيت القلعة تحت سيطرة الفرنج حتى انتهاء معركة حطين، حيث توجه صلاح الدين إليها بعد المعركة مباشرة قبل أن يتوجه غرباً، وعندما وصلها بدأت المراسلات بينه وبين صاحبتها وانتهت بموافقتها على تسليمها مقابل الأمان لها ولحاشيتها وحاميتها وبقيّة سكانها

---

(١) Hamblin, Op. cit., p. 235.

(٢) ابن الأثير، الكامل. مج١١، ص ٥٣٣. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢ ص ١٨٨، النبداري، سنا البرق، ص ٢٩٤.

(٣) الأصفهاني، الفتح القسي، ص ٧٦، ابي الهيجاء، تاريخ أبي الهيجاء، ورقة ١٨٥ ب، شوفيل، صلاح الدين، ص ٣٠٣.

(٤) الأصفهاني، الفتح القسي، ص ٧٦، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ١٨٩.

الفرنج[1] الذين هربوا من المدينة. وقد تسلم القلعة بما فيها من أسلحة وميرة ثم ولاها صارم الدين قايماز النجمي بعد أن وضع فيها حامية قوية[2].

بقيت قلعة طبرية تحت السيطرة الإسلامية حتى قدوم الحملة الفرنجية الثالثة الى فلسطين وحاول زعماؤها اعادة احتلالها والسيطرة عليها وعلى القلاع الأخرى المحررة. وشنت قواتها حرباً على المسلمين. فخاف صلاح الدين من ذلك، ولهذا فقد أمر بهدم أسوار القلعة وتحصيناتها وأبراجها لخوفه من أن تشكل خطراً على الوجود الإسلامي في المنطقة فيما لو احتلها الفرنج ثانية[3].

ومع أنها لم تحتل، إلا أنها بقيت مهجورة لأن المسلمين أصبحوا يسيطرون على معظم فلسطين ماعدا الشريط الساحلي الممتد من يافا الى صور، وهنا نفهم السبب الذي من أجله لم يُعيد المسلمون بنائها.

وفي العام ٦٣٨هـ/١٢٤٠م سُلِّمت القلعة للفرنج بموجب معاهدة بينهم وبين الملك الصالح إسماعيل[4]. فقام الفرنج باعادة تحصينها وبنائها من جديد، إلا أنها لم تستمر طويلاً تحت سيطرتهم ، إذ تمكنت قوات الملك الصالح نجم الدين أيوب من تحريرها على أثر انتصارها على التحالف الفرنجي - الإسلامي في معركة الحربية قرب غزه[5] ، فقد تمكن فخر الدين بن الشيخ من فتح طبرية وقلعتها في صفر٦٤٥هـ/حزيران١٢٤٧م. ودمر قلعتها وتحصيناتها[6].

(١) الأصفهاني، الفتح القسي، ص ٨٥، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ق١ من ج٨، ص ٣٩٤.

(٢) الاصفهاني، الفتح القسي، ص ٨٥، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ١٩٦، شاوندر، صلاح الدين، ص ٢١٤.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ٣٢٤-٣٢٥. Zvi Razi, op. cit, p 218.

(٤) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص ٣٠٣، أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص ١٧٢.
Ayyubids, Mamlukes, op. cit, p 55.

(٥) أبو شامه، الذيل، ص ١٨٠، الكتبي، عيون التواريخ، ج ٢٠، ص ٢٢١، الحنبلي، شذرات الذهب ج٥، ص١٨٩.

(٦) أبو شامه، الذيل، ص ١٨٠، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، مج٧، ص ١٧٣.

فتح عكا :

أصبحت عكا بما فيها من تحصينات – بعد سقوط مملكة بيت المقدس – المركز السياسي والعسكري للمملكة الفرنجية الجديدة. وهذا بعد أن إلتجأ اليها السكان والفرسان الفرنج من داوية واسبتارية الذين خرجوا من قلاعهم وحصونهم ومدنهم التي تم تحريرها من قبل صلاح الدين بعد معركة حطين.

وبعد انتهاء المعركة كان على صلاح الدين أن يتحرك بسرعة قبل وصول النجدات للفرنج وكان رأيه أن يبدأ بالحصون والقلاع الساحلية حتى تصبح القدس محاصرة من جميع جهاتها وتسقط من تلقاء نفسها[1]. ولهذا فقد أرسل إلى أخيه العادل في مصر أن يتوجه لفتح قلاع وحصون فلسطين الجنوبية، بينما يتحرك هو بقواته لفتح شمال فلسطين وقلاعها ومدنها المحصنة. وانطلق بقواته من طبرية التي فتحها إلى عكا في نهاية ربيع الآخر ٥٨٣هـ/تموز ١١٨٧م. وعند وصوله خيّم على أحد التلال المشرفة عليها[2]. وفي الصباح توجه الى المدينة. فلما شاهد الفرنج قواته راعهم ما شاهدوه، فطلبوا الأمان فأمنهم السلطان على أموالهم وأنفسهم وخيّرهم بين الاقامة أو الرحيل[3] وعندما دخل المدينة حرر الأسرى الأربعة آلاف المسجونين داخلها، واستولى على ما فيها من الأموال والذخائر[4]. ثم سلم المدينة وحصونها الى ابنه الأفضل نور الدين، في حين أعطى حصون الدوايه إلى الفقيه عيسى الهكاري[5]، وقبل أن يغادرها شمالاً بعث ببعض فرقة العسكرية لتحرير بقية قلاع فلسطين.

---

(١) شوفيل، صلاح الدين، ص ٣١٦.

(٢) الأصفهاني، الفتح القسي، ص ٨٩. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ٢٠١.

(٣) الأصفهاني، الفتح القسي، ص ٨٩، ابن الأثير، الكامل، مج١١، ص ٥٣٩. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ٢٠١.

(٤) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٣٣-٣٤، ٧٩. ابو شامه، الروضتين، ج٢، ص ٨٥، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ق١ من ج٨، ص ٥٩٤.

(٥) عيسى الهكاري (ت : ٥٨٥هـ/١١٨٩م) أحد الفقهاء الذين رافقوا صلاح الدين في حروبه ضد الفرنج ومن أعيان عسكره، كان جندياً فقيهاً شجاعاً، أبو الفدا : المختصر ج٣، ص ٧٧.

وبعد غياب فترة من الوقت عاد السلطان صلاح الدين إلى فلسطين في بداية العام ٥٨٤هـ/١١٨٨م حيث وصل الى عكا وأقام بظاهرها يشرف على تنظيم أمورها ثم دخلها وأقام في قلعتها وأمر بوقف أبراج الداوية والاسبتاريه للعلماء والفقهاء الصوفية[1]، كما أمر بتجديد عمارة المدينة وتحصيناتها وأسوارها، وأمدها بالرجال والعتاد للدفاع عنها[2].

إلا أن الفرنج تمكنوا من إحتلال المدينة مرة أخرى في العام ٥٨٧هـ/١١٩١م بعد صراع مرير مع المسلمين بعد قدوم حملة فرنجية جديدة – الثالثة – إلى المشرق. وبعد أن سيطروا عليها قاموا باعادة تحصينها واعمارها مرة أخرى بعد الدمار الذي احدثته المعارك مع المسلمين، وبقيت عكا وتحصيناتها تحت السيطرة الفرنجية، حتى قام المماليك بتحريرها في نهاية القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي.

فتح هونين :

تعد قلعة هونين من القلاع الحصينة نظراً لتحكمها في منابع نهر الأردن وسهوله العليا الشمالية، وقد قام الفرنج في العام ٥٧٥هـ/١١٧٩م بإعادة تحصينها بعد التدمير الذي تعرضت له نتيجة للهجمات التي قام بها كل من نور الدين زنكي ثم صلاح الدين في نفس العام الذي أعيد بناءها فيه، أثناء هجومه على قلعة بيت الأحزان، كما ذكرنا في الفصل السابق.

وفي العام ٥٨٣هـ/١١٨٧م. وبعد معركة حطين أرسل صلاح الدين إحدى فرق جيشه بقيادة تقي الدين عمر لفتح القلعة التي تقع في أقصي الجليل الأعلى في شمال فلسطين. إلا أنه لم يتمكن من فتحها بسبب حصانتها ونقص عدد قواته

---

(١) البنداري، سنا البرق، ص ٣٢٣، أبو شامه، الروضتين، ج٢، ص ١٢٠، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ٢٤٧.

(٢) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٩٦، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، مج٦، ص ٣٤٩. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٤٢.

وضعف الامدادات[1]، فاضطر الى الانسحاب وتوجه للمشاركة في حصار صور بعد أن أبقى جزءاً من قواته تحاصر القلعة.

وبعد انتهاء مهمته في صور عاد مرة أخرى لحصارها بعد أن استقدم معه قوات معززه، وخلال ذلك الحصار طلبت حاميتها المحاصَرة مهلة للتسليم، وربطوا مصيرهم مع صور، حتى إذا ما سقطت فانهم سيسلمون قلعة هونين الى المسلمين.[2] وقد نقلت رسالتهم الى السلطان الذي كان يحاصر صور، فأرسل رداً إلى قيادة قواته برفض العرض وطالبهم بمهاجمة القلعة فوراً ودون إبطاء[3].

بعد وصول رد السلطان قام الجيش الإسلامي المُحاصِر للقلعة بارسال إشارة تحذيرية إلى حاميتها تطالبهم بالاستسلام مقابل الأمان لهم وللسكان الآخرين، وإلا فإنهم سيتعرضون للقتل وقيل لهم فيها «أنتم بين حصنين هما تبنين وبانياس - وكان قد تم فتحهما - وماذا تصنعون اذا خاب رجاءكم، وبان الياس، وإذا أبيتم التسليم عدتم سلامتكم، وأقمتم قيامتكم، واستباحكم السلطان واستباكم، وحل بالقتل حباكم..»[4]، وحينما قرأ رجال الحامية في القلعة الرسالة خافوا من النهاية الوخيمة فوافقوا على التسليم مقابل منحهم الأمان.

وبعد خروج الحامية من القلعة تسلمها المسلمون بما فيها من أسلحة وذخيرة وآلات وحيرة وذلك في شتاء العام ٥٨٣هـ/١١٨٧م[5] وسلمت القلعة الى الأمير صارم الدين قايماز النجمي. وبقيت تقوم بدورها تحت ظل الدولة الاسلامية حتى تم تسليمها للفرنج من قبل حاكم دمشق الصالح اسماعيل في العام ٦٣٨هـ/١٢٤٠م وقام الفرنج بعد الاستيلاء عليها بإعادة تعميرها وتحصينها.وبقيت تحت سيطرتهم

---

(١) أبو شامه، الروضتين، ج٢، ص ١٢٠. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ٢٤٧، الحياري، صلاح الدين، ص ٣٠٥.

(٢) الاصفهاني، الفتح القسي، ص ١٧٠، أبو شامه، الروضتين، ج٢، ص ١٢٠.
Benvensiti, op. cit, p 302.

(٣) الاصفهاني، الفتح القسي، ص ١٧٠، ابن الأثير، الكامل، مج١١، ص ٥٥٧.

(٤) الأصفهاني، الفتح القسي، ص ١٧٠.

(٥) الأصفهاني، الفتح القسي، ص ١٧١، ابن واصل، ج٢، ص ٢٤٧.

حتى قام الظاهر بيبرس بفتحها في العام ٦٦٤هـ/١٢٦٦م[١].

فتح صفد

تشكل قلعة صفد مع قلعة كوكب أكبر قلعتين في المملكة اللاتينية في شمال فلسطين[٢] نظراً لموقعهما المتميز الذي يتحكم في الطرق والمسالك الواصلة بين فلسطين ودمشق، وفلسطين وشرقي الأردن.

قام المسلمون بعدة محاولات للسيطرة عليها قبل معركة حطين. إلا أن تلك المحاولات لم تسفر عن نتائج بسبب حصانتها القلعة ومناعتها وقوة حاميتها. إلا أن إنتصار صلاح الدين على الفرنج في معركة حطين أدت إلى قيامه بجهود واسعة لتحرير القلاع، فبدأ بطبرية ثم توجه إلى عكا وعسقلان. وقبل أن ينطلق إليهما أمر بتسيير جماعة مختارة من مماليكه لكل من قلعة صفد وكوكب الهوا لحصارهما، وكان على رأس القوات المتوجهة إلى قلعة صفد الأمير مسعود الصلتي[٣]، وكان ذلك في صيف عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م. أي بعد معركة حطين مباشرة.

وبعد أن أتم صلاح الدين فتح الحصون الوسطى وبيت المقدس توجه شمالاً لفتح القلاع في شمال الشام. وبعد تحريرها عاد إلى دمشق ومنها توجه على الفور إلى فلسطين، وأول ما صادفته من القلاع كانت قلعة صفد فتوجه إليها وذلك في أوائل رمضان ٥٨٤هـ/١١٨٨م[٤]. وعند وصوله إليها كان الأمير مسعود الصلتي ومماليكه لا يزالون محاصرين للقلعة ومانعين لحاميتها من الإتصال بالخارج. ولم تكن مهمته تتعدى ذلك لأن الإستيلاء على القلعة يحتاج إلى قوات كبيرة وعتاد حربي ضخم وذلك بسبب مناعتها[٥]. إلا أن حصاره للقلعة حقق بعض النتائج التي ساعدت على فتحها فيما بعد ذلك أنه عجل في التقليل من مخزونها من المواد الغذائية، مما كان له الأثر الكبير على نفسيات جنود الحامية فيها.

---

(١) عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١٠٩٢.

(٢) King, op. cit, p. 261. Benvensiti, op. cit, p 302, T.E. Lawrence, op. cit, p 78.

(٣) الأصفهاني، الفتح القسي، ص١٧٧؛ ابن الأثير، الكامل، مج١١، ص٥٥٧.

(٤) ابن الأثير، الكامل، مج١٢، ص٢١؛ أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص١٣٥.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص٢٧٢؛ الحياري، صلاح الدين، ص٢٧١.

وعند قدوم السلطان بدأ بحصارها من مختلف جهاتها، مستخدماً الآلات الثقيلة من مجانيق وقاذفات الحجارة، في حين قام قسم آخر من القوات برميها بالسهام والرماح باستمرار ليلاً ونهاراً دون توقف بالرغم مما عاناه الجنود من سوء الأحوال الجوية[1]. وقد أدى هذا القصف والزحف المتواصل والحصار المشدد إلى التأثير على معنويات جنود الحامية، الذين خافوا إن فتح المسلمون هذه القلعة أن تكون مقدمة للسيطرة على قلعة كوكب الهوى ولو أنها معلقة بالكوكب[2].

وضمن خطته لتشديد الحصار على القلعة أشار السلطان بنصب خمسة مجانيق ضخمة في خمسة مواقع مختلفة حول القلعة وقال: «ما نَنَام حتى تُنصب الخمسة»[3]. وسلم كل منجنيق إلى فرقة من الجيش، ولم يبزغ الصباح حتى كانت المجانيق منصوبة في مكانها وجاهزة للعمل، وبدأت بقصف مواقع الفرنج، واشتد القتال بين الطرفين.

ونتيجة لهذا الهجوم الصاعق فقد وصلت حالة الفرسان الفرنج إلى وضع ميئوس منه، إذ أشرفوا على الهلاك لنفاذ الأقوات والذخائر ونقص المقاتلين[4]، فأدى ذلك بهما إلى طلب الاستسلام مقابل إعطائهم الأمان، فوافق السلطان على ذلك وسمح لهم بالمغادرة إلى صور-التي غدت مركز تجمعهم- وتسلم القلعة في ١٤شوال/ ٥٨٤هـ - ٢٦/كانون أول١١٨٨م بعد حصار وقتال دام حوالي الشهر[5]. ويصف العماد الأصفهاني عملية الحصار بقوله: «وشرعنا في مداومة القلعة حتى إذا أذن الله في الفتح، فسهل ما تصعب»[6].

---

(١) ابن الأثير، الكامل، مج١٢، ص٢١؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص٩٥؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص٢٧٢.

(٢) ابن الأثير، الكامل، مج١٢، ص٢٢.

(٣) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص٩٥؛ أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص١٣٥.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص٢٧٢، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مج٤، ص٣٧٧.

(٥) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص٩٥، أما العماد الأصفهاني وأبو شامة فيذكرون أنها استسلمت في ٨ شوال عام ٥٨٤هـ/١١٨٨م.

(٦) الأصفهاني، الفتح القسي، ص٢٦٩.

وبعد السيطرة على القلعة تم إطلاق سراح الأسرى المسلمين، واستولوا على ما تبقى في القلعة من السلاح، وقبل أن يغادرها السلطان وضع فيها حامية قوية. وكان فتحها إنجازاً هاماً للقوات الإسلامية لأنها كانت تعيق الاتصال والتنسيق بين القوات الإسلامية المنتشرة بين دمشق وفلسطين.

واصل صلاح الدين وخلفاؤه من بعده بالإستمرار في صيانتها وحفظها، فقد قام في العام ٥٨٨هـ/١١٩٢م بالتوجه إليها وتفقد حاميتها وشحنها بالرجال والعدة[1]. كما واصل السلاطين الذين جاءوا من بعده بعض الاهتمام بها، لأنها أصبحت بعيدة عن تجمع الفرنج في الساحل إلا أنه وبسبب الصراع داخل البيت الأيوبي في دمشق ومصر سُلمت القلعة إلى الفرنج من قبل ملك دمشق في العام ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م[2]. وبقيت تحت سيطرتهم حتى قام المماليك بتحريرها، وهو ما سنتعرض له في الصفحات اللاحقة.

فتح الفولة

يعتبر حصن الفولة من الحصون الصغيرة. إلا أنه لعب دوراً في التصدي للحملات التي شنها صلاح الدين في الأعوام ٥٧٨، ٥٧٩هـ/ ١١٨٢، ١١٨٣م، كما أن حاميته الداوية اشتركت في معركة حطين.

أما بالنسبة لفتحه بعد معركة حطين، فقد قام صلاح الدين وقواته بحصاره وجرى اشتباك مع حاميته الداوية قتل فيه الكثير منهم[3]، وسلمت القلعة بما فيها من الذخائر والنفائس الغالية إلى المسلمين[4]. وقد أورد العماد الأصفهاني وصفاً دقيقاً للقلعة بما تحويه من ذخائر وسلاح وفرسان وخدم، حيث قال: «وهي أملأها بالرجال والعدد وأشحنها، وهي للداوية حصن حصين، وركن ركين، ... وهي مربط خيولهم ومجمع إخوانهم»[5].

(١) ابو شامة، الروضتين، ج٢، ص٢٠٧.
(٢) ابن أيبك، كنز الدرر، ج٧، ص٣٤٥؛ رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٣٧٨؛ العسلي، فن الحرب، مج٤، ص٢٠٥.
(٣) الأصفهاني، الفتح القسي، ص٩٧؛ البنداري، سنا البرق، ص٣٠٢؛ King, Op.cit., P. 135.
(٤) الأصفهاني، الفتح القسي، ص٩٧، البرق الشامي، ج٥، ص٣٠٢؛ أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص٨٧.
(٥) الأصفهاني، الفتح القسي، ص٩٧.

وبعد الإستيلاء عليه وفتحه تم فتح القلاع الصغيرة المحيطة به وهي الناصرة وحيفا والقيمون ومعليا وصفورية والزيب وغيرها من المدن[1].

فتح كوكب الهوا

تعد قلعة كوكب من أعظم القلاع التي أقامها الفرنج في شمال فلسطين بسبب موقعها الإستراتيجي الذي يتحكم بمجرى نهر الأردن الشمالي والأوسط والطرق من وإلى فلسطين وشرقي الأردن في تلك المنطقة.

وكان السلطان صلاح الدين بعد أن فتح عكا قد توجه شمالاً إلى لبنان لفتح قلاعه وحصونه وخاصة تبنين وصور. إلا أن صور استعصت عليه لحصانتها، فأراد أن يستغل الوقت، فقفل راجعاً إلى فلسطين لإستكمال فتحها وتوجه جنوباً لفتح عسقلان وذلك في نهاية العام ٥٨٣هـ/بداية العام ١١٨٨م. وخلال مسيره مر بقلعة كوكب الهوا وصفد، فندب فرقتين من جيشه لحصارهما[2]. فقد شكلت قلعة كوكب الهوا خطورة على الطريق الذي يجتازه المسلمون والمار بجانبها. فأراد أن يحمي المسافرين والسابلة من هجمات الفرنج المتكررة عليهم[3]، فقد تجمع الكثير من الفرسان في هذا الحصن وتحصنوا به بعد فرارهم من معركة حطين.

وقد وصلت هذه الفرقة التي أرسلها صلاح الدين بقيادة مجموعة من الأمراء الأقوياء المقربين منه وضربوا حصاراً حولها. وفي إحدى ليالي الشتاء حيث الأحوال الجوية السيئة -غزارة في الأمطار وشدة في الرياح- غلب النعاس على قائد الفرقة وبعض أفرادها، فما كان من فرسان حامية القلعة الفرنجية التي كانت متيقظة على الدوام بسبب الحصار أن فاجئوا القوة الإسلامية بهجوم مباغت استطاعوا من خلاله تكبيد المسلمين خسائر فادحة في الأرواح والمعدات، واستولوا

---

(١) ابن الأثير، الكامل، مج١١، ص٥٤٠، البنداري، سنا البرق، ص٣٠٢، أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص٨٧.

(٢) الأصفهاني، الفتح القسي، ص١٧١؛ ابن الأثير، الكامل، مج١١، ص٥٨٨؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مج٤، ص٣٧١.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص٢٤١؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مج٤، ص٣٧١.

على مخزونهم من الطعام والسلاح والكراع والخيل، ونقلوها إلى داخل القلعة(١).
وقد تمت هذه العملية بسرعة خاطفة نظراً لقرب المسافة، مما زاد في إمكانية مقاومتهم لمدة أطول بالرغم من الحصار.

وعندما سرت أنباء تلك الحادثة إلى السلطان -حيث كان مرابطاً في عكا- خرج بنفسه في بداية محرم ٥٨٤هـ/آذار ١١٨٨م على رأس قواته لمهاجمة القلعة، ولما وصلها شرع في حصارها الذي استمر لعدة أيام، ولم يتمكن من فتحها بسبب مناعتها وحصانتها(٢). وقبل أن يغادرها إلى دمشق أوكل إلى الأمير صارم الدين قايماز النجمي بمتابعة حصارها، وأبقى معه خمسمائة فارس من ذوي الشدة والبأس. كما وجه فرقاً أخرى إلى قلاع صفد والكرك والشوبك لأن هذه الحصون كانت في غاية الحصانة والمنعة(٣).

بعد عودة السلطان قادماً من دمشق في شعبان ٥٨٤هـ/ تشرين ثاني١١٨٨م. بدأت قواته بحصار قلعة صفد، واستطاع فتحها بعد جهود متواصلة، حيث كان فتحها مبشراً بفتح قلعة كوكب الهواء، التي شعر أصحابها الإسبتارية بالوضع الحرج الذي وصلوا إليه(٤). ثم غادر قلعة صفد وتوجه مباشرة إلى قلعة كوكب الهواء، وبدأت قواته بالإضافة إلى القوات المحاصِرَة لها من قبل بتشديد الحصار والقصف من جميع جهاتها. واستطاعت تلك القوات من القضاء على كتيبة فرنجية مكونه من مائتي فارس جاءت من عكا لنجدة حامية القلعة(٥). وواصلت القوات الإسلامية التقدم متخذة مواقع بعيدة عن إصابة الرماية المنطلقة من حامية القلعة، وبدأت بعملية

---

(١) الأصفهاني، الفتح القسي، ص١٧٨؛ ابن الأثير، الكامل، مج١١، ص٥٥٨؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص٢٤٧؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مج٤، ص٣٧١.

(٢) أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص١٢٤؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص٢٥٢؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مج٤، ص٣٧١.

(٣) أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص١٢٤؛ الأصفهاني، الفتح القسي، ص ١٧٨-١٧٩؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢،ص٢٥٢-٢٥٤.

(٤) الأصفهاني، الفتح القسي، ص.٢٧؛ ابن الأثير، الكامل، مج١٢، ص٢٢.

(٥) الأصفهاني، الفتح القسي، ص٢٧١؛ ابن الأثير، الكامل، مج١٢، ص٢٢.

حفر وعمل السواتر الترابية لحماية الجنود من رماية العدو[1]. وقد نصبت المجانيق خلف هذه السواتر لضرب دفاعات القلعة من أسوار وأبراج .

وجه صلاح الدين بعد هذه الإجراءات إنذاراً إلى قيادة الحامية يطالبها بالإستسلام، وإلا فالحرب ستحسم الوضع. إلا أن قيادة الحامية رفضت هذا الإنذار لإعتقادهم أن سوء الأحوال الجوية سيجبر المسلمين على الإنسحاب ويحد من تحركاتهم[2]، «وكان الوقت صعباً، والغيث سكباً، وتكاثرت السيول، وتكاثفت الوحول».[3]

قام صلاح الدين بعد رفض حامية القلعة الإستسلام بمضاعفة جهوده الحربية. وبدأت قواته تقصف دفاعات وأسوار القلعة بكافة أنواع الأسلحة الثقيلة والخفيفة، فيما تقدمت مجموعة من الجنود إلى باشورة القلعة، وقاموا بعمليات الهدم والردم فيها حتى تمكنوا من إختراق سور القلعة ونقبه[4]. فتقدم المهاجمون بسرعة إلى السور حتى يتابعوا النقب بالرغم من رداءة الأحوال الجوية.

استمر الزحف والتقدم حتى استطاعوا أن يدمروا برجاً في القلعة كان له الأثر في دب الفزع والخوف في نفوس المدافعين الذين طلبوا الإستسلام على الفور مقابل إعطائهم الأمان بالخروج[5]. وبعد انتهاء المفاوضات تسلم صلاح الدين القلعة في منتصف ذي القعدة ٥٨٤هـ/كانون ثاني ١١٨٩م. وقد أمر بترميم أسوارها وأبراجها التي تهدمت بسبب القتال ووضع فيها حامية إسلامية للقيام بواجباتها الإدارية والعسكرية. وبفتح قلعة كوكب الهوا أصبح صلاح الدين يسيطر على جميع

(١) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص٩٦؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص١٠١.
(٢) ابن الأثير، الكامل، مج١٢، ص٢٣؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص٢٧٤.
(٣) الأصفهاني، الفتح القسي، ص٢٧٤.
(٤) الأصفهاني، الفتح القسي، ص٢٧٣؛ ابن الأثير، الكامل، مج١٢، ص٢٣؛ أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص١٣٥؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص٢٧٤.
(٥) ابن الأثير، الكامل، مج١٢، ص٢٣؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص٩٦؛ أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص١٣٥.

مملكة بيت المقدس ما عدا مدينة صور الساحلية.

بقيت قلعة كوكب الهوا من الأملاك الإسلامية، إلا أنها فقدت أهميتها بعد أن قام المعظم عيسى بهدمها في العام ٦١٥هـ/١٢١٨م خوفاً من أن تشكل خطراً على المسلمين فيما لو أعاد الفرنج إحتلالها. وبرزت قلعة صفد في الأهمية على حساب قلعة كوكب الهوا التي أهملت.

المرحلة الثانية: المماليك ودورهم في تحرير قلاع شمال فلسطين

دولة المماليك والعلاقات مع الفرنج

شهد المشرق في بداية النصف الثاني من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي أحداثاً هامة تمثلت في البداية في وصول حملة فرنجية جديدة بقيادة الملك لويس التاسع (Lewis IX) (١٢٢٦-١٢٧٠م). وقد هدفت إلى إعادة إحتلال بيت المقدس بعد أن استردها المسلمون في العام ٦٤٢هـ/١٢٤٤م. وقد توجه قاصداً مصر للإستيلاء عليها تمهيداً لاحتلال فلسطين[1]. واستطاع الفرنجة إحتلال دمياط في صفر ٦٤٧ هـ/حزيران ١٢٤٩م. ثم واصلوا تقدمهم نحو القاهرة إلا أنهم هزموا في المنصورة[2]، ووقع الملك في الأسر بعد مقتل وأسر الآلاف من قواته.

وقد حاول المسلمون خلال المفاوضات مع لويس مساومته في استرداد ما بأيدي الفرنج من القلاع والحصون والمدن في بلاد الشام مقابل إطلاق سراحه. إلا أنه رفض بحجة أن لا سلطان له عليها. وفي النهاية توصل الطرفان إلى عقد اتفاقية تتضمن إعادة مدينة دمياط، ودفع مبلغاً من المال للمسلمين وإطلاق سراح الأسرى المسلمين المحتجزين عند الفرنج. واطلاق سراح الملك على أن تكون مدتها لعشر سنوات[3].

وقد حاول لويس التاسع بعد مغادرته مصر ووصوله إلى عكا في فلسطين أن يعيد ترتيب الأوضاع الداخلية للفرنج بعد الهزيمة التي تعرض لها، في محاولة منه

---

(١) جوانفيل، القديس لويس، ص٨١-٩٠.

(٢) المنصورة: بلدة أنشأها الملك الكامل بن الملك العادل بين دمياط والقاهرة، ورابط بها في وجه الإفرنج لما ملكوا دمياط وذلك سنة ٦١٦هـ/١٢٢٠م ولم يزل بها في عساكره، واعانة أخواه الأشرف المعظم حتى استنقذ دمياط في رجب سنة ٦١٨هـ . الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٢١٢. وللمزيد من التفاصيل عن المعركة انظر: أبو شامة. الذيل، ص١٨٤؛ العيني. عقد الجمان، ج١، ص١٧-١٨؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٣٥٠-٣٥٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٦٥-٣٦٧.

(٣) جوانفيل، القديس لويس، ص ١٥٦-١٦٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٦٥-٣٦٧؛ رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٤٦٧.

للحفاظ على استمرار الوجود الفرنجي في بلاد الشام. وفي سبيل ذلك حاول الإستفادة من النزاع بين بقايا الأيوبيين في بلاد الشام وزعماء دولة المماليك الناشئة في مصر للتعويض عن الفشل الذي تعرض له في مصر[١]. إلا أن محاولاته فشلت بعد الصلح الذي وقع بين الأيوبيين والمماليك في العام ٦٥١هـ/١٢٥٣م بفضل المساعي الذي بذلها الخليفة العباسي، حيث اعترف الأيوبيين في الشام بسيادة المماليك على مصر والشام حتى نهر الأردن، فيما أعترف المماليك بسيادة الأيوبيين على بقية بلاد الشام[٢]. ومن الجوانب الأخرى لنشاط لويس التاسع في فلسطين هو قيامه بتحصين بعض المدن والقلاع لمواجهة المرحلة القادمة، خاصة بعد وصول المماليك إلى سدة الحكم في مصر، ولهذا قام بتحصين قلاع عكا وصور وقيسارية وأرسوف[٣]، كما حاول وقف المنازعات بين الفرسان الداوية والاسبتارية. ذلك أن الداوية أيدوا التحالف مع الأيوبيين بعكس الاسبتارية الذين أيدوا التحالف مع المماليك في مصر[٤].

غادر لويس التاسع فلسطين في العام ٦٥٢هـ/١٢٥٤م بعد فشله في التفريق بين الطرفين وقد ترك رحيله فراغاً سياسياً في مملكة بيت المقدس، ومما ساعد في سوء وضع المملكة أيضاً وفاة ملك قبرص القوي الداعم للفرنج في العام ٦٥١هـ/١٢٥٣م، كما توفي كوانراد الرابع (Conrad IV)[٥] ملك بيت المقدس في العام ٦٥٢هـ/١٢٥٤م. ومما زاد الوضع تأزماً هو إنفجار الحرب الأهلية بين البنادقة

---

(١) عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١٠٣٩؛ Stevenson, Op.cit, P. 329

(٢) المقريزي، السلوك، ج١، ص٢، ص٣٨٥؛ أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص١٨٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٠.

(٣) جوانفيل، القديس لويس، ص ٢٤٦؛ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص٢٥٢-٢٥٤؛ Deschamp, Op.cit., Vol: 2, P. 18; King, Op. cit., P. 249.

(٤) مجهول، تتمة وليم، ص٢٣٧-٢٣٨؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١٠٤٤.

(٥) كونراد الرابع: هو ابن الملك فريدريك الثاني صاحب الحملة السادسة على فلسطين، أصبح الوريث الشرعي في مملكة بيت المقدس بعد زواج والده فريدريك من وريثه المملكة بولاند. عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص٩٥٨.

والجنويين في عكا حول ملكية بعض المباني التجارية والتنافس التجاري بينهما في البحر[1]، وزادت حدة الصراع في العام ٦٥٥هـ/١٢٥٧م بوقوف البيزيون والفرسان الداوية والتيوتون إلى جانب البنادقة، في حين وقف صاحب أرسوف وكونت يافا وصور والفرسان الإسبتارية إلى جانب الجنوية[2]. وقد أدت هذه الصراعات إلى زيادة الفرقة بين الفئات الفرنجية وإلى خسائر مادية وبشرية بالإضافة إلى تهدم بعض الحصون في عكا والمنطقة الساحلية[3]. وقد فشلت المحاولات التي بذلتها البابوية لرأب الصدع بين الفرقاء. إذ استمرت النزاعات بينهم حتى تسلم الظاهر بيبرس الحكم في مصر.

وفي الوقت الذي بلغ فيه الصراع بين الأيوبيين والمماليك والفرنج أشده تعرض العالم الإسلامي الشرقي لموجة عاتية من جحافل المغول الذين عبروا تركستان وفارس حتى وصلوا إلى الموصل في شمال العراق ثم سار قائدهم هولاكو[4] جنوباً إلى بغداد التي وصلها في محرم ٦٥٦هـ/كانون ثاني١٢٥٨م. وارتكب فيها مذبحة بشعة بحق السكان المدنيين العزل الذين لم ينج منهم سوى القليل[5].

واصل هولاكو مسيره لإحتلال الشام حيث هاجم أولاً منطقة الجزيرة واستولى على معظم مدنها ثم احتل شمال سوريا[6] حتى وصل إلى دمشق التي هجرها سكانها واحتلها وقتل جميع سكانها[7]. وبعد مكوثه فيها لفترة توجه بجيشه إلى فلسطين

---

(١) ماير، الحروب الصليبية، ص٢٩٣؛ بردج، الحروب الصليبية، ص ٢٧٦.

(٢) مجهول، تتمة وليم، ص٢٣٧-٢٣٨؛ ماير، الحروب الصليبية، ص٢٩٣.

(٣) مجهول، تتمة وليم، ص٢٣٨.

(٤) هولاكو بن طلوبن جنكيز خان (ت٦٦٣هـ/١٢٦٥م)، هو أحد ملوك التتار العظام، حكم حوالي عشرة سنين وامتد حكمه على بلاد خراسان والعراق ونيسابور وأصفهان وأذربيجان وتبريز وفارس وديار بكر والموصل، اجتاح بلاد الشام وقضى على الخلافة العباسية. انظر: أبو الفداء: المختصر، ج٤، ص٢-٣.

(٥) أبو شامة، الذيل، ص١٩٨؛ العيني، عقد الجمان، ج١، ص١٧٤-١٧٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٥٠.

(٦) ابو الفداء، المختصر، ج٣، ص١٩٩-٢٠٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٥٤.

(٧) أبو شامة، الذيل، ص٢٠٢؛ اليونيني،ذيل مرآة الزمان، ج١، ص٣٥٨.

واحتل نابلس وبانياس وغزة والخليل والكرك، وقتل وسبا جميع السكان ونهبهم[1]، وبذلك فقد قضى على بقايا الدولة الأيوبية في بلاد الشام.

أما بالنسبة للأوضاع في مصر بعد هزيمة حملة لويس وحتى غزو المغول لبلاد الشام. فقد جرى صراع على السلطة بعد وفاة السلطان الصالح نجم الدين أيوب في شعبان ٦٤٧/تشرين ثاني١٢٤٩م وتوصيته لابنه تورانشاه[2] باستلام الحكم من بعده. وبسبب غيابه في بلاد الشام تولت شجرة الدر[3] أرملة الملك مقاليد الحكم، وعند عودته لم يحكم سوى أشهر قليلة إذ قتل نتيجة الصراع بين الفئات المملوكية. وبموت تورانشاه انتهت الدولة الأيوبية في مصر بعد أن استمرت إحدى وثمانين سنة حكم خلالها ثمانية سلاطين[4].

وقد شهدت دولة المماليك في بدايات تكوينها تطورات وأحداث داخلية سريعة. بدأت بتولي شجرة الدر الحكم، إلا أنها لم تستمر إلا أشهراً قليلة، إذ أرغمت على التنازل عن الحكم لزوجها الجديد عز الدين أيبك[5] بعد أن حكمت لمدة ثمانين يوماً، وكان ردها على ذلك بأن دبرت حادثاً أدى إلى مقتل زوجها بعد أن علمت أنه سيتزوج من غيرها وذلك في ربيع الأول ٦٥٥هـ/ نيسان ١٢٥٧م[6].

خلف عز الدين أيبك بعد موته إبنه الصغير السن الذي لم يستمر طويلاً، إذ

---

(١) أبو شامة، الذيل، ص ٢٠٤-٢٠٦؛ أبو الفدا، المختصر، ج٣، ص٢٠٤.

(٢) تورانشاه بن الصالح نجم الدين أيوب (ت٦٤٨هـ/١٢٥٠م) كان في حياة والده حاكماً على حصن كيفا، ولما توفي أبوه جاء إلى مصر وحارب الفرنج في دمياط وملك مصر بعد وفاة أبيه ثم قتل بعد شهرين من الحكم، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، مج٧، ص١٩٢.

(٣) شجرة الدر: زوج الملك الصالح أيوب، تولت السلطنة في مصر بعد وفاته، وخطب بإسمها وضربت السكة بإسمها أيضاً في العام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م. تزوجت بنائبها عز الدين أيبك. قتلت على يد مماليك عز الدين أيبك في العام ٦٤٩هـ/١٢٥١م. القرماني، أخبار الدول، مج٢، ص٢٦٤-٢٦٥.

(٤) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٣٦٠؛ أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص١٨١.

(٥) عز الدين أيبك: يعتبر أول سلطان للماليك. تزوج من شجرة الدر وحكم مصر. حاول أن يخطب بنت صاحب الموصل. ولما علمت بذلك شجرة الدر قتلته. حكم لمدة سبع سنين، كان ملكاً حازماً حسن التدبير والسياسة. القرماني: أخبار الدول، مج٢، ص٢٦٧-٢٦٨.

(٦) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٣٩٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٣.

ظهر المغول واستولوا على البلاد الإسلامية واسقطوا الخلافة العباسية كما أشرنا. وعندئذ كان على المماليك الذين تهدّدت دولتهم الناشئة من أن يبحثوا عن شخصية قوية لمواجهة هذا الخطر. فأعلن عن قطز (٦٥٧-٦٥٨هـ/١٢٥٩-١٢٦٠م) سلطاناً على مصر في ذي القعدة ٦٥٧هـ/ تشرين ثاني ١٢٥٩م[1]. ذلك أن البلاد كانت بحاجة لسلطان قوي للوقوف بصلابة أمام المخاطر التي تواجه المسلمين والتي تتمثل في الخطرين المغولي والفرنجي في بلاد الشام.

ومع إعتلاء قطز الحكم في مصر، كان المغول قد استولوا على العراق ومعظم بلاد الشام. وكان على دولة المماليك في مصر - الممثلة بسلطانهم قطز - أن تواجه الموقف. فأعلن النفير العام في مصر والشام وقام بتعبئة قواته وخرج من مصر لملاقاة المغول. وقد أرسل قطز سفارة إلى الفرنج في عكا للسماح لقواته بعبور الأراضي التي تقع تحت سيطرتهم في فلسطين، فوافق الفرنج على ذلك وأبدوا استعدادهم لتقديم التسهيلات للجيش الإسلامي[2].

وعندما وصل قطز إلى عين جالوت في ٢٥رمضان ٦٥٨هـ/ ٣ أيلول ١٢٦٠م جرت بين جيشه والجيش المغولي بقيادة كتبغا نوين[3] معركة فاصلة وشرسة قتل فيها الآلاف من الطرفين ومثلهم من الجرحى[4]. إلا أن النتيجة كانت انتصار الجيش

---

(١) أبو الفدا، المختصر، ج٣، ص١٩٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، مج٧، ص٢١٦.

(٢) ابن دقماق، صارم الدين ابراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي (ت٨٠٩هـ/١٤٠٦م). الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين. تحقيق، محمد كمال الدين، بيروت، عالم الكتب، ط١، ١٩٨٥، ج٢، ص٦٢. وسيشار له فيما بعد: ابن دقماق، الجوهر الثمين؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٣٠؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١٠٨٢؛ رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٥٣٥.

(٣) كتبغا نوين: (ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م): أحد قواد التتار العظام، كان شجاعاً مدبراً، وخبيراً بشؤون الحرب، فتح الكثير من بلاد الشرق، كان نائباً لهولاكو في بلاد الشام. بعد رجوعه إلى المشرق، قتل في معركة عين جالوت مع المماليك في العام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م. أنظر: ابن تغري بردي، ج٧، ص٩٠-٩١.

(٤) ابن طولون، محمد بن علي بن محمد الدمشقي الصالحي (ت٩٥٢هـ/١٥٤٨م). أعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى. تحقيق: محمد أحمد دهمان، دمشق: دار الفكر، ط٢، ١٩٨٤، ص٣١. وسيشار له: ابن طولون: أعلام الورى.

المملوكي وانهزام التتار وفرارهم من المعركة بعد مقتل قائدهم[1].

تعتبر معركة عين جالوت من المواقع الفاصلة في التاريخ العربي والإسلامي نظراً لما ترتب عليها من نتائج، فقد أصبحت سوريا بكاملها تحت سيطرة المماليك، وعادت وحدة مصر والشام مرة أخرى. تلك الوحدة التي عانى منها الفرنج الأمرَّين زمن القائد صلاح الدين الأيوبي. كما جعلت المماليك القوة الرئيسية في الشرق، هذا في الوقت الذي كان فيه الفرنج يعانون الإنحلال والإنقسام نتيجة الصراعات بين زعمائهم وفئاتهم. وأصبحوا وحدهم في مواجهة المماليك[2]. وبالنتيجة فقد بدأت مرحلة جديدة وهي مرحلة بداية النهاية للوجود الفرنجي في بلاد الشام.

دور الظاهر بيبرس وخلفاؤه في تحرير قلاع شمال فلسطين:

يعتبر الظاهر بيبرس المؤسس الحقيقي لدولة المماليك. وقد تميزت شخصيته بالقوة والكفاءة والدهاء السياسي في التعامل مع الأخطار وخاصة التي واجهته خلال السنوات الأولى من حكمه، فمنذ توليه الحكم وضع لنفسه سياسية تتمثل بالقضاء على الوجود الفرنجي في بلاد الشام. فهو لم ينس لهم مساندتهم للمغول -وخاصة إمارة أنطاكية- أثناء إجتياحهم لبلاد الشام[3]، ومما زاد في تصميمه على القضاء عليهم رفض الفرسان الإسبتارية والداوية إطلاق سراح الأسرى المسلمين المحتجزين لديهم[4].

ويجب علينا أن لا ننسى أن بيبرس خلال تجواله بالشام قبل وصوله إلى الحكم قد جمع معلومات عن معظم المواقع العسكرية الفرنجية في فلسطين وبلاد الشام. وأدرك أن الفرنج في الشرق لا يستطيعون تجنيد الجيوش لمواجهته في

---

(١) ابو شامة، الذيل، ص٢٠٧؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، م١، ص٣٦١؛ أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص٢٠٥؛ ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج٢، ص٦٣؛ ابن طولون، اعلام الورى، ص٣١.

(٢) عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١٠٨٤.

(٣) ماير، الحروب الصليبية، ص٤٠٢؛ بردج، الحروب الصليبية، ص٢٨٢.

(٤) بردج، الحروب الصليبية، ص٢٨٣.

ساحات القتال فيما لو شنّ حرباً عليهم[1].

وهكذا فقد رسم خطة لضرب قلاعهم وحصونهم وكافة أماكن تواجدهم واحدة إثر الأخرى عن طريق توجيه هجمات سريعة تعتمد على عنصر المباغتة. ولهذا فقد استنفر قوات المسلمين للجهاد كما فعل سلفه صلاح الدين، وشرع في تجهيز جيشه لذلك. وقبل أن يتوجه إلى الشام لمواجهة الفرنج قام بعدة خطوات في سبل ذلك ومن أهمها:

القضاء على الثورات الداخلية: إذ ما أن تولى بيبرس الحكم حتى تمرد عليه والي دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي[2] على خلفية مقتل قطز وأعلن نفسه سلطاناً في دمشق في ذي الحجة ٦٥٨هـ/تشرين ثاني ١٢٦٠م. ولم يكتف بذلك بل حرّض الولاة الآخرين في الولايات الأخرى على مساندته. فما كان من السلطان إلا أن أرسل له جيشاً إستطاع هزيمته ثم إعتقاله وعاد به أسيراً إلى القاهرة[3].

إحياء الخلافة العباسية في القاهرة: التي تعرضت للزوال على يد المغول أثناء اجتياحهم لبغداد. وقصد من ذلك الظهور أمام العالم الإسلامي بمظهر الحامي للخلافة فيكسب الشرعية ليستأثر لنفسه شيئاً من النفوذ والزعامة على البلاد الإسلامية، ويجعل من دولته الناشئة دولة شرعية يجب المحافظة عليها[4].

تدعيم قوته الحربية: حيث قضى بيبرس سنوات حكمه الأولى في توطيد دعائم دولته في مصر قبل مواجهة الفرنج خاصة وأنهم يتحصنون في قلاع وحصون منيعة. ولهذا فقد عمل على تجهيز الآلات الحربية الثقيلة اللازمة للحصار والقصف

---

(١) لامب، شعلة الإسلام، ص٥٧٨-٥٧٩.

(٢) علم الدين سنجر الحلبي: أحد ولاة السلطان قطز في دمشق، ولاه إياها بعد معركة عين جالوت وهو أول نائب في دمشق من المماليك. دعا إلى نفسه بالسلطنة بعد مقتل الملك قطز في العام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م. ملك دمشق وقلعتها، وخطب له على المنابر. إلا أنه لم يدم طويلاً إذ قبض عليه أمراء بيبرس وأرسلوه إلى القاهرة. ابن طولون، أعلام الورى، ص٣٢.

(٣) أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص٢١٠؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٣٨-٤٣٩.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٠٩؛ العبادي، أحمد مختار، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، بيروت: دار النهضة، ١٩٨٦، ص١٨٠. وسيشار له: العبادي، قيام دولة المماليك.

مثل المجانيق والدبابات وغيرها، بالإضافة إلى غيرها من صنوف الأسلحة الفردية للنيل من هذه الحصون ودكّها. وفي نفس هذا الإطار أمر بيبرس في العام ٦٦١هـ/ ١٢٦٣م بإعادة بناء وتحصين بعض القلاع الإسلامية في الشام التي دمرّها المغول مثل قلعة دمشق وعجلون والصبيبة وبصرى وبعلبك وزودها بالمؤن والذخيرة والرجال[1].

كما قام بتنظيم البريد في جميع الطرقات والمعابر حتى أصبح الخبر يصل دمشق من القاهرة خلال أربعة أيام. وأصبحت الأخبار تصله من كافة المناطق وخاصة أخبار الفرنج[2]. وقد استغل بيبرس نوابه وأمرائه وبعض زعماء القبائل في جمع المعلومات عن تحركات الفرنج[3]. والتي ساعدته في تحديد مواقع الفرنج وأسلحتهم وتحصيناتهم.

أما عن سياسته الخارجية فقد بحث بيبرس عن حلفاء له كي يساعدوه على الوقوف في وجه المغول أو تحييدهم للحيلولة دون تحالفهم مع الفرنج، فاتجه نحو مغول القبجاق وزعيمهم بركة خان الذي اعتنق الإسلام. وجرت بين الطرفين مراسلات في الأعوام ٦٦٠-٦٦١هـ/١٢٦٢-١٢٦٣م[4]. وبذلك ضمن بيبرس حلفاً يحمي ظهره من ناحية مغول فارس.

أما عن استراتيجيته العسكرية في مهاجمة الفرنج، فقد اتبع بعض الأساليب التي اتبعها سلفه صلاح الدين وتميزت هجماته بأسلوبين:

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٩٣، ١٩٤؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٤٦؛ العبادي، قيام دولة المماليك، ص٢٠٨.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٩٥؛ العبادي، قيام دولة المماليك، ص٢١١.

(٣) صالح بن يحيى، سيف الدين بن الحسين بن أمير الغرب (ت٩هـ/١٥م). تاريخ بيروت، تحقيق: فرنسيس هورس اليسوعي، كمال الصليبي، بيروت: دار المشرق، ١٩٦٩، ص٦٣. وسيشار له، صالح بن يحيى، تاريخ بيروت.

(٤) للمزيد من التفاصيل عن العلاقات بين الظاهر بيبرس ومغول القبجاق (القبيلة الذهبية) أنظر. الحجي حياة ناصر: العلاقات بين دولة المماليك ودولة مغول القبجاق، حولية كلية الآداب، جامعة الكويت، ١٩٨١، ص١١-١٣.

الأول: كان على شكل غارات سريعة هدفها إضعاف مصادر القوة الإقتصادية لهم مثل تخريب القرى والحقول والمناطق الزراعية. وكانت هذه الغارات شبه مستمرة يقوم بها أمراؤه وقواده في الشام. وشارك فيها السلطان في بعض الأحيان[1]، أما الثاني فهو اتباعه أسلوباً منظماً لاسترداد القلاع والمدن يعتمد علي الإغارة على القلاع الواحدة تلو الأخرى.

وقد اشتدت تلك الغارات بصفة خاصة في الفترة ما بين الأعوام ٦٦٣-٦٦٩هـ/ ١٢٦٥-١٢٧١م وقد نجح في فتح غالبيتها ودمرها. في حين أبقى البعض الأخر وحصنه[2].

على أن الحرب التي شنها بيبرس على الفرنج سبقها مفاوضات بين الطرفين منذ توليه الحكم. إلا أنها لم تنجح بسبب نقض الفرنج للمعاهدات التي وُقعت ورفضهم إطلاق سراح الأسرى المسلمين[3]، فاعتبر بيبرس ذلك بمثابة إعلان حرب على المسلمين. وبدأ بحرب شاملة على الوجود الفرنجي. وبذلك بدأت مرحلة تحرير القلاع والمدن في بلاد الشام.

فتح قيسارية

كان رحيل الملك لويس التاسع (Lewis IX) عن فلسطين عام ٦٥٢هـ/١٢٥٤م إيذاناً بنهاية أخر محاولة فرنجية أوروبية ضخمة للمحافظة على ممتلكاتها في الشرق الإسلامي. فقد عانت مملكة بيت المقدس بعد رحيله من الصراعات والنزاعات التي انتقلت إلى الإمارات الأخرى. وبهذا وجد بيبرس الفرصة سانحة أمامه، خاصة بعد أن قام بعدة خطوات للتمهيد لهذا الهجوم على القلاع كما أشرنا سابقاً. فأخذ يعمل وفق خطة محكمة لتجريد الفرنج من معاقلهم تمهيداً لإخراجهم نهائياً من بلاد

---

(١) حسين، تاريخ جماعة التيوتون، ص٢٨٩.

(٢) حسين، تاريخ جماعة التيوتون، ص٢٩٠ .

(٣) عاشور. الحركة الصليبية، ج٢، ص ١٠٩٠؛ موير، وليم، تاريخ دولة المماليك في مصر ترجمة: محمود عابدين، سليم حسن، القاهرة: مكتبة مدبولي، ط١، ١٩٩٥، ص٥١. سيشار له: موير، تاريخ دولة المماليك.

الشام،

ففي العام ٦٦١هـ/١٢٦٣م قام بتجريد حملة إلى فلسطين، وتخطت المواقع الفرنجية المتمركزة على الساحل الجنوبي لفلسطين ووصلت إلى السواحل الوسطى، وهاجمت مراكز الفرنج ما بين قيسارية وعتليت ثم عادت بسرعة[1]. وكان الهدف من الحملة ليس مهاجمة القلاع نفسها، بل كانت ضمن الخطط الحربية التي وضعها بيبرس وقيادته في كيفية مباغتة العدو بالهجوم السريع ثم الإنسحاب بسرعة دون تحقيق نتائج كبيرة (أسلوب الكر والفر).

وفي ربيع الآخر٦٦٣هـ/ نيسان ١٢٦٥م. خرج الظاهر بيبرس من القاهرة دون أن يُعلم أحد وجهته الحقيقية، وعسكر بجيشه جنوب فلسطين، وخلال وجوده هناك جاءته الأخبار بأن المغول هاجموا قلعة البيرة شمال الشام، فما كان من الظاهر بيبرس أن تحرك بقواته صوب الشمال لمواجهة الموقف، ألا أنه عندما وصل منطقة صفد جاءته الأخبار باندحار المغول[2]. فقفل راجعاً إلى أواسط فلسطين وخيم بالقرب من غابة ارسوف على الساحل متظاهراً بالصيد، في حين أن الهدف الحقيقي هو مسح المنطقة من الناحية العسكرية من أجل الهجوم عليها. وخلال تجواله في المنطقة طلب من مستشاريه وجنوده قطع الأخشاب وتجهيزها لصناعة المجانيق، وحث الصناع على إنجازها بسرعة[3]. وفي الوقت نفسه أرسل في طلب الصّناع والحّجارين للمشاركة في تجهيز الأسلحة الأخرى. وأمر جيشه بالتهيق لمهاجمة قيسارية.

وتوجه الظاهر بيبرس بقواته، لمهاجمة قيسارية في ٩/جمادي الأولى٦٦٣هـ-٢٦/شباط ١٢٦٥م. وعند وصوله إليها بدأ بحصارها المشدد من جميع جهاتها. ونصب حولها المجانيق التي بدأت تقصف الأسوار والأبواب[4]. وعمد الجنود

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٢٠٠.

(٢) ابو شامة، الذيل، ص٢٣٣؛ رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٥٤٦؛ Ayyubids, Mamludes, Op. Cit, P 84.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٢٣٠؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٥٢٦.

(٤) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٥٢٦.

والسكان المحليين المرافقين للحملة إلى السكك والمقاود التي تربط بها الخيل وتعلقوا بها وتسلقوا عليها من كل جانب من أجل الوصول إلى الأبواب لفتحها والدخول إليها، وقاموا بعد وصولهم بإشعال النيران لإرهاب المدافعين[1]. مما كان له الأثر في تراجع الفرنجة. فانهزموا إلى القلعة وتحصنوا بها، وذلك بعد عدة ساعات من القتال[2].

شكل بيبرس بعد فتح المدينة غرفة عمليات في أحد زواياها لوضع الخطط المناسبة لمهاجمة القلعة. وبعد الإنتهاء منها أعطى جنوده الإشارة بمواصلة الهجوم العنيف باستخدام الأسلحة الثقيلة من مجانيق ودبابات بالإضافة إلى الأسلحة الفردية من رماح وسهام وسيوف بمشاركته أيضاً، وفي الوقت نفسه كان يشرف على محاور القتال بين البر والبحر[3].

ونظراً لحصانة القلعة فقد استدعت الحاجة للمزيد من الآلات العسكرية الثقيلة، فصدرت الأوامر باستقدامها، وكذلك الطلب على الأسلحة الخفيفة من أقواس ونشاب وحجارة للمجانيق (وربما يكون السبب هو أن الساحل الفلسطيني لا يحتوي على الحجارة فهو رملي) والأخشاب المتينة[4].

وحتى يشجع السلطان جنوده على الإستبسال في المعركة والإستمرار في القتال فقد وعدهم بالهبات والخلع، وخاصة على فئة المنجنيقية[5] مشرفي المنجنيق لاجتهادهم في المعركة[6].

---

(١) المنصوري، ركن الدين بيبرس بن عبد الله الناصري (ت٧٢٥هـ/١٣٢٥م). التحفة الملوكية في الدولة التركية. نشره وقدم له: عبد الحميد صالح حمدان، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٩٨٧، ص٥٣. وسيشار له: المنصوري، التحفة الملوكية.

(٢) ابو شامة، الذيل، ص٢٣٣.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٢٣٠-٢٣١؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٥٢٦.

(٤) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٢٣١؛ Ayyubids, Mamlukes, Op. Cit P 87.

(٥) المنجنيقية: هم رماة المنجنيق، ويشبهون رماة المدفعية في الوقت الحاضر. أنظر: سعداوي، نظير، جيش مصر. ص٢٠ .

(٦) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٢٣١؛ Ayyubids, Mamlukes, Op.Cit, P87.

وخلال الحصار قام السلطان بيبرس بحركة عسكرية ذكية. إذ سيّر فرقة من جنوده لمهاجمة بعض المناطق المحيطة بعكا حيث أسفرت عن أسر بعض الفرسان الفرنج والإستيلاء على الكثير من الدواب[1]. وكان الهدف منها هو بيان مدى قوة المسلمين. وإرهاب الفرنج في المناطق الأخرى لقطع الطريق أمام أية مساعدات تأتي منها الى القلعة المحاصرة.

واستمر الحصار لمدة أسبوع تعرضت فيه القلعة لحصار مشدد من البر والبحر مع قصف عنيف ومتواصل، مما جعل المدافعين يفقدون الأمل في وصول الإمدادات. فأخذت مقاومتهم تضعف شيئاً فشيئاً، حتى إضطر قسم منهم أن يهرب عن طريق البحر إلى عكا[2]. في حين استسلم الباقي وسلموا أنفسهم للمسلمين، ودخل المسلمون القلعة ورفعوا عليها الأعلام والرايات علامة للنصر. وقد سمح السلطان لحامية القلعة أن تخرج منها مقابل عهد الأمان الذي أعطاهم إياه. وتم الإستيلاء على ما في القلعة من الأسلحة والأموال والغلال والدواب[3]. كما وجد المسلمون بعض الأسرى في القلعة وتم تحريرهم.

وبعد الإنتهاء من نقل الغنائم من القلعة شرع السلطان في تقسيم المدينة والقلعة على أمرائه وخواصه تمهيداً لهدمها. وقد شاركت جماهير السكان المحليين في مساعدة الجنود والسلطان في أعمالهم[4].

فتح قلعة صفد

كانت قلعة صفد من أكبر القلاع الفرنجية في فلسطين فتحها صلاح الدين بعد

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٣١، Ayyubids, Mamlukes, op.cit, p87.

(٢) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٣١٨؛ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٢٤٢.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٢٤٣؛ المنصوري، التحفة الملوكية، ص٥٣؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٣١٩؛ Benvensiti, Op.Cit, P 139.

(٤) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٣١٨؛ أبو الفداء، المختصر، ج٤، ص٢؛ A. Reifeberg: Caesarea. In: I:E.J. Vol:1. No,1, Jerusalem, 1950-1951, P31; Sir. Jhon Glub: Soldiers of Fortune "The Story of Mamlukes" New York, 1973, P92.

معركة حطين ثم سُلّمت مرة أخرى للفرنج في العام ٦٣٨هـ/١٢٤٠م، فأعادوا تحصينها بشكل قوي جداً، وغدت أقوى مما كانت عليه من قبل.

بعد أن فتح السلطان بيبرس حصون قيسارية وأرسوف عاد إلى مصر إلا أنه لم يمكث طويلاً إذ تحرك بقواته في مستهل شعبان ٦٦٤هـ/أيار ١٢٦٦م نحو فلسطين لمواصلة حرب التحرير. فوصل الى غزة ثم الخليل ومنها توجه الى القدس[١] وواصل سيره شمالاً حتى وصل عين جالوت، وقبل وصوله الى صفد بعث بفرقتين من جيشه، إحداهما توجهت شمالاً لفتح الحصون المحيطة بطرابلس الشام، وجلب المجانيق معها في حال عودتها[٢]، أما الأخرى فتوجهت لاستطلاع الأوضاع في قلعة صفد تمهيداً لحصارها. أما السلطان فقد توجه إلى عكا، وأغار عليها وعلى المناطق المجاورة لها. ومكث فترة هناك، حتى تُجهز المجانيق تمهيداً لتوزيعها على الأمراء لينقلوها الى قلعة صفد. وعندما تهيأت العساكر، توجه عائداً إلى عين جالوت[٣].

وخلال إقامة السلطان فيها وصلته الأخبار بموت هولاكو قائد التتار ووقوع النزاعات والصراعات بين ورثته وأفراد عائلته[٤]. الأمر الذي ساعد بيبرس على حرية التحرك من أجل منع اقامة حلف فرنجي مغولي، فتوجه بسرعة وهاجم القلاع المحيطة بعكا وخاصة عتليت والقرين[٥]. وكان الهدف من تلك الغارات المحدودة هو تشتيت القوى الفرنجية عن طريق فتح عدة جبهات معهم بحيث لا يركزون قواتهم في مواجهة قوات بيبرس المحاصرة لقلعة صفد والتي هي الهدف الرئيس له.

وخلال عودة السلطان الى معسكره في عين جالوت وصلت المجانيق التي بعث في طلبها من دمشق تمهيداً لنقلها الى صفد[٦]. وقد قصد السلطان بذلك أن تراها

---

(١) المقريزي، السلوك ج١، ق٢، ص ٥٤٤. رنسمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٥٤٨.

(٢) أبو الفدا، المختصر، ج٤، ص٣، العيني، عقد الجمان، ج١، ص ٤٢٠، ابن تغري بردي النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١٣٨.

(٣) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٥٤.

(٤) رنسمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٥٥٠، العسلي، فن الحرب، ص ٢٤١.

(٥) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص ٥٤٥، رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٥٥٠.

(٦) المنصوري، مختار الأخبار «تاريخ الدولة الأيوبة ودولة المماليك البحرية، حتى العام ٧٠٢هـ-١٣٠٢م» تحقيق : عبد الحميد صالح حمدان. القاهرة : الدار المصرية اللبنانية، ط١ » ١٩٩٣م، =

حامية القلعة حتى تثير الرعب والفزع في قلوبهم. وفي هذه الفترة وصلت الى السلطان رسل الفرنج وهو في طريقه الى قلعة صفد يطلبون منه الاستمرار في الهدنة بينه وبينهم. وهم صاحب أنطاكية وصور وبيروت ويافا[1]، ولما فرغ من أمر الرسل واصل طريقه الى القلعة فوصلها في رمضان ٦٦٤هـ/حزيران ١٢٦٦م.

وتعتبر حامية قلعة صفد الداوية أقوى الحاميات الفرنجية في فلسطين، حيث كانت تضم في صفوفها فرساناً من المسيحيين الشرقيين والمهجنين[2]. وفي الوقت الذي وصل فيه السلطان الى القلعة ضرب الحصار عليها مباشرة. ونصبت المجانيق لضرب تحصيناتها، كما أحضرت السلالم لتسلق الأسوار والأبراج وبدأ القتال مع حامية القلعة بمشاركة السلطان نفسه[3] حتى يشجع الجنود عل القتال والصمود.

وبعد عدة أيام من القتال وصلت المجانيق التي جلبت من دمشق، كما وصلت النجدات الآتية من مصر والشام وعلى رأسها صاحب حماه[4]. وكان لقدومها أثر في رفع الروح المعنوية للمسلمين، مما جعل السلطان يصمم على فتح القلعة بكافة الوسائل ولهذه الغاية أصدر الأوامر بتشديد الحصار والقتال، حيث تقدم الحجارون والنقّابون وأخذوا يعملون النقوب في الأسوار. أما الزرّاقون[5] فقد بدأوا يرمون قوارير النفط على الأبواب لحرقها، حتى يتمكن الجنود من الوصول الى داخل القلعة[6]. وكان السلطان خلال تلك الفترة يتفقد الجنود والفرسان ويحثهم على

= ص ٣١، وسيشار له، المنصوري، مختار الأخبار. ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٥٤.

(١) المنصوري، التحفة الملوكية، ص ٥٦، ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٥٥.
Ayyubids, Mamblukes, op. cit, p 114 .

(٢) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٥٥١.

(٣) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج٢، ص ١٤٩. Ayyubids, Mamlukes, op. cit, p 116.

(٤) أبوالفدا، المختصر، ج٤، ص٣، المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص ٥٤٦.

(٥) الزرّاقون: مفردها زرّاق: وهو الذي يرمي النفط من الزرّاقة، وهي أنبوبة خاصة ينبعث منها النار والدخان الشديد، وتحرق ما أمامها، وتستخدم أيضاً في ضرب السفن ف البحر، أنظر إبن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص٣١٤، هامش٤.

(٦) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٥٧، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص ٣٣٧، العيني عقد الجمان، ج١، ص ٤٢١، المقريزي، السلوك ج١، ق٢، ص ٥٤٦.

القتال ويعدهم بالعطايا الجزيلة لقاء تفانيهم في القتال.[1]

ونتيجة المقاومة التي أبداها الفرسان الداوية في القلعة، فقد أعلن منادي الجهاد عن شن هجوم كبير في جنح الظلام على باشورة القلعة (الأسوار الخارجية)، إلا أن الهجوم فشل وردّ المسلمين على أعقابهم بعد أن تكبدوا خسائر كبيرة في الأرواح، «وصار الإنسان يرى رفيقه يقتل، فيجره ويقف مكانه»[2] ومع هذا فقد عاد الجنود المسلمين في هجومهم للوصول إلى الباشورة. وقد وعد السلطان لكل واحد منهم ثلاثمائة دينار[3].

وفي ٨شوال ٦٦٤هـ/تموز ١٢٦٦م وبعد شهر من الحصار. اشتد القتال أكثر بعد أن تقدم المسلمين عدة أمتار، حيث اشتبك الطرفان بالأيدي، وقد استغل المسلمون هذا التقدم وقاموا بعمل جسر متحرك أمام باب القلعة حتى يتمكنوا من الدخول اليها[4]. وكان من نتائج هذا الهجوم الواسع أن استطاع المسلمون أن ينقبوا أجزاءً من الأسوار الخارجية للقلعة (الباشورة)، وقاموا على إثر هذا التقدم بشن هجوم واسع آخر في ليلة ١٤شوال ٦٦٤هـ/ ١٧ تموز١٢٦٦م بقيادة السلطان نفسه وهم يهلّلون ويكبرون، وبدأ قتال شرس مع الفرسان الداوية المتحصنين في القلعة، وقد شجع السلطان جنوده على الصمود والثبات في المعركة دون كلل أو ملل حتى أنه نَهَرَ بعض أمرائه عن الاستراحة وعاتبهم قائلاً: « المسلمون على هذه الصورة وأنتم تستريحون».[5] وكان من نتائج الهجوم أن توسعت النقوب في الباشورة وانهارات أجزاء منها.

أما الفرنج الذين انهارت مقاومتهم، فقد قاموا بحرق الستائر[6] المتواجدة على

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٢٥٨. Ayyubids, Mamlukes, op. cit, p 117.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٥٨. أبو الفدا، المختصر، ج٤، ص ٣. المنصوري، التحفة الملوكية، ص ٥٧.

(٣) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٥٨.

(٤) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٥٩. Ayyubids, Mamlukes, op. cit, p 118.

(٥) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٥٩.

(٦) الستائر : حِبَاك كبيره تعمل على شكل نفق واسع يحتمي فيه الحجارون والنقابون (المهندسون =

الباشورة لمنع المسلمين من تسلقها والوصول بالتالي الى القلعة، إلا أن ذلك لم يجدي نفعاً. اذ استمر المسلمون في التقدم مع كثافة في النيران والرمي. وما إن جاء الصباح حتى أصبح المسلمون يسيطرون على الباشورة. وعلى إثر ذلك انسحب الفرسان الفرنج وتراجعوا الى داخل القلعة، فاندفع المسلمون يهاجمون أبراج القلعة حتى استطاعوا أن يعملوا النقوب في إحداها[1].

كانت هذه الأحداث كفيلة برجحان الموقف العسكري لصالح المسلمين، فيما بدأت الروح المعنوية لفرسان الحامية تنهار أكثر فأكثر بعد أن انعقطعت الأسباب بهم، ولم يأتهم أي عون خارجي من القلاع المجاورة. وبالتالي فلا مفر أمامهم إلا لإستسلام لحفظ أرواحهم من الموت أو الموت نفسه. ولهذا أرسلت حامية القلعة الى السلطان تطلب تأمين حياة جميع الفرسان الذين بقوا على قيد الحياة والسماح لهم بالخروج الى عكا بأمان مقابل تسليم القلعة، فوافق السلطان على ذلك، إلا أنه اشترط عليهم «أن لا يخرجوا معهم أي نوع من السلاح أو الأموال أو الذخائر أو أي شي آخر يساعدهم على الحرب»[2]. كما طلب منهم أن لايتعرضوا لموجودات القلعة سواء بالحرق أو الهدم أو الإتلاف، وقد أبلغ السلطان هذه المطالب لوفد الفرنج المفاوض حول الانسحاب.

وبعد رجوع الوفد الى القلعة جرت مناقشات حادة داخل حامية القلعة أدت الى اختلافهم بسبب موافقة البعض على شروط بيبرس ومعارضة البعض الآخر. وفي نهاية النقاش اتفقوا على ارسال وفد مكون من خمسة عشر شخصاً الى السلطان.

= والفنيون) أثناء عملية حفر الأنفاق تحت الأسوار. الحياري، صلاح الدين، هامش ١، ص ٢٢٦، أما جمال الدين الشيال فقد عرفها بأنها نوعاً من معدات الحرب المصنوعة من الجلود المبلولة بالنحل والشب لوقاية الحصون والقلاع من قذائف النفط. وكانت تستعنل لحماية الابراج والدبابات المصنوعة من الخشب، وكذلك كحماية السفن من قذائف النفط. أنظر، إبن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص٢٠٣، هامش ٥.

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٥٩. Ayyubids, Mamlukes, op. cit, p 119.

(٢) الكتبي، عيون التواريخ، ج٢٠، ص ٣٣٦. المنصوري، مختار الأخبار، ص ٣٢. المقريزي، السلوك ج١، ق٢، ص ٥٤٧.

وقد أحسن استقبالهم وخلع عليهم الأموال والعطايا لاستمالتهم لصالحه[1].

وخلال وجودهم في المعسكر الإسلامي لجأ بيبرس إلى خطة ترمي إلى شق صفوفهم عن طريق الإعلان بأنه سيمنح العفو العام عن كل من يستسلم من الفرسان النصارى الوطنيين[2]. وقد وجد هذا الإعلان صدى له في نفوسهم. ولقيت هذه الدعوة آذاناً صاغية بين الفرسان، مما أدى الى حدوث شرخ في مواقفهم فأخذ بعضهم يفر من القلعة طمعاً في الأمان المبكر خوفاً من حدوث تطورات جديدة. ويبدو هذا برأي الباحث أنهم كانوا يعرفون مسبقاً بما سيقوم به قادة الحامية من خداع السلطان، وإخراج الأموال والأسلحة وغيرها معهم والتي كانت من ضمن شروطه بعدم اخراجها.

أما الذين بقوا في القلعة فقد ارسلوا جندياً وطنياً الى بيبرس ليعرض عليه تسليم القلعة مقابل الأمان[3]. وقد عاد الجندي ومعه كتاب الأمان الذي أعطاه إياه السلطان والذي يتضمن شروطه التي كتبها مسبقاً. واضطرت قيادة الحامية على الموافقة عليها وأرسلت موافقتها النهائية الى بيبرس[4].

وبعد صلاة الجمعة في ١٨شوال ٦٦٤هـ/ تموز ١٢٦٦م. فتحت القلعة ابوابها للمسلمين الذين رفعوا عليها الرايات الإسلامية كعلامة على فتحها[5]، وقد وقف السلطان على باب القلعة الرئيسي يراقب عملية خروج الحامية. وأثناء خروجهم حاولوا تهريب بعض الأسلحة والأموال خفية عن المسلمين ولم يكن هذا فحسب بل حاولوا أيضاً إخفاء بعض الأسرى المسلمين على أنهم نصارى، إلا أن يقظة السلطان حالت دون مرور تلك الحيلة الفرنجية، إذ أمر على الفور بتفتيش العساكر الفرنج

---

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٦٠. Ayyubids, Mamlukes, op. cit, p 119.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٦٠. رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٥٥١. وللمزيد من المعلومات انظر. رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٥٥١. حيث ذكر بأن هؤلاء المسيحيين الشرقيين جاءوا من تزاوج الفرنج الغربيين نساء مسيحيات شرقيات.

(٣) أبوالفداء، المختصر، ج٤، ص ٣. رنسميان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٥٥١.

(٤) ابن الكثير، البداية والنهاية ج١٣، مج٧، ص٢٤٦، المقريزي، السلوك، ج١ق٢، ٥٤٧.

(٥) العيني، عقد الجمان، ج١، ص ٤٢١. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١٣٨.

وخلال تفتيشهم وجد ما يخالف شروط الأمان التي وافقوا عليها، فما كان منه إلا أن ألقى القبض عليهم واحتجزهم عنده في خيمته، وأصدر عليهم أوامر بالقتل على تل قريب من القلعة لأنهم لم يحفظوا العهد معه[1]. وهذا التل هو الذي كان يقتل فيه الفرنج الأسرى المسلمين.

وبعد أن سيطر المسلمون على القلعة دخلها السلطان وفرق على الأمراء والجنود ما بداخل القلعة من عدد وسلاح وأموال وجواري ومماليك[2]. وخلال وجوده بها أصدر أوامره باستقدام ما تحتاجه القلعة من الآلات والمعدات الحربية. كما أنه أبقى فيها حامية قوية للدفاع عنها أمام هجمات فرنجية مضادة وصرف لجنودها

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٦٠، المنصوري، التحفة الملوكية، ص ٥٧. وقد تعرض المؤرخون في العصر الحديث وخاصة الغربيين الى هذه الحادثة واتهموا السلطان بيبرس بانه نكث عهد الأمان الذي أعطاه لحامية القلعة واتهموه بالتعصب. وفي رأي الباحث أن المسلمين لم ينكثوا العهد الذي أعطاه لهم السلطان وإنما فرسان الحامية هم الذي نقضوا العهد، بدليل أنهم ارتكبوا أشياء تخالف ما اتفق عليه. فقد كانت حجة المسلمين كافية لتبرير ما قاموا به إلا أن الشيء الغير مقبول في حجة المسلمين هو مسألة قيام الفرسان الفرنج بتهريب بعض الأسرى المسلمين معهم. ذلك أنه بامكان الأسرى حين خروجهم أن ينادوا ويعلموا الجنود المسلمين المشرفين على خروجهم بأنهم مسلمون، وأن الفرنج يحاولون اخفائهم بينهم. وبالتالي فان ما قام به المسلمون مبرر لعدم التزام الطرف الفرنجي بكامل الشروط. مع أنهم التزموا بها قبل خروجهم. أوحتى لو لم يقم الفرتج بإخفاء الاسرى وقتلهم المسلمون عمداً حسبما يذكر الغربيون ، فهناك العديد من المعاهدات التي نقضها الفرنج مع المسلمين وإعتدوا عليهم وقتلوا الكثير منهم دون ذنب ولم يعهد عن المسلمين بأنهم خالفوا العهود ويبدو أن هناك أسباباً ثانوية جعلت السلطان يقرر قتلهم وهو أنهم قاتلوا بشراسة وكبدوا المسلمين خسائر كبيرة في الأرواح. مما جعل السلطان نفسه يتعجب من قوتهم وصمودهم حيث قال فيهم : «فبعد ذلك جاءهم الموت من فوقهم ومن تحتهم ومن أسفل منهم وأصبح ثغرهم -القلعة- الذي ظنوه عاصماً لايغني عنهم. ومع ذلك فقد قاتلوا قتال مستقتل لايرى من الموت بُدا».

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٦٣، المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص ٥٤٨.
Ayyubids, Mamlukes, op. cit, p 122.

مخصصات شهرية عالية[1].

ومن التجديدات التي أدخلها أيضاً على القلعة، أنه أمر بإنشاء جامع فيها وآخر في ربضها، كما عمّر بقلعتها برجاً جديداً[2]. وأوصى باستقدام سكان جدد إليها، بالإضافة لحاميتها للمرابطة لها، وقرر لهم الجرايات أيضاً ورتب فهيا ما يكفيها من النفقات والأموال[3]، وأسند ولايتها إلى عز الدين أيدمر العلائي[4].

وبعد أن فرغ من أمر قلعة صفد، بث السلطان سراياه الى مناطق وقلاع الفرنج الأخرى لتحريرها، ففتح هونين وتبنين وغيرها، وغادر فلسطين متوجهاً إلى دمشق. وفي طريق عودته إليها في العام ٦٦٥هـ/١٢٦٧م أمر بعمارة القلعة، وخاصة باشورتها التي دمرت في معارك تحريرها، بالإضافة الى أبراجها وأسواقها وخاناتها وحماماتها، واصطحب لذلك الحجارين والنجارين اليها ليشرعوا في عمليات البناء والاصلاح وأصبحت من أحسن القلاع وأمنعها[5] وبعد الانتهاء من ذلك غادر السلطان متوجهاً الى الديار المصرية.

وقبل مغادرته وردت اليه رسل الفرنج من عكا وغيرها لمواصلة الصلح فوافق على ذلك وكتبت بينها هدنة لمدة عشر سنوات كان من أهم بنودها أن تكون عكا وبلادها للفرنج، وكذلك حيفا أما بلاد الكرمل فتكون مناصفة بين الطرفين، أما قلعة القرين فهي للفرنج وصيدا بالتساوي[6].

فتح القرين :

وهي من أكبر القلاع التابعة للفرسان التيوتون الألمان في منطقة عكا. وقد

---

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٦٣. المنصوري، التحفة الملوكية، ص ٥٧، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مج٤، ص ٤٥٨.

(٢) ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج٢، ص٧٤.

(٣) المقريزي، السلوك ج١ ق٢، ص ٥٤٨، العيني، عقد الجمان، ج١، ص ٤٢٢.

(٤) ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج٢، ص٧٤.

(٥) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة،ج٢، ص ١٥٠-١٥١. اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص ٣٦١.

(٦) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٦٣. المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص ٥٧١. العيني، عقد الجمان، ج٢، ص ٣٢.

لعبت هذه القلعة دوراً مهماً في الصراع بين المسلمين والفرنج. وكانت قد تعرضت للهجوم في المرة الأولى على يد المعظم عيسى في العام ٦١٥هـ/١٢١٨م. إلا أنه فشل في السيطرة عليها. وبقيت تحت سيطرة الفرسان التيوتون حتى قيام الدولة المملوكية في مصر.

وقد تعرضت قلعة القرين الى محاولتين كبيرتين لفتحها من قبل الظاهر بيبرس. الأولى كانت في العام ٦٦٤هـ/١٢٦٦م[١]. حيث هاجم القعلة ضمن حملته على القلاع الشمالية، لنشر الرعب في صفوف الفرنج وقطع خطوط مواصلاتهم وخاصة التي تربط بين قلاع صفد وكوكب الهواء، وقلاع الساحل.

وقد هاجم قلعة القرين بعد غارته على عكا. وضرب عليها الحصار إلا أنه لم يتمكن من السيطرة عليها[٢]. ويعود السبب في ذلك لحصانتها القوية وصمود حاميتها[٣]، فضلاً عن صعوبة المنطقة ووعورتها، وقلة اسلحة الحصار التي أحضرت وربما يكون أيضاً بعدها عن مركز المسلمين الدائم في عين جالوت، ولأن قلعة صفد الحصينة والقوية لم تكن قد فتحت بعد. وبالتالي فإن ظهير الجيش الإسلامي كان غير محمي. ولهذا فقد انسحب السلطان ثم توجه الى صفد وفتحها. وأتبعها بفتح قلعتي هونين وتبنين في العام ٦٦٤هـ/١٢٦٦م. كما هاجم مناطق شمال الشام وأرمينية واستولى على بعض قلاعها وحصونها[٤].

وفي العام ٦٦٨هـ/١٢٧٠م وصلت حملة فرنجية جديدة -الثامنة- الى تونس إلا أنها فشلت في تحقيق أهدافها المتمثلة في اعادة السيطرة على بلاد الشام. فاستأنف بيبرس نشاطه العسكري، وشن غارات عديدة على شمال الشام واستولى على عدة قلاع ومناطق في شمال الشام وعاد الى دمشق.

هذه الأحداث والتطورات أثرت على الموقف الفرنجي في فلسطين وخاصة

---

(١) عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ١٠٩١، حسين، تاريخ جماعة التيوتون، ص ٢٧٢.

(٢) Ayyubids, Mamlukes, op. cit, p 191.

(٣) Benvensiti, op. cit, p 334. Crusaders Fortress in palestine. Op.cit., p 93.

(٤) عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١٠٩٢.

على روحهم المعنوية. فاستغل بيبرس الوضع، وخرج من دمشق لفتح قلعة القرين التي لم يبق بالساحل للفرنج غيرها، إلا قلعة عتليت، وقبل وصوله لحصارها مر على قلعة صفد وشحنها بالآلات ثم سار الى قلعة القرين[1]. وبعد وصوله اليها في العام ٦٦٩هـ/١٢٧١م نصب حولها المجانيق التي بدأت على الفور بقصف القلعة، كما بدأ الجنود يشتبكون باسلحتهم مع حامية القلعة، إلا أنها دافعت عن القلعة دفاعاً شديداً.

وعندما رأى بيبرس صعوبة اقتحامها لجأ الى طريقة أخرى للهجوم، وذلك عن طريق تحميس وتشجيع الجنود على مواصلة القتال والتقدم مقابل جوائز مادية قيمة قيمتها ألف درهم عن كل حجر يتم نقبه وزحزحته عن مكانه[2]. ولم تكن هذه المكافأة مقابل عمل سهل بل كانت مقابل عمل شاق وخطير لأن هذه الأحجار كانت مدعمة بشكل قوي، ويحيط بها مثبتات حديدية مغموسة في القصدير[3]. كما أنها قريبة من مرمى أهداف المدافعين بداخل القلعة.

وخلال عملية حصار القلعة أسقط جنود السلطان طائراً وجدوا فيه رسالة من أحد «جواسيس» الفرنج في المعسكر الإسلامي تتضمن أخبار السلطان وتحركات جيشه. إلا أنه لم يأبه لذلك وترك الطائر يوجه الرسالة وقال معلقاً «نحن نفرح بمن يخبركم بأخبارنا»[4].

وحتى لايكون هناك مجالاً للفرنج لإعادة تنظيم، قواتهم أو قدوم عون خارجي

---

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٨٦، المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص ٥٩٣.
Ayyubids, Mamlukes, op. cit, p 191.

(٢) حسين، تاريخ جماعة التيوتون، ص ٣١٠. Ayyubids, Mamlukes, op. cit, p 192.

(٣) الكتبي، عيون التواريخ، ج٢٠، ص ٤٠٣ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص ٢٥٣، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج٧، ص ١٥٣، حسين، تاريخ جماعة التيوتون، ص ٣١٠، من الملاحظ أن الكتبي أشار خطأ الى أن حامية القلعة كانت من الفرسان الداوية والاسبتارية في حين أن حامية القلعة هم من الفرسان التيوتون الألمان أو كما تشير المصادر الإسلامية الفرسان (الأرمن).

(٤) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٨٦.

اليهم، شددت القوات الإسلامية هجومها وحصارها، وواصلت قصف القلعة بشكل مكثف ومتواصل. وقاتل الجنود قتالاً مستميتاً، حتى استطاعوا أن يملكوا ربض القلعة في مستهل ذي القعدة ٦٦٩هـ/حزيران ١٢٧١م[1] ثم ملكوا الباشورة، وأخذ الجنود بعد هذا النصر والتقدم ينقبون السور، ويحفرون خندقاً أسفل القلعة في المنطقة الصخرية الشديدة الصلابة في محاولة للتسلل الى داخل القلعة[2].

وعندما رأى الفرسان التيوتون المحاصَرين ما حل بالقلعة قرروا أن مواصلة القتال لن يجدي نفعاً ولابد من الاستسلام لحفظ أرواحهم. ولهذا فقد دخلوا في مفاوضات مع السلطان. وبعد مناقشات توصل الطرفان الى اتفاقية تنص على خروج الفرسان الحامية بدون أسلحتهم أو أي شيء آخر، والموافقة على ذهابهم الى المكان الذي يريدون[3].

وبعد خروجهم دخل المسلمون القلعة ورفعوا عليها الرايات الإسلامية، وذلك بعد خمسة وعشرين يوماً من الحصار والقتال[4] وكان ذلك في نهاية ذي القعدة ٦٦٩هـ/ حزيران ١٢٧١م. وبعد أن تسلم السلطان القلعة أمر بهدمها، واستمرت هذه العملية حوالي اثني عشر يوماً. مما يدل على كبر حجم القلعة ومتانة بنائها. ثم غادر السلطان بجيشه متوجهاً الى عكا. ومنها واصل طريقه الى الديار المصرية.

كان سقوط قلعة القرين خسارة كبيرة للفرنج بشكل عام والفرسان التيوتون بشكل خاص، فقد خسرت هذه المنظمة مركزاً هاماً في منطقة عكا. ومع هذا فقد واصلت الجماعة نشاطها في عكا، وبذلك فقد تم سيطرة المسلمين على معظم الحصون في فلسطين ماعدا عتليت وعكا.

---

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٨٦. المنصوري، التحفة الملوكية، ص ٧٢. العيني، عقد الجمان، ج٢، ص ٧٩.

(٢) حسين، تاريخ جماعة التيوتون، ص ٣١٠. Benvensiti, op. cit, p 334.

(٣) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٨٦. المنصوري، التحفة الملوكية، ص ٧٢، مختار الأخبار، ص ٤٦. Ayyubids, Mamlukes, op. cit, p 192.

(٤) الكتبي، عيون التواريخ، ج ٢٠، ص ٤٠٣. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة : ج٧، ص ١٥٣.

فتح الطور وهونين :

كانت قلعة الطور من القلاع التي دمرها المسلمون بعد المعركة الفاصلة التي جرت بين الأيوبيين والفرنج وذلك في العام ٦٤٥هـ/١٢٤٧م. ثم استولى عليها الفرنج في العام ٦٥٣هـ/١٢٥٥م وتسلمها الفرسان الاسبتارية وأعادوا بنائها[١].

ومع تولي بيبرس الحكم في مصر، بدأت مرحلة جديدة من مراحل الصراع مع الفرنج. وقد خرج السلطان من مصر الى فلسطين في العام ٦٦١هـ/ ١٢٦٣م. وتوجه شمالاً حتى وصل إلى أسفل قلعة الطور في جمادي الأولى ٦٦١هـ/ أيلول ١٢٦٣[٢]، وخلال مكوثه هناك أرسل فرقة من جيشه لمناوشة الفرنج في عكا وبلادها، فغنموا منها وعادوا[٣]، ثم واصل بيبرس غاراته الأخرى على المناطق المحيطة بقلعة جبل الطور واستطاعوا تدمير بعض تحصيناتها. وقبل أن يعود الى مصر هاجم القلعة وحاصرها ولم يتمكن المدافعون عنها من المقاومة والصمود لفترة طويلة. إذ استسلموا وأخلوا القلعة بدون قتال[٤].

أما قلعة هونين فبعد أن حررها صلاح الدين بقيت تحت سلطة الأيوبين حتى العام ٦٣٨هـ/١٢٤٠م. حيث تسلمها الفرنج من الملك الصالح اسماعيل حاكم دمشق كما ذكرنا، في الفصل السابق.

وبعد سقوط قلعة صفد وأصل بيبرس سياسته الهادفة الى تطهير بلاد الشام من الوجود الفرنجي، فتوجه إلى دمشق ومن هناك بث سراياه لمهاجمة قلاع وحصون مملكة بيت المقدس فاستولوا على قلاع هونين وتبنين المتجاورتين في ذي القعدة ٦٦٤هـ/آب /١٢٦٦م[٥]. وبعد فتحها عين السلطان لكل منهما والٍ وأمر باعادة إعمار وتحصين قلعة هونين لما تتمتع به من موقع استراتيجي[٦].

---

(١) البيشاوي، الممتلكات، ص ٢٥٥. Benvensiti, op. cit, p 360.

(٢) أبو الفدا، المختصر، ج٣، ص ٢١٦، العيني، عقد الجمان، ج١، ص ٣٥٦.

(٣) ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢، ص ٣١٠، المقريزي، السلوك ج١، ق٢، ص ٤٨٧.

(٤) Benvensiti, op. cit, p 360.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣، ص ٢٧٤. المقريزي، السلوك. ج١ ق٢، ص ٥٥٠.

(٦) Benvensiti, op. cit, p 302. Pringle, Survey of castles, p 89.

فتح عتليت :

اعتبرت قلعة عتليت الداوية من القلاع الساحلية الضخمة التابعة للفرسان الداوية، وقد لعبت دوراً هاماً في الصراع الإسلامي - الفرنجي منذ بنائها في بداية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، فقد كانت مركزاً تجارياً وقاعدة بحرية للدفاع عن المملكة من أي اعتداء خارجي.

وكانت القلعة قد تعرضت لعدة هجمات من قبل السلطان بيبرس قبل أن يتمكن السلطان الأشرف خليل من فتحها في العام ٦٩٠هـ/١٢٩١م. فقد هاجمت قوات السلطان المتمركزة في عين جالوت في منتصف العام ٦٦١هـ/١٢٦٣م قلعة عتليت، واشتبكت مع حاميتها، ثم إنسحبت وواصلت تقدمها جنوباً الى قلعة قيسارية[١]. وكان الهدف من تلك الغارة المحدودة هو معرفة مدى قوة القلعة واكتشاف مواطن الضعف والقوة فيها. كما إنها جاءت للرد على غارة الفرسان الداوية والاسبتارية على عسقلان[٢].

وخلال خروج السلطان من مصر في العام ٦٦٣هـ/١٢٦٥م للتصدي لحملة المغول على شمال سوريا. وصلته الأخبار بعد وصوله إلى فلسطين باندحار المغول. فأصدر أوامره بمهاجمة القلاع الساحلية وخاصة قيسارية وعتليت[٣]. فتوجه إلى قلعة قيسارية في البداية وفتحها. وبعد أن دمرها توجه بقواته إلى قلعة عتليت في جمادي الأولى ٦٦٣هـ/آذار ١٢٦٥م. وفرض عليها حصاراً مشدداً، مما اضطر سكان المدينة الى الالتجاء الى داخل القلعة فواصل هجومه على القلعة، إلا أنها كانت من الحصانة والمناعة أكثر مما تصور، فتخلى عن حصارها، وعاد إلى قيسارية ليكمل هدم القلعة.[٤] واستمرت محاولات السلطان بيبرس لفتح القلعة بعد أن أعاد معظم القلاع في فلسطين إلى الحظيرة الإسلامية. ففي العام ٦٦٧هـ/١٢٦٩م خرج من مصر

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٠٠.

(٢) عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ١٠٩٠.

(٣) المقريزي، السلوك. ج١ ق٢، ص ٥١٣.

(٤) عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ١٠٩٠، بردج الحروب الصليبية، ص ٢٨٤.

Deschamp. op. cit, p 29.

لمهاجمة أنطاكية. وخلال مروره في فلسطين هاجم القلعة. إلا أنه فشل في السيطرة عليها أيضاً، وبقيت تحت سيطرة الفرسان الداوية[1].

وبعد هذه الجهود المتواصلة عاد السلطان الى مصر لاعادة تنظيم قواته، وبعد مكوثه فترة من الزمن قرر الخروج مرة أخرى إلى بلاد الشام في العام ٦٧٠هـ/١٢٧٢م من أجل مواصلة مشواره الجهادي ضد الفرنج والتتار. وكان سبب خروجه هذه المرة هو قيام التتار بحركة في شمال الشام[2]. وعندما وصل الى قيسارية جاءه وفد من فرنج عكا طالبين الصلح. وأسفرت المحادثات عن توقيع هدنة لمدة عشر سنوات وعشرة أشهر[3]، وتم بموجبها احتفاظ الفرنج بممتلكاتهم التي أصبحت محصورة على السهل الساحلي ما بين عتليت وصور مع بعض القرى الداخلية المجاورة لعكا[4]، وأن يسمح لهم باستخدام طريق الحج إلى الناصرة[5].

وبعد توقيع المعاهدة تفرغ السلطان لمواجهة الخطر المغولي والبيزنطي في الشرق الأدنى، فأغار على مملكة أرمينية الصغرى والمصيصة[6] ثم فتح قيسارية الروم[7] في العام ٦٧٥هـ/١٢٧٦م[8]، وعاد الى دمشق. وهناك توفي يوم الخميس ٢٧ محرم ٦٧٦هـ/ ١٩ تموز/١٢٧٧م. وبوفاة السلطان بيبرس أصبحت الامارات الفرنجية في بلاد الشام مقتصرة على صيدا وصور وطرابلس بالإضافة الى قلعتي

---

(١) العسلي، فن الحرب، مج٤، ص ٢٤٤-٢٤٥.

(٢) ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج٢، ص٧٦؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٥٩٩.

(٣) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٣٣، ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٩٨. المقريزي، ج١، ق٢، ص٦٠١.

(٤) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٩٨. العسلي، فن الحرب، مج٤، ص ٢٤٩.

(٥) رنسميان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٥٧٨.

(٦) المصيصة: وهي مدينة شمال الشام تقع بين انطاكية وبلاد الروم قرب طرسوس كانت من ثغور الإسلام زمن العباسيين، كانت تشتهر بصناعة الفراء، وتنتشر حولها البساتين الكثيرة، الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص ١٦٩.

(٧) قيسارية : مدينة كبيرة تقع في بلاد الروم (الأناضول) كانت مركز حكم سلاجقة الروم. الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص ٤٧٨.

(٨) ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج٢، ص٧٩؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٦٢٨-٦٣٠.

المرقب وعتليت[1].

كانت مسيرة السلطان حافلة بالجهاد والنضال ضد الفرنج. فقد فتح العديد من القلاع والحصون مثل أرسوف ويافا وقيسارية وصفد وكوكب الهوا والطور بالإضافة إلى قلاع بلاد الشام الأخرى. مثل الشقيف وانطاكية وبغراس وعكار والبيرة وغيرها، وكانت أولى فتوحاته قيسارية الشام وأخرها قيسارية الروم في شمال الشام، وقدر عدد القلاع التي فتحها بأربعين قلعه وحصن[2].

واصل السلطان المنصور سيف الدين قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م) سياسة سلفه في جهوده لتحرير بلاد الشام من الاحتلال الفرنجي. واستأنف عملياته العسكرية في العام ٦٧٩هـ/١٢٨٠م بغاراته على حصون شمال الشام وخاصة حصني المرقب والأكراد[3].

وفي العام ٦٨٠هـ/١٢٨١م وقع السلطان هدنة مع الفرنج أثناء تواجده في فلسطين. حيث وفدت عليه رسل الفرنج من عكا وطرابلس يطلبون تجديد الهدنة التي وقعها السلطان بيبرس، فوافق السلطان قلاوون على تجديدها لمدة عشر سنوات أخرى[4]. وتتضمن عدم اقامة الفرنج أي تحصينات جديدة خارج قلاعهم وتحديد الأماكن والقلاع لكل طرف[5].

ولم يمض على الصلح أربع سنوات حتى شرع السلطان قلاوون في مهاجمة قلعة المرقب في العام ٦٨٤هـ/١٢٨٥م[6]، كما فتح طرابلس في العام ٦٨٨هـ/١٢٨٩م. وخلال تجهيز السلطان حملة لفتح عكا توفي، وخلفه ابنه الأشرف خليل (٦٨٩-

---

(١) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٥٩٦. ماير، الحروب الصليبية، ص ٤٠٦.

(٢) العيني، عقد الجمان، ج٢، ص ١٧٦-١٧٧.

(٣) أبوالفدا، المختصر، ج٤، ص ١٤.

(٤) المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص ٦٨٥. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٣٠٠.

(٥) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، م٧، ص ٢٦٢-٢٦٣، حسين، عبدالوهاب، تاريخ جماعة التيوتون، ص ٣٠٩.

(٦) أبوالفدا، المختصر، ج٤، ص ٢١،ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج٢، ص٩٦، العيني عقد الجمان، ج٢، ص ٣٣٨.

٦٩٣هـ/ ١٢٩٠- ١٢٩٤م). الذي انتهج سياسة أبيه في محاربة الفرنج، حيث حرر عكا عاصمة الفرنج، ثم واصل غاراته لتطهير الجيوب الفرنجية والقلاع المحيطة بها وخاصة قلعة عتليت. فتوجهت فرقة من جيشه إليها في العام ٦٩٠هـ/١٢٩١م[1]. وعندما سمعت حامية القلعة ما جرى لعكا، قررت اخلاء القلعة دون قتال للنجاة بروحها، وتركت الحصن وغادرت الى قبرص[2]. وبذلك تكاملت الفتوحات في جميع البلاد الساحلية للإسلام.

فتح عكا :

تعتبر عكا من أكبر المدن التي سيطر عليها الفرنج في فلسطين بعد بيت المقدس، وقد لعبت دوراً هاماً في الصراع الإسلامي-الفرنجي منذ احتلالها عام ٤٩٧هـ/١١٠٤م، وحتى تحريرها في العام ٦٩٠هـ/١٢٩١م، وبالرغم من حصانة المدينة قبل احتلالها، إلا أن الفرنج قاموا بزيادة تحصيناتها عن طريق بناء العديد من الأبراج والحصون في مختلف أنحاء المدينة[3] وبعد معركة حطين أصبحت مركزاً للمملكة الفرنجية بعد تحرير بيت المقدس على يد صلاح الدين وطرد الفرنج منها.

وقد بذل السلاطين المماليك جهوداً كبيرة ومتواصلة في سبيل تحريرها. وكان الظاهر السلطان بيبرس أول من بدأ بتلك المهمة، حيث قام بعدة غارات على المدينة وتحصيناتها. إلا أنه لم تكن في نيته السيطرة عليها، لأن فتحها يحتاج الى امكانيات ضخمة، فهي محاطة بشبكة من القلاع والحصون حولها، مما يحول دون السيطرة عليها بسهولة.

وقد بدأت أولى تلك المحاولات في العام ٦٦١هـ/١٢٦٣م حينما أغار جيشه المرابط على الساحل الفلسطيني على عكا حيث وصل الى أبوابها ثم عاد الى قواعده[4]. وقد حققت تلك الحملة بعض النتائج البسيطة، إذ تمكنت من الوصول إلى

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ١٨٤، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ١٠.

(٢) Benvensiti, op. cit, p 177. Deschamp. op. cit, p 29.

(٣) انظر تفاصيل تلك التحصينات في الفصل السابق.

(٤) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ١٩٧. أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص ٢١٧.

أحد أبراج المدينة ونقبه[1] كما قام جنود تلك الحملة بتدمير الأخشاب والأشجار والحقول المنتشرة حول المدينة ضمن سياسته في ضرب المصالح الاقتصادية الفرنجية[2].

وفي بداية العام ٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م وبعد فتح قيسارية وأرسوف وجه السلطان قواته التي أغارت على حيفا وعكا، وقتلوا مجموعة من الفرسان الفرنج وغنموا بعض الحيوانات، ثم عادت القوات الى قاعدتها في صفد[3]. وأغار السلطان مرة ثانية على عكا في شبعان ٦٦٥هـ/١٢٦٧م ووصل إلى أبوابها خفية دون علم أحد، واشتبك مع القوات الفرنجية ثم عاد بعد أن خرب بعض ممتلكاتهم[4]. وفي العام ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م هاجم بيبرس يافا بغته واستولى عليها عنوه، ثم هاجم عكا ضمن سياسته الهادفة إلى منع الفرنج من التقاط أنفاسهم وتجميع قواهم، واستطاع الوصول إلى أطراف الأسوار في المدينة من الجهة الجنوبية، إلا أنه اضطر الى الانسحاب مرة أخرى بعد أن دمر الضياع حولها مما جعل الفرنج يطلبون الهدنة[5]. واستمر بيبرس غاراته على عكا في الأعوام ٦٦٨-٦٦٩هـ/١٢٧٠-١٢٧١م، مكبداً الفرنج الكثير من الخسائر المادية والبشرية[6]، وفي هذه الفترة قدم صاحب صور يطلب الصلح من السلطان مقابل ان يتنازل له عن خمس قلاع، فوافق وعقد الصلح لمدة عشر سنين[7].

واصل خليفة بيبرس السلطان سيف الدين قلاوون ٦٧٨-٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م سياسته في جهاد الفرنج، فأغار على الحصون الشمالية للشام[8]. واستمر في ذلك

---

(1) ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢، ص ٣١٠. المقريزي، السلوك ج١ ق٢، ص ٤٨٨. رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٥٤٥.
(2) المنصوري، مختار الأخبار، ص ٢٤. العيني، عقد الجمان، ج١، ص ٣٥٦.
(3) ابن عبدالظاهر. الروض الزاهر، ص ٢٥٣، ٢٦٧. الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥، ص ٣١٤.
(4) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٦٨. Ayyubids, Mamlukes, op. cit. p 129-131.
(5) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، مج٧، ص ٢٦٥. رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٥٥٥.
(6) المنصوري، التحفة الملوكية، ص ٦٨، العيني، عقد الجمان. ج٢، ص ٥٨-٥٩. ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون، م٤، ص ٤٦٣. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١٥٣-١٥٤.
(7) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مج٤، ص ٤٦٣.
(8) أبو الفداء، المختصر، ج٤، ص ١٤.

حتى طلب منه الفرنج توقيع هدنة في العام ٦٨٠هـ/١٢٨١م، وعلى الرغم من حرص الفرنج في الشام في تلك الفترة على مهادنة السلطان قلاوون إلا أنه سرعان ما غير رأيه في مواصلة الصلح معهم بعد زوال الخطر المغولي الذي اضطره لتوقيع ذلك الصلح مع الفرنج. فلم يكد يمض على الصلح أربع سنوات، حتى شرع في مهاجمة الحصون الشمالية فاستولى على حسن المرقب في العام ٦٨٤هـ/١٢٨٥م وطرابلس في العام ٦٨٨هـ/١٢٨٩م[1].

عاد السلطان قلاوون إلى مصر. وبدأت حالة من الاستقرار تسود العلاقة بين المسلمين والفرنج. إلا أن الحالة لم تدم طويلاً. إذ وصلت الأخبار للسلطان بأن بعض أهالي عكا قاموا بقتل بعض التجار المسلمين المتواجدين في المدينة[2]، فغضب السلطان لهذه التصرفات، وصمم على التوجه إلى عكا لطرد الغزاة الفرنج منها. وبدأ بالاستعداد لمعركة تحريرها، فأرسل إشارات عاجلة إلى كافة الولايات الشامية لصنع أسلحة الحصار وتجهيز الجيوش، إلا أنه لم يتمكن من التوجه إليها بسبب وفاته في ذي القعدة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م[3].

ومع تولي الأشرف خليل (٦٨٩-٦٩٣هـ/١٢٩٠-١٢٩٤م) السلطنة بعد وفاة والده صمم على مواصلة سياسة أبيه لطرد الفرنج من عكا - آخر معقل لهم في فلسطين والشرق بكامله - مهما كلف الأمر. بالرغم من قدوم الرسل من عكا للاعتذار عما جرى للتجار المسلمين في المدينة[4]. ولهذه الغاية أرسل بعض الأمراء لتجهيز المجانيق وآلات الحصار الأخرى، واستقدام الجيوش[5]. وقد وصلت طلائع تلك القوات بوصول صاحب حماة بمجانيقه التي تضم واحداً من الحجم الكبير يسمى «المنصوري». كما وصل نائب السلطان بطرابلس أيضاً بمجانيقه[6].

---

(١) المقريزي، السلوك ج١ ق٣، ص ٧٤٧، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٣٢١.

(٢) المنصوري، التحفة الملوكية، ص ١٢٢، المقريزي، السلوك. ج١ ق٣، ٧٥٣.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ٣٣٥. المقريزي، السلوك. ج١ ق٣، ص ٧٥٤.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ٣١٧.

(٥) المنصوري، التحفة الملوكية، ص ١٢٦، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ٥.

(٦) أبو الفداء، المختصر، ج٤، ص ٢٤. المقريزي، السلوك ج١ ق٣، ص ٧٦٣-٧٦٤.

أما السلطان فقد توجه من مصر الى عكا مصطحباً معه العلماء والفقهاء والقضاه، والأعيان بالإضافة إلى الجيوش ووصلها في ربيع الآخر ٦٩٠هـ/نيسان ١٢٩١م. وقد وصل عدد المجانيق التي وصلت حوالي اثنان وتسعون منجنيقاً[١]. أما الفرنج في عكا فقد أتتهم النجدات والمساعدات من قبرص بقيادة ملكها. إلا أنه عاد بعد ثلاثة أيام بسبب حالة الضعف التي وصل اليها الفرنج في عكا[٢].

وبعد أن تمت الاستعدادات بدأ الجيش بحصار المدينة. وبدأت المجانيق تقصف أسوار المدينة وتحصيناتها حتى استطاعت أن تنقب في الأسوار عدة ثقوب[٣]، في حين قام الرماه بامطار الفرنج المتحصنين في الأبراج بوابل من السهام والرماح. بينما قام المهندسون بنقب مواطن الضعف في الاستحكامات المحيطة بالمدينة.

وعن أوضاع الفرنج فقد هالهم ما شاهدوه فأرسلوا برقيات عاجلة الى أوروبا طلباً للمساعدة في الوقت الذي قام فيه الفرسان الاسبتارية والداوية والتيوتون بتحصين أبراجهم وحصونهم وجهزوا أنفسهم بالسلاح للدفاع عنها[٤] وجرى قتال بينهما بكافة أنواع الأسلحة قتل فيها الكثير من الطرفين[٥]. ومع ذلك فقد استطاع العساكر المسلمين التقدم بعض الشيء ونقبوا أجزاء من الأسوار.

وبالرغم من قيام الفرسان الفرنج بهجوم معاكس والوصول الى خيام المسلمين، إلا أن الفرسان المسلمين استطاعوا التصدي لهم وردوهم على أعقابهم الى قواعدهم بعد أن كبدوهم خسائر كبيرة[٦].

---

(١) المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص ٧٦٤. وقد وصف ابو الفدا طريقه صناعة تلك المجانيق وظروف جلبها والمشاكل التي واجهت المسلمين في ايصالها الى قواعدها. انظر ابو الفدا، المختصر، ج٤، ص ٢٤، وقد قدر ابن اياس عدد المجانيق بـ ٧٥ منجنيقاً. أما إبن تغري بردي فقد، عددها بخمسة عشراً منجنيقاً.

(٢) أبو الفدا، المختصر، ج٨، ص ٢٥، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ٦.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ٦.

(٤) المنصوري، التحفة الملوكية، ص ١٢٦، رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٦٩٥.

(٥) المنصوري، التحفة الملوكية، ص ١٢٦.

(٦) أبو الفدا، المختصر، ج٤، ص ٢٥، رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٧٠٢.

وعلى أثر هذا الهجوم المعاكس شدد السلطان الأشرف الحصار والقصف وقام بهجوم واسع على المدينة في ١٧جمادي الأولى/ نيسان ١٢٩١م وأمر بضربها دفعة واحدة. ثم زحف بجيشه نحوها قبل شروق الشمس، مما أدى الى دب الفزع في نفوس المدافعين وانهيار مقاومتهم، وتقهقرهم الى الداخل. ولم تمض ساعات قليلة حتى دخل المسلمون المدينة واستولوا عليها. ورفعوا فوقها الرايات الاسلامية[1].

وبعد سيطرة المسلمين على المدينة جرت عمليات هروب جماعية للفرنج عن طريق البحر الى قبرص. وقد مات العديد منهم بفعل الازدحام، والمسلمون ورائهم يتبعونهم قتلاً وأسراً[2]، إلا أن بعض الفرسان لم يستسلموا، وتحصنوا داخل الحصون والأبراج في المدينة. فعرض عليهم السلطان الأمان إلا أنهم رفضوا وواصلوا القتال، فقاتلهم السلطان حتى استسلموا دون قيد أو شرط وأمر بقتلهم جميعاً[3].

وقد فتحت في ١٧جمادي الآخرة ٦٩١هـ/١٨ أيار ١٢٩١م. وهو اليوم والشهر الذي احتل فيه الفرنج المدينة أثناء الحملة الثالثة في العام (٥٨٧هـ/١١٩١م)[4] وقد أمر السلطان الأشرف بهدم المدينة وتحصيناتها.

كانت السياسة التي اتبعها السلاطين الأيوبيين ثم المماليك من بعدهم في هدم القلاع والحصون الساحلية هي ضمن استراتيجية تهدف الى منع الفرنجة من الاستفادة من هذه التحصينات فيما لو قُدّر لهم أن يحتلوها مرة ثانية لأنها ستشكل خطراً على الوجود الإسلامي، خاصة اذا علمنا أن الفرنج كان تحت تصرفهم أساطيل الدويلات الايطالية وغيرها من أساطيل أوروبا الغربية.

ولم تكن هذه السياسة تنطبق على كافة الحصون والقلاع، وإنما فقط انطبقت على بعض القلاع الساحلية. أما القلاع الداخلية فلم يقم الايوبيون أو المماليك

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص٦. ابو الفدا، المختصر، ج٤، ص ٢٥.
(٢) أبو الفدا، المختصر، ج٤، ص ٢٥. المقريزي، السلوك ج١ ق٣، ص ٧٦٥.
(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ٨.
(٤) أبو الفدا المختصر، ج٤، ص ٢٥، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص٨.

بهدمها بل العكس هو الذي حصل إذ قاموا باعادة تحصينها وبنائها وشحنها بالرجال والسلاح وعينوا لها الأمراء وخصصوا لها الأموال والأوقاف كما رأينا.

ولم تكن هذه السياسة التي اتبعها السلاطين المسلمين مع القلاع الساحلية دائمة،بل جاءت ضمن ظروف خاصة تتعلق بالاحتلال الفرنجي، وعندما زال السبب عمرت هذه القلاع، فبعد خروج الفرنج نهائياً من بلاد الشام أعيد بناء تلك القلاع من قبل المماليك، وبالتالي فلا مجال للقبول برأي المستشرقين بأن هدم القلاع والحصون كان سياسة عامة ودائمة وثابتة انتهجها السلاطين الأيوبيين والمماليك.

الخاتمة

خلصت هذه الدراسة الى العديد من النتائج أهمها :

١- لم يكن بناء القلاع والحصون في مملكة بيت المقدس ضمن خطة معدة مسبقاً. وانما ارتبط بناؤها بالظروف الموضوعية تبعاً لتطور الأوضاع السياسية والعسكرية في المنطقة. فمثلاً جاء بناء حصون يبنا وتل الصافي وبيت جبريل وغزه لتسهيل السيطرة على عسقلان بعد أن سيطروا على معظم الساحل. أما بناء قلاع هونين وصفد وتبنين فقد جاء كنتيجة للغارات التي شنتها امارة دمشق.

٢- كما أن بناء القلاع جاء ضمن استراتيجية الأمر الواقع الذي حاول الفرنج ترجمته في فلسطين بغرض توسيع رقعة الأرض التابعة للقلعة، ولذلك ارتكب الفرنجة العديد من المذابح لتهجير السكان لتوسيع مساحة الأرض المملوكة لهم لاحلال المستوطنين فيها.

٣- شكلت القلاع نقاطاً متقدمة لعمليات الهجوم علي العالم الإسلامي بهدف السيطرة على أملاكهم، وفي الوقت نفسه كانت خطوط دفاعية متأخرة.

٤- كانت القلعة عبارة عن كيان مستقل قائم بذاته، وتحتوي على أماكن للسكن فيها، ووحدات لاقامة الجيش. وحولها أراض زراعية لاستغلالها. وتشتمل أيضاً على كل الخدمات العامة كالأسواق والحدائق ومخازن الطعام والاسطبلات لاقامة الجياد والخيول وغيرها.

٥- مثلت القلاع في فترة لاحقة لبداية الغزو الفرنجي محطات للمواصلات والاتصالات، ووظفت مواقعها كمراكز للمراقبة في حالة الحرب والسلم.

٦- أصبحت القلاع مركز استقطاب للمهاجرين الأوروبين ومواقع نفوذ للسلطة السياسية الحاكمة، ولذلك لم تشارك أي منها في أي تمرد أو حرب ضد السلطة الحاكمة.

٧- مارست القلاع وظائف عديدة مرتبطة بالأهداف العسكرية، لاسيما وأن هذه القلاع كانت في معظمها في الفترة اللاحقة لبنائها تتبع لجماعات الفرسان الاسبتارية والداوية. وأوكلت لهم مهمة الدفاع عنها.

٨- ونظراً لأهمية القلاع والحصون في الصراع العسكري الإسلامي - الفرنجي فقد قام صلاح الدين ومن بعده السلطان الظاهر بيبرس بتدمير بعض القلاع التي تم تحريرها، وخاصة الساحلية منها، وذلك لمنع الفرنج من اعادة تهديد التواجد الإسلامي مرة أخرى فيما لو أعادوا احتلالها. وبالمقابل قاموا باعادة ترميم الحصون والقلاع الداخلية الأخرى لمواجهة التطورات العسكرية.

٩- ان الأساس الذي قامت عليه القلاع في توسيع رقعتها وسيطرتها على الأرض، دفع لأن يكون الحضور الشعبي قوياً ومشاركاً بفاعلية في تحرير القلاع، في فترة صلاح الدين ثم الظاهر بيبرس، وبأشكال مختلفة من المساعدة المادية والبشرية. وكانت المشاركة من جميع الفئات الاجتماعية من علماء ورجال دين وفقهاء وحرفيين وفلاحين، كما كان حضور المرأة في معظم تلك الوقائع.

١٠- اتبع كل من السلطان صلاح الدين والظاهر بيبرس استراتيجية متشابهة الى حد ما في تعاملهم مع مملكة بيت المقدس، وخاصة فيما يتعلق باستراتيجية تحرير القلاع. فقد ركز كل منها على مهاجمة القلاع الصغيرة نسبياً وغير القوية. وانطلاق كل منهما لمهاجمة القلاع التي يمكن أن يأتي اليها المدد والعون بسرعة،

وخاصة القلاع الساحلية ماعدا القريبة من عكا. أما القلاع الداخلية فكانت مرحلة متأخرة.

١١- إن بناء الفرنج للقلاع جاء وبشكل نهائي لإضفاء صفة الشرعية على الوجود الفرنجي في فلسطين استناداً الى مرجعية دينية وسياسية، واستندت في تنفيذها بالأغراض والوسائل العسكرية.

١٢- من خلال العلاقات التي ربطت المسلمين بالفرنج في فلسطين منذ مجيئهم اليها، فقد كانت الصفة العدائية هي الطابع المميز في معظم الأوقات، وحتى في الفترات التي وقعوا فيها معاهدات لم يكن الفرنج يحترمون تلك المعاهدات منذ أن وطئت اقدامهم أرض فلسطين، ولهذا فليس غريباً أن لايحترم المسلمون بعض المعاهدات مع الفرنج.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية المطبوعة :

١- ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبدالكريم الشيباني (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٣م) : الكامل في التاريخ ١٢مج، بيروت : دار صادر، ١٩٦٦.

٢-الأدريسي، أبي عبدالله محمد بن عبدالله (ت ٥٦٠هـ/١١٦٤م). نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مجلدان. بيروت : عالم الكتب، ط١، ١٩٨٩م.

٣-الأصفهاني، أبو عبدالله محمد بن صفي الدين بن أبي الفرج محمد بن هبة الله (ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م).

- الفتح القسي في الفتح القدسي. تحقيق وتقديم : محمد محمود صبح، القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر. د.ت.

- البرق الشامي، الجزء الثالث تحقيق وتقديم : مصطفى الحياري. الجزء الخامس : تحقيق وتقديم : فالح حسين. عمان : مؤسسة عبدالحميد شومان، ط١، ١٩٨٧م.

٤-إبن اياس، أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفي (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٤م). بدائع الزهور في وقائع الدهور. (٥) أجزاء. تحقيق : محمد مصطفى، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٨٤م.

٥-ابن أيبك الدوداري. أبو بكر عبدالله. (توفي بعد ٧٣٦هـ/١٣٣٥م). كنز الدرر وجامع الغرر «الدر المطلوب في أخبار بني أيوب» تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور. القاهرة : المعهد الألماني للآثار، ١٩٧٢م.

٦-البنداري، قوام الدين الفتح بن علي بن محمد الأصفهاني. (ت ٦٤٣هـ/١٢٤٥م). تاريخ دولة آل سلجوق. بيروت : دار الآفاق الجديدة، ط٢، ١٩٧٨م.

- سنا البرق الشامي، اختصره من كتاب «البرق الشامي للعماد الأصفهاني». تحقيق فتحية النبراوي، القاهرة : مكتبة الخانجي، ١٩٧٩.

٧-ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف. (ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م).
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. ١٦ جزء. القاهرة : المؤسسة العامة للترجمة والطباعة والنشر، د.ت.

٨-ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد الكتامي الأندلسي، (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م). الرحلة. بيروت : دار صادر، ١٩٦٤م.

٩-ابن الجوزي : أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد القرشي البغدادي (ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. ٧ أجزاء تحقيق : محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبدالقادر عطا. بيروت : دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٢.

١٠-الحريري : أحمد بن علي بن أحمد (ت ٩٢٦هـ/١٥١٩م). الاعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين. تحقيق : سهل زكار. دمشق : مكتبة دار الملاح، ١٩٨١م.

١١-الحسيني، صدر الدين أبو الحسن علي بن ناصر (ت ٦٢٢هـ/١٢٢٥م). زبدة التواريخ «أخبار الأمراء والملوك السلجوقية». تحقيق : محمد نور الدين. بيروت : دار اقرأ للنشر، ط٢، ١٩٨٦م.

١٢-الحموي، شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) معجم البلدان، تحقيق : فريد عبدالعزيز الجندي، (٥) أجزاء. بيروت : دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٠م.

١٣-الحنبلي، أبو الفلاح عبدالحي بن أحمد بن محمد الدمشقي (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م). شذرات الذهب في أخبار من ذهب. (٨) أجزاء. بيروت : المكتب التجاري للطباعة والنشر، د.ت.

١٤-خسرو، أبو معين الدين ناصر القبادياني : سفرنامه المعروفه باسم رحلة ناصر خسرو »، ترجمة : أحمد خالد. الرياض : جامعة الملك سعود، ١٩٨٣م.

١٥-ابن خلدون : ولي الدين أبو زيد عبدالرحمن بن محمد بن محمد الحضرمي الأشبيلي (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م). تاريخ ابن خلدون المعروف باسم «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (٧مجلدات). بيروت : دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٢م.

١٦-ابن دقماق، صارم الدين بن محمد بن أيدمر العلائي (٨٠٩هـ/١٤٦م). الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين. تحقيق : محمد كمال الدين، بيروت: عالم الكتب، ط١، ١٩٨٥م.

١٧-سبط بن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي (ت٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م).

- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان.

- الحوادث الخاصة بتاريخ السلاجقة بين السنوات (٤٤٨-٤٨٠هـ/ ١٠٥٦-١٠٨٦م). نشر ومراجعه : علي سويم. انقره : الجمعية التركية. ١٩٦٨م.

- الحوادث الخاصة ما بين السنوات (٤٩٥-٥٨٩هـ/١١٠٢-١١٩٣م). ق١ ج٨، حيدر أباد : مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ط١، ١٩٥١م.

١٨-السيوطي. جلال الدين أبو الفضل عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م). كشف الصلصله بوصف الزلزلة. تحقيق : عبدالرحمن الفريوائي. المدينة المنورة : مكتبة الدار، ط١، ١٩٨٤م.

١٩-أبوشامه، شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل بن عثمان المقدسي. (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٧م).

-الروضتين في أخبار الدولتين «النوريه والصلاحية» تحقيق : محمد حلمي. القاهرة : المؤسسة المصرية للترجمة والنشر والتأليف، ١٩٦٢م.

- عيون الروضتين في أخبار الدولتين. تحقيق : أحمد البسومي، دمشق : وزارة الثقافة ١٩٩١-١٩٩٢م.

- **تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجريين» المعروف بالذيل على** الروضتين» تحقيق : محمد الكوثري. بيروت : دار الجيل، ط٢، ١٩٧٤م.
٢٠-ابن شاهنشاه الأيوبي : محمد بن تقي الدين عمر (ت ٦١٧هـ/١٢٢٠م). مضمار الحقائق وسر الخلائق. تحقيق : حسن حبشي. القاهرة : عالم الكتب ١٩٧٨م.
٢١-ابن شاهين الظاهري : غرس الدين خليل (ت ٧٨٣هـ-١٤٧٧م). زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك. صححه : بولس روايس. باريس : المطبعة الجمهورية، ١٨٩٥م.
٢٢-ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم. (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م). النوادر السلطانية والمحاسن اليوسطية «أوسيره صلاح الدين». تحقيق : جمال الدين الشيال. القاهرة : الدار المصرية للتأليف والنشر والترجمة، ط١، ١٩٦٤م.
٢٣-ابن شداد، عزالدين أبو عبدالله محمد بن علي بن ابراهيم (ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م).
- تاريخ الملك الظاهر. تحقيق : أحمد حطيط. فسبادن : فرانز شتايز ١٩٨٣م.
- الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة (تاريخ لبنان والأردن وفلسطين) (٣) أجزاء تحقيق : سامي الدهان، دمشق : المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٦٢م.
٢٤- شيخ الربوه ، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي (ت ٧٢٧هـ/١٣٢٧م)، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر. ليبزغ: أوتوهاروفيتز، ١٩٢٣م.
٢٥-صالح بن علي، سيف الدين يحيى بن الحسين بن أمير الغرب (ت القرن ٩هـ/١٥م). تاريخ بيروت المسمى «أخبار السلف من ذرية بحتر بن علي أمير الغرب ببيروت»، تحقيق : فرنسيس هورس اليسوعي، كمال

الصليبي، بيروت : دار المشرق، ١٩٦٩م.
٢٦-الطرسوسي، مرضي بن علي بن مرضي الانصاري (ت ٥٨٩هـ/١١٩٣م). تبصرة الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسوار. تحقيق : كلود كاهن بيروت : مجلة الدراسات الشرقية (B.D.O) ع١٢، ١٩٤٨م.
٢٧-ابن طولون، محمد بن علي بن محمد الدمشقي الصالحي (ت ٩٥٣هـ/١٥٤٨م). اعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق : محمد أحمد دهمان، دمشق : دار الفكر، ط٢، ١٩٨٤م.
٢٨-ابن عبدالظاهر، محيي الدين أبو الفضل عبدالله بن رشيد الدين (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٣م). الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر. تحقيق : عبدالعزيز الخويطر، الرياض : د.ت، ط١، ١٩٧٦م.
٢٩-ابن العبري، أبو الفرج جمال الدين، بن الشماس بن تاج الدين الملطي. (ت ٦٨٦هـ/١٢٨٦م). تاريخ الزمان. ترجمة : إسحاق أرملة. بيروت : دار المشرق، ١٩٨٦م.
٣٠-العثماني، صدر الدين محمد بن عبدالرحمن (ت.٧٨٠هـ/١٣٧٥م). قطعة من تاريخ صفد، نشر : برنارد لويس، مجلة المدرسة البريطانية للدراسات الأفريقية والشرقية B.S.O.A.S لندن، م١٥، ١٩٥٣م.
٣١-ابن العديم. كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت ٦٦٠هـ/١٢٦٢م). زبدة الحلب في تاريخ حلب. (٣) أجزاء. تحقيق : سامي الدهان، دمشق المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٥٤م.
٣٢-العمري، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن فضل الله. (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م). مسالك الأبصار في ممالك الأمصار.
- دولة المماليك الأولى. تحقيق : دوروتيا كرافولسكي. بيروت : المركز الإسلامي للبحوث، ط١، ١٩٨٦م.
- ممالك مصر والشام والحجاز واليمن، تحقيق : أيمن فؤاد السيد. القاهرة :

المعهد الفرنسي للآثار الشرقية. ١٩٨٥م.

٣٣-العيني، بدر الدين أبو محمد بن أحمد بن حسين بن يوسف بن موسى (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م). عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان. عصر سلاطين المماليك. حوادث وتراجم (من ٦٤٨-٦٦٤هـ/١٢٥٠-١٢٦٥م)، (٦٦٥-٦٨٨هـ/١٢٦٦- ١٢٨٩م). تحقيق محمد محمد أمين : القاهرة : الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٧، ١٩٨٨م.

٣٤-ابن العميد، جرجس بن العميد أبي الياس بن أبي المكارم (ت بعد ٦٧٢هـ/١٢٧٣م). أخبار الأيوبيين. تحقيق : كلود كاهن. دمشق : مجلة المعهد العلمي، ج٧، ١٩٥٨م.

٣٥-الغساني، الملك الأشرف عماد الدين أبو العباس اسماعيل بن علي (ت ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م). العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، جزآن، تحقيق : شاكر محمود عبدالمنعم، بغداد : دار البيان، د.ت. بيروت : دار التراث الإسلامي، ١٩٧٥م.

٣٦-أبوالفدا. الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن الأفضل بن نورالدين بن عمربن شاهنشاه بن أيوب «صاحب حماه». (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م). المختصر في أخبار البشر. (٤) أجزاء في مجلدين. القاهرة : المطبعة الحسينية (د.ت).

٣٧-ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم بن علي بن أحمد. (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٥م). تاريخ الدول والملوك أو تاريخ ابن الفرات المعروف باسم : الطريق الواضح المسلوك الى معرفة تراجم الخلفاء والملوك. المجلد الرابع (الجزء الأول والجزء الثاني). المجلد الخامس (الجزء الأول). تحقيق : حسن الشماع. البصره، ١٩٧٠م، ١٩٧٩م. المجلد السابع : تحقيق، قسطنطين زريق. بيروت : جامعة بيروت الأمريكية، ١٩٤٢م.

٣٨- Ayyubids, Mamlukes and Crusaders. Selection From The TarikhAl-Duwal. Wal-Muluk. of Ibn Al-Furat. 2, Vols. Text and Translation by U. and M.C., Lyons. University of Cambridge, Historical Introduction by J. Raly Smith. University of St Andrews. 1971.

٣٩-الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ/١٤١٤م). القاموس المحيط. تحقيق : مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة. بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٤، ١٩٩٤م.

٤٠-القرماني، أحمد بن يوسف (ت١٠١٩هـ/١٦١٠م) أخبار الدول وآثارالأول، دراسة وتحقيق أحمد حطيط، فهمي سعد، م٢، بيروت: عالم الكتب، ط١، ١٩٩٢.

٤١-ابن القلانسي، أبو يعلي حمزه بن اسد بن علي بن محمد التميمي (ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م). تاريخ دمشق المعروف بذيل تاريخ دمشق. (٣٦٠-٥٥٥هـ). تحقيق : سهيل زكار. دمشق : دار حسان، ط١، ١٩٨٣م.

٤٢-القلقشندي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد (ت٨٢١هـ/١٤١٨م). صبح الأعشى في صناعة الإنشا. ١٤ جزء. شرحه وعلق عليه : محمد حسين شمس الدين. بيروت : دار الفكر ودار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٧م.

٤٣-الكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد بن عبدالرحمن بن هارون الحلبي (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م). عيون التواريخ، تحقيق : فيصل السامر، ونبيلة عبدالمنعم داوود. بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٨٠م.

٤٤-ابن كثير، عماد الدين أبوالفدا اسماعيل بن عمر القرشي، (ت ٧٧٤هـ/١٢٧٣م). البداية والنهاية في التاريخ (٧)مجلدات في (١٤) جزء. تحقيق : أحمد بو ملحم وآخرون. بيروت : دار الكتب العلمية، ط٣، ١٩٨٣م.

٤٥-ابن كنان، محمد بن عيسى بن محمود بن محمد (ت ١١٥٣هـ/١٧٤٠م).
حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين. تحقيق : عباس صباغ، بيروت : دار النفائس، ط١، ١٩٩١م.
٤٦-المقدسي البشاري، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد الشامي، (ت ٣٩٠هـ/٩٩٩م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. ليدن : مطبعة بريل، ط٢، ١٩٦٧م.
٤٧-المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م).
- السلوك لمعرفة دول الملوك، (٤) أجزاء صححه ووضع حواشيه : محمد مصطفى زياده. القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والنشر، ط٢، ١٩٥٦م.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. مجلدين. القاهرة : مطبعة بولاق، ١٨٥٣م.
- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء. (٣) أجزاء، تحقيق : جمال الدين الشيال، القاهرة : لجنة أحياء التراث الإسلامي، ١٩٦٧م.
٤٨-المنصوري، ركن الدين بيبرس بن عبدالله الناصري (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٥م).
- التحفة الملوكية في الدولة التركية. نشره وقدم له : عبدالحميد صالح حمدان، القاهرة : الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٩٨٧م.
- مختار الأخبار «تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية». تحقيق : عبدالحميد صالح حمدان، القاهرة : الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٩٩٣م.
٤٩-ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. (ت ٧١١هـ/١٣١١م).
لسان العرب. (٣) مجلدات. بيروت : دار لسان العرب، د.ت.
٥٠-ابن منقد، مؤيد الدولة أبو المظفر اسامة بن مرشد (ت ٥٨٤هـ/١١٨٨م).
الاعتبار. تحرير : فيليب حتى. برنستون : جامعة برنستون، ١٩٣٠م.

٥١-ابن منكلي، جلال الدين بن نظام الدين بن يوغا القاهري المصري (ت ٧٨٤هـ/١٣٨٢م). الأدلة الرسمية في التعالي الحربية. تحقيق : محمود شيت الخطاب، بغداد : المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٨م.
٥٢-ابن نظيف الحموي. أبو الفضائل محمد بن علي (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) . التاريخ المنصوري المعروف بـ «تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان» نشر وتحقيق : أبو العيد دودو. دمشق : مطبعة الحجاز، ١٩٨١م.
٥٣-أبو الهيجاء (ت٥٨٩هـ/١١٩٢م)، تاريخ أبي الهيجاء، مخطوطه رقم ١٣٨٥٣. جامعة اليرموك، عدد الورقات ٢٠٥ ورقه.
٥٤-ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم الحموي. (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م). مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، (٥) أجزاء، ١-٣ تحقيق : جمال الدين الشيال، القاهرة : ١٩٥٣-١٩٦٠. ج٤-٥ تحقيق : حسنين محمد ربيع، القاهرة ١٩٧٢-١٩٧٧.
٥٥-ابن الوردي، ابو حفص زين الدين عمر بن مظفر بن عمر. (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م). تتمة المختصر في أخبار البشر. تاريخ بن الوردي». تحقيق : أحمد رفعت البدرواي. بيروت : دار المعرفة الجامعية، ط١، ١٩٧٠م.
٥٦-اليونيني، قطب الدين بن موسى بن محمد بن أحمد البعلبكي (ت ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م). ذيل مرآة الزمان. مجلدان. حيدر أباد : مطبعه دائرة المعارف العثمانية ١٩٥٤-١٩٥٥م.

ثانياً: المصادر الأجنبية

أ- المعربة:

١- التطيلي، بنيامين بن بونه
رحلة بنيامين التطيلي (١١٦٣-١١٧١م). ترجمة : عزرا حداد، بغداد : المطبعة الوطنية، ط١، ١٩٤٥.

٢- بورشارد من دير جبل صهيون.
وصف الأرض المقدسة، ترجمة : سعيد البيشاوي، عمان : دار الشروق للطباعة والنشر، ط١، ١٩٩٥م.

٣- جوانفيل، جان دي
مذكرات جوانفيل (القديس لويس : حياته وحملاته على مصر والشام)، ترجمة : حسن حبشي، القاهرة : دار المعارف، ط١، ١٩٦٨م.

٤- الراهب، دانيال.
رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب في الأراضي المقدسة (١١٠٦-١١٠٧م). ترجمة : سعيد البيشاوي وداوود أبو هدبه، عمان : د.ن، ط١، ١٩٩٢م.

٥- ريموندااجيل
تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس. ترجمة : حسين محمد عطية، الاسكندرية : دار المعرفة الجامعية، ط١، ١٩٩٠م.

٦- الشارتري، فوشيه
تاريخ الحملة الى القدس (١٠٩٥-١١٢٧). ترجمة : زياد العسلي، عمان : دار الشروق، ط١، ١٩٩م.

٧- الصوري، وليم
تاريخ الحروب الصليبية (الأعمال المنجزة فيما وراء البحار) ٤ أجزاء

ترجمة : حسن حبشي. القاهرة : الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٢م.

٨- مجهول

أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس. ترجمة : حسن حبشي. القاهرة : دار الفكر العربي، ١٩٥٨.

٩- مجهول

الحملتان الصليبيتان الأولى والثانية، وقع ضمن كتاب «الحروب الصليبية»، ترجمة : سهيل زكار، دمشق : دار حسان للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٤م.

١٠- مجهول

تتمة كتاب وليم الصوري والمنسوب خطأ الى روثلان، ترجمة : أسامه زكي زيد. القاهرة : مركز الدلتا للطباعة، ١٩٨٩م.

ب- المصادر الأجنبية الغير معربة

1- Ambroise, The Crusade of Richard Lion Heart. Tr : M.J.Hubert, New York, 1941.

2- Anonymous pilgrims (11 and 12th Centuries) Tr: Aubrey Stewart. In: P.P.T.S. Vol : VI . London, 1897.

3- Christion Society and Crusades (1198-1229) Tans . from capture of Damietta by oliver of Paderborn. by. John, gavigan Philadelphia, 1971.

4- Fleix Fabri :

The Book of the wanderings of Brother Felix Fabri. In : P.P.T.S. Vol. X, New York, 1895.

5- Fetellus :

Descriptions of Jerusalem and the Holy Land, In : P.P.T.S. Vol, V,

London, 1892.

6- Jacques de Vitry :

The History of Jerusalem. In : P.P.T.S. Vol, XI, London, 1896.

7- Johne Phocas :

The Pilgrimage of Jhone phocas in the Holy Land. In : P.P.T.S, London, 1896.

8- Jhone Poloners :

Description of the Holly Land. In : P.P.T.S. Vol, VI, London 1894.

9- Johne of Wurzburg :

Description of Holly Land. Tr : C.W. Wilson. In : P.P.T.S. Vol, V, London, 1890.

10- Saewulf :

The pilgrimage of Saewulf to Jerusalem, In : P.P.T.S. Vol, IV, London, 1896.

11- Theodrich :

Theodrichs Description of Holy Land. Tr : Aubery Stewart, In : P.P.T.S, Vol, V, London, 1897.

ثالثاً: المراجع العربية

١- الباشا، حسن

الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، القاهرة : دار النهضة العربية، ١٩٦٩.

٢- البقلي، محمد قنديل

التعريف بمصطلحات صبح الأعشى. القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣.

٣- البيشاوي، سعيد

- الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس اللاتينية (٤٩٢-٦٩٠هـ/ ١٠٩٩-١٢٩١م). الاسكندرية : دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩م.

- نابلس : الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية خلال الحروب الصليبية (٤٩٢-٦٩٠هـ/١٠٩٩-١٢٩١م). عمان : د.ن، ١٩٩٠م.

٤- جاسر، شفيق

القدس تحت حكم الصليبيين ودور صلاح الدين في تحريرها، المدينة المنورة: مكتبة الدعوة، ط١، ١٩٨٩.

٥- جميعان، ميخائيل

المؤثرات الثقافية الشرقية على الحضارة الغربية من خلال الحروب الصليبية. د.م : د.ن، د.ت

٦- حبشي، حسن

الحملة الصليبية الأولى، القاهرة : الدار القومية، ١٩٥٨م.

٧- حسين، عبدالوهاب

تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي المقدسة، القاهرة : دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩م.

٨- الحلاق، حسن

العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى «الأندلس، صقلية الشام. بيروت : الدار الجامعية، ١٩٨٦م.

٩- الحياري، مصطفى

- صلاح الدين، «القائد وعصره»، بيروت : دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٤م.

- مدينة القدس في زمن الفاطميين والفرنجة، عمان : مكتبة عمان، ١٩٩٤م.

١٠- الخطيب، مصطفى

معجم المصطلحات والألفاظ التاريخية، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٦.

١١- الدباغ، مصطفى

بلادنا فلسطين، بيروت : دار الطليعة، ط١، ١٩٦٥م، ط٢، ١٩٧٣م.

١٢- الدومنكي، مرمرجي

بلدانية فلسطين العربية، بيروت : عالم الكتب، ط١، ١٩٨٧م.

١٣- رمضان، عبدالعظيم

الصراع بين العرب وأوروبا «من ظهور الإسلام الى انتهاء الحروب الصليبية». القاهرة : مطبعة دائرة المعارف، ١٩٨٣م.

١٤- زكار، سهيل

مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية. دمشق : دار الفكر، ط٣، ١٩٧٥م.

١٥- سابق، سيد

فقه السنة، ٣ أجزاء. بيروت : دار الكتاب العربي، ١٩٧٧م.

١٦- الساريسي، عمر

نصوص من أدب الحروب الصليبية، جده : دار المناره، ط١، ١٩٨٥.

١٧- سعداوي، نطير حسان. جيش مصر في أيام صلاح الدين. القاهرة : مكتبة النهضة المصرية، ط٢، ١٩٥٩م.

١٨- سيد، أيمن فؤاد
الدولة الفاطمية في مصر «تفسير جديد، القاهرة : الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٩٩٢م.
١٩- الشاعر : محمد فتحي
أحوال المسلمين في مملكة بيت المقدس الصليبية (١٠٩٩-١١٨٧م). بغداد: دار الاتفاق، ١٩٨٩م.
٢٠- شبارو، عصام
السلاطين في المشرق العربي «السلاجقة - الأيوبيون» (٤٤٧-٦٤٨هـ/ ١٠٥٥-١٢٥٠م) بيروت : دار التضامن، ١٩٩٤م.
٢١- شراب، محمد
معجم بلدان فلسطين. بيروت ودمشق : دار المأمون للتراث، ط١، ١٩٨٧.
٢٢- شعبان، محمد عبدالحي
الدولة العباسية «الفاطميون»، بيروت : الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٦م.
٢٣- الصاوي، أحمد السيد
مجاعات مصر الفاطمية، بيروت : دار التضامن، ط١، ١٩٨٨م.
٢٤- العابدي، محمود
القصور الأموية. عمان : الشركة الصناعية، ١٩٥٨م.
٢٥- عاشور، سعيد عبدالفتاح
- الحركة الصليبية «صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى. القاهرة : مكتبة الأنلجو - مصرية، ١٩٧٦، ١٩٧٨م.
- أوروبا في العصور الوسطى. جزآن، القاهرة : مكتبة الأنجلو، مصرية، ١٩٨٠.
٢٦- العبادي، أحمد مختار
قيام دولة المماليك في مصر والشام. بيروت : دار النهضة العربية، ١٩٨٦م.

٢٧- العسلي، بسام
فن الحرب الإسلامي أيام الحروب الصليبية، ٤ مجلدات. بيروت : دار الفكر، ط١، ١٩٨٨م.
٢٨- عطية، عزيز سوريال
الحروب الصليبية وتأثيرها بين الشرق والغرب. بيروت:: دار الثقافة، ط٢،(د.ت).
٢٩- علي، عبد الحفيظ محمد
مشكلات الوراثة في مملكة بيت المقدس وأثرها على تاريخ الحركة الصليبية، بيروت : دار النهضة العربية، ط١، ١٩٨٤م.
٣٠- عوض، محمد مؤنس
الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية (١٠٩٩-١١٨٧م). القاهرة : مكتبة مدبولي، ط١، ١٩٩٢م.
٣١- أبو العينين، حسن
لبنان : دراسة في الجغرافيا الطبيعية، بيروت : دار النضهة العربية، ١٩٨٠م.
٣٢- غوانمه، يوسف
- إمارة الكرك الأيوبية. عمان : دار الفكر، ط٢، ١٩٨٢.
- دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين. عمان : دار الفكر، ١٩٨٣م.
٣٣- الكيلاني، ماجد عرسان
هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، جده : الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨٥م.
٣٤- ماجد، عبدالمنعم.
الناصر صلاح الدين الأيوبي. القاهرة : مكتبة الأنلجو - مصرية، ١٩٥٨م.
٣٥- المومني، سعد
القلاع الإسلامية في الأردن «الفترة الأيوبية المملوكية». عمان : دار البشير، ط١، ١٩٨٨م.

٣٦- نسيم، جوزيف
الوحدة وحركات اليقظة العربية أبان العدوان الصليبي. بيروت : دار النهضة العربية، ١٩٨١.
٣٧- نوار، صلاح الدين
العدوان الصليبي على العالم الإسلامي (٤٩٠-٥١٥/١٠٩٧-١١٢١م) الاسكندرية : دار الدعوة، ط١، ١٩٩٣م.
٣٨- النقاش، زكي
العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية.، بيروت : دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٨.
٣٩- يوسف، ارشيد
سلاجقة الشام والجزيرة (٤٣٥-٥٧٠هـ). عمان : د.ت، ١٩٨٨م.

رابعاً: المراجع الأجنبية:

أ- المعربة:

١- ايليسييف، نيكيتا

الشرق الإسلامي في العصر الوسيط. ترجمة : منصور أبو الحسن، بيروت : دار الكتاب الحديث، ١٩٨٦م.

٢- باركر، ارنست

الحروب الصليبية، ترجمة : سيد الباز العريني، بيروت : دار النهضة، ط٤، (د.ت).

٣- باور وآخرون

دائرة المعارف الاسلامية. ترجمة : ابراهيم خورشيد وآخرون. القاهرة : دار الشعب، (د.ت).

٤- بردج، أنتوني

تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة : أحمد غسان سبانو، نبيل الجيرودي، دمشق : دار قتيبة، ١٩٨٥م.

٥- جب، هاملتون

«دراسات في التاريخ الإسلامي، حررها : يوسف أبيش، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٣.

٦- جونز، أرنولد.

مدن بلاد الشام حين كانت ولاية رومانية. ترجمة إحسان عباس، عمان : دار الشروق، ط١، ١٩٧٧م.

٧- داهموس، جوزيف

سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى. ترجمة : محمد فتحي الشاعر. القاهرة : الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٧م.

٨- رنسيمان، ستيفن
تاريخ الحروب الصليبية (٣) أجزاء. ترجمة : السيد الباز العريني، بيروت : دار الثقافة، ١٩٨٠م.
٩- زابوروف، ميخائيل
الصليبيون في الشرق، ترجمة : الياس شاهين، موسكو : دار التقدم، ١٩٨٦م.
١٠- سترانج، لي
فلسطين في العهد الإسلامي. ترجمة : محمود عمايره، عمان: جمعية عمال المطابع، ط١، ١٩٧٠م.
١١- ستيفنسن، كارل :
الاقطاع في العصور الوسطى. ترجمة : محمد فتحي الشاعر، القاهرة : دار المعارف. (د.ت).
١٢- سميث، جوناثان رالي
الاسبتارية «فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص (١٠٥٠- ١٣١٠م) ترجمة : صبحي الجابي، دمشق : دار طلاس للدراسات والطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٩م.
١٣- سميل. ر.سي
الحروب الصليبية : ترجمة : سامي هاشم، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٨٢م.
١٤-شاوندر، البير
صلاح الدين الأيوبي «البطل الأنقى في الاسلام» ترجمة : سعيد أبو الحسن، دمشق: دار طلاس للنشر والترجمة، ط٢، ١٩٩٣م.
١٥- شوفيل، جنفياف
صلاح الدين «بطل الاسلام». ترجمة : جورج أبي صالح، بيروت : دار الأميرة ١٩٩١م.

١٦- كاهن، كلود

الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة : أحمد الشيخ، القاهرة : سينا للنشر، ط١، ١٩٩٥م.

١٧- لامب، هارولد

شعلة الإسلام «قصة الحروب الصليبية». ترجمة محمود يعقوب، بغداد: دار المتنبي، ١٩٦٧م.

١٨- لين بول، ستانلي

صلاح الدين وسقوط مملكة بيت المقدس. ترجمة : فاروق سعد أبو جابر القاهرة : مطابع الأهرام التجارية، ط١، ١٩٩٥م.

١٩- ماير، هانز

تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة : عماد الدين غانم، طرابلس الغرب : مجمع الفاتح، ١٩٩٠م.

٢٠- مكسيموس، مونرود

تاريخ الحروب المقدسة في المشرق المدعوة حرب الصليب، مجلدان، ترجمة : مكسيموس مظلوم، القدس : مطبعة دير الرهبان الفرنسيسكان، ١٨٦٥م.

٢١- مولر، فولفغانغ، فينر

القلاع أيام الحروب الصليبية. ترجمة : محمد وليد الجلاد. دمشق : دار الفكر، ط٢، ١٩٨٤م.

٢٢- موير، وليم

تاريخ دولة المماليك في مصر. ترجمة : محمود عابدين، سليم حسن، القاهرة : مكتبة مدبولي، ط١، ١٩٩٥م.

٢٣- نيوباي، ف. هـ

صلاح الدين وعصره. ترجمة : ممدوح عدوان، دمشق : دار الجندي، ط١، ١٩٩٣م.

٢٤- هايد. ف

تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، جزآن، ترجمة : أحمد محمود رضا. القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م.

٢٥- ويستنفلد، ف

جدول السنين الهجرية بما يوافقها من السنين الميلادية بايامها وشهورها، ترجمة: عبد المنعم ماجد وعبد المحسن رمضان. القاهرة: مكتبة الأنجلو مصرية، (د.ت).

ب- غير المعربة

1- Addison, G :
The History of Knight Templers, Longman, London, 1842.

2- Benvensiti. M :
The Crusaders in the Holyland, Jerusalem, 1970.

3- Bernard , H :
The Latin Church of the Crusaders States, London, 1980.

4- Beyer, G:
Die Kreuz fahrer gebiete Akko und Galilaea in : Z.D.P.V. LXVII, 1944-5.

5- Boase. T.S.R
- Kingdoms and Strongholds of the Crusaders, Londong, 1971.
- Castles and churches of the Crusading kingdom, London, 1967.

6- BradFord, E :
The Sword and the Scimitar (The saga of the Crusades) Milan, 1974.

7- Brown, A.R :
- The Architecture of Castles, London, 1984.
- Castles from the Air, cambridge, 1989.

8- Combridge History of Islam Vol, A "campridge, London, 1970".

9- Cathcart, K. D.J:
The Castles in England and Wales, London, Sydney, 1988.

10- Carleton, D :
The Kingdom of the Crusaders, New York, 1966.

11- Deschamps, P :
Les Chateaux des Croises on Terre-Sainte "La Defense du Royame de Jerusalem, 2 Vols, Paris, 1939.

12- Erbstosser, M :
The Crusades, London, 1978.

13- Fedden. R :
Syria "An Historical Appreciation", London 1946.

14- Fedden. R, thombson. J :
Crusader Castles, London, 1957.

15- Fletchers, Sir, b :
A History of Architecture, 18ed, London, 1975.

16- Glub. Sir, J :
Soldiers of Fortune "The story of Mamlukes". New York, 1973.

17- Grosset, R :
Historie des Croisades, 3 vols, Paris, 1948.

18- Humphrys, S :
From Saladin to the Mongols "The ayyubids of Damascus 1193-1260". Albany, 1977.

19- Issawi, Ch.
The Arab World Legacy, Princeton, 1981.

20- King . E. J.
Knight Hospitalers in the Holyland, London, 1st. ed. 1931.

21- Lawrence. C.H :
Medieval Monasticism (A new Kind of Knighthood), London, New York, 1984.
22- Lawrence. T.E.
Crusader Castles. London. 1992.
23- Oldenberg. Z. :
The Crusades. New York, 1965.
24- Pernoud. R
The Crusaders, London, Edinberch, 1963.
25- Prawer. J :
- The Latin Kingdom of Jerusalem, Jerusalem, 1972.
- The world of the Crusades, Jerusalem, 1972.
- Historie Du royaume Latin De Jerusalem, 2 vols, 2n ed, Paris, 1975.
26- Regan, G:
Saladin and the fall of Jerusalem, 1987.
27- Rey.E.:
Les Colonies Franques en Syrie aux XII. Siecles, Paris, 1883.
28- Richard. J :
The Latin Kingdom of Jerusalem, 2 vols. Amsterdam, New York, Oxford, 1979.
29- Robinson, E. Smith, Eli and others
Bibical Researches in Palestine and Ajacent Regions (1838-1852), 3 Vols, 2nd ed, London, 1856.
30- Sire. H.J.A :
The Knights of Malta, London, New haven, 1994.
31- Smail, R. C :
The Crusaders in Syria and the Holyland, Southampton, 1973.

32- Smith, J.R.

What were the Crusades ? 2nd ed, Londong, 1992.

33- Stevenson, W.B:

The Crusaders in the East, London, 1907.

34- Strong. C. F :

The World of the Middle Ages, London, 1964.

35- Trace, H

The Crusades, London, 1962.

36- Tristram. H.B.

Journal of Travels in Palestine, London, 1865.

37- Wize, T

The Wars of the Crusades (1096-1291), London, 1978.

خامساً: الموسوعات

أ- العربية:

١- موسوعة الحضارة العربية (٣) مجلدات، تأليف مجموعة من الباحثين، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٨٧م.

٢- الموسوعة العربية الميسرة. تأليف مجموعة من الباحثين. اشراف : محمد شفيق غربال : القاهرة : دار الشعب. ١٩٦٥م.

٣- موسوعة العمارة الاسلامية، بيروت : جروس برس، ط١، ١٩٨٨م.

٤- الموسوعة الفقهية: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، جزآن، القاهرة: دار الصفوة للطباعة والنشر، ١٩٩٢.

٥- الموسوعة الفلسطنية : تأليف مجموعة من الباحثين (٦) مجلدات بيروت : هيئة الموسوعة الفلسطينية، ط١، ١٩٩٠م.

ب- الأجنبية:

5- The Encyclopedia of Americana (E.A.) Crolier Coopatation Danbury, 1986.

6- The Encyclopedia of Islam (E,I) Edited by : B.Lewis and others. Liden : E.T.Brill, , 1978.

7- The New Encyclopedia of Britanica - Edited by : Philip W.Goets. 15 ed, 1990.

8- The world book Encyclopedia Dictionary, Dauble day and company, U.S.A. 1963.

سادساً: المقالات والدوريات

أ- العربية :

١- البحيري، صلاح الدين

«المخابرات الأيوبية في مواجهة الصليبيين» المؤرخ العربي، ع ٤١، ٤٢، بغداد، ١٩٩٠م.

٢- الحجي، حياة ناصر

«العلاقات بين دولة المماليك ودولة مغول القبجاق في الفترة ما بين (٦٥٨-٧٤١هـ/١٢٦٠-١٣٤١م)، مجلة حولية كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية الثانية، الكويت، ١٩٨١م.

٣- الحسن، أحمد يوسف

«التقانة في فلسطين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر»، واقعة ضمن كتاب (الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين)، تحرير: هادية وبرهان الدجاني، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٤م.

٤- حسين، محسن محمد

«جيش صلاح الدين» مجلة المورد، م١٦، ع٤، بغداد : ١٩٨٧م.

٥- الحياري، مصطفى

- «حصن الحبيس جلدك» مجلة دراسات، مج١٣ ع ١٢، الجامعة الأردنية، ١٩٨٦م.

- «مدينة بانياس في القرن ١٦هـ/١٢م» مجلة دراسات. مج١٣، ع ١٢، الجامعة الأردنية، ١٩٨٦م.

- حصن بيت الأحزان «جانب من العلاقات بين المسلمين والفرنجة في زمن صلاح الدين الأيوبي، مجلة دراسات، مج١٣، ع٤، الجامعة الأردنية، ١٩٨٦م.

٦- خوري، رئيف.

«فضل المقدسيين اللاجئين الى دمشق في إحياء العمران والحضارة في هذه المدينة في القرون الوسطى» من كتاب «حروب الفرنج وتأثيرها على

فلسطين، منشورات جامعة بيرزيت، ١٩٩٤م.

٧- زكي، عبدالرحمن

- «القلاع في الحروب الصليبية» المجلة التاريخية المصرية م١٥، القاهرة، ١٩٦٩م.

- «العمارة العسكرية في العصور الوسطى بين العرب والصليبيين» المجلة التاريخية المصرية، م٧، القاهرة : ١٩٥٨.

- «القلاع العالم العربي في العصور الوسطى» مجلة الداره، ع٤، ١٠ الرياض، ١٩٧١م.

٨- الشيال، جمال الدين

«الجاسوسية في حروب بني أيوب»، واقعة ضمن كتاب (دراسات في التاريخ الإسلامي)، بيروت : ١٩٨١م.

٩- العبيدي، صلاح حسين

«التراث العمادي العربي وأثره على العمارة الأوروبية من خلال الحروب الصليبية» مجلة المورد، م١٦، ع٤، بغداد : ١٩٨٧م.

ب- المعربة:

١- اليسييف، نيكيتا «المملكة اللاتينية في بيت المقدس والحكام المسلمون في القرن ١٢م». من كتاب الصراع الاسلامي -الفرنجي على فلسطين، تحرير : هاديه الدجاني، برهان الدجاني، بيروت : مؤسسة الدراسات الإسلامية، ١٩٩٤م.

٢- ريشارد، جان «تكوين مملكة بيت المقدس اللاتينية» من كتاب «الصراع الإسلامي - الفرنجي على فلسطين». تحرير. هادية الدجاني، برهان الدجاني، بيروت : مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٤م.

٣- مولر، فولفغانغ، «القلاع أيام الحروب الصليبية». ترجمة. وليد الجلاد. مجلة العرب والعالم. السنة السادسة. ع٧، بيروت، ١٩٨٤م.

ج- الأجنبية :

1- Baldwin, M.

The Decline and Fall of Jerusalem (1174-1189) In Setton. Vol. 1. 1969.

2- Barber. M :

Supplying The Crusader States "The Role of the Templers" In Horns of Hattin" Jerusalem, 1987.

3- Boase, T.S.R :

Mititary Architecture in the Crusader States in Palestine and Syria" In : Setton, Vol. IV. 1971.

4- A Crusader Fortress in Palestine. In : P.E.F, April, 1928.

5- Ellenblum, R.

Construction Methods in Frankish Rural Settlements, In : "Horns of Hattin" Jerusalem, 1987.

6- Fink. H

The Foundation of the Latin States (1099-1118). In : Setton, Vol, I, 1969.

7- Hamilton, W.

Saladin and Muslim Military Theory. In "Horns of Hatt in" Jerusalem, 1987.

8- Holmes, U.T.

Life Among the Europeans in Palestine and Syria in the twelfth and Thirteenthe Centuries. In : Setton, Vol, IV 1985..

9- Indrikis, S

The Teutonic Knights in the Crusader States, In : Setton : Vol, V 1985.

10- Jhones. C.N

- Excavation at Pilgrims Castle (Atlit). In : Q.D.A.P.Vol, III. No : 4, 1933.

- Excuvations at Pilgrims Castle (Atlit) In : Q.D.A.P Vol, II. No 2, 1931.

11- Kedar, B. and Pringle, D.

Le Fever "Acrusader Castle in the Jezreel Valley". In. I.E.J, Vol, XXXV, No. 2-3. Jerusalem, 1985.

12- A mastermann, E.W.G.

Avisit to the Ruind Castles of the Teutonic Knights. In : P.E.F. 1919.

13- Nicholson, R.

The Growth of the Latin States (1118-1144) In : Setton, Vol, I, 1969.

14- Prawer. J.

The Settlement of the Latins in Jerusalem, In : Speculam No. 27, London, 1952.

15- Pringle. D.

- Survey of Castles in the Crusader Kingdom of Jerusalem, In : Levant, Vol. XXIII, Jerusalem, 1991.

- Reconstruction the Castle of Safad. In : P.E.Q. January, 1985.

16- Razi and Brawn.

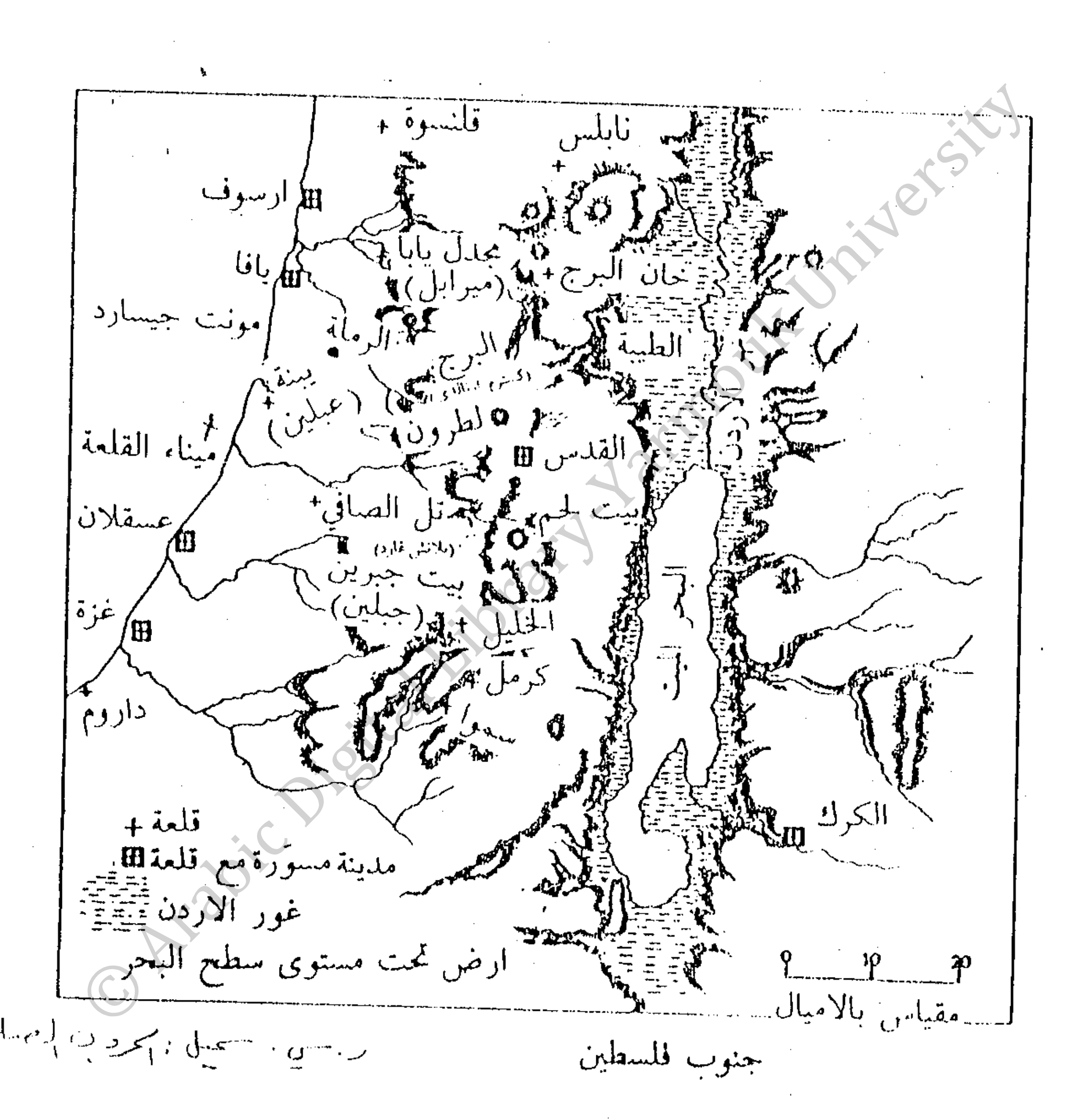
The Lost Crusader Castle of Tiberias. In : Horns of Hattin" Jerusalem, 1987.

17- Reifenberg. A

Caesarea, In : I.E.J. Vol. No 1, Jerusalem, 1950-1951.

18- Smith J.R. "The suvival Latin in Palestine "In the Eastern Med iterran ean Lornds in the Period of Crusades" England, 1977.

الملاحق


قلنسوة
نابلس
ارسوف
يافا
مجدل يابا
(ميرابل)
خان البرج
مونت جيسارد
الرملة
البرج
الطيبة
يبنة
(عبلين)
لطرون
ميناء القلعة
القدس
عسقلان
تل الصافي
بيت لحم
بيت جبرين
(جبلين)
غزة
الخليل
كرمل
داروم
الكرك
قلعة
مدينة مسورة مع قلعة
غور الاردن
ارض تحت مستوى سطح البحر
مقياس بالاميال

جنوب فلسطين

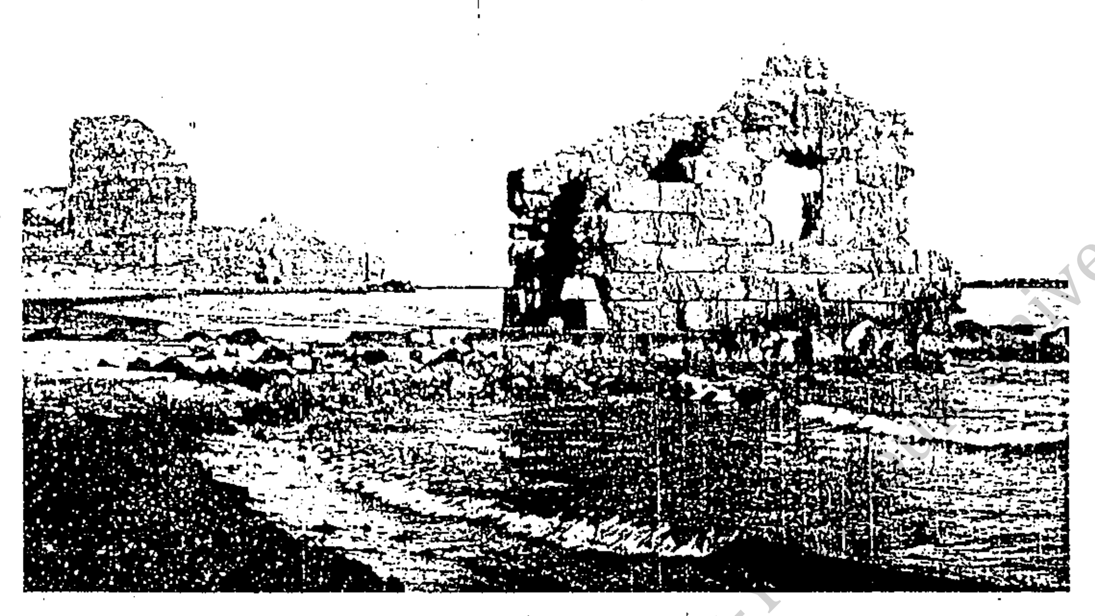


Fig. 1. THE NORTH SEA-TOWER (F), LOOKING WEST TOWARDS THE CASTLE

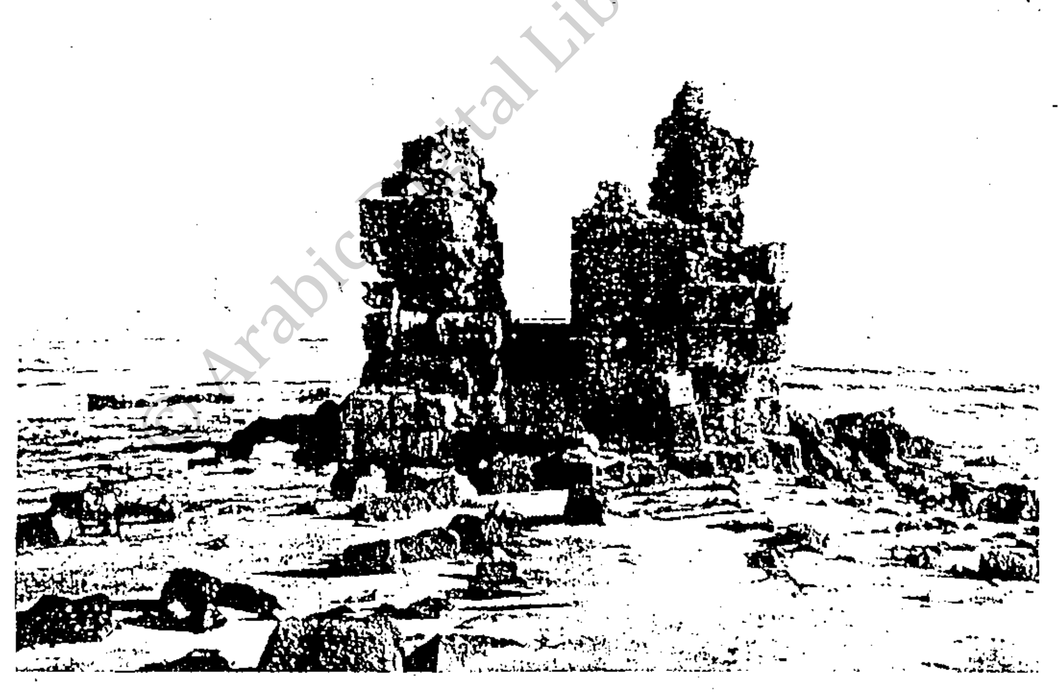
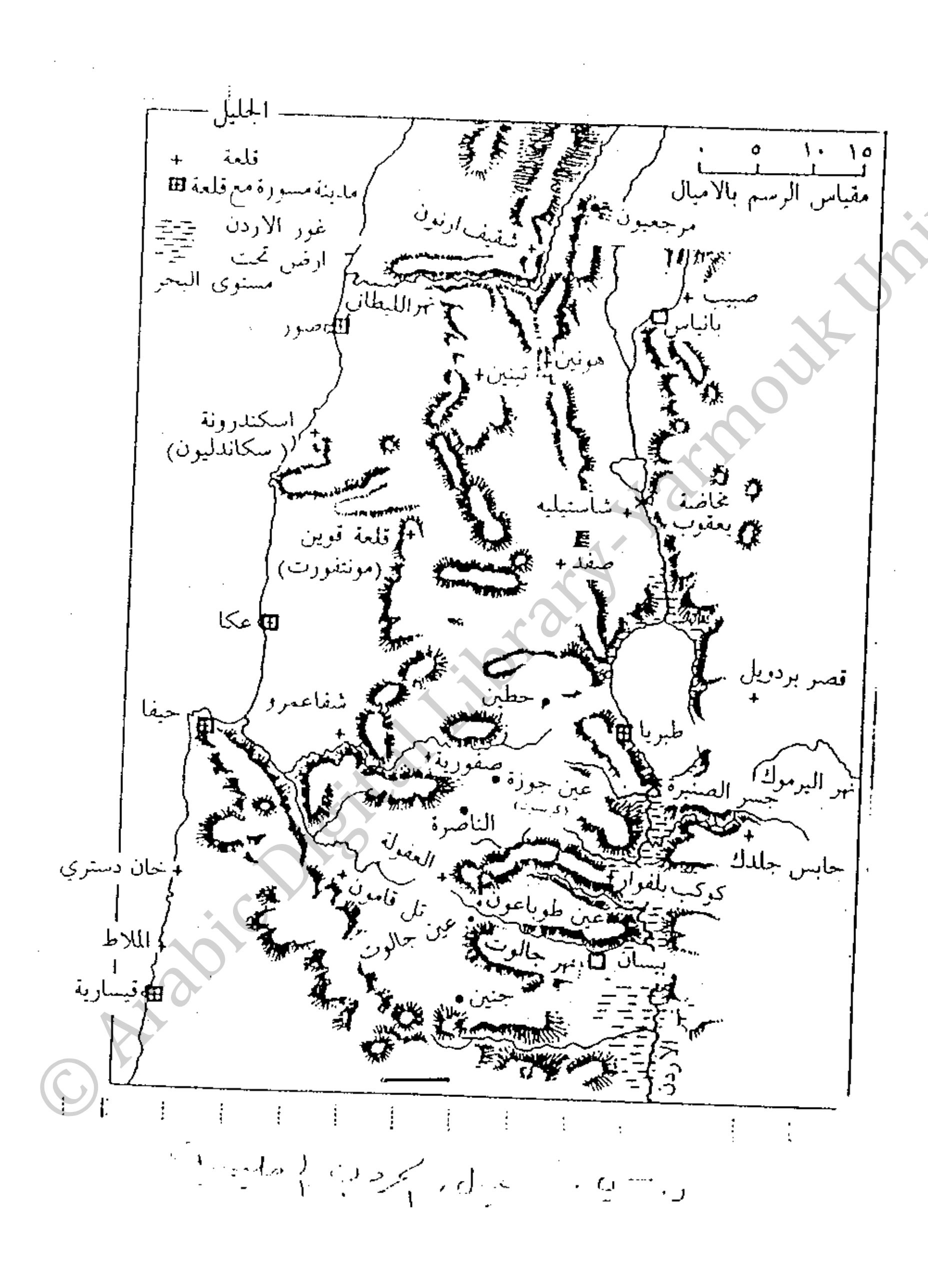
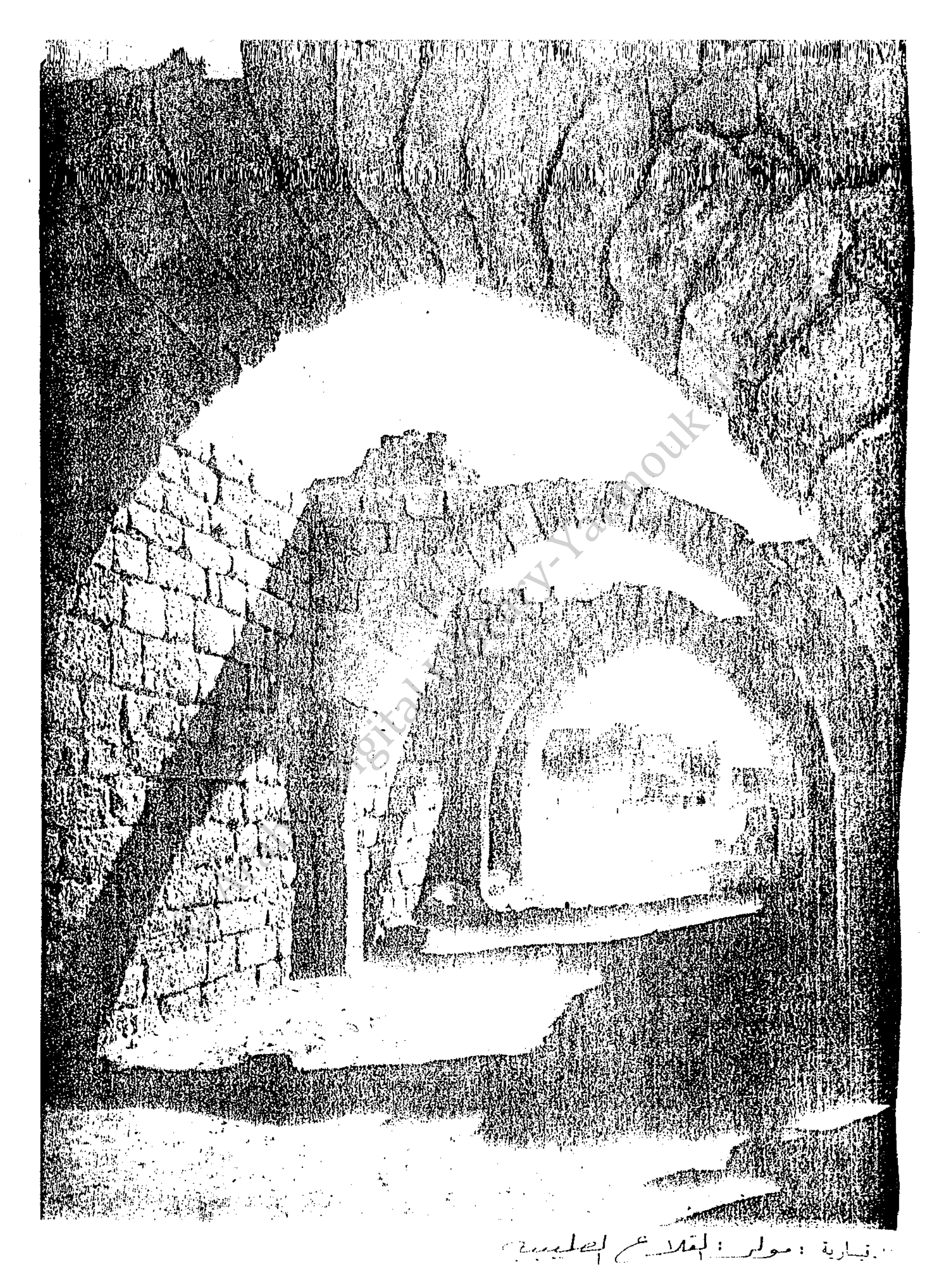


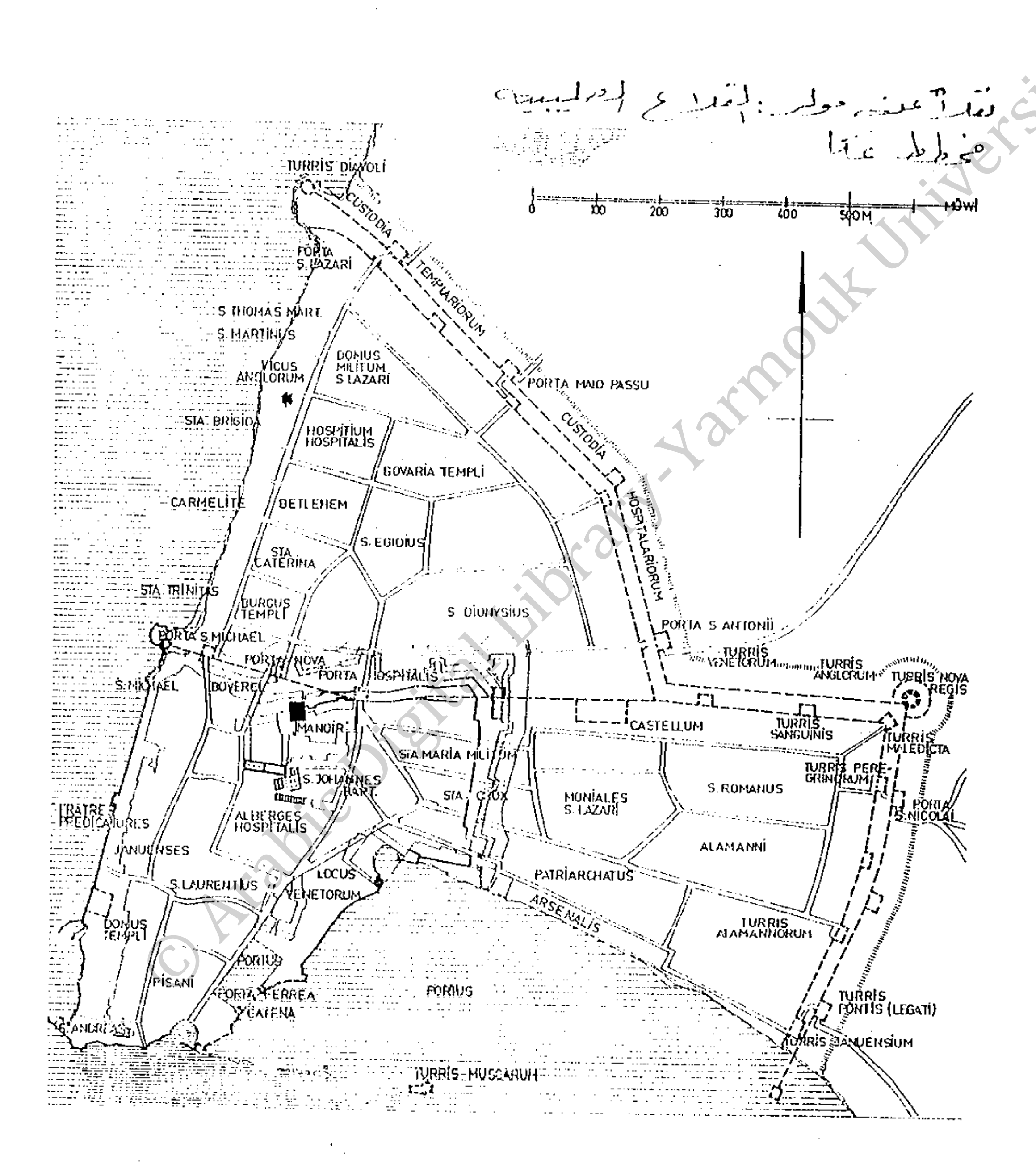
Fig. 2. THE NORTH SEA-TOWER, AS SEEN TO NORTH FROM (D)

B.S.O.A.S : crusader fortress in palestine

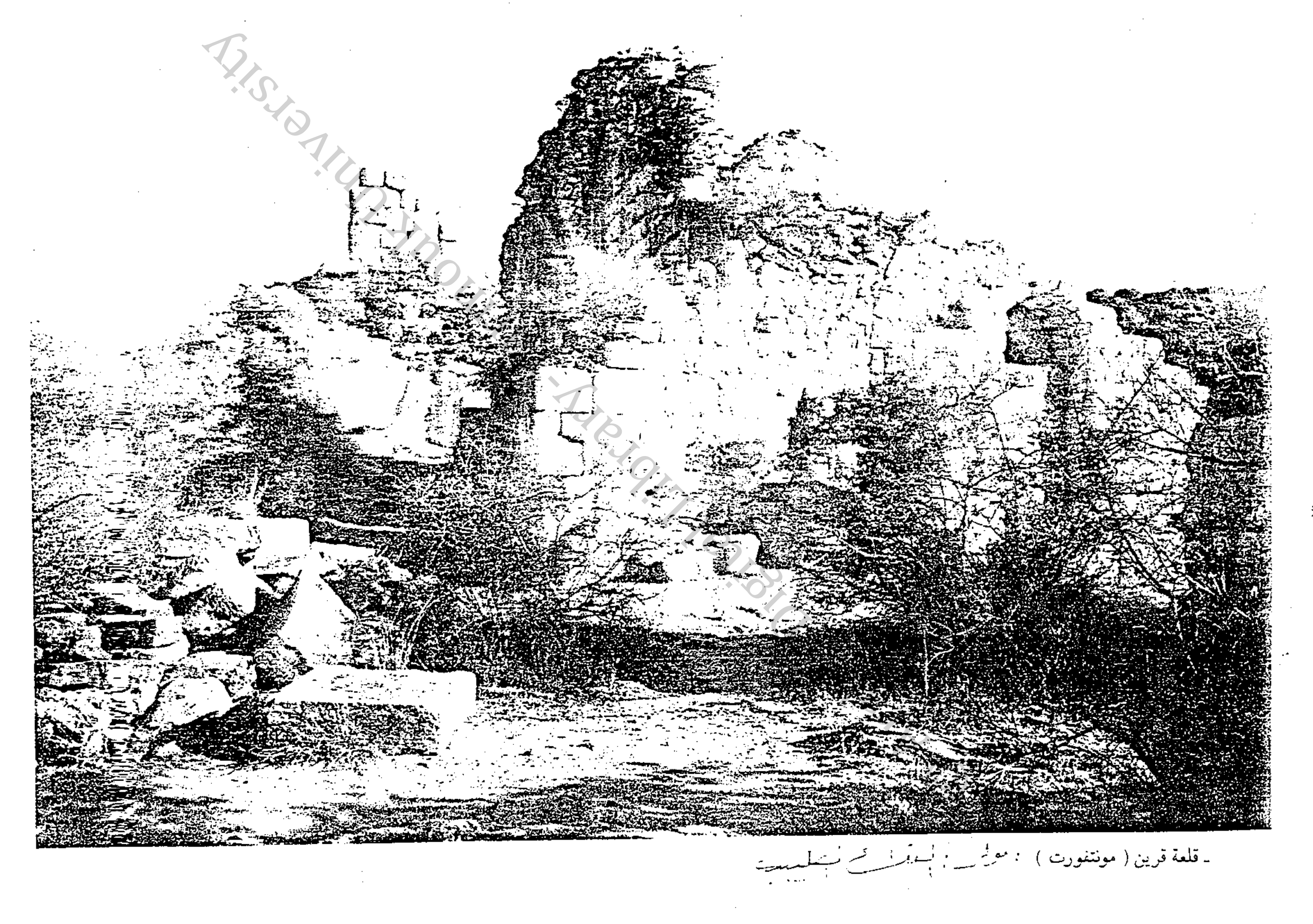

الجليل
قلعة
مدينة مسورة مع قلعة
غور الاردن
ارض تحت
مستوى البحر
مقياس الرسم بالاميال
١٥ ١٠ ٥ ٠
مرجعيون
شقيف ارنون
صبيب
بانياس
نهر الليطاني
صور
هونين
تبنين
اسكندرونة
(سكاندليون)
شاستليه
مخاضة
يعقوب
قلعة قوين
(مونتفورت)
صفد
عكا
قصر بردويل
حطين
شفاعمرو
حيفا
طبريا
صفورية
عين جوزة
الصنبرة
جسر
نهر اليرموك
الناصرة
العفولة
حابس جلدك
خان دستري
تل قامون
عين طوباعون
كوكب بلفوار
عين جالوت
نهر جالوت
بيسان
الملاط
قيسارية
جنين
الاردن



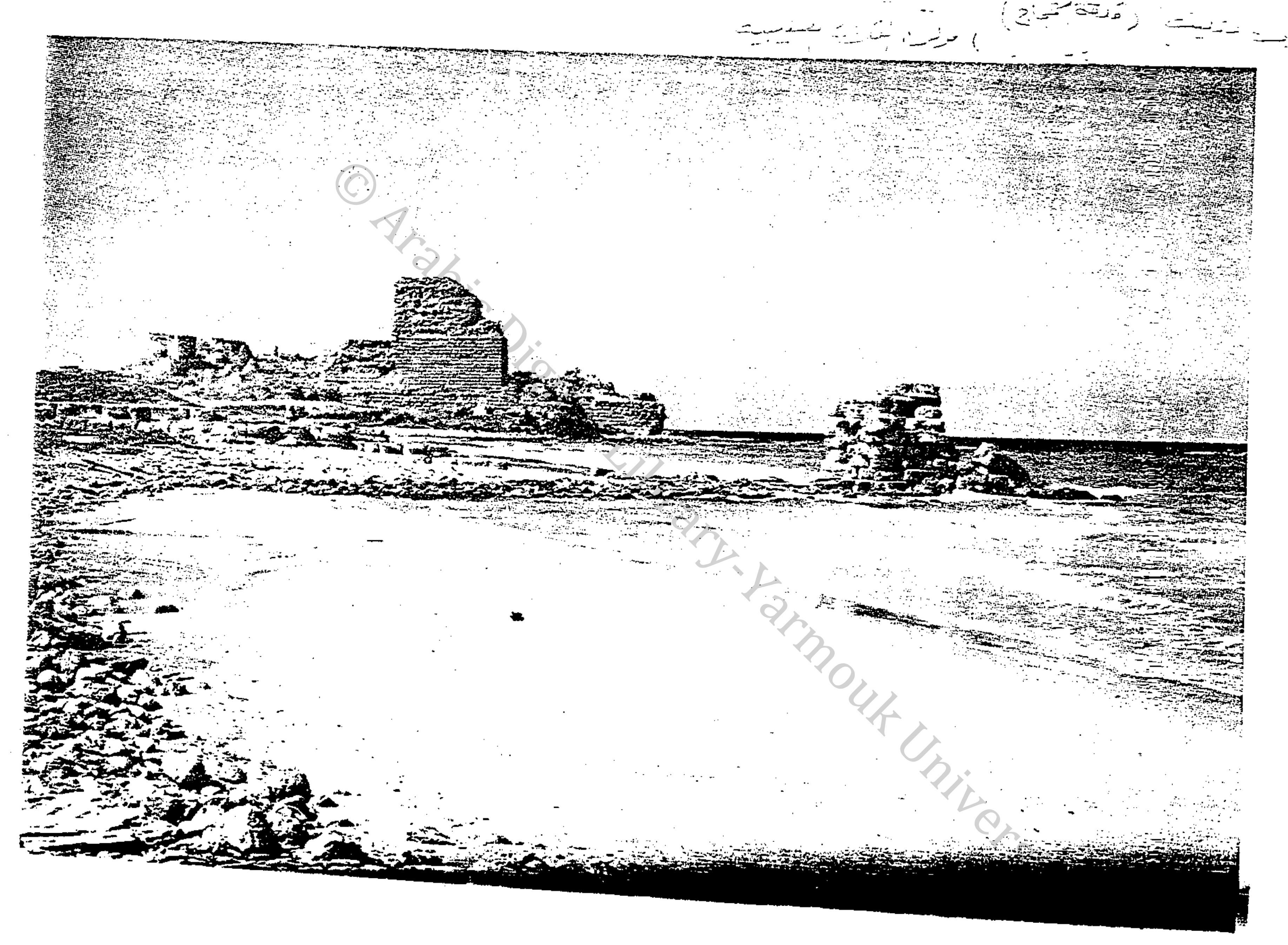
قيسارية : مولر : القلاع الصليبية



نقلاً عن مولر: القلاع الصليبية
مخطط عكا



- قلعة قرين (مونتفورت) : معقل [illegible] فلسطين





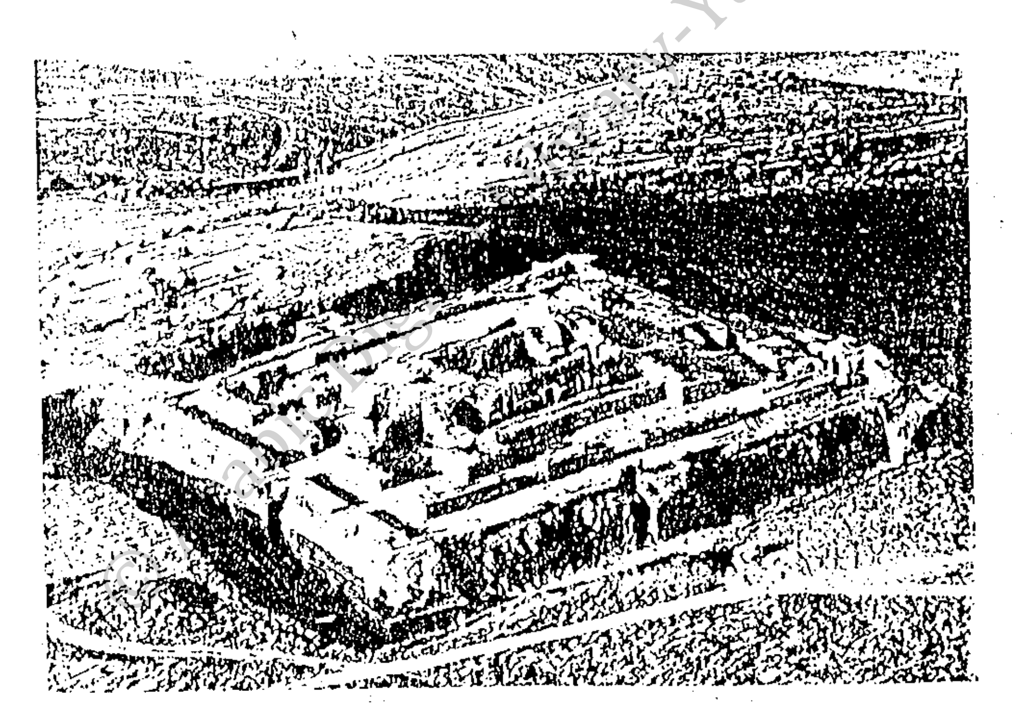
قلعة قيسارية. مولر: القلاع الصليبية

اولاً : القلاع الصليبية : قلعة القرين (مونتفورت

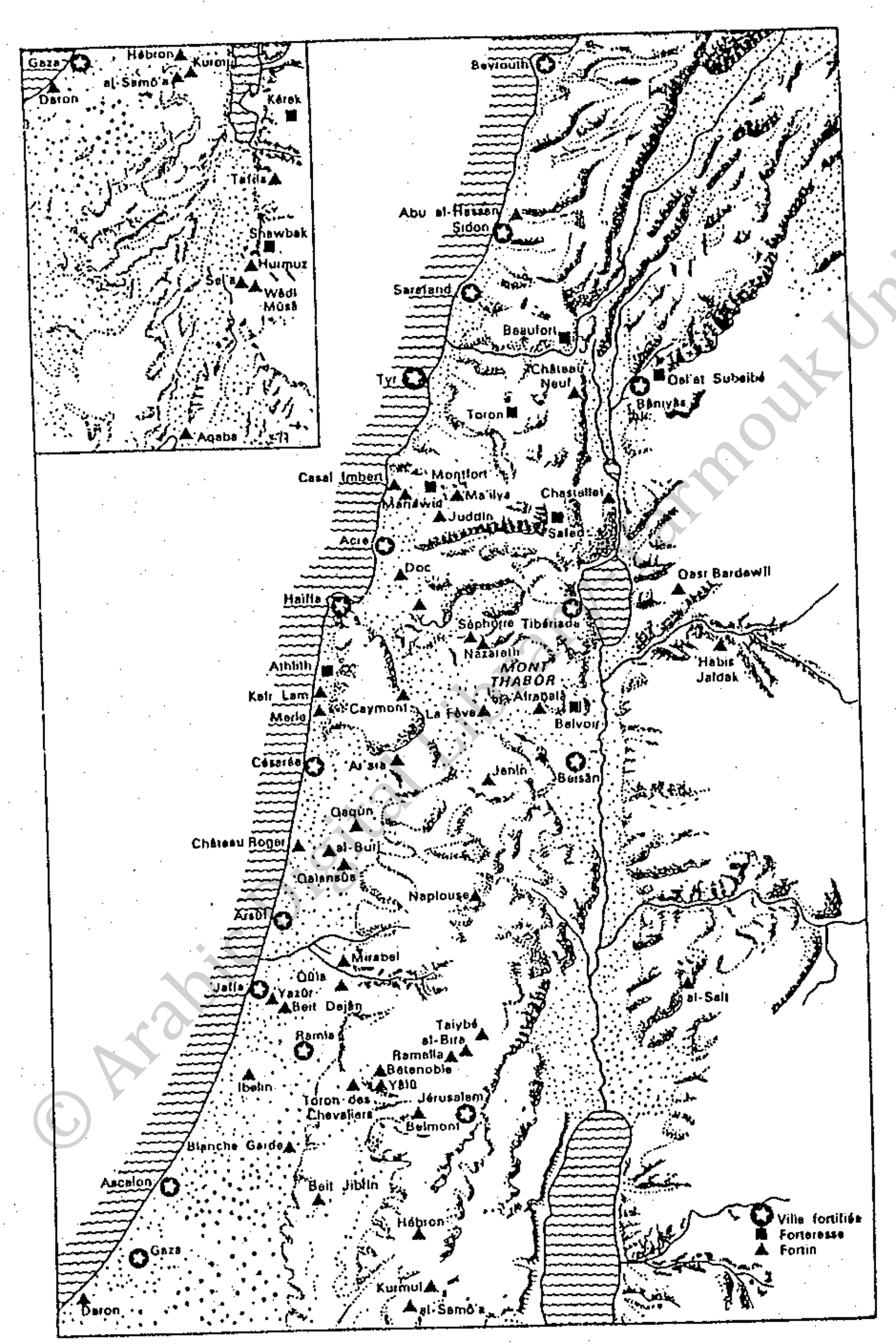
Benvensiti : Crusades in Hollyland



Hunin, castle, north and west sides

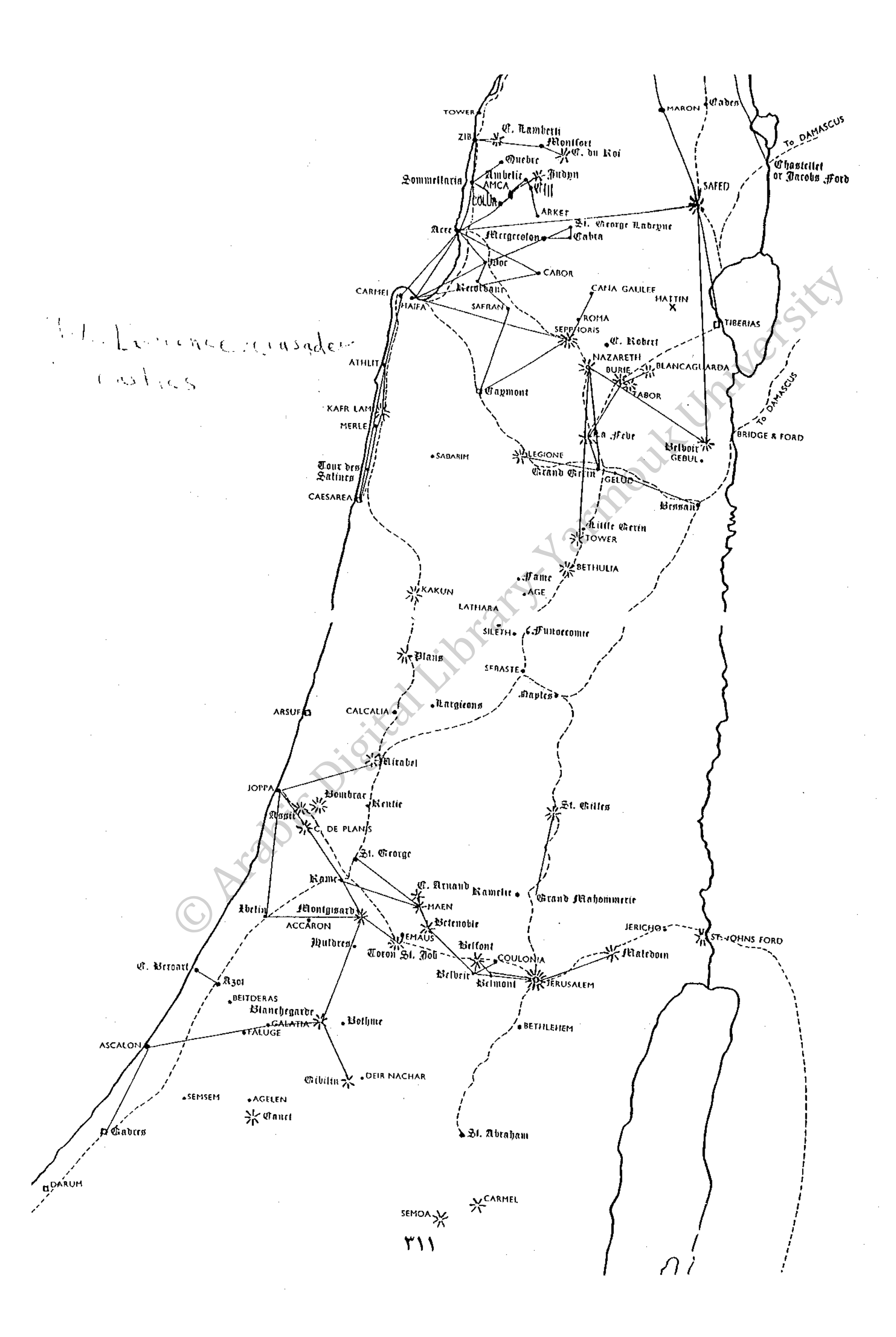


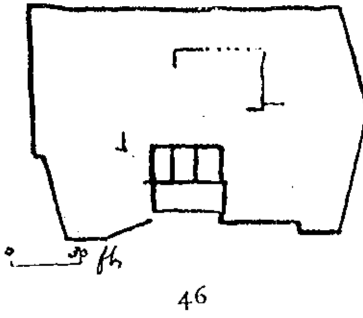
Benvenis Benvensiti : Crusades in 297 Hollyland



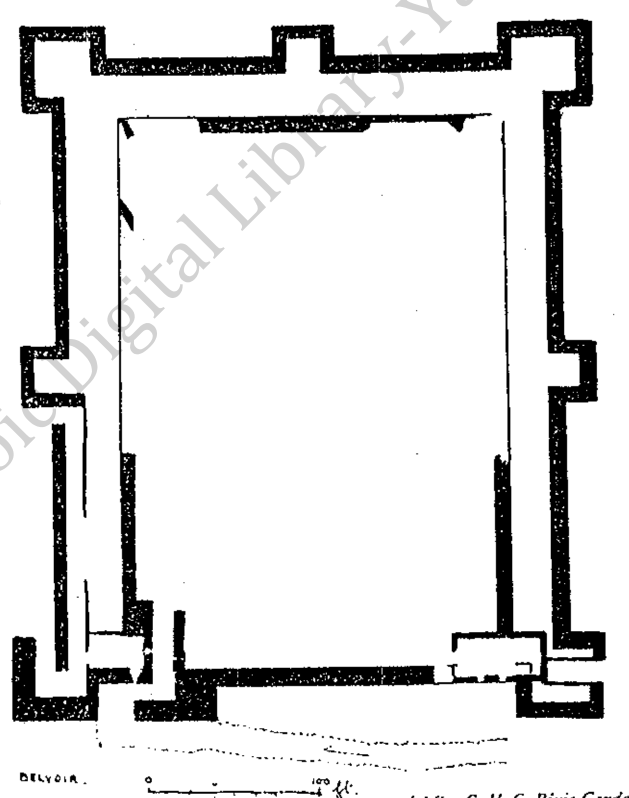
Carte XXIV : La défense du Royaume de Jérusalem.

J. Prawer: Historie du Royame de Jerusalem vol.2.


TOWER
ZIB
C. Lamberti
Montfort
C. du Roi
Quebre
Sommellaria
Ambelie
AMCA
Judyn
COLUR
ARKET
Acre
St. George Labayne
Mergecolon
Cabra
CABOR
CARMEL
HAIFA
SAFRAN
CANA GALILEE
HATTIN
ROMA
SEPPHORIS
C. Robert
TIBERIAS
NAZARETH
BURIE
BLANCAGUARDA
TABOR
ATHLIT
Caymont
KAFR LAM
MERLE
La Feve
Belvoir
GEBUL
SABARIM
LEGIONE
Grand Gerin
GELBO
Tour des Salines
CAESAREA
Bessan
Little Gerin
TOWER
BETHULIA
KAKUN
AGE
LATHARA
SILETH
Funecombe
Plans
SEBASTE
Naples
ARSUF
CALCALIA
Largicons
Mirabel
JOPPA
Bombrac
Kentie
C. DE PLANS
St. Gilles
St. George
Rame
C. Arnaud
Ramelie
Grand Mahommerie
MAEN
Ibelin
Montgisard
ACCARON
Beleuble
JERICHO
ST. JOHNS FORD
EMAUS
Toron St. Job
Belfont
COULONIA
Maledoin
C. Beroart
Azot
Belveit
Belmont
JERUSALEM
BEITDERAS
Blanchegarde
GALATIA
FALUGE
Bothme
BETHLEHEM
ASCALON
Gibilin
DEIR NACHAR
SEMSEM
AGELEN
Gadres
St. Abraham
DARUM
SEMOA
CARMEL
MARON
Cades
TO DAMASCUS
Chastellet or Jacobs Ford
SAFED
TO DAMASCUS
BRIDGE & FORD

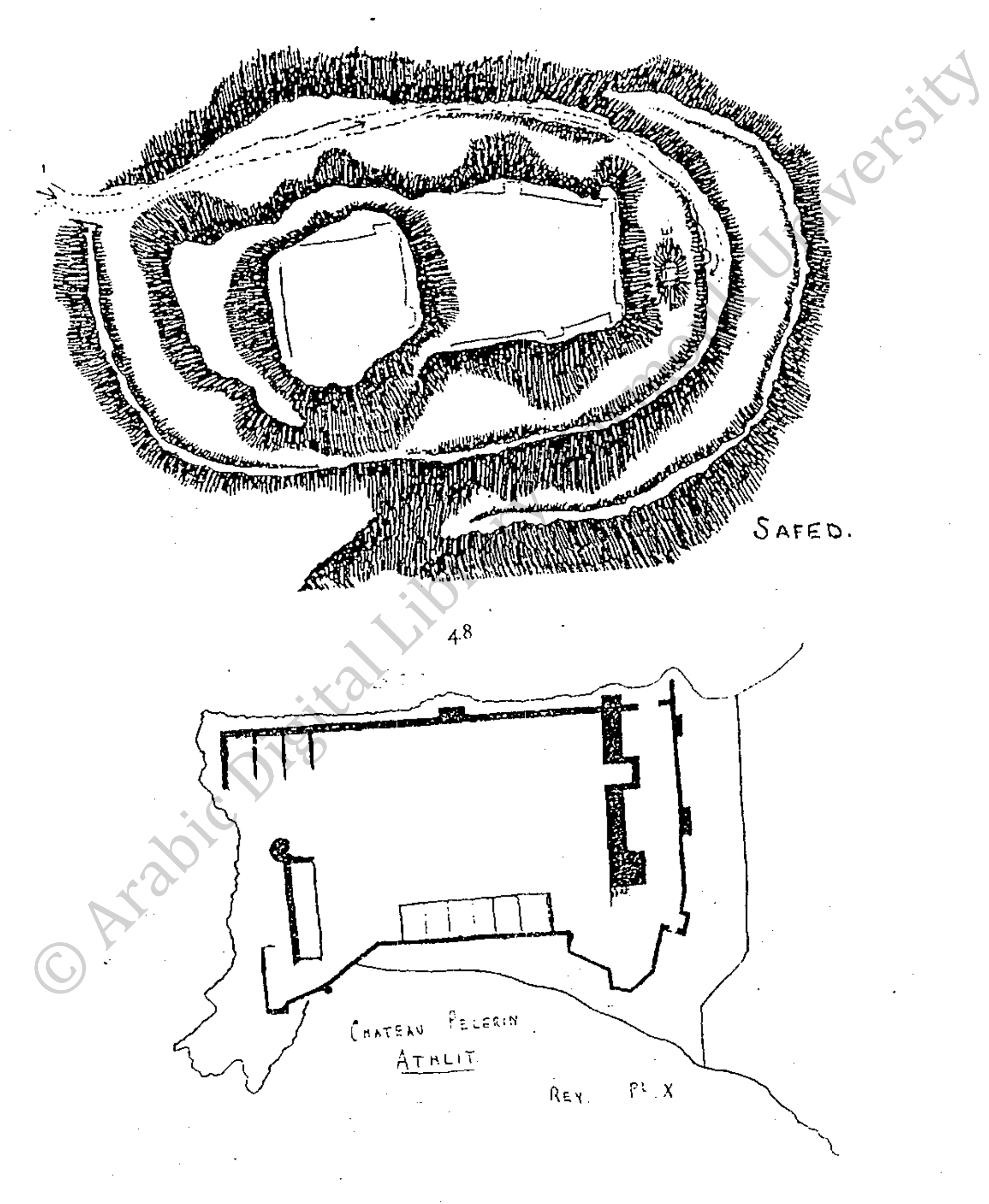


46



47

T. E. Lawrence : Crusader Castles



48

49

T.E. Lawrence: crusader castles

Reconstruction the castle of Safad . P.E.Q



Fig. 1. Safad Castle: photograph taken from the north-east by K. A. C. Creswell, c. 1919.
(By courtesy of the Israel Department of Antiquities and Museums)

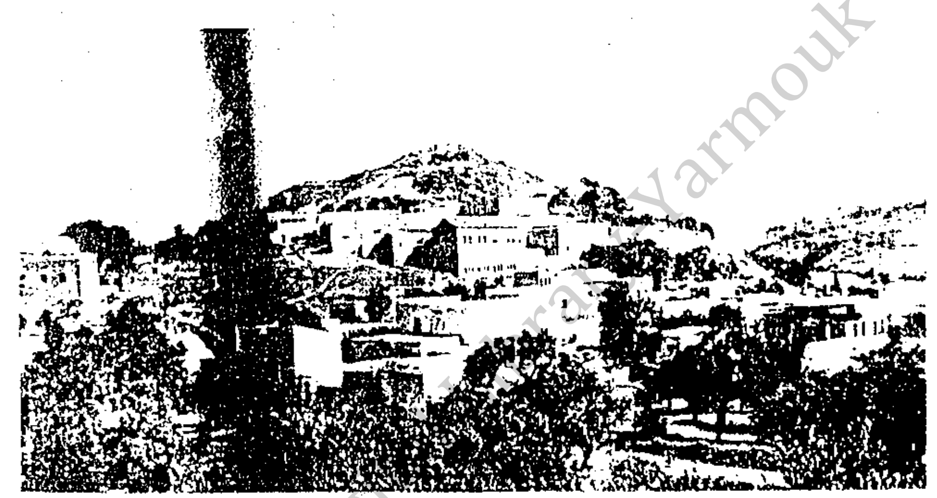
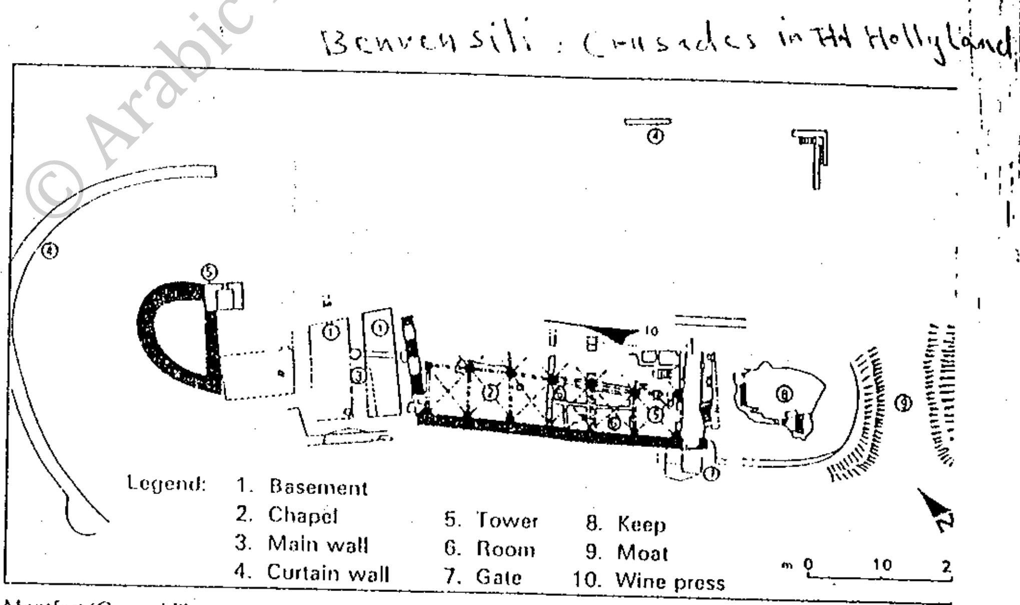


Fig. 2. Safad Castle: photograph taken from the south either before or soon after the First World War.
(By courtesy of the Israel Department of Antiquities and Museums)

Benvensiti : Crusades in the Hollyland



Montfort (General Plan)

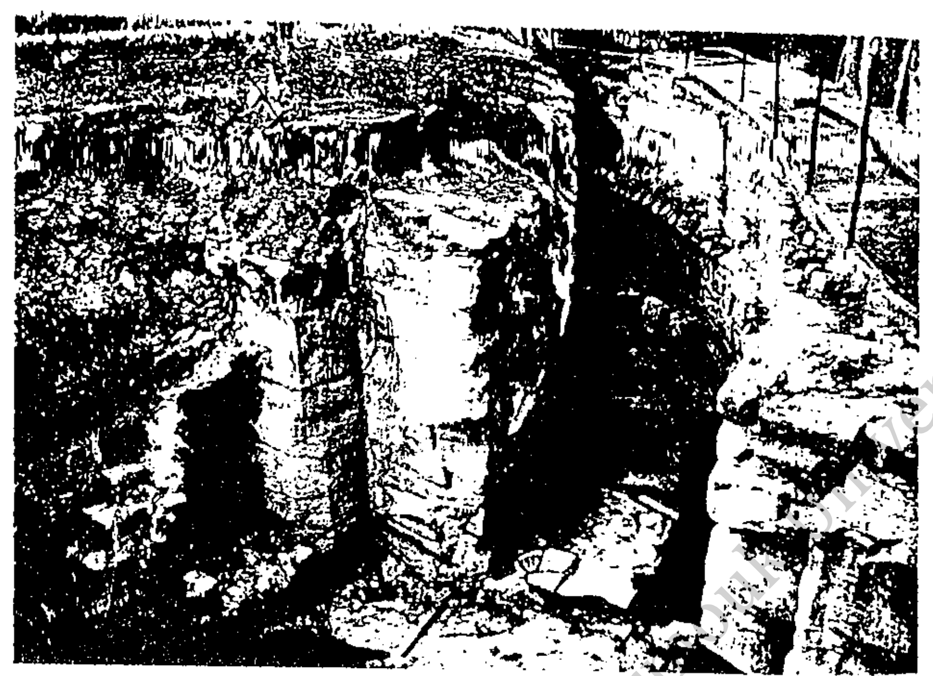


Fig. 5. Safad Castle: curving vaulted passageway within the wall of the keep, with entrance vestibule in the foreground. (Photo: D. Pringle)

P. E. Q. Reconstruction the Castle of Safad

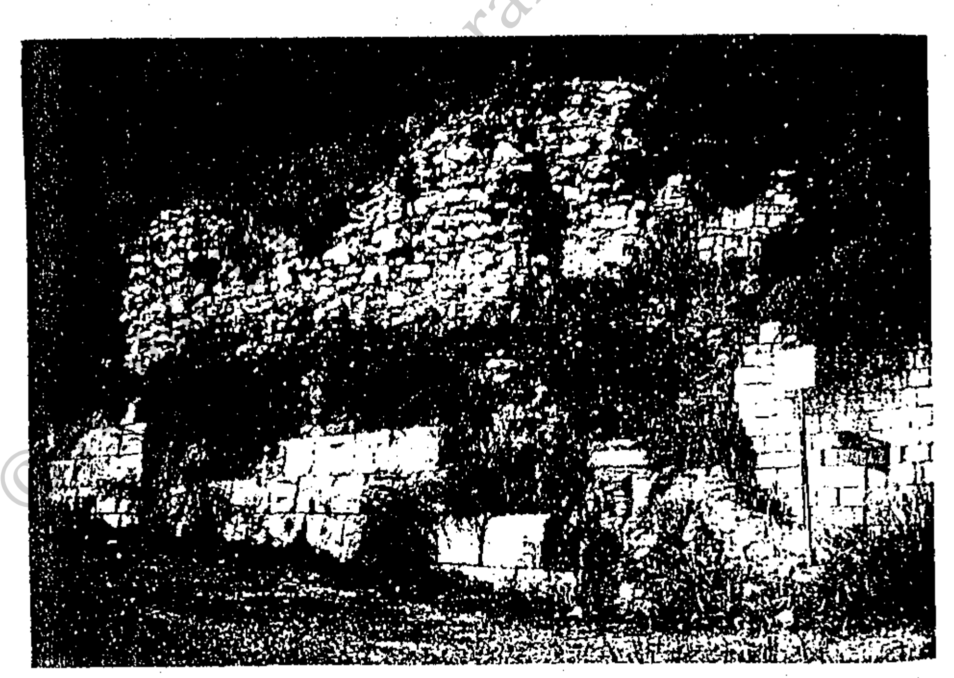
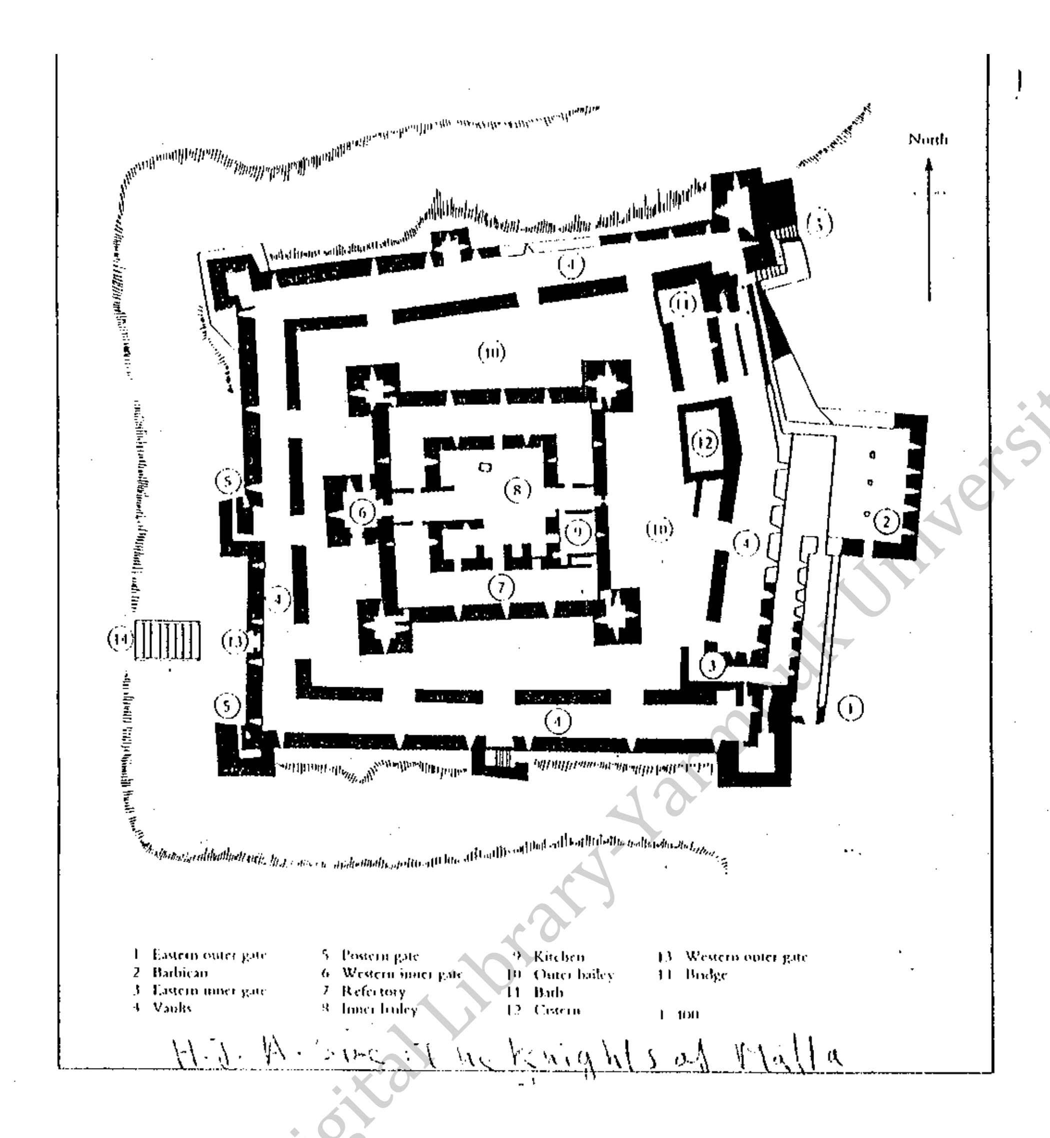


Fig. 4. Safad Castle: rectangular tower on the south-western part of the inner ward. (Photo: D. Pringle)

Reconstruction the Castle of Safad. P. E. Q



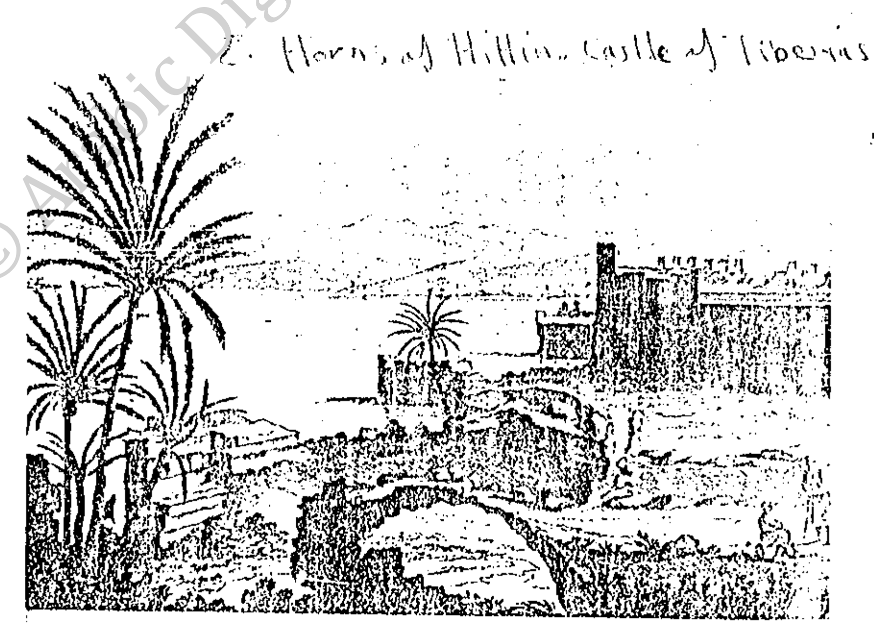
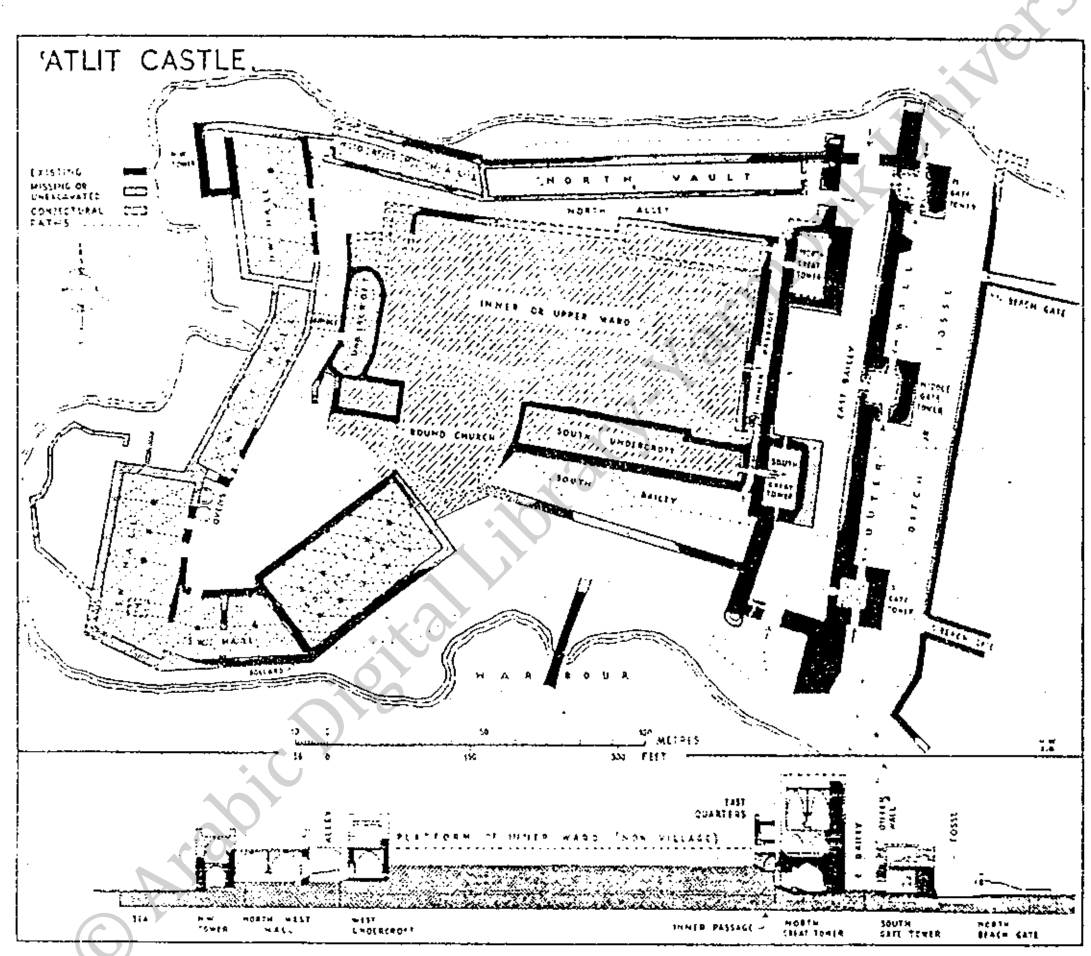
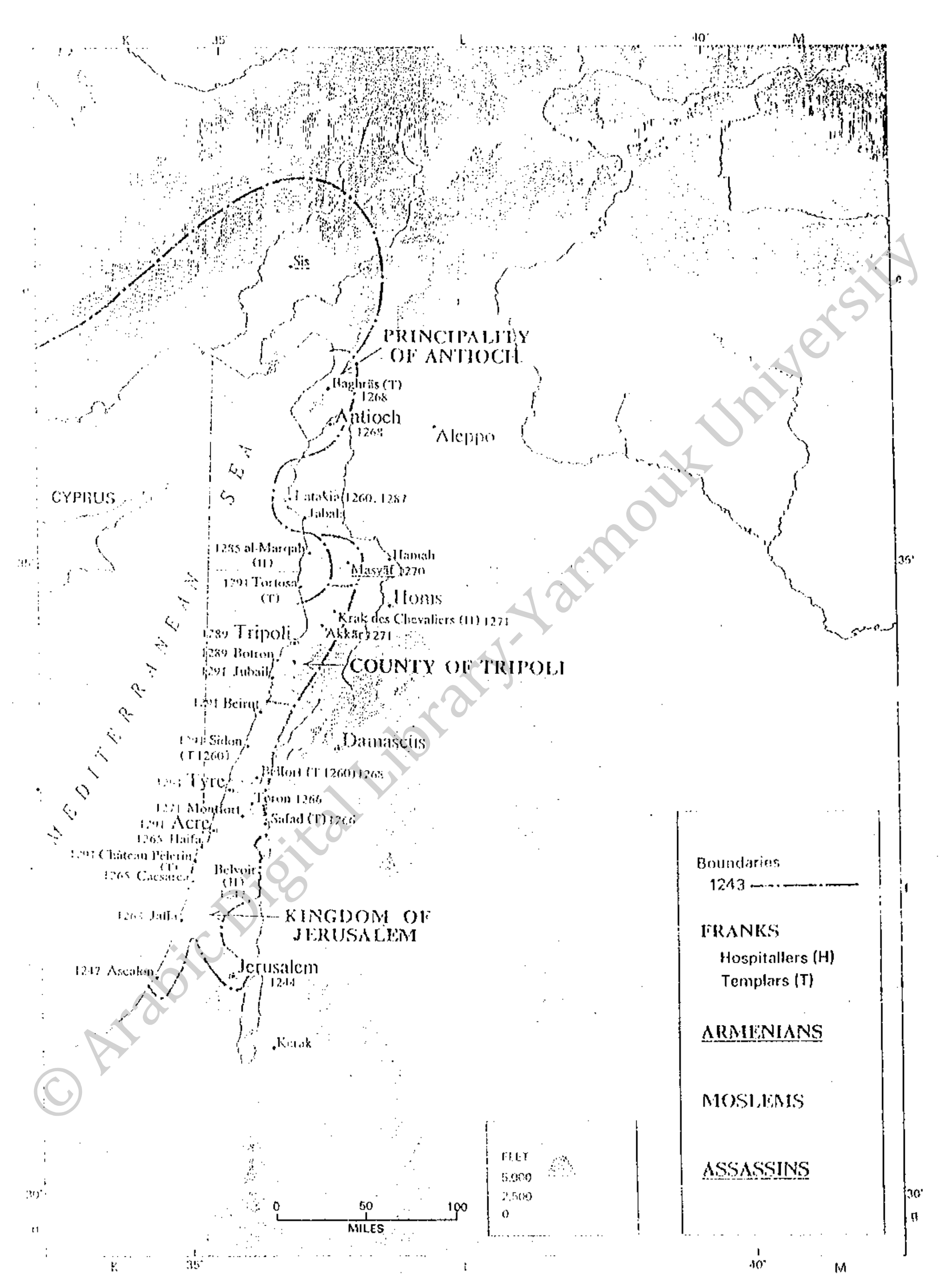


Fig. 2. Tiberias, 1679: Part of the castle, viewed from the North (Corneille Le Bruyn, *Voyage au Levant*, [Paris, 1700], pl. 174)

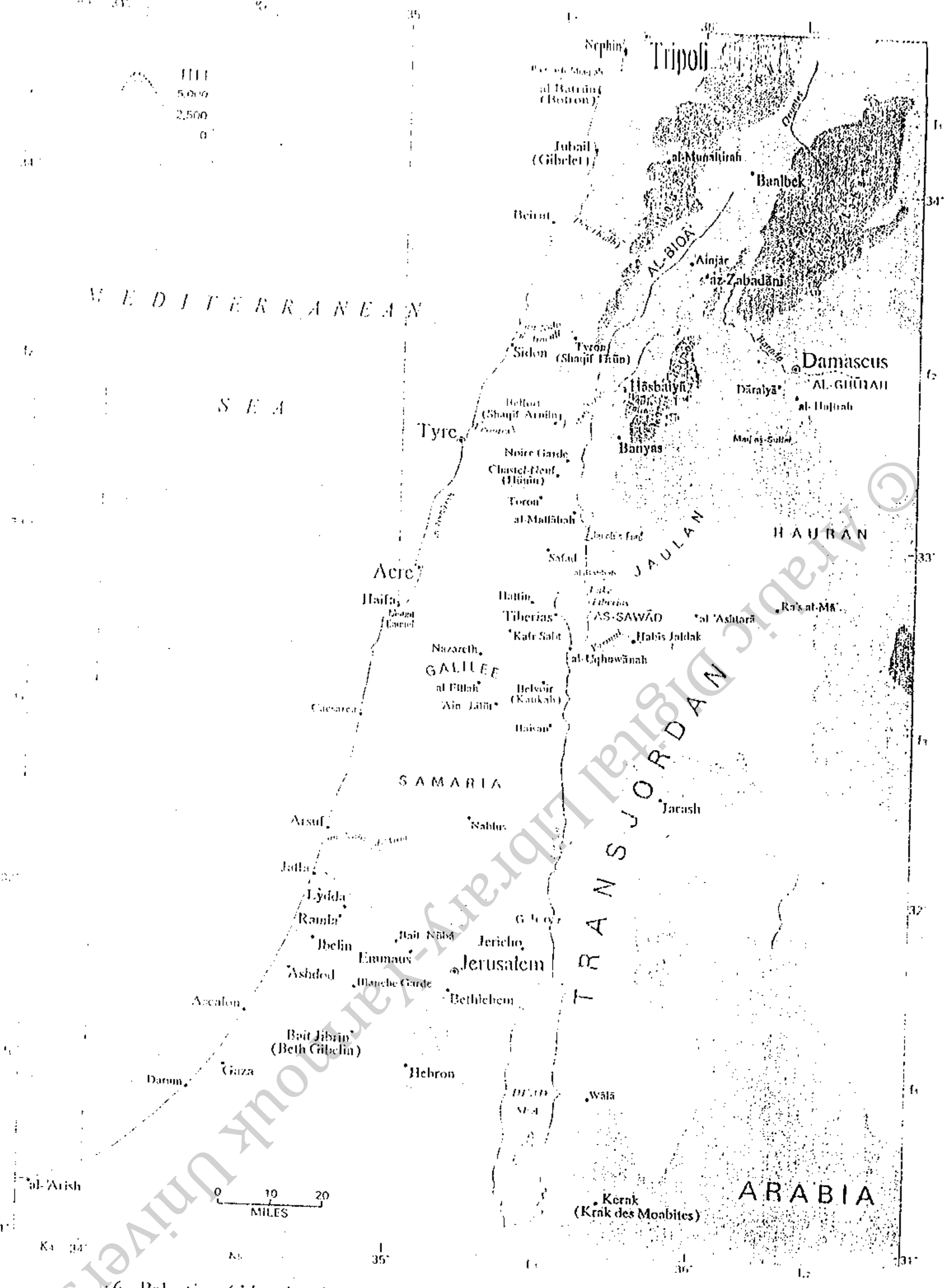


T. S. R. Boase: Castles and Churches in the Crusading Kingdom.



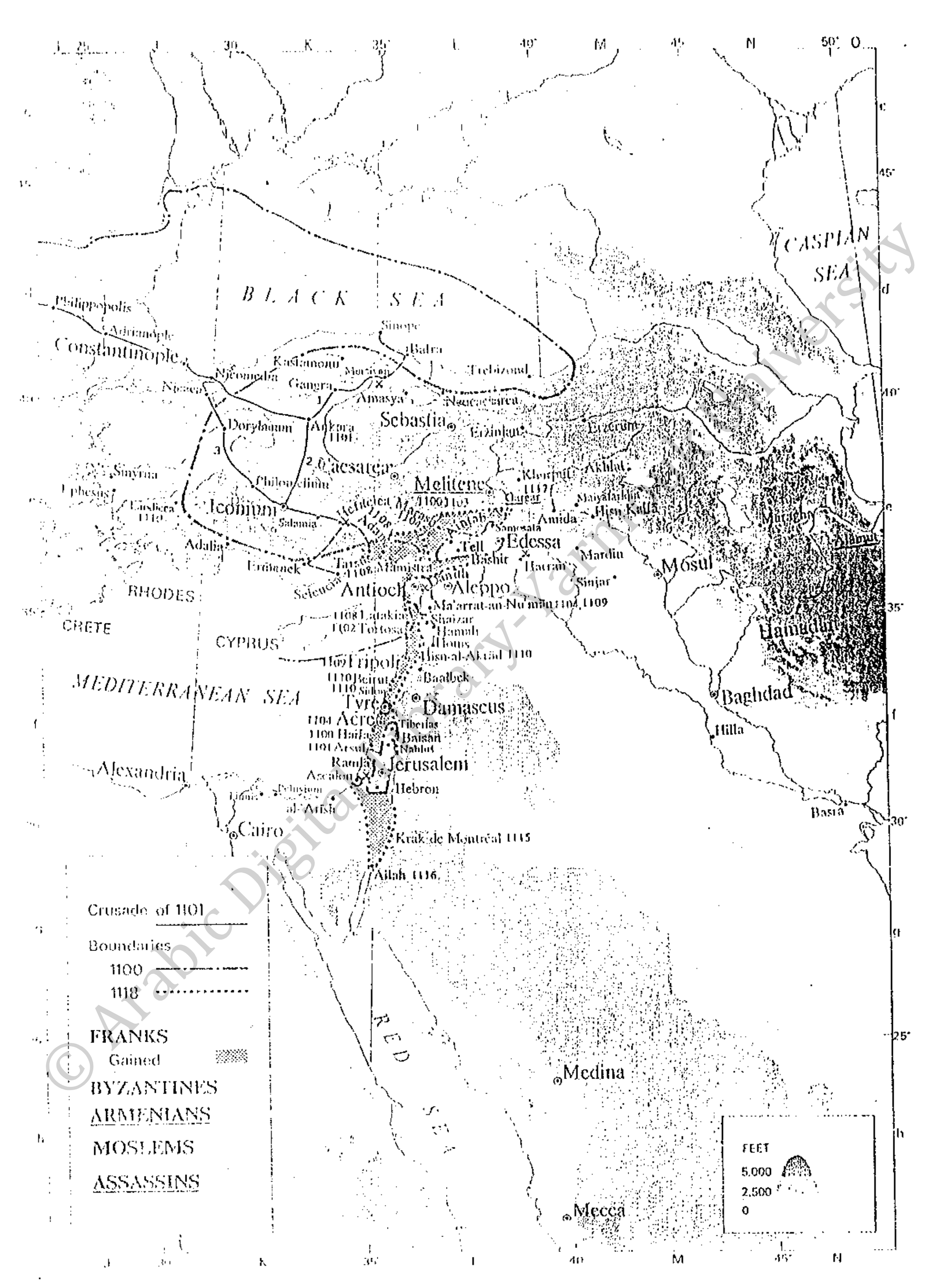
19. The Latin States, 1243–1291 (*Map by the University of Wisconsin Cartographic Laboratory*)

Setton: Vol 4.



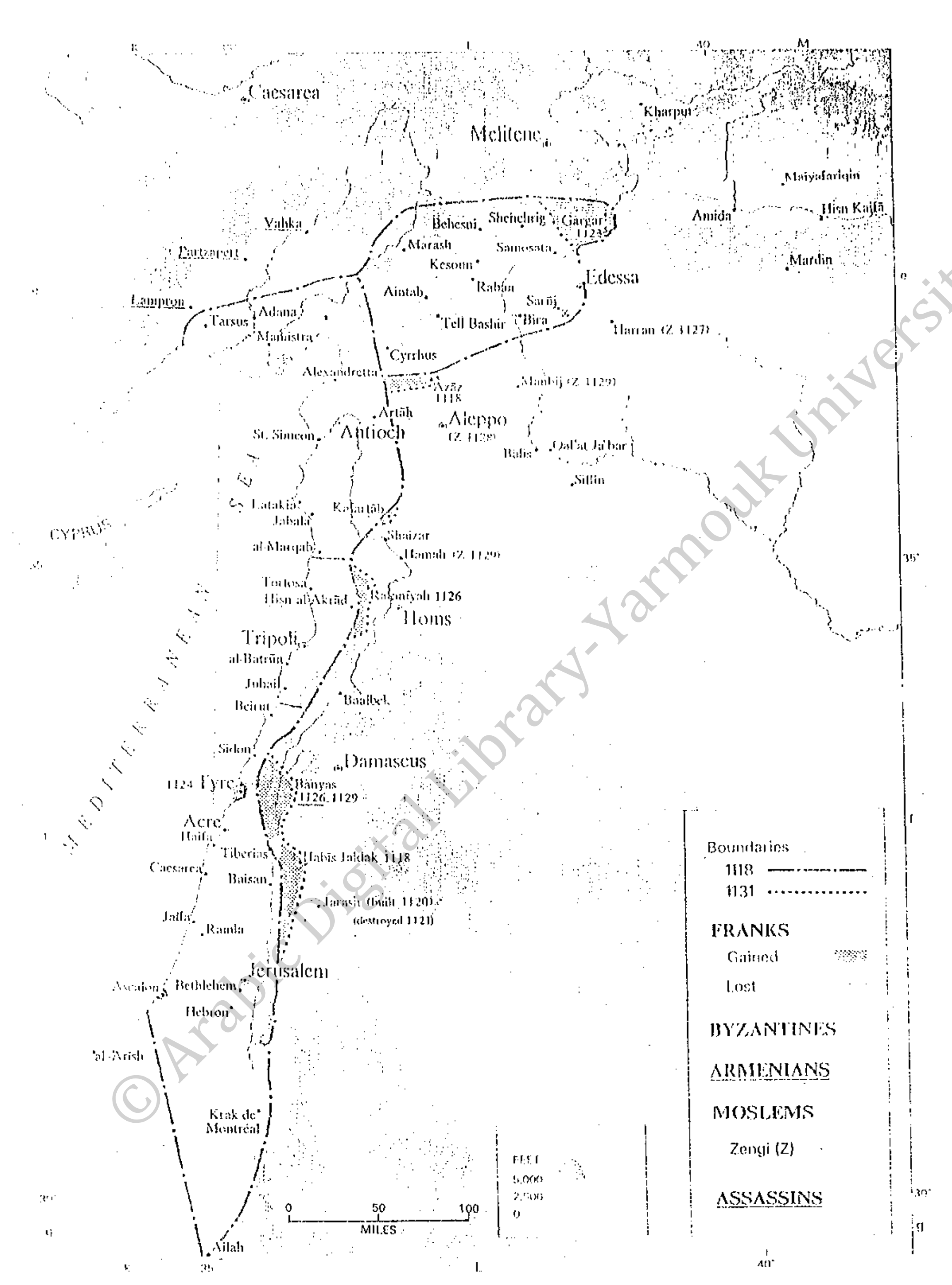
6. Palestine (*Map by the University of Wisconsin Cartographic Laboratory*)

Setten: vol 4



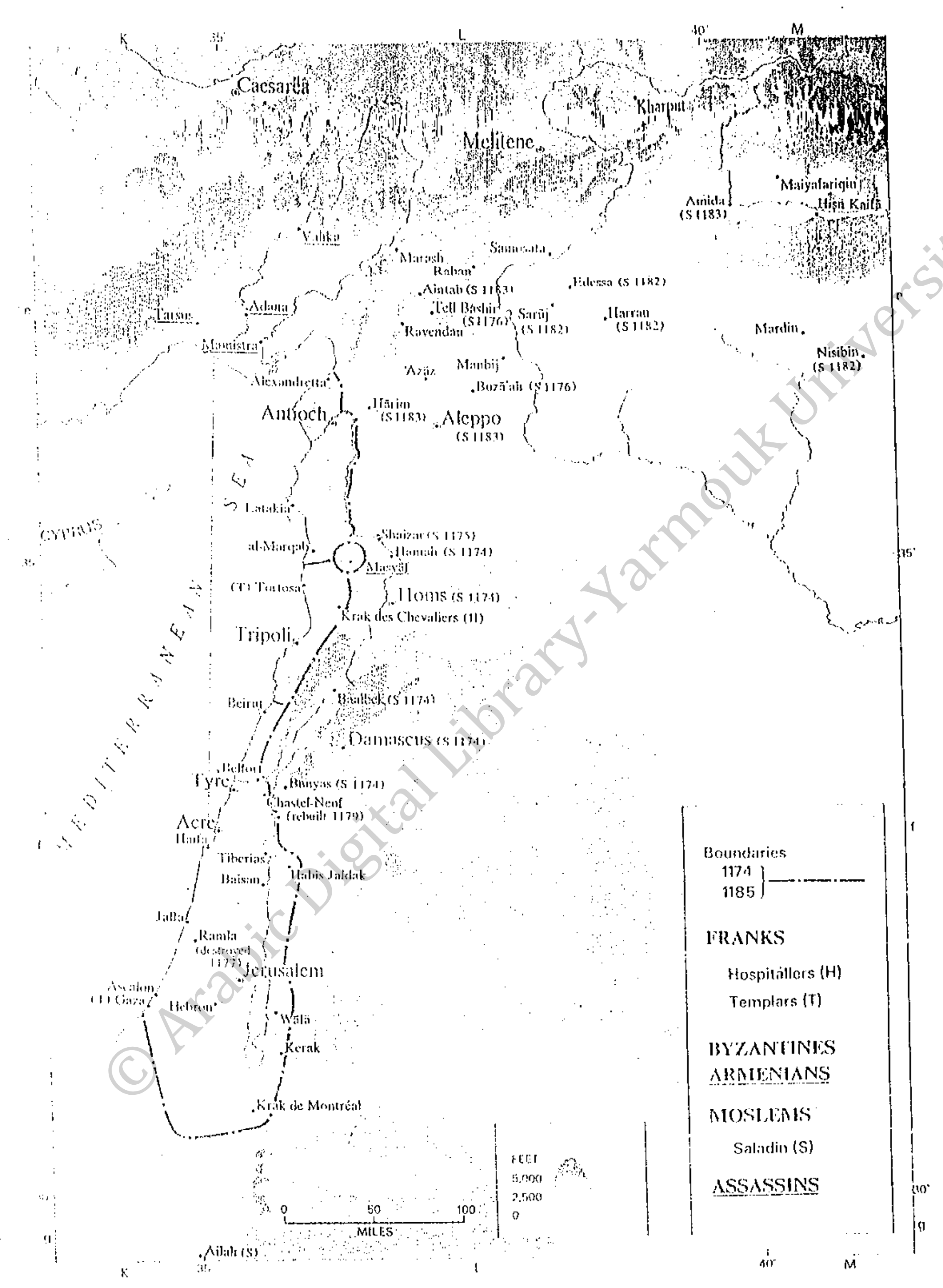
8. The Near East during the Reign of Baldwin I, 1100–1118 (*Map by the University of Wisconsin Cartographic Laboratory*)

Setton: Vol 4.



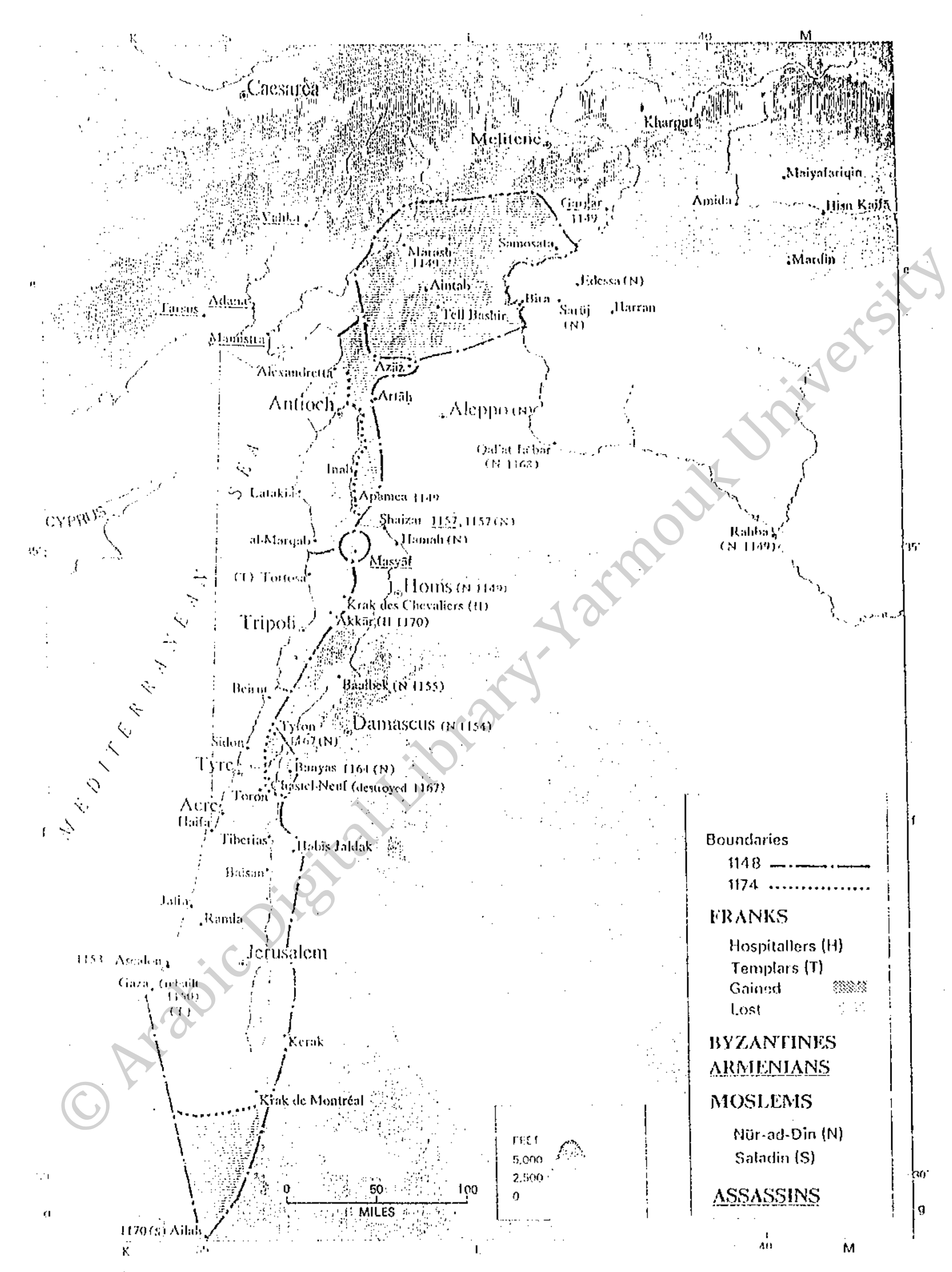
9. The Latin States during the Reign of Baldwin II, 1118–1131 (*Map by the University of Wisconsin Cartographic Laboratory*)

Setton . Vol 4)-



13. The Latin States during the Reign of Baldwin IV, 1174–1185 (*Map by the University of Wisconsin Cartographic Laboratory*)

Setton, Vol 4.



12. The Latin States during the Time of Nūr-ad-Dīn, 1148–1174 (*Map by University of Wisconsin Cartographic Laboratory*)

Setton: Vol 2

Boundaries
1185
1189

FRANKS
Hospitallers (H)
Templars (T)
Lost

BYZANTINES

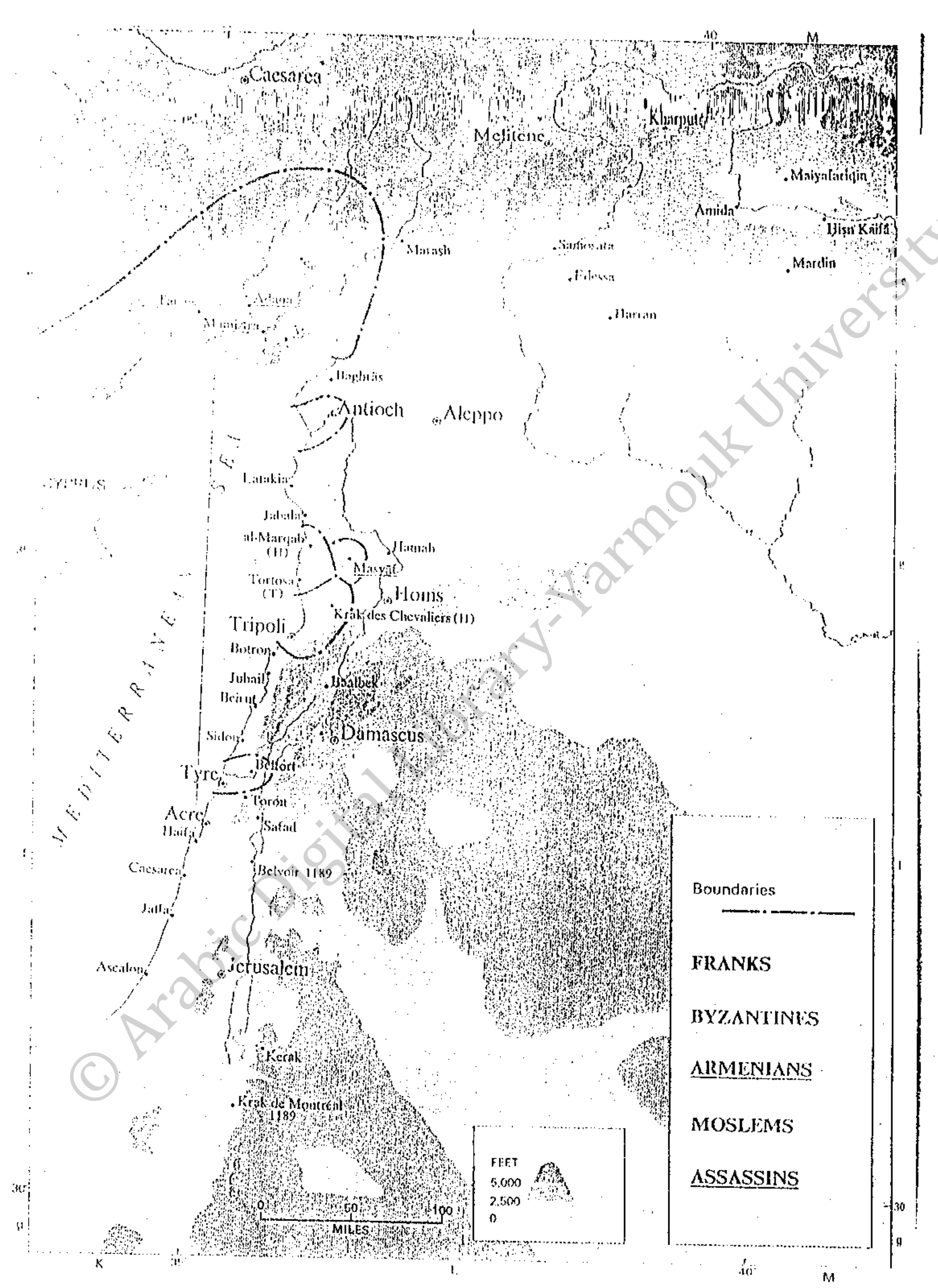
ARMENIANS

MOSLEMS
Saladin (S)

ASSASSINS

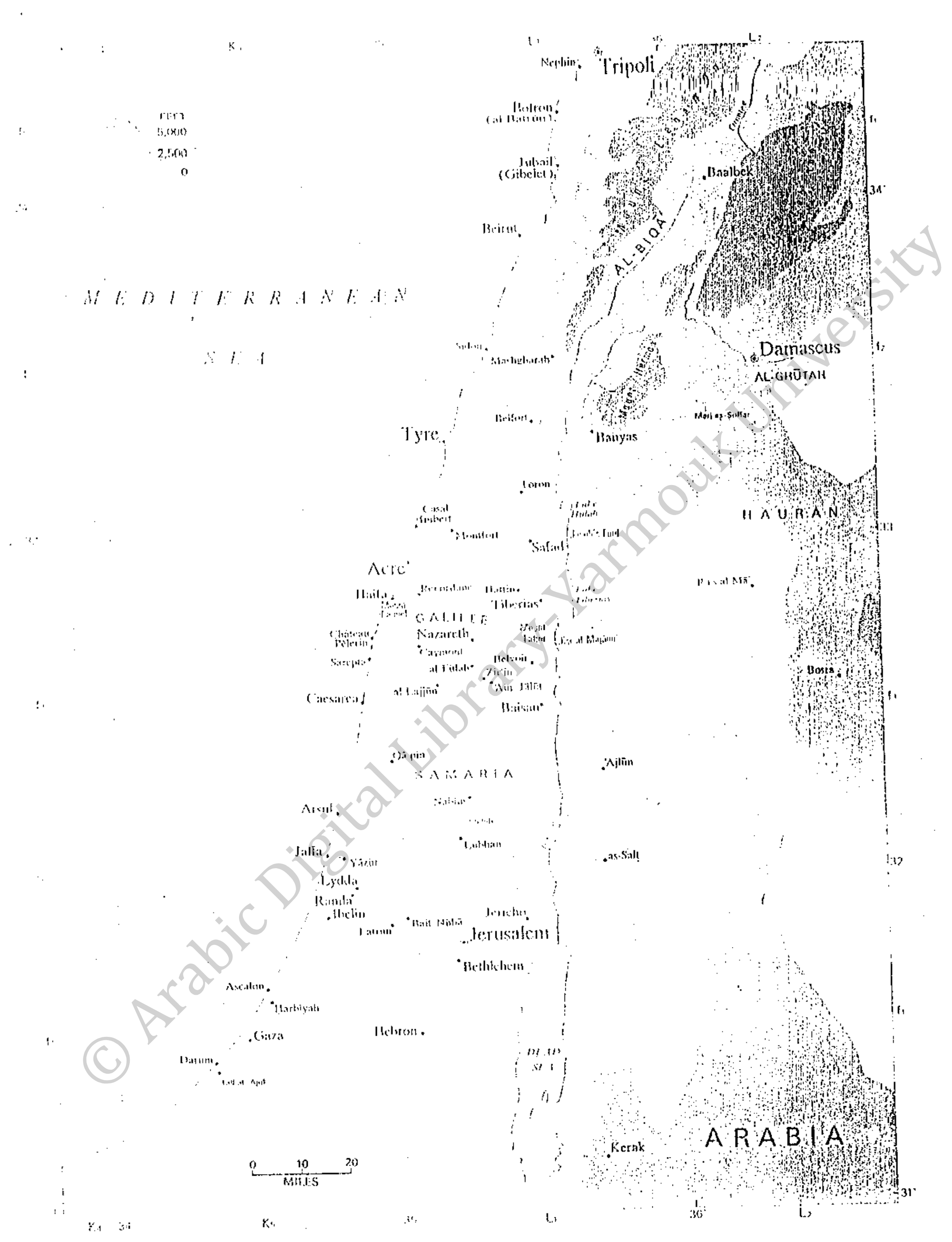
14. The Conquest by Saladin, 1185–1189 (*Map by the University of Wisconsin Cartographic Laboratory*)

Setton : Vol 2



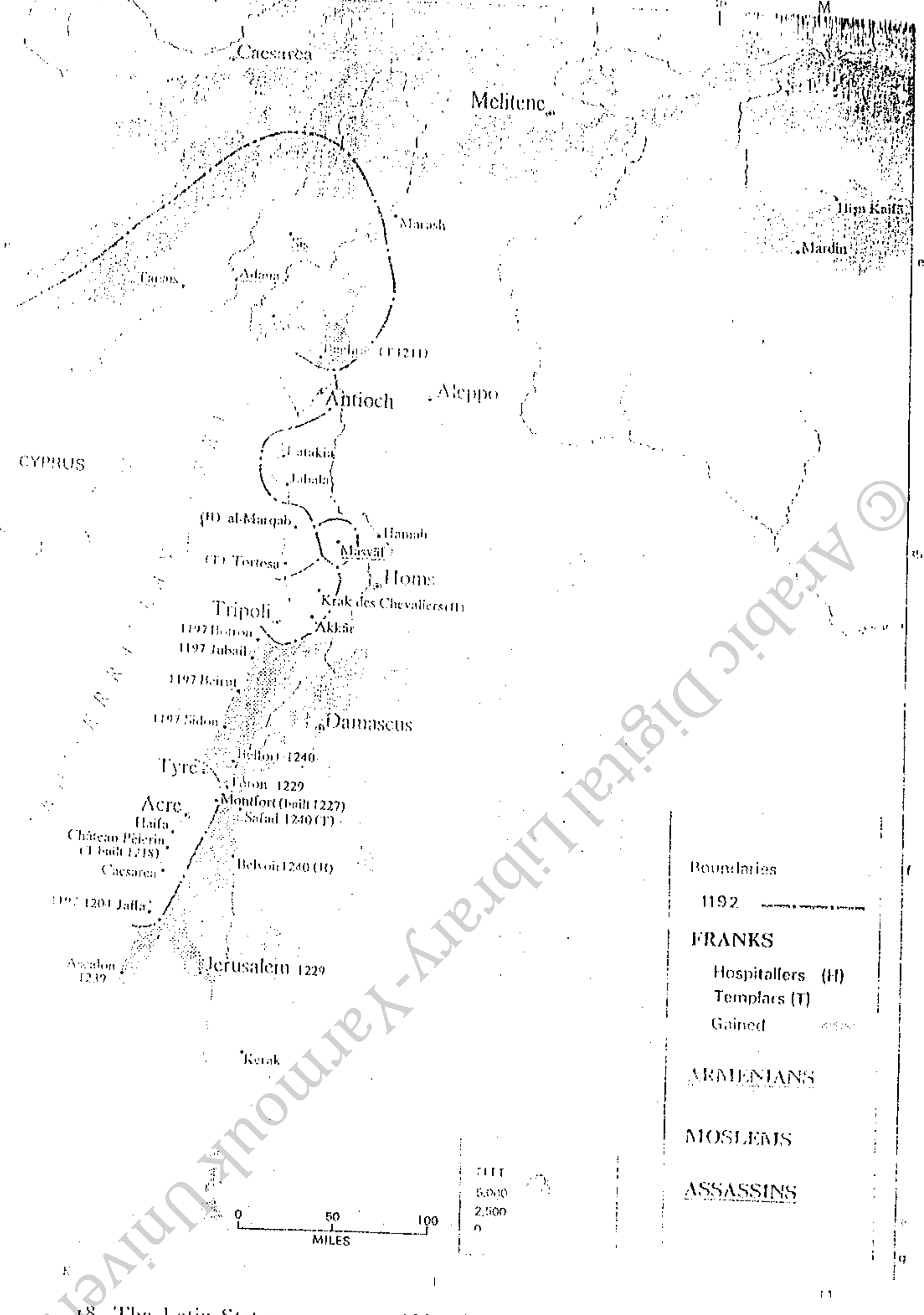
3. The Latin States in 1189 (*Map by the University of Wisconsin Cartographic Laboratory*)

Setton; Vol 4.



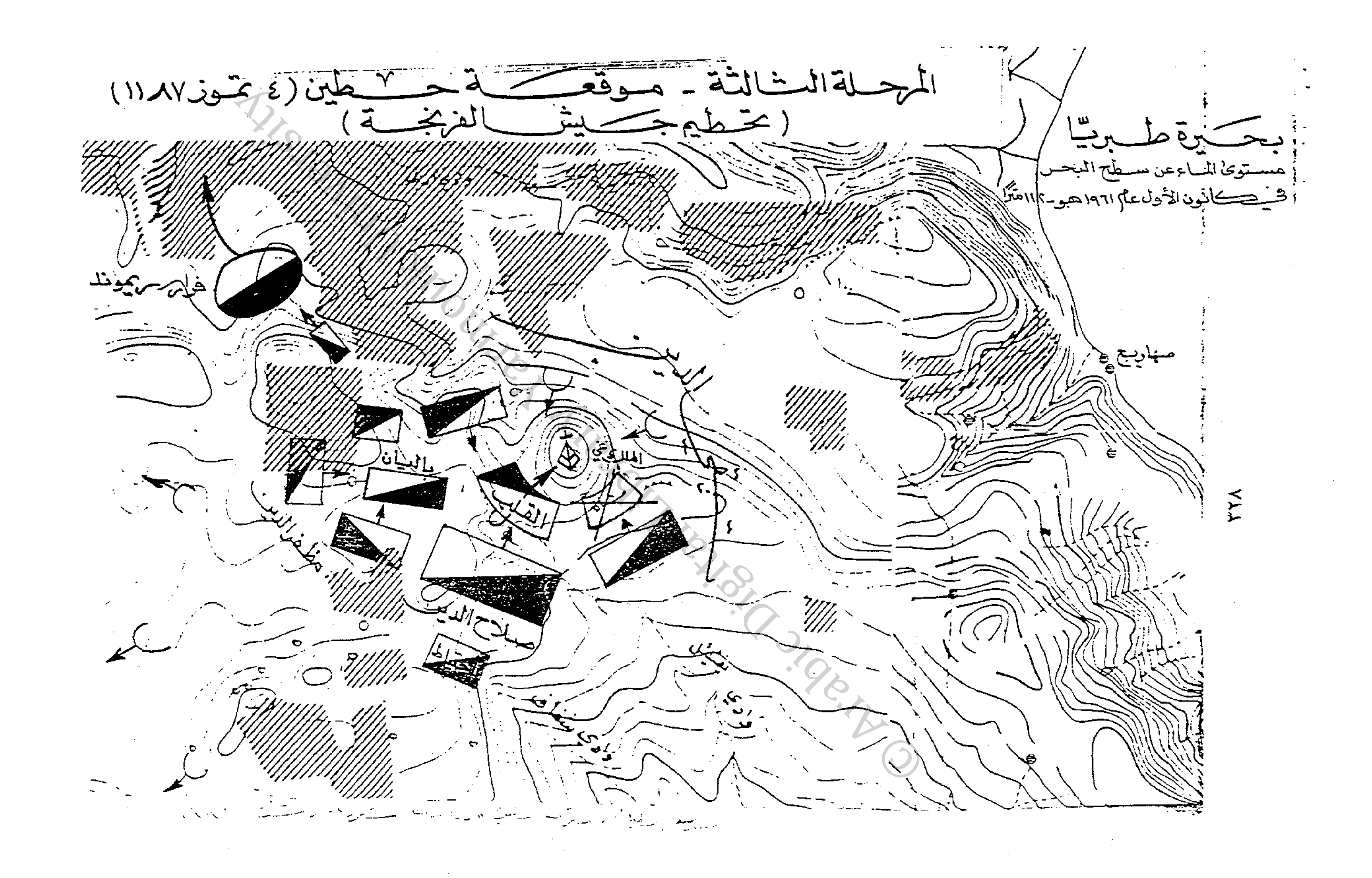
16. Palestine (*Map by the University of Wisconsin Cartographic Laboratory*)

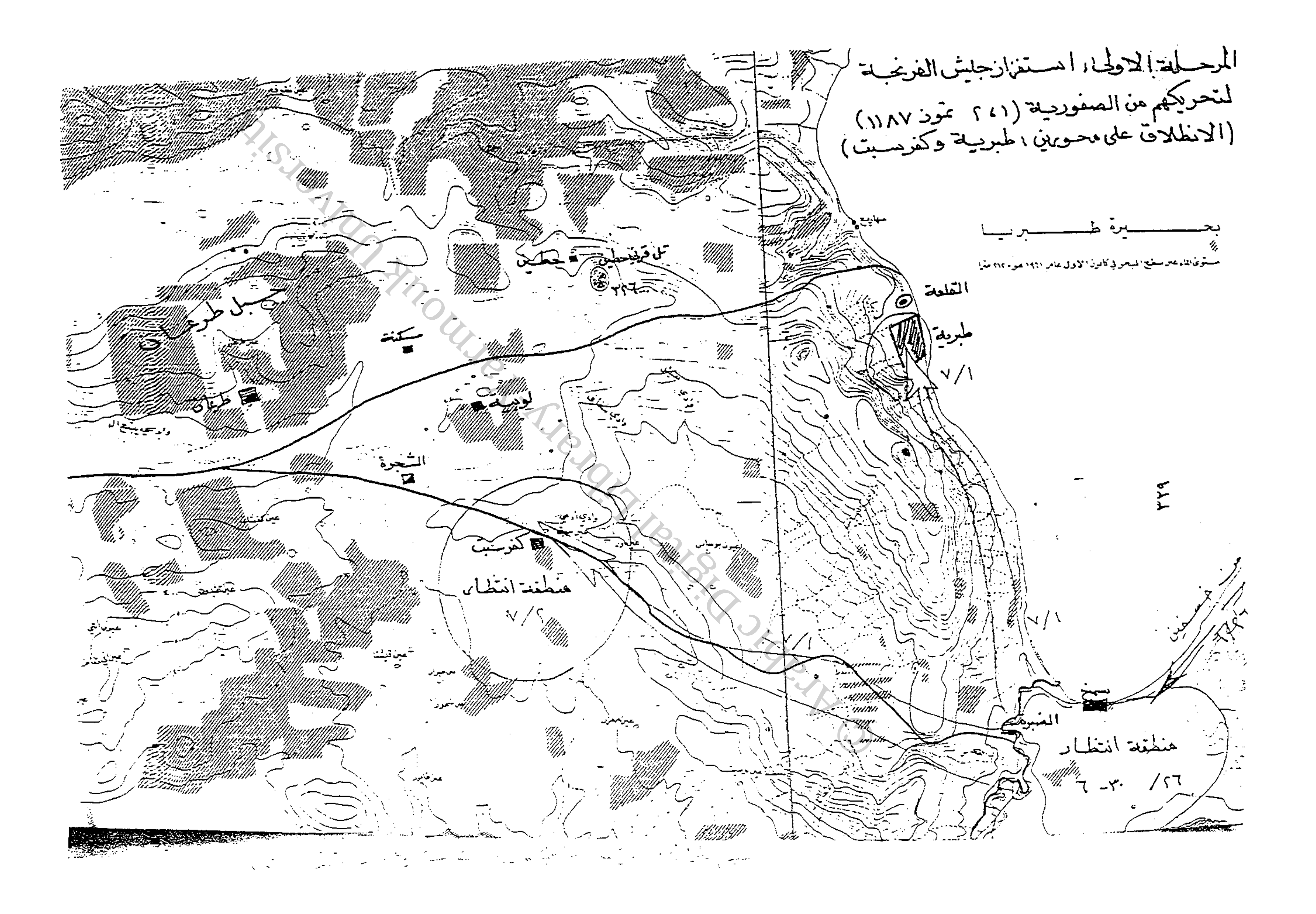
Setton, vol I.

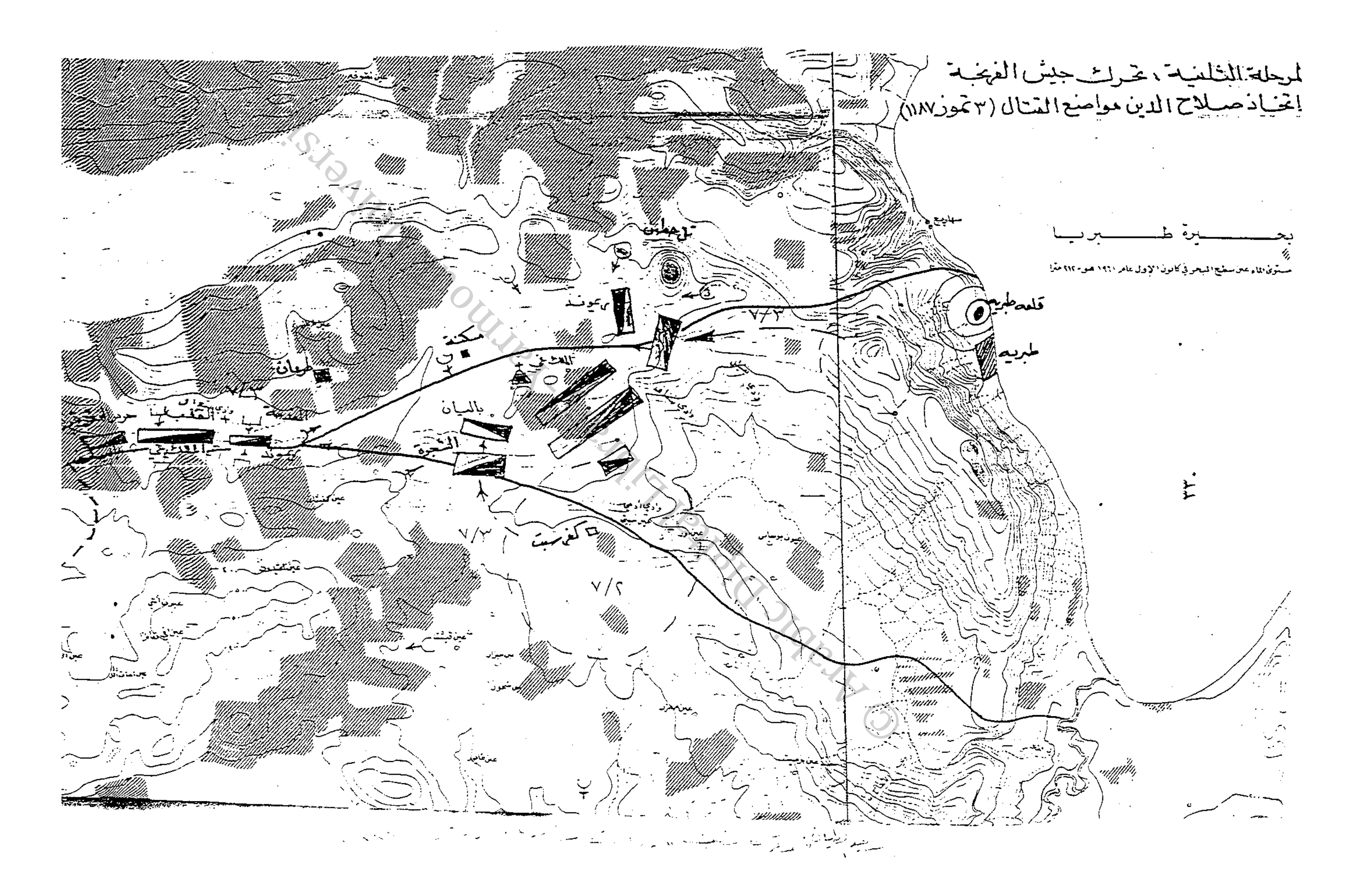


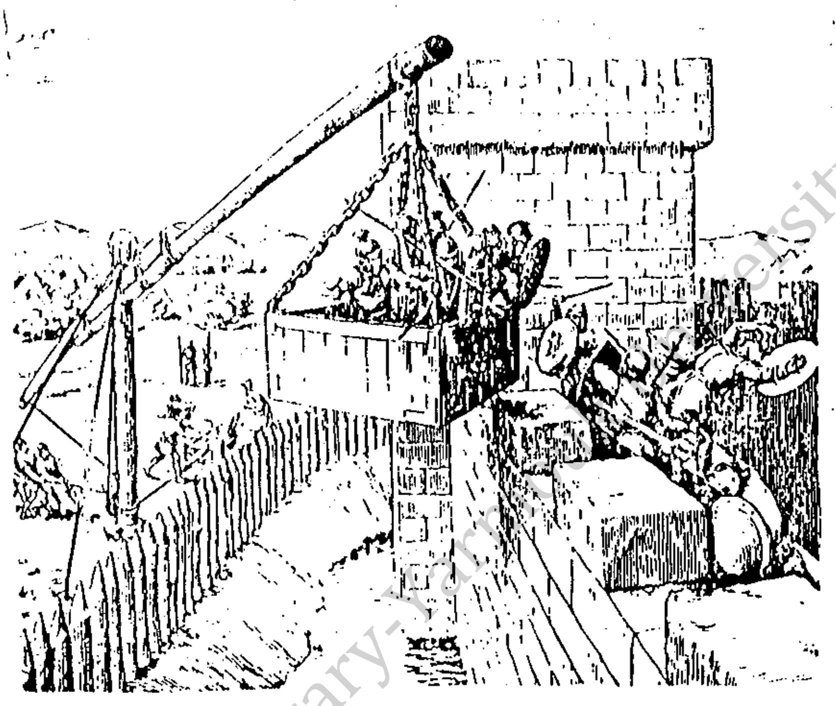
18. The Latin States, 1192–1243 (*Map by the University of Wisconsin Cartographic Laboratory*)

Setton, Vol 2.

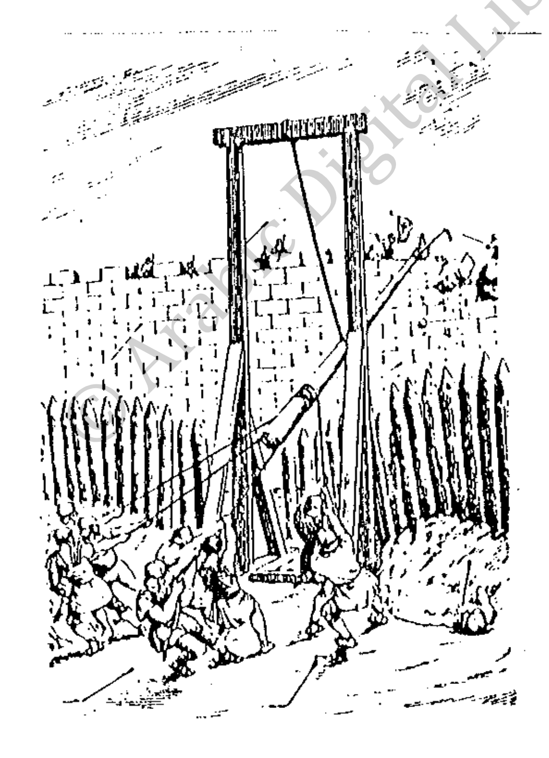

المرحلة الثالثة - موقعة حطين (٤ تموز ١١٨٧)
(تحطيم جيش الفرنجة)
بحيرة طبريّا
مستوى الماء عن سطح البحر
في كانون الأول عام ١٩٦١ هو -٢١١ مترًا
فرار ريموند
مهاريج
باليان
الملك
القلب
صلاح الدين
مظفر الدين


المرحلة الاولى : استفزاز جيش الفرنجة
لتحريكهم من الصفورية (١، ٢ تموز ١١٨٧)
(الانطلاق على محورين : طبرية وكفرسبت)
بحيرة طبريا
القلعة
طبرية
٧/١
تل قرن حطين
حطين
جبل طرعان
طرعان
مسكنة
لوبية
الشجرة
كفرسبت
منطقة انتظار
٧/٢
الصنبرة
سمخ
منطقة انتظار
٢٦/ ٣٠- ٦
مسكنة
وادي الحمام

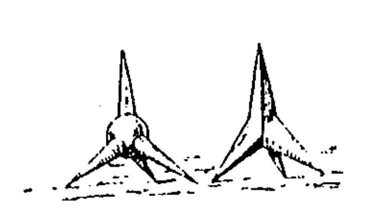

المرحلة الثالثة ، تحرك جيش الفرنجة
إتخاذ صلاح الدين مواضع القتال (٣ تموز ١١٨٧)
بحيرة طبريا
قلعة طبريه
طبريه
حطين
مسكنة
لوبيا
الشجرة
كفرسبت
بالميان
٧/٣
٧/٢



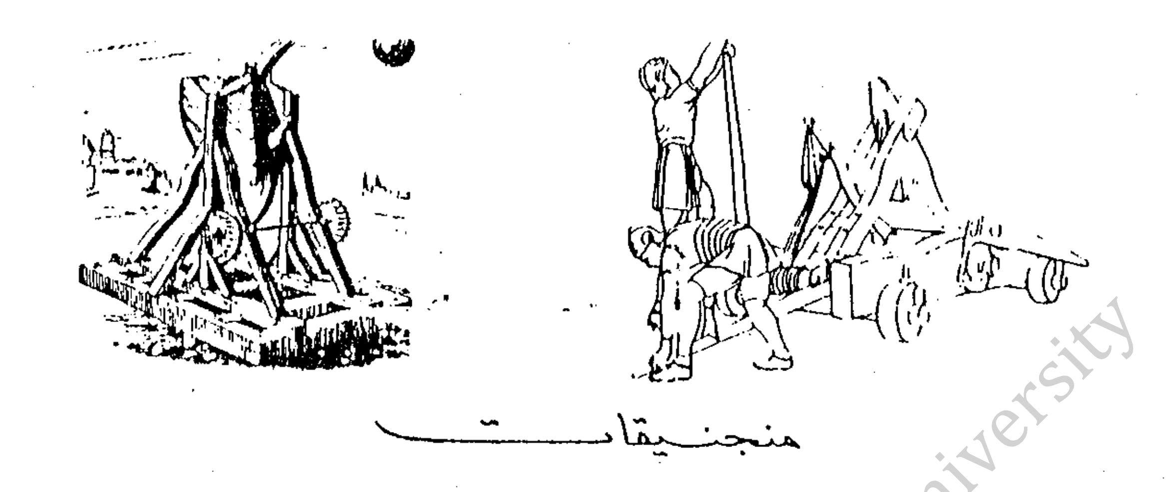
معد لاقتحام سور الحصن



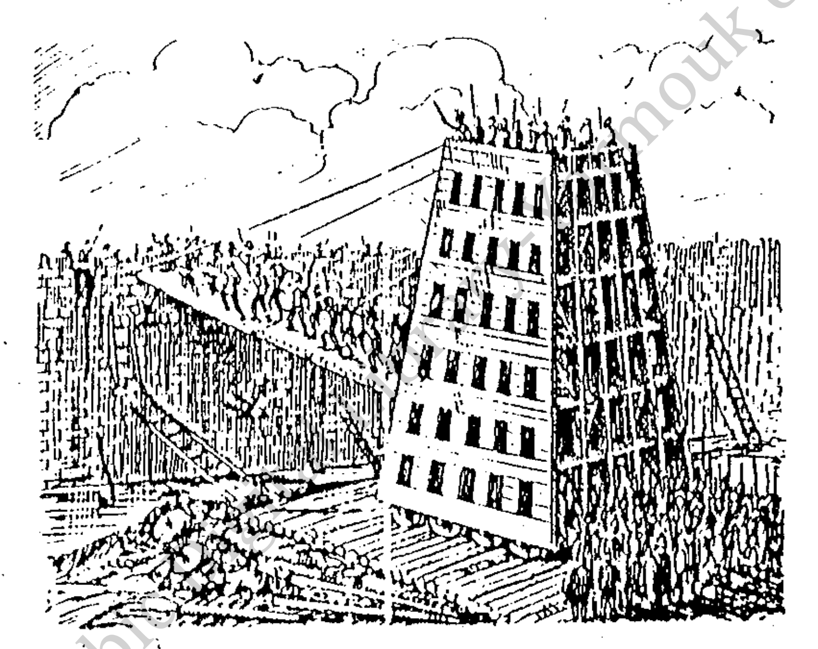
خطاف طويل لتخريب السور وفتح ثغرة



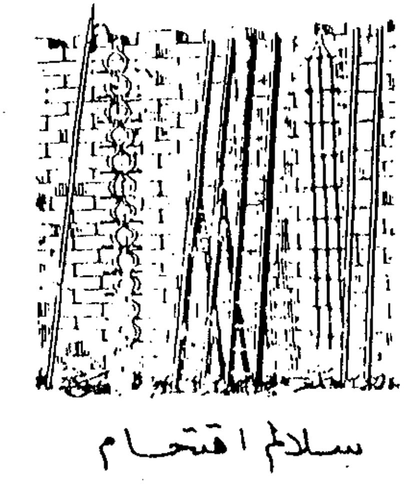
عوارض تنفيذية لاغلاق ممرات
اجبارية بوجه الفرسان كان
يسمى (حسك الحديد)



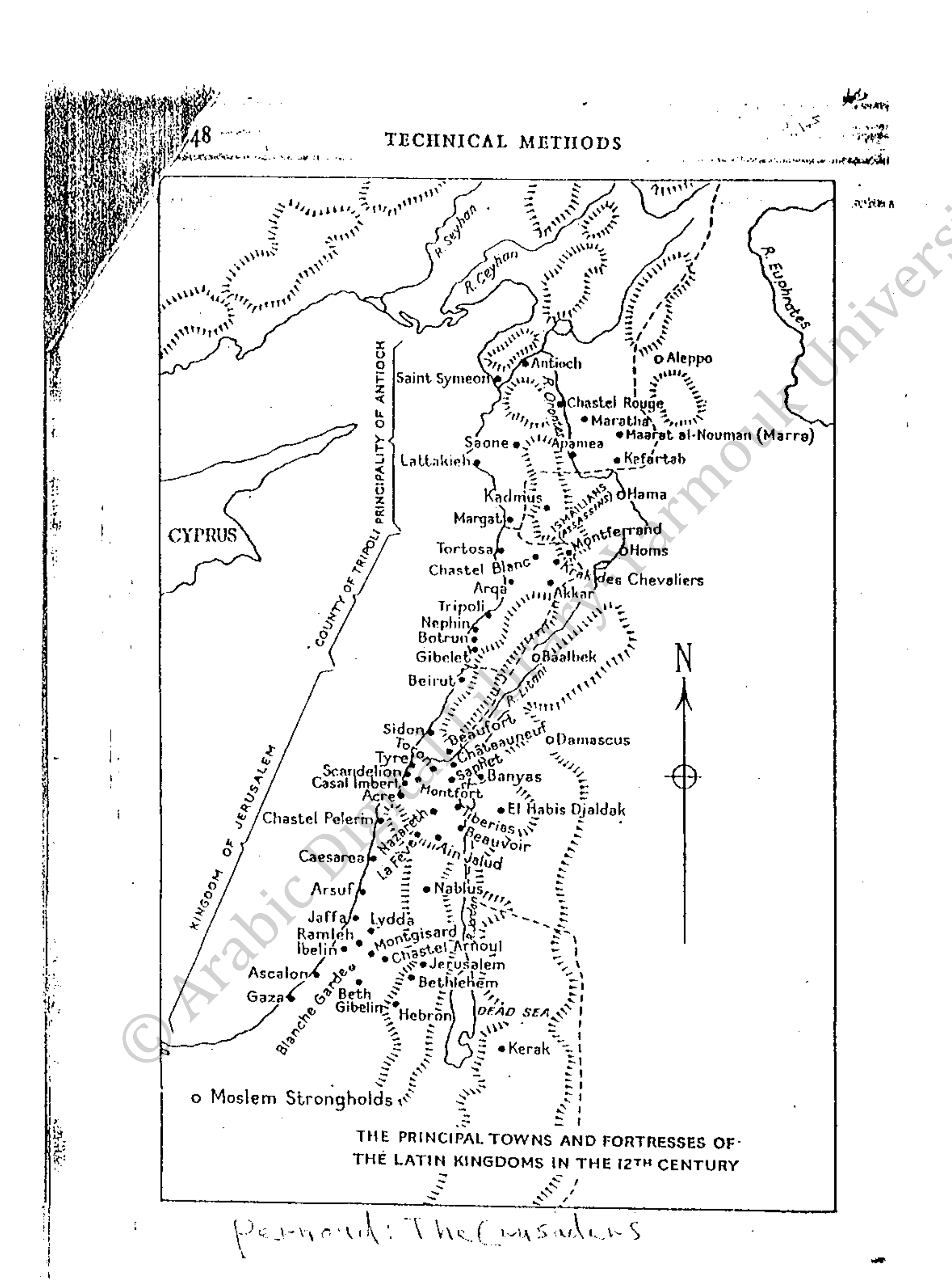
منجنيقات



دبابة (برج اقتحام قلاع)

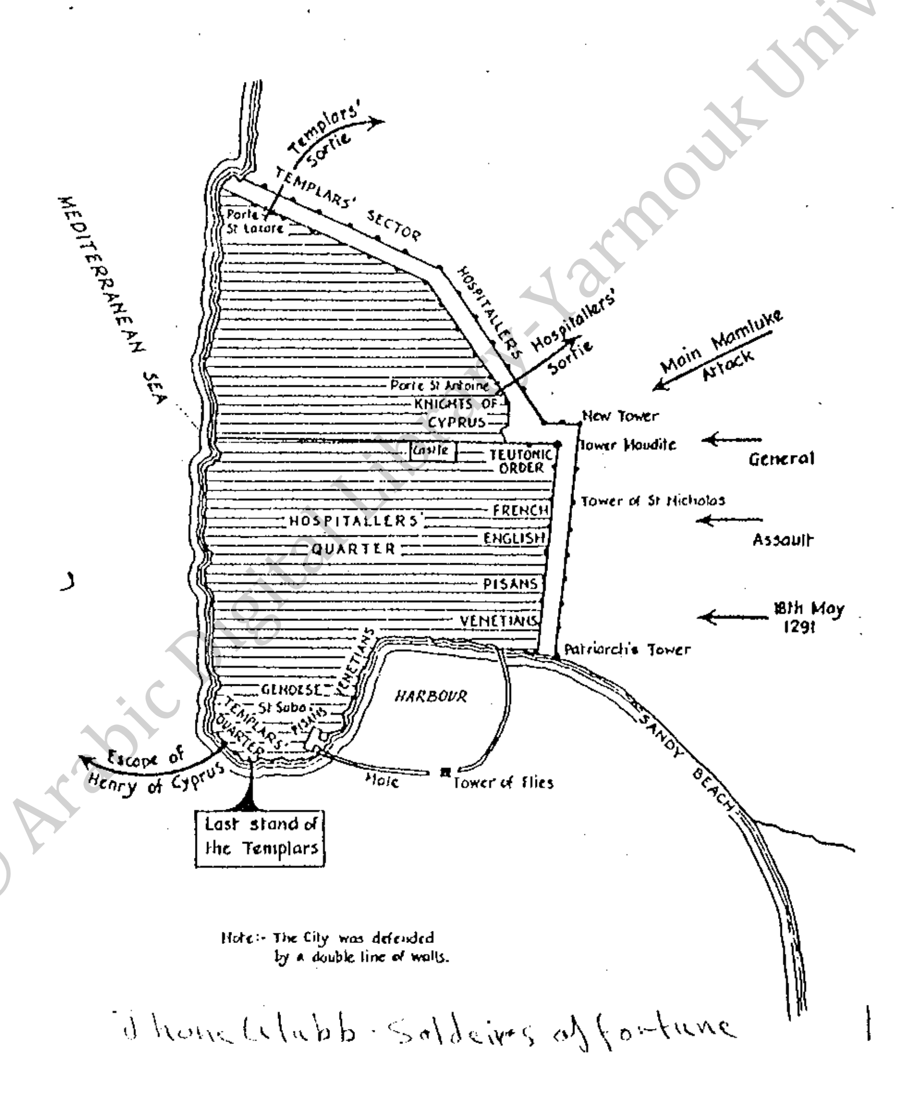


سلالم اقتحام

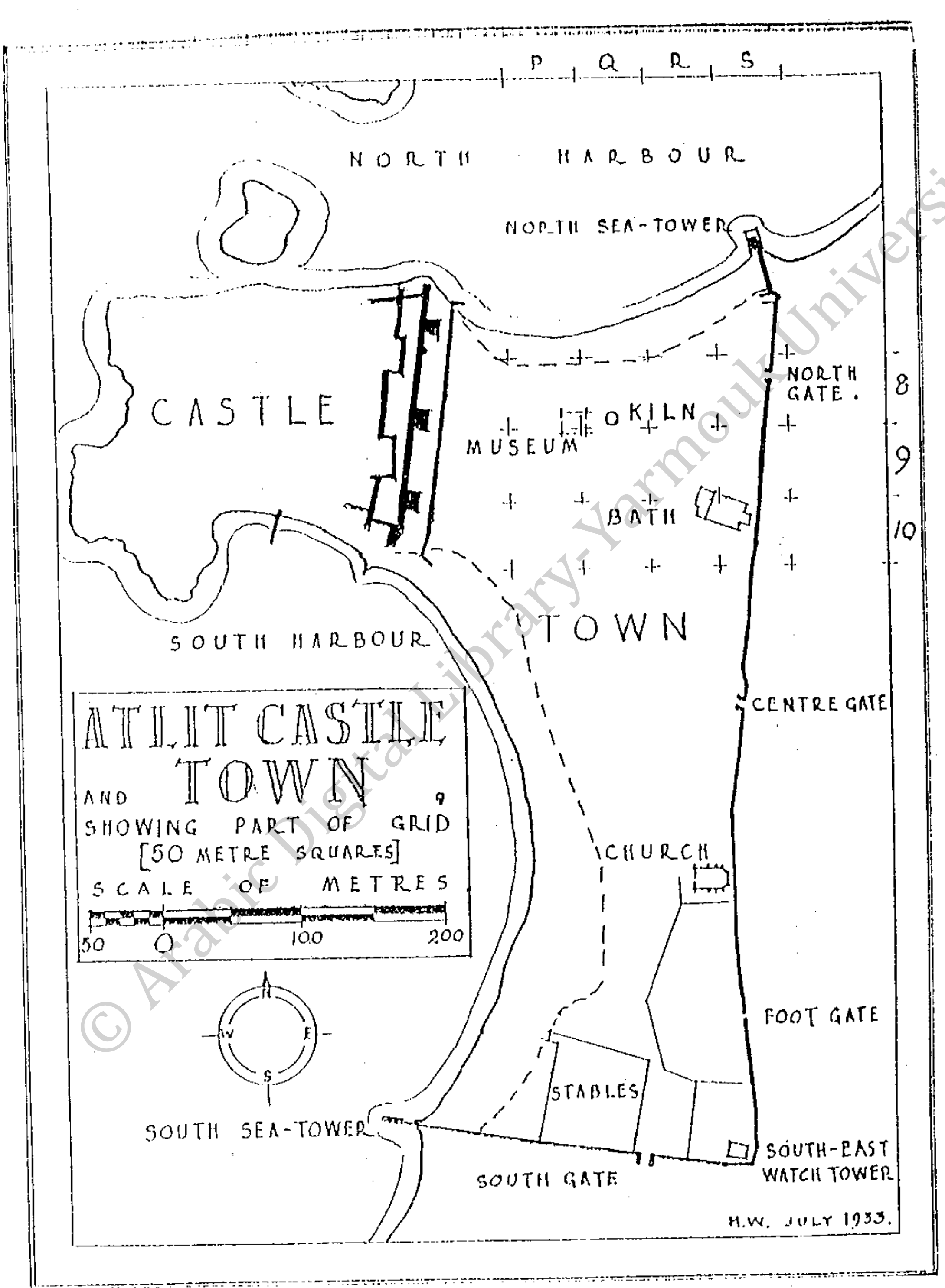


Pernoud: The Crusaders

THE FALL OF ACRE
18th May, 1291



Jhone Glubb · Soldeirs of fortune



C. N. Johns: Castle of Atlit.

Q.D.A.P

مقدموا الداوية في مملكة بيت المقدس

هيو باينز	١١١٨ - ١١٣٦
روبرت كراون	١١٣٦ - ١١٤٩
ايفراردي بار	١١٤٨ - ١١٤٩
برنارد تريميلاي	١١٥٢ - ١١٥٣
ايبرارد	١١٥٤
اندريه مونتبار	١١٥٥
برتراند بلانشفورت	١١٥٦ - ١١٦٨
فيليب ميللي	١١٦٩
اود سانت - اماند	١١٧٢ - ١١٧٩
ارمود تورّوج	١١٨٣ - ١١٨٤
جيرار ريدفورت	١١٨٦ - ١١٨٩
روبرت	١١٩١ - ١١٩٦
جيبرت هورال	١١٩٤
فيليب بليسيدس	١٢٠٤ - ١٢٠٩
وليم بويسّيه	١٢١٠ - ١٢١٩
بطرس مونتايجو	١٢٢٠ - ١٢٢٩
ارمان بريجورد	١٢٣٢ - ١٢٤٤
وليم سوناك	١٢٤٧ - ١٢٥٠
رينالد فيشيه	١٢٥٠ - ١٢٥٦
ثوماس بيرار	١٢٥٦ - ١٢٧٣
وليم بوجيه	١٢٧٣ - ١٢٩١

رنسيمان: الحروب الصليبية ج ٣

المقدمون العظام للمستشفى الالمانى بعد تحوله الى جماعة عسكرية :

- هنريش فالبوت (١١٨٩ - ١٢٠٠م/٥٩٤ - ٥٩٧هـ) .
- أتومن كربن (١٢٠٠ - ١٢٠٩م/٥٩٧ - ٦٠٥ هـ) .
- هنريش من توناوبارت (١٢٠٩ - ١٢١٠م/٦٠٥ - ٦٠٦هـ) .
- هرمان دى سالزا (١٢١٠ - ١٢٣٩م/٦٠٦ - ٦٣٦هـ) .
- كونراد اوف ثورنجيا (١٢٣٩ - ١٢٤٠م/٦٣٧ - ٦٣٨هـ) .
- جيرارد اوف مالبرج (١٢٤١ - ١٢٤٤م/٦٣٩ - ٦٤٢هـ) .
- هنريش اوف هوهنلوه (١٢٤٤ - ١٢٤٩م/٦٤٢ - ٦٤٧هـ) .
- جونيتر اوف فيللر سلبن (١٢٥٠ - ١٢٥٢م/٦٤٨ - ٦٥٠هـ) .
- بوبو اوف أوسترنا (١٢٥٢ - ١٢٥٦م/٦٥٠ - ٦٥٤هـ) .
- انوسانجرهاوزن (١٢٥٦ - ١٢٧٣م/٦٥٤ - ٦٧٢هـ) .
- هرتمان أوف هلدرنج (١٢٧٣ - ١٢٨٣م/٦٧٢ - ٦٨٢هـ) .
- بركارد اوف شفاندن (١٢٨٣ - ١٢٩١م/٦٨٢ - ٦٩٠هـ) .
- كونراد اوف فويختفاجن (١٢٩١ - ١٢٩٣م/٦٩٠ - ٦٩٢هـ) .

حسين عبد الوهاب : الفرسان التيوتون في العصور الوسطى .

رنسيمان: الحملات الصليبية ج ٣

مقدمو الاسبتارية بالارض المقدسة

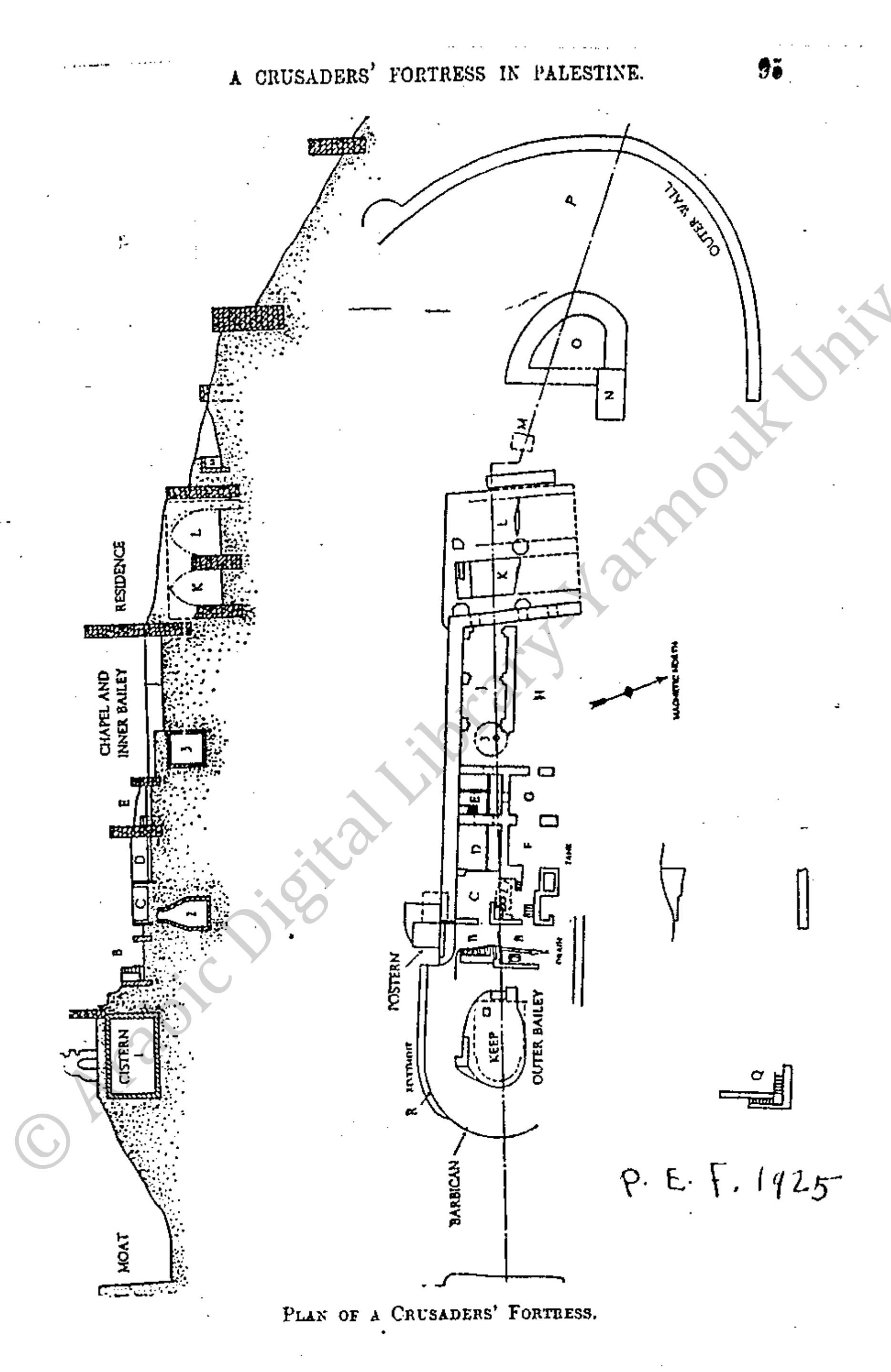
جيرار	١١٠٠ — ١١٢٠
ريموند دى بويه	١١٢٥ — ١١٥٨
اوجر بالين	١١٦٠ — ١١٦٢
جيلبرت اسايللي	١١٦٣ — ١١٧٠
كاسته دي موروا	١١٧٠ — ١١٧٢
جوبير	١١٧٣ — ١١٧٧
روجر دي مولين	١١٧٧ — ١١٨٧
ارمنجو اسبا	١١٨٨ — ١١٩٠
جارنييه (نابلس)	١١٩٠ — ١١٩٢
جفري دونجون	١١٩٢ — ١٢٠٤
الفونسو (البرتغال)	١٢٠٤ — ١٢٠٦
جفري	١٢٠٦ — ١٢٠٧
جارين مونتايجو	١٢٠٧ — ١٢٢٧
برتراند دي ثيبسي	١٢٣٠
جورين	١٢٣١ — ١٢٣٦
برتراند دي كومب	١٢٣٦ — ١٢٣٩
بطرس	١٢٤٠ — ١٢٤١
وليم شاتونيف	١٢٤٣ — ١٢٥٨
هيو ريفل	١٢٥٨ — ١٢٧٧
نقولا لورجن	١٢٧٧ — ١٢٨٣
يوحنا فيليه	١٢٨٥ - ١٢٩٢

 in P. E. F 1925.

The Plan of the Castle.

To understand the arrangements of the buildings it is necessary to refer to the accompanying sketch-plan. It is clear that the great (60 feet) square building, enclosing K and L, is the residence of the castle. The building J becomes the chapel (75 feet by 25 feet). The wall which forms the east boundary of the chapel and of the inner bailey (H) separated the residence of the castle from the soldiers' quarters and the outer bailey. The north wall of the inner bailey has fallen down the hill, perhaps during the siege, but apparently this enclosure was about 40 feet wide. In the soldiers' quarters several chambers, labelled in the plan B, C, D, E, F, and J, were cleared. To the east of these lay the outer bailey of the keep. The foundation of the latter was of great blocks of limestone, "which probably date from Roman times." "The front wall (barbican) of the outer bailey was pierced by a great gateway, furnished with bridges and drawbridges leading over the ditch or fosse, which in Palestine was doubtless dry, and used only as a trap against besiegers."

With regard to the various chambers, some indication of their respective uses were found. A well-preserved staircase from the keep was uncovered in chamber B. It was probably the kitchen of the garrison, as in it was found an array of great earthen vessels, some of them set up in order, all clearly for provisions. In a niche near the entrance stood a huge jar. In one corner of this chamber, which is over 20 feet square, there may have been a booth for drugs, for here were found a mortar and numerous fragments of small bottles and flasks. Chamber F was probably the workshop of the castle in which armour was repaired. Here were found blooms of iron, a crucible, various tools, hammers, chisels, fragments of chain-mail, pieces of bassinet, a bit of a visor of a great helm, scales of body defence and upwards of forty bits of armour. Also heads of arrows, darts, lances, spikes, all lying in a bed of charcoal, indicating that they had remained there since the burning of the castle. The room or vault K, which also has its arched ceiling intact, contained many interesting objects (illustrated in the pamphlet), such as two beautifully carved keystones, "a fragment of a painting on a wooden panel, bits of stuff, glass, pottery, and moulds for leather-work. From one corner in the south a chute projected refuse down the side of the hill."



PLAN OF A CRUSADERS' FORTRESS.

٦ – ملوك مملكة بيت المقدس الصليبيـــة

جودفري دي بايون (وصي على الدولة)	١٠٩٩ – ١١٠٠
بلدوين الأول (أول ملك متوج)	١١٠٠ – ١١١٨
بلدوين الثاني	١١١٧ – ١١٣١
فولك الأنجوى	١١٣١ – ١١٤٤
بلدوين الثالث	١١٤٤ – ١١٦٢
عمورى الأول	١١٦٢ – ١١٧٤
بلدوين الرابع	١١٧٤ – ١١٨٥
بلدوين الخامس	١١٨٥ – ١١٨٦
جاى اوزجنان	١١٨٦ – ١١٩٢
كونراد دى مونتفرات	١١٩٢
هنرى دى شامبنى	١١٩٢ – ١١٩٧
عمورى الثانى	١١٩٧ – ١٢٠٥
مارى (إبنة كونراد تحت الوصاية)	١٢٠٥ – ١٢١٠
حنا دى برين	١٢١٠ – ١٢٢٥
الإمبراطور فردريك الثانى	١٢٢٥ – ١٢٥٠
كونراد الرابع ملك ألمانيا (ملك إسمى)	١٢٥٠ – ١٢٥٤
كونرادين (ملك إسمى)	١٢٥٤ – ١٢٦٨
هيو الثالث ملك قبرس (الثانى)	١٢٦٩ – ١٢٨٤
حنا الأول ملك بيت المقدس	١٢٨٤ – ١٢٨٥
هنرى الثالث ملك قبرس (الثانى)	١٢٨٦ – ١٢٩١

عاشور: الحركة الصليبية ج ٢

الملخص

القلاع في شمال فلسطين في فترة الصراع الفرنجي الإسلامي (٤٩٢-٦٩١هـ/١٠٩٩-١٢٩١م)

"دراسة تاريخية استراتيجية"

إعداد

طالب عبد الفتاح الصوافي

اشراف

الأستاذ الدكتور محمد عيسى صالحية

جاءت هذ الدراسة في مقدمة وخمسة فصول وخاتمة، تحدثت في الفصل الأول عن العوامل والأسباب التي ساعدت الغزاة الفرنج في الوصول الى بلاد الشام، وسيطرتهم على الجزء الساحلي منه بما فيه معظم أراضي فلسطين. وعرضت دور ملوك بيت المقدس في تأسيس المملكة ثم توسيعها على حساب الأراضي الإسلامية المحيطة بفلسطين في الشمال والشرق بحيث امتدت من الحدود المصرية جنوباً وحتى طرابلس الشام شمالاً.

وتناولت في الفصل الثاني السياسة التي اتبعها ملوك بيت المقدس تجاه السكان الأصليين (المحليين) ومن ثم سياستهم الدفاعية عن المملكة التي تمثلت باحتلال المزيد من الأرض وبناء العديد من القلاع والحصون وذلك خوفاً من الهجمات الإسلامية المضادة. وتعرضت الى دور ومشاركة المنظمات العسكرية (Military Orders) الاسبتاريه والداوية والتيوتون في تلك الجهود العسكرية. كما بينت أثر اختيار الموقع الجغرافي والاستراتيجي على الدور الذي تقوم به القلاع.

أما الفصل الثالث فقد خصصته للحديث عن الناحية المعمارية المتعلقة بالقلاع فبدأت بتعريف القلعة وتطور بنائها والأسباب التي حدت بالمسلمين

والفرنج لبناء تلك المنشآت العسكرية. والتأثيرات الإسلامية على العمارة العسكرية الفرنجية مع تبيان بعض الأمور الأخرى المتعلقة بالقلاع كالاتصال فيما بينها وقت الأزمات وكيفية ادارتها. وأوضحنا وجهات نظر بعض المؤرخين في بيان أنواعها وأقسامها، كما أشرت الى طبيعة الحياة في داخل القلعة وكيف أنها ساهمت في اثراء المجهود الحربي للفرنج عن طريق توفير كل سبل الراحة والعيش لساكنيها من فرسان وغيرهم، لتقوم بدورها على أفضل وجه.

وجاء الفصل الرابع من هذه الدراسة للحديث عن الدور التاريخي والعسكري الذي لعبته القلاع الفرنجية في شمال فلسطين، فبدأت بتعريف أسمائها وطبيعة موقعها وأهميته العسكرية والاقتصادية، بالإضافة الى بناء كل قلعة ودورها في الصراع الإسلامي الفرنجي حتى تحريرها الأول والثاني. ودور الملوك وجماعات الفرسان (Military orders) وجهودهم في اعادة تحصينها بسبب الدمار الذي تعرضت له طوال فترة التواجد الفرنجي في فلسطين، كما اشرت الى دور القلاع الشمالية في المجهود العسكري الفرنجي في معاركهم مع المسلمين.

أما الفصل الخامس فقد خصصته للحديث عن الجهود العسكرية التي بذلها الأيوبيون (Ayyubids) ومن بعدهم المماليك (Mamlukes) للتخلص من الوجود الفرنجي في فلسطين بشكل خاص والشام عامة. وخاصة حملاتهم على القلاع. فقد قام صلاح الدين بحملات ضخمة على القلاع حتى حررها بعد معركة حطين.

ثم تعرضت لدور الظاهر بيبرس الذي سار على خطى صلاح الدين واستطاع خلال فترة لم تتجاوز العشرة سنين من تحرير معظم القلاع في فلسطين وأخيراً تحدثت عن دور خلفاء الظاهر بيبرس فتح بقية القلاع بحيث لم يأت العام ٦٩٠هـ/١٢٩١م إلا وأصبحت كل قلاع بلاد الشام ومنها فلسطين خالية من أي وجود فرنجي.

Abstract

Castles in North of Palestine During The Period Of Islamic - Franks Conflict (492-691 A.H/ 1099- 1291 A.D)

"A Historic Strategic Study"

By

Taleb Al-sawafi

Bachelor of History- Berziet University 1992

Supervised By

Prof. Dr. Mohammed Essa Salheih

The present study includes an introduction, five chapters and a conclusion. Chapter one talks about the reasons and the factors helped the Francks reach to Bilad Al-sha'm and dominate its coastal part, including most of the lands of Palestine. The chapter also presents the role of the kings of Latin Kingdom in establishing and expanding the kingdom at the expense of the Islamic lands surrounding Palestine from the north and form the east till it extended Egyption boardrs from south to Tropoli in the north.

Chapter two discusses the policy pursued by the kings of latin kingdom towards the native (local) residents. It discusses the kings policy of defending the kingdom which is shown through occupying more lands and buildings more castles and fortreses to avoid anti-Islamic attacks. The chapter describes the role of the Military orders such as Hospitalers, Templers and Teutonics, and thier real participation in that policy of defense, and it also shows the influence of choosing the Geographic and Strategic site upon the role of the castles.

Chpater three is devoted to talking about some aspects regarding the castles. It presents adefinition of the castle and the development of its building, and talks about the reasons which made Muslims and Franks build these castles. In addition, the chapter talkes the Islamic effects upon the franks military building which is represented through the building of the castles. The chapter also discusses other aspects regarding castles such as communication between castles in time of crisis, the way of directing them, and some views of historians concerning types and parts of castles. Moreover, the chapter exhibits the nature of life inside the castle and its contribution in enhancing the Franks military efforts by providing security and comfortable living to its residents so that they can carry out their role in a best way.

Chapter Four covers the historical and military role of the Frank castles in north Palestine. It gives a defenition castles' names, and shows the nature and the military, economic importantance of their site. Besides, the chapter discusses the role played by castles in the Frank-Islamic conflict untill their first and second liberation, the efforts the role of the Military Orders in refartifying the castles after their destruction during the Franks presence in Palestine and the role of north castles in enhancing the Frank military efforts in their battles against Muslims.

Chapter Five is devoted to talking about the military efforts excerted by Ayyibids and Mamluks to get rid of the Franks presence in Palestine in particular and in Bilad Al -Sha'm in general. The chapter also talks about the Ayyubids, and Mamluks, campaigns on the castles especially those huge

campaigns made by Salah Al-Din Al Ayyubi until he liberated these castles after the battle of Hittin. It also presents the role of Al Zaher Baibers who followed salah Al-Din's footsteps , and manged during a short period of time which does not exceed ten years to liberate most of the castles in palestine. Finally, the chapter talks about the role of caliphs who came after Al-Zaher baibers in liberating the rest of the castles till they managed by the year 690 A.H/1291 A.D. to liberate all the castles of Bilad Al-Sham including Palestine from the presence of Franks.